جامعة أم القرى
VISION رؤية 2030
المملكة العربية السعودية
KINGDOM OF SAUDI ARABIA

مجلة علوم اللغات و آدابها

مجلة علمية محكمة نصف سنوية

العدد (٢٣)

رجب ١٤٤٠هـ
مارس ٢٠١٩ م

ردمد: p-١٦٥٨-٤٦٩٤
ردمد: e-١٦٥٨-٨١٢٦

البحوث العربية

- بلاغةُ المفردة القرآنية عنْد الإمام البَسيلي في كتابه (نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد) عرضًا ودراسة. — د. محمد راشد الصبحي
- التَّحْليل النَّحْوِي لِتَرِكِيب (أيّ) وَصْلَة النّداء. — د. رياض رزق الله أبو هولا - د. أحمد حسن الحسن
- ابن الفخار محمد بن الحسن الحضرمي المالقي (ت٥٣٩هـ) حياته وما تبقى من شعره ونثره "جمع وتوثيق ودراسة". — د. أزاد الباجلاني
- أثر تعليم اللغة الأجنبية في تعلم اللغة العربية وتعليمها في مرحلة الطفولة "دراسة لسانية نفسية تطبيقية". — د. وليد أحمد محمود العناتي
- علاقة المطالع بالمقاصد في القصيدة المادحة عند ابن زيدون. — د. فوزية عبدالله العقيلي
- التحليل النقدي للخطاب ونقاده "روث بريز". — ترجمة: د. أحمد الملاخ.

English research

- The long-term effects of study-abroad experience during childhood on English proficiency.
D. Kholoud A. Al-Thubaiti

تصميم و إخراج
مطبعة جامعة أم القرى

جامعة أم القرى - مجلة علوم اللغات و آدابها
Umm Al- Qura University Journal of Sciences & Literature

مجلة جامعة أم القرى
لعلوم اللغات وآدابها

مجلة علمية محكَّمة نصف سنوية

العدد الثالث والعشرون

رجب ١٤٤٠ هـ - مارس ٢٠١٩ م

قواعد النشر

تُقبل الأعمال المقدمة للنشر في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها حسب المواصفات التالية:

أ. يُقدم صاحب البحث المادة العلمية، ويُعَبَّأ النموذج الخاص بالنشر.

ب. يُطبع البحث على برنامج Microsoft Word بالخط العربي التقليدي Traditional Arabic بنط ١٦ بمسافتين على وجه واحد؛ على ألاَّ يزيد حجم البحث عن خمسين صفحة، بما فيها المراجع والملاحق والجداول.

ج. تُرقم صفحات البحث ترقيما متسلسلاً، بما في ذلك الجداول والأشكال وقائمة المراجع، وتُطبع الجداول والصور والأشكال واللوحات على صفحات مستقلة، مع تحديد أماكن ظهورها في المتن.

د. يُرفق ملخَّصان بالعربية والإنجليزية لجميع البحوث، بما لا يزيد عن مائتي (٢٠٠) كلمة.

هـ. يشار إلى جميع الإحالات والتعليقات والهوامش آخر البحث، بالإشارة إلى عنوان الكتاب، واسم المؤلف، والصفحة، عند الاقتباس المباشر. وترقم هذه الإحالات والتعليقات والهوامش تسلسليًا من بداية البحث حتى نهايته، وتكون مكتوبة بطريقة آلية وليست يدوية.

و. تُعرض المصادر والمراجع في نهاية البحث، على أن تُرتَّب هجائياً حسب اسم المؤلف كاملاً، متبوعًا بعنوان الكتاب أو المقال، ثم رقم الطبعة، فاسم الناشر (في حالة الكتاب) أو اسم المجلة (في حالة المقال)، ثم مكان النشر (في حالة الكتاب)، وتاريخ النشر. أما في حالة المقال فيضاف رقم المجلة، أو السنة، والعدد، وأرقام الصفحات.

ز. يُمنح الباحث نسختين من العدد الذي صدر فيه بحثه.

حقوق الطبع: تُعَبِّر المواد المقدمة للنشر عن آراء مؤلفيها، ويتحمل أصحابها مسؤولية صحة المعلومات والاستنتاجات، ودقتها. وجميع حقوق الطبع محفوظة للناشر(جامعة أم القرى)، وعند قبول البحث للنشر يتم تحويل ملكية النشر من المؤلف إلى المجلة.

التواصل مع المجلة: ترسل جميع الأعمال والاستفسارات مباشرة إلى رئيس تحرير مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها على البريد الإلكتروني: (jll@uqu.edu.sa)

أو إلى/ إدارة مجلات الجامعة على البريد الإلكتروني: (usj@uqu.edu.sa).

الاشتراكات: يتم التنسيق بخصوص الاشتراكات مع إدارة المجلات العلمية بالجامعة.

رقم الإيداع (١٤٣٠/٢٣٥٩) وتاريخ (١٤٣٠/٣/١٨هـ) ردمد: ١٦٥٨/٤٦٩٤ (النسخة الورقية)

رقم الإيداع (٤٤٣٧) وتاريخ (١٤٤٠/٥/١٧هـ) ردمد: ١٦٥٨/٨١٢٦ (النسخة الإلكترونية)

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة جامعة أم القرى

لعلوم اللغات وآدابها

مجلة دورية علمية محكمة نصف سنوية، تصدر عن جامعة أم القرى، لنشر الأبحاث العلمية الأصيلة في مجال اللغات وآدابها، وفروعها المختلفة ذات الصبغة اللغوية، وفي أطرها النظرية التطبيقية. وترحب المجلة بنشر جميع ما له علاقة بما سبق، من مراجعات كتب، وتقارير أبحاث مُموَّلة، وتوصيات مؤتمرات وندوات وأنشطة علمية أخرى، وملخصات رسائل جامعية، باللغتين العربية والإنجليزية، والتي لم يسبق نشرها، أو تقديمها للنشر لدى جهات أخرى، وذلك بعد مراجعتها من قِبَل هيئة التحرير، وتحكيمها من الفاحصين المتخصصين.

المشرف العام

أ.د. عبد الله بن عمر بافيل

مدير الجامعة

نائب المشرف العام

د. ثامر بن حمدان الحربي

وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

رئيس هيئة التحرير

أ.د. عبدالرحمن بن حسن العارف

هيئة التحرير

أ.د. عبدالله بن سرحان القرني — أ.د. ظافر بن غرمان العمري

أ.د. ياسين محمد أبو الهيجاء — د. عبدالمجيد الطيب عمر

د. سعدة بنت طفيف الدعدي

أعضاء الهيئة الاستشارية للمجلة

١- أ. د. إبراهيم بن سليمان الشمسان (أستاذ النحو والصرف بجامعة الملك سعود)

٢- أ.د. سعد مصلوح (أستاذ اللسانيات بكلية الآداب بجامعة الكويت)

٣- أ.د. عيّاد بن عيد الثبيتي (أستاذ النحو والصرف بجامعة أم القرى)

٤- أ.د. محمد محمد أبو موسى (أستاذ البلاغة بجامعة الأزهر بالقاهرة)

٥- أ.د. محمود إسماعيل صالح (أستاذ علم اللغة التطبيقي متعاون بقسم اللغة الإنجليزية كلية الآداب - جامعة الملك سعود)

٦- أ.د. ناصر بن سعد الرشيد (أستاذ الأدب العربي بجامعة الملك سعود)

٧- أ.د. نوال بنت إبراهيم الحلوة (أستاذ اللغويات بكلية الآداب جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن)

٨- أ.د. وليد أحمد العناتي (مدير برنامج نون والقلم لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها)

التاريخ: 27-12-2018
الرقم: L18/0171 IF

سعادة أ. د. رئيس تحرير مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات و آدابها المحترم
جامعة أم القرى / المملكة العربية السعودية
تحية طيبة وبعد،،،

نتقدم إليكم بفائق التحية والتقدير، و تهديكم أطيب التحيات وأسمى الأماني.
يسر قاعدة البيانات العربية الرقمية " **معرفة** " للمحتوى العلمي إعلامكم بأنها قد أطلقت **معامل التأثير و الاستشهاد العربي** " **ارسيف Arcif" Arab Citation & Impact Factor**. في 16 ديسمبر 2018، في عمّان – المملكة الأردنية الهاشمية.

وكما هو معلوم أن معامل التأثير لمجلة علمية (أكاديمية) أو بحثية، هو مقياس يستخدم للإشارة للأهمية النسبية للمجلات العلمية المحكمة و تأثيرها ضمن مجال حقلها، و يعكس مدى ارتباط الأبحاث الجديدة بالأبحاث التي نشرت سابقاً في تلك المجلة، والاستشهاد بها ضمن فترة زمنية معينة.

ومن الجدير بالذكر بأن قاعدة "**معرفة**" قامت بالعمل على جمع ودراسة بيانات ما يزيد عن **4000** عنوان مجلة عربية علمية أو بحثية في مختلف التخصصات، منشورة باللغة العربية، أو الإنكليزية أو الفرنسية أو متعددة اللغات، والصادرة عن أكثر من **1400** هيئة علمية أو بحثية في **20** دولة عربية، (باستثناء دولة جيبوتي وجزر القمر لعدم توفر البيانات) . ونجح منها **362** مجلة علمية فقط لتكون معتمدة ضمن معايير معامل التأثير و الاستشهاد العربي " **ارسيف Arcif**" في تقرير **عام 2018**.

وبهذا الخصوص يسر قاعدة بيانات "**معرفة**" إعلامكم بأن **<u>مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات و آدابها</u>** الصادرة عن **<u>جامعة أم القرى</u>**، **قد نجحت بالحصول على معايير اعتماد معامل التأثير و الاستشهاد العربي** " **ارسيف Arcif**" المتوافقة مع المعايير العالمية، والتي يبلغ عددها ما يزيد عن (31 معياراً)، وللاطلاع على هذه المعايير يمكنكم الدخول إلى الرابط التالي: http://e-marefa.net/arcif/criteria/

و كان معامل تأثير " **ارسيف Arcif** " لمجلتكم لسنة 2018 **<u>(0.0455)</u>** ، و حصلت على **<u>المرتبة الثالثة</u>** في **تخصص** الآداب.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير

أ.د. سامي الخزندار
رئيس مبادرة معامل التأثير و الاستشهاد العربي
" **ارسيف Arcif**"

المحتويات

أولاً: البحوث باللغة العربية:

- بلاغـةُ المفـردة القرآنيـة عنْـد الإمـام البَسـيلي فـي كتابـه (نكـتٌ وتنبيهـاتٌ فـي تفسـير القـرآن المجيـد) عرضًـا ودراسـةً.

د. محمد بن راشد حمد الصبحي ١٣- ٥٦

- التّحْلِيل النّحْوِي لِتَركِيب (أيّ) وَصْلَة النّداء.

د. رياض رزق الله أبو هولا ٥٧- ١١١
د. أحمد حسن الحسن

- ابـن الفخـار محمـد بـن الحسـن الحضرمـي المالقـي (ت٥٣٩هـ) حياتـه ومـا تبقـى مـن شـعره ونثـره "جمـعٌ وتوثيـقٌ ودراسـةٌ".

د. أزاد محمد كريم الباجلاني ١١٣- ١٦٠

- أثر تعليم اللغة الأجنبية في تعلم اللغة العربية وتعليمها في مرحلة الطفولة "دراسةٌ لسانيةٌ نفسيةٌ تطبيقيةٌ".

أ.د. وليد أحمد محمود العناتي ١٦١- ٢٠١

- علاقة المطالع بالمقاصد في القصيدة المادحة عند ابن زيدون.

د. فوزية عبدالله العقيلي ٢٠٣- ٢٩٠

- التحليـل النقدي للخطاب ونقاده "روث بريز".

ترجمة: د. امحمد الملاخ ٢٩١- ٣٦٥

ثانياً: البحوث باللغة الإنجليزية:

- The long-term effects of study-abroad experience during childhood on English proficiency.

Dr. Kholoud A. Al-Thubaiti 366- 418

بلاغـة المفـردة القرآنية عند الإمام البَسـيلي
فـي كتابـه (نكـتٌ وتنبيهاتٌ في تفسـير القـرآن المجيد)
عرضًا ودراسةً

د. محمد بن راشد حمد الصبحي
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد
كلية اللّغة العربيّة - الجامعة الإسلامية

ورد البحث في ٦/ ٢/ ١٤٤٠هـ وقُبل للنشر في ٧/ ٦/ ١٤٤٠هـ

بلاغةُ المفردة القرآنية عند الإمام البَسيلي في كتابه (نكتٌ وتنبيهاتٌ في تفسير القرآن المجيد) عرضًا ودراسةً

د. محمد بن راشد حمد الصبحي

الملخص:

يتناول هذا البحث التعريف بجهود الإمام أحمد بن محمد البَسيلي من خلال إبراز دراسته البلاغية للمفردة القرآنية في كتابه (نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد) ويأتي البحث لإبراز جهود من لم يُعرفوا في الحقل البلاغي، ولهم آراء وتوجيهات في مجال البلاغة التطبيقية.

عرَّف الباحث في هذا البحث بالإمام البَسيلي وذكر نهجه البلاغي في كتابه، وقسَّم البحث إلى ثلاثة مباحث تناول فيها جوانب المفردة القرآنية، ففي المبحث الأول ذكر جهده في تبيان أسرار اختيار المفردة القرآنية دون مرادفاتها، وفي المبحث الثاني تناول الدلالة البلاغية لهيئة الكلمة، وفي المبحث الثالث تناول دلالة تقديم المفردات بعضها على بعض، وختم البحث بأهم النتائج التي توصل إليها، ومنها أنَّ البَسيلي تأثر بشيخه ابن عرفة التونسي في تفسيره، خصوصاً في نهجه البلاغي، وتميزه في دراسة بلاغة المفردة القرآنية في تقييده الصغير دون غيرها من أبواب البلاغة.

الكلمات المفتاحية: بلاغة المفردة القرآنية- البسيلي- نكتٌ وتنبيهاتٌ.

The eloquence of the Quranic Vocabulary When Imam AL-bsili Write (jokes and alerts on interpreting Quran Majeed) Presentation and treatise

Abstract:

This research addresses definition Imam Ahmed Bin Mohamed effort albsili by eating the rhetorical effort by examining the Quranic vocabulary in writing (jokes and alerts on interpreting Quran Majeed) comes searching for trying to highlight the efforts of did not know in the field of rhetoric، and their opinions and guidance in the field of rhetoric Applie.

In this research the researcher knew Imam albsili rhetorical approach stated in writing، and research into three detectives on the aspects of the Quranic vocabulary، first female effort in showing the secrets of choosing the Quranic vocabulary without synonyms، and in the second section dealing with rhetorical significance for body Floor، and in the third section addressing indications provide vocabulary on each other، and sealing the main research findings، including that albasili affected by his Shaykh Ibn Arafa Tunisian explained، including the rhetorical approach، as well as characterize albasili in individual communication study Koranic little without restriction Other sections of the rhetoric.

key words: eloquence, Vocabulary, AL-bsili, jokes and alerts.

المقدمة:

القرآن الكريم منذ نزوله على نبينا ﷺ وهو موضع تأمل صحابته ومن بعدهم من التابعين، وطال تأمل العلماء فيه جيلاً بعد جيل، يتوارثون علمه ودقائقه، ويُضيف إليها كل عَلَم مُبْرز فيه ما اهتدت إليه قريحته وفق أصول التفسير، وأصبح في الدراسات القرآنية أعلام كبار ومؤلفات ذات شهرة، حظي كثير منها بإبراز جهود أصحابها، والتعمق في فكرهم، وذكر ما أضافوه على سابقيهم إلا أنَّ الكثير في المقابل لم تنلْ جهودهم الحظوة والدراسة؛ خاصة في الدرس البلاغي، فكثير من علماء هذا الفن ممن آثروا الدرس التطبيقي لأساليب البلاغة لم تذكر جهودهم في إطار التأريخ البلاغي، ولا يعرف بعضهم إلا بالاسم فقط، ومن هؤلاء أبي العباس البَسيلي، تلميذ الإمام ابن عرفة الأندلسي، فقد كانت له جهود ونظرات استفادها من شيخه كما ذكر مع تأمله في هذه الآيات، إضافة لامتلاكه الأدوات اللغوية التي مكنته من معرفة بواطن إعجاز القرآن الكريم، وهذا الإمام لم تظهر كتبه إلا في السُنيات الأخيرة، فتفسيره الكبير حُقق منه سورة البقرة وآل عمران[١]، وأما تفسيره الصغير فطبع في المغرب عام ٢٠٠٨م[٢]، وهو موضع دراستي هنا. وتعود أسباب اختيار الموضوع للآتي:

١- إبراز جهد عَلَم مبرز أفنى عمره في تفقه كتاب الله ﷻ ولازم من أجل فهمه كثير من العلماء، فكانت له نظراته واجتهاداته.

٢- تنوع مسائل البلاغة التي ذكرها في كتابه، فقد تناول فيه كثيراً من مسائل علم المعاني والبيان وقليلاً من مسائل علم البديع.

٣- إظهار قيمة علوم البلاغة، ووجوب دراستها لمن أراد أن يتفقه في كتاب الله، وأنَّها علم أصيل في فهمه وارتباط الإعجاز بها.

٤- الحديث عن أهمية المفردة القرآنية، وأنَّها اللبنة الثانية في بناء الكلام، وتبيان أنَّها وجه من وجوه الإعجاز في القرآن، فقد جاءت دقيقة في كل موضع وتركيب وردت فيه.

وأما منهجي في هذا الدراسة فهو المنهج الاستقرائي، فقد تتبعت فيه كل ما ذكره البَسيلي من المسائل البلاغية المتعلقة بالمفردة وتصنيفها وفق مباحث هذه الدراسة، مع التحليل والتعقيب والترجيح بين الآراء الأخرى للمفسرين إن استلزم الأمر.

الدراسات السابقة:

لم يحظَ البَسيلي بالدراسة وتبيان جهده لعامة القراء والمتخصصين، فلم أجد له إلا دراسة واحدة تتبعت مصادره النحوية والأدبية والبلاغية في كتابه (التقييد الصغير) للدكتور محمد الطبراني، وذكر من مصادره البلاغية كتابين: المثل السائر لابن الاثير ومفتاح العلوم للسكاكي(٣)، واكتفى فيهما بالتعريف بمؤلفيهما، وذكر الاقتباس دون تعليق.

التعريف بالإمام البَسيلي وشيوخه وتلاميذه وكتبه:

أولاً: كنيته واسمه ونشأته:

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد البَسيلي كما نَصَّ على ذلك في مقدمة كتابه التقييد الكبير(٤)، وأسماه ابن مخلوف صاحب كتاب (شجرة النور الزكية في طبقات المالكية) أحمد بن عمر، وهو وهم؛ لمخالفته كل المصادر التي ذكرت ترجمته، وهو فقيه مالكي، من أهل تونس، وعُرف بأنَّه من أشهر تلاميذ المفسر ابن عرفة التونسي.

ثانياً: ميلاده ووفاته:

لا يُعرف تاريخ ميلاده، وإنّما نصَّوا على تاريخ وفاته وأنَّه عام ٨٣٠ [٥]، وقيل عام ٨٤٠ [٦].

ثالثا: شيوخه:

تتلمذ البَسيلي على ستة شيوخ نُصَّ عليهم، والأقرب أنَّهم أكثر من ذلك، وهم:

١- أبو عبدالله محمد بن محمد بن مُسافر العامري[٧].

٢- أبو عبدالله محمد بن أحمد بن موسى البطرني الأنصاري[٨] الأندلسي، ولد بمدينة تونس سنة ٧٠٣ هـ[٩]، وخطب بجامع الزيتونة، ودرس على علماء كُثر ذكرهم ابن حجر[١٠].

٣- أبو العباس أحمد بن محمد بن عبدالرحمن عُرف بالقصَّاري، له اضطلاع كبير بالنحو، وشرح البردة، وشرح شواهد المقرب لابن عصفور، وكان حيّاً بعد التسعين وسبعمائة[١١].

٤- أبو عبدالله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي، ولد عام ٧١٦هـ، ووصف بالإمام المقرئ الفروعي الأصولي البياني، وكلَّها أوصاف تدل على علو كعبه في العلم، وأخذه عن جمع من العلماء؛ وكان إماماً وخطيباً في جامع الزيتونة لمدة خمسين سنة، ومن مؤلفاته: تقييده الكبير في المذهب (المالكي) وله اختصار على كتاب الحوفي، وتفسيره المشهور، وتوفي عام ٨٠٣هـ، وهو أشهر شيوخه[١٢].

٥- أبو مهدي عيسى بن أحمد بن يحيى وقيل: محمد الغبريني المالكي، قاضي تونس وعالمها، أخذ عن ابن عرفة، وعدَّ ابن مخلوف صاحب كتاب (شجرة النور الزكية) البَسيلي من تلاميذه، وتوفي عام ٨١٣هـ [١٣].

٦- أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون الحضرمي، ولد عام ٧٣٢هـ، وتولى قضاء الديار المصرية في عهد الملك الظاهر وابنه الناصر، وتوفي عام ٨٠٨هـ، وله من المؤلفات: مقدمته المعروفة المستلة من تاريخه الموسم بـ(العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) وله لبَّاب المحصل في أصول الدين، وشفاء السائل لتهذيب المسائل، وكتابه الذي ترجم فيه لنفسه(١٤)، وذكر ابن مخلوف أنَّ البَسيلي تتلمذ عليه(١٥).

رابعاً: تلاميذه:

من أشهرهم:

١- أبو عبدالله محمد بن قاسم الأنصاري التونسي، لُقب بالرصَّاع، وله مُؤلف بعنوان (تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين) و(التسهيل والتقريب والتصحيح لرواية الجامع الصحيح) و(الجمع الغريب في ترتيب آي مغني اللبيب) وغيرها من المؤلفات، وكان إماماً وخطيباً لجامع الزيتونة(١٦).

٢- أبو العباس أحمد بن محمد بن عبدالله الشهير بابن كُحيل، ولد بتونس ودرس على البرزلي وعبدالله القرشي وأخذ عن البَسيلي المنطق(١٧).

خامساً: نشأته:

لم يُعرف من حياته إلا القليل، منَّها أنّه كان يُقري من يطلب علمه في سقيفة داره، وأكثر مجالسه هناك، وذكر أنَّه درس في المدرسة الحكيمية(١٨).

سادساً: مؤلفاته:

ذكر المترجمون له ستة مؤلفات في خمسة فنون، هي: التفسير والتراجم والمنطق والعروض والفقه، وهذه المؤلفات هي: التقييد الكبير في تفسير كتاب

الله المجيد[١٩]، والتقييد الصغير، وهو موضع البحث، وتقييد في الوفيات، وشرح على الجمل في المنطق، وشرح على الخزرجية في العروض، وشرح على المدونة[٢٠].

التعريف بمنهجه البلاغي:

صَنَّف البلاغيون المحدثون المؤلفات البلاغية في مدرستين؛ المدرسة الكلامية والمدرسة الأدبية، وذكروا لكل منهما خصائص متميزة، فذكروا للأولى عدة مميزات نلاحظها في مدرسة المفتاح، وهي:

- العناية بالتعاريف والتقسيم المنطقي والجدل والمناقشة.
- الحرص على القواعد المحددة، والإقلال من الشواهد القرآنية والأدبية.
- استعمال أساليب المناطقة والفلاسفة في الحكم على الكلام، وتوظيف مصطلحات الحسن والقبح عندهم.

بينما المدرسة الأدبية تخالفها في ذلك، فهي تتميز بـ:

- الابتعاد عن التقسيمات المنطقية وكثرة التحديد والتعريف.
- استعمال المقاييس الفنية في الحكم على الشواهد الأدبية.
- تتميز بالأساليب السهلة في طرح الفكرة وعرضها دون تعقيد وغموض وإلباس في التراكيب[٢١].

والبَسيلي من أصحاب هذه المدرسة في كتابه هذا، فعبارته دقيقة لا تبلغ حد الغموض، ينفذ إلى الغرض مباشرة دون مقدمات أو استطرادات، وكان يحرص على ذكر الغرض البلاغي والتعليل له في أقل عدد ممكن من الكلمات، فكان مستحضراً لفكرة الكتاب، وأنَّه نكات وتنبيهات يُكتفى فيها باللمحة الدالة التي يفهمها القُراء، إضافة إلى استحضاره أنَّ من يقرئ تقييده هذا هم

العلماء وطلبة العلم الذين يمتلكون كثيراً من المعارف والفنون وفهم للمصطلحات تغني المؤلف عن الشرح والإيضاح، وسأذكر منهجه التفصيلي في تناول الآيات القرآنية من خلال الوجهة البلاغية.

أولاً: التحليل البلاغي عند الإمام البَسيلي:

اعتمد البَسيلي في ذكر الغرض البلاغي لاختيار الكلمات أو تبيان بلاغة هيئتها الصرفية على عدة طرق، منها:

١- افتراض أنَّ سائلاً تأمل في الآية القرآنية، فدر في خلده أسئلة حول سر اختيار هذه الكلمة دون غيرها، أو سر اختيار هذه الهيئة دون سواها مما يُشكل أو لتبيان العلة، فيجيب على ما يدور في سره، وهذه الطريقة كثيرة في تقييده[٢٢]، وهي طريقة أهل الشروح والحواشي في عرض أفكارهم ليوصلوها إلى من يقرئ كتبهم.

٢- استند في بعض الواضع على قلتها على ما ذكره المفسرون قبله وأحال عليهم كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[٢٣]، فكلمة (حق) نُكِّرت في هذه السورة وعُرفت في البقرة، فذكر أنّ التنكير في سورة آل عمران لنزوله أولاً، وهو شبيه بتعليل الزمخشري لتنكير كلمة (آمنا)[٢٤] في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾[٢٥][٢٦].

٣- علَّل لبعض التساؤلات البلاغية بأكثر من علة محاولة منه لحصر الدقائق البلاغية التي يمكن أن يحملها الأسلوب[٢٧].

٤- كان البَسلي دقيقاً في تأمل الآيات، فكان يوازن بين المتقابلات، ويذكر ما فيها من تطابق واختلاف، مع تبيّن للأسرار البلاغية للعدول عن المقابل[٢٨]، وكان شغوفاً بالمتشابه اللفظي ويُعلل لكل ما يذكره[٢٩].

٥- في بعض المواطن بيَّن سر إيثار حرف على حرف من خلال ذكر القاعدة البلاغية المقررة كما في تحليله لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾(٣٠)، فالآية ذكر فيها (إن) دون (إذا) وعلل البسيلي لذلك بأنَّه «عُبر بـ(إن) دون (إذا)؛ لأنَّ (إن) تدخل على الممكن المستحيل، و(إذا) تدخل على ما يتحقق وقوعه، وأيضاً (إن) تدخل على ما يُطلب وقوعه، وعدم استجابتهم مما يُطلب عدم وقوعه»(٣١).

٦- أحال في بعض المواطن على الشواهد البلاغية، وهي قليلة كتعليله للحذف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾(٣٢)، فذكر أنَّ في الآية حذفاً للمضاف كقوله تعالى: ﴿الْقَرْيَةَ﴾(٣٣).

٧- من لفتاته الجميلة في استقراءه البلاغة القرآنية ما ذكره من أنَّ الحذف سمة بارزة في القصص القرآني إلا في موطن واحد، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾(٣٤) وعلّل لذلك بالغرابة في تحول العصا إلى الحية، وهي علة ذكرها البلاغيون في حذف المفعول به، وذكرها البَسيلي في ذكر المسند(٣٥).

وكربطه الفعل (اذكر) بتسلية النبي ﷺ والفعل (اتل) الوارد في حقه بأنَّه إنذار لأمته(٣٦)، ومنها ذكره أنَّ تقديم لفظ (شهيدا) على غيره من الكلمات وقع في القرآن كله إلا موضعاً واحداً، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾(٣٧)(٣٨).

٨- اهتمَّ البَسيلي بعلم المناسبات، وله ملاحظات دقيقة تنم عن فهمه للروابط الدقيقة بين الآيات القرآنية(٣٩).

ثانياً: أوجه التعليل للأغراض عند الإمام البَسيلي:

من المواطن المهمة التي تغفل عنها الدراسات الحديثة في هذا الفن تبيان طرق البلاغيين في استخراج النكات البلاغية، وهي مهمة جداً؛ لأنَّها تتعلق بمعرفة آليات تفكيرهم في استخرج مستتبعات التراكيب، وتعليلات البَسيلي متنوعة المشارب، وهي على النحو الآتي:

١- من الطبيعة فنجده يُعلل لربط بعض الكلمات ببعض في بعض الآيات بالخصائص الطبيعة التي يراها الناس في مشاهدتهم اليومية، فالبرق رُبط بالفعل (كاد) في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾(٤٠)، ولم يُربط نظيره في الوجود الرعد بهذا الفعل، فما السر البلاغي في ذلك؟ أجاب البَسيلي بأنَّ البرق من طبيعته المفاجأة فلا يُستعد له، بخلاف الرعد فهو يأتي بعد البرق، فالبرق دليل عليه، ولذا يخلو من طبيعة المفاجأة الموجودة في البرق(٤١).

٢- من الواقع المعاش، فهو يعلل لذكر النساء دون البنات المقابلة للأولاد في قصة استحقار فرعون لبني إسرائيل، بأنَّ الآية أتت موافقة لما كان موجوداً في زمن هذا الظالم(٤٢)، أو يُعلل للتقديم بإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾(٤٣)، لأنَّه أبو الكل وأصلهم(٤٤).

٣- من العلوم التطبيقية، فقد علل لاختيار كلمة (الدائرة) في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾(٤٥) بأنَّ فيه «إشارة إلى أنَّ ما حل بهم من العذاب لا ينتهي؛ لأنَّ الدائرة كما تقرر في الهندسة لا طرف لها ولا آخر»(٤٦)، فتعليله مبني على ما هو معلوم في الهندسة بأنَّ كل أطراف الدائرة متساوية فلا يُعلم أولها من آخرها.

٤- التعليل بالقواعد البلاغية المقررة عن أصحاب هذا الفن كالتعليل بالتجدد والاستمرار في الفعل المضارع، والثبوت والدوام للاسم(٤٧).

٥- التعليل بالطبيعة اللغوية للكلمات، فبعض الكلمات تحمل دلالة العموم أكثر من مرادفاتها، وهذا التعليل كثيراً ما يذكره[٤٨]، واستدل له بالقاعدة الأصولية (الحكم على الأعم حكم على الأخص دون عكس)[٤٩]، أو دلالة الخضوع بين بين يدي الله ﷻ كاسم (الرب) دون غيره من الأسماء، أو أنَّ في بعض الكلمات ترقٍ في الصفة المرادة كتفضيل كلمة الحسد على البخل في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٥٠]، ففي هذا الكلمة ترقٍ في الذم[٥١].

٦- علل في مواطن قليلة بالأبنية الصرفية ككفَّار فهي على وزن (فعَّالا) وهذا الوزن أبلغ من نظيره (فعول) (كفور)[٥٢]، أو تفريقه بين (استجبتم) و(أجبتكم) فالأولى في الموافق، والثانية فيه وفي المخالف[٥٣].

٧- كثيراً ما يُعلل بالاحتراس، وأنَّ القرآن الكريم دقيق في ألفاظه فلا يدخل في الحكم أو المراد ما ليس منه[٥٤]، أو يكون هذا الاحتراس داعياً إلى نفي توهم وجود نظير لله في ربوبيته، فالعدول من (افترى على الله) إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[٥٥] احترازً من مفهوم (افترى على غير الله) واستدل بالقاعدة الأصولية: (يلزم من نفي الأعم نفي الأخص)[٥٦]، وذكر هذه القاعدة في سياق التدليل على غرض العموم[٥٧].

٨- أحال في بعض تعليلاته البلاغية إلى الأحاديث النبوية كتعليله لدخول السين في خطاب المؤمنين و(سوف) في خطاب الكافرين، فذكر في أحد جوابته عن دخولهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[٥٨] أنَّ فيهما

معنى قوله ﷺ: (سبقت رحمتي غضبي)(٥٩)، فمقصده أنَّ السين أقصر من (سوف) فدخول المؤمنين الجنة بمجرد الإيمان، بينَّما الكفر لابد أن يُسجل على صاحبه، ولذلك أكُد بـ (إن)، وذكر البَسيلي في تفسيره الكبير هذا الحديث في دلالة التعبير بالاسم والفعل عن الفريقين في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾(٦٠)، فذكر «أنَّ من اتصف بأدنى الإيمان مغفور له، والمغضوب عليه إنَّما هو من ضمَّم على الكفر»(٦١)، ولذا قال الإمام النووي أنَّ معنى السبق والغلبة كثرة الرحمة وشمولها(٦٢).

ثالثاً: العناية بالمصطلح والمفاهيم:

لم يُعرف البَسيلي بالمصطلحات البلاغية في كتابه هذا إلا بمصطلح المذهب الكلامي(٦٣)، فقد ذكر اللف والنشر(٦٤)، والمقابلة(٦٥)، والاستخدام(٦٦)، وغيرها من المصطلحات فلم يحددها ويبسط القول في مفهومها، ولعل ذلك عائد إلى ما ذكرته سابقاً من أنَّ فكرة الكتاب مبنية على الاختصار، وهو موجه للعلماء وطلابهم.

بلاغة المفردة القرآنية:

تتبع البَسيلي دلالة اختيار المفردة القرآنية، وبيَّن أسباب اختيار بعضها دون مرادفاتها التي تشاركها في الحقل الدلالي، وملاءمتها لسياقها الذي وردت فيه، **وذكر أحد عشر غرضاً، هي:**

١- أنَّ بعض الكلمات أتت دقيقة وواصفة للواقع كما هو رغم أنَّ السياق التركيبي يتطلب غيرها كمَّا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾(٦٧)، فالمقابل المنتظر أن يُقال: (ويستحيون بناتكم) مقابلة لتذبيح الأبناء إلا أنَّه عُدِّل عن

هذا إلى لفظ (النساء) توصيفاً لحالهم، فهم يتركون البنات إلى أن يُصبحن نساءً قادرات على الخدمة كما قال البَسيلي(٦٨)، فهو مجاز مرسل باعتبار ما سيكون، وهذا التعليل يتناسب مع الفعل المضارع ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ الدال على دلالتي الاستحضار والاستمرار؛ استحضار صورة الإهانة والذل التي عاشها سلفهم فلم يستطيعوا الدفاع عن أبنائهم ونسائهم، ودلالة الاستمرار الواصفة لحالة هؤلاء النسوة اللاتي استعبدنَّ في الخدمة من إطاقتها إلى أن عجزن عن ذلك، فمنّ الله عليهم بإرسال موسى عليه السلام.

وخالف في هذا التعليل شيخه ابن عرفة الذي ذكر أنَّ العدول هنا لإرادة المعرة عليهم والاستحقار لشأنهم(٦٩)، ويقصد بضمير الجمع بني إسرائيل.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(٧٠) ذكر البَسيلي عدوليين في هذه الآية، فمقتضى الظاهر أن يُقال: (وبث منهما ذكوراً وإناثاً) ففيها عدول من لفظ الذكور إلى الرجال، وسر ذلك عنده أنَّ لفظ (الذكر) يشمل الصغار والكبار، «وهم كانوا يثقون بالرجال في الحروب»، فهم يحبون الرجال أكثر من النساء، والآية داخلة في باب الامتنان عليهم بهذه النعمة، وأمَّا عدوله إلى النساء «ولم يقل: (إناثاً)؛ لأنَّ التمتع بالبالغات منهن»(٧١)، فلفظ الإناث فيما يرى يشمل الصغار والكبار، وأيضاً العدول منتظم مع الامتنان السابق، وهذا أدعى للتقوى التي طولبوا بها في بداية الآية، ففي الآية امتنان عليهم بأكثر من نعمة كما أشار البَسيلي، وتفسيره عند الطاهر بن عاشور أنَّ في الآية «منَّة على الذكران بخلق النساء لهم، والمنة على النساء لخلق الرجال لهن»(٧٢).

وذكر أبو السعود رأياً آخر في العدول وهو أنَّه «لتأكيد الكثرة والمبالغة فيها بترشيح كل فرد من الأفراد المبثوثة لمبدئية غيره»(٧٣).

٢- للاحتراز في الكلام من أن يكون فيه ما ليس منه كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾(٧٤)، ففي هذه الآية عدول عن (أبناءكم) لأولادكم، وعلة ذلك عند البَسيلي أنَّ المعدول عنه يدخل فيه المتبنى، ومعلوم في الأحكام الفقهية بأنَّ هذا لا يرث ممن تبناه، ولذا احترز القرآن عن ذكره؛ فالعرب في الجاهلية كانوا يُورثون أبنائهم من التبني؛ لأنَّه نوع من أنواع المعاهدة في الميراث، فقد كان الميراث عندهم من طريقين؛ طريق النسب وطريق العهد، وهو على وجهين الحلف والتبني، وأقرهم الإسلام في أول أمره على هذا؛ ثم نسخ الحكم بهذا الآية وغيرها(٧٥)، ولذا احترز بهذا اللفظ (أولادكم) عن إدخاله في زمرتهم، وعلماء اللغة يُفرقون بين الكلمتين(٧٦).

وذكره في قوله تعالى:﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾(٧٧)، فتناسب الآية يقتضي أن يُقال: (لعاجلهم العذاب) مشاكلة لقولهم، ولكنَّه خُتم بما جاء في الآية؛ «لئلا يُتوهم أنَّ سبب نزول العذاب بهم هو استعجالهم»(٧٨)، بل هو إصرارهم على الكفر ورفضهم لما جاء به النبي ﷺ، ففي مجيء العذاب إمهال وحكمة ورحمة؛ إمهال لهم لعلهم يتدبرون فيما جاء به الرسل فيؤمنوا، وحكمة في «كونه {عَزَّوَجَلَّ} حكيماً لا يكون مُتغيراً منقلباً، ولكون رحيماً لا يكون غضوباً منزعجاً»(٧٩).

٣- قرّر البَسيلي أنَّه كثيراً ما يُعدل عن لفظ خاص إلى لفظ أعم منه في الحقل الدلالي ذاته لدلالة العموم كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(٨٠)، فأصل الكلام: (حتى

تعلموا ما تتكلمون) ولكن ذُكر القول؛ لصدقه على القول المفرد والمركب كما قال البَسيلي(٨١)، فالكلام مخصوص بالمفيد(٨٢)، وهذا لا يتطابق كثيراً مع حال السكارى الذين يهذون بالمفيد وغير المفيد ولذا سُمي ما صَدّر منهم بالقول، وهذا هو الأنسب لحالهم، فالفرق بين الكلام والقول من المسائل النحوية الدقيقة التي استثمرها البَسيلي في تبيان العلة البلاغية هنا.

وكذلك في العدول من التكلم إلى النطق في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾(٨٣)، لنفي دلالة العموم؛ فـ "نفي الأعم يستلزم نفي الأخص"(٨٤)، فإذا نُفي النطق دخل تحته نفي الكلام، فإبراهيم عليه السلام أراد منها أن توجد صوت ولو كان غير مفهوماً لتستحق أن تُعبد؛ لأنّه هو "الأصوات المقطعة التي يُظهرها اللسان وتعيها الآذان"(٨٥).

وتأتي دلالة العموم لإظهار العجز كما في العدول عن القتل إلى الموت في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(٨٦)، فهذه الآية تذكر الحوار الذين دار بين من يُريد القتال ومن يُثبطهم عنه وهم المنافقون في الاستعداد لمعركة أُحد، وتحدي الله للمثبطين، فكان مقتضى الظاهر أن يُقال: (فادرءوا عن أنفسكم القتل) ليتناسب ويتشاكل مع ما قبله، ولكنَّه عُدل إلى لفظ الموت وهو أعم؛ لأنَّ «عجزهم عن دفعه يستلزم عجزهم عن دفع الأخص منه» وهو القتل، وهي حجة عقلية في الرد عليهم، وفيها تعجيز لهم حيث أنَّهم لا يقدرون على دفع الموت، وإظهار لهوانهم وصغر همتهم، إضافة إلى أنَّ هناك عدولاً آخر في الآية يقوي هذه الدلالة، فأصل الكلام (لا تموتون) إلا أنَّه ذكر فعل الدرء إشارة إلى لزوم الموت لهم(٨٧).

وتأتي دلالة العموم لتتناسب الكلمة مع آخر الآية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾(٨٨)، فأصل الكلام أن تُذكر الرحمة أو المنفعة بدلًا من النَّعماء لتُطابق الضراء، ولكنَّه عُدل إلى أثر الرحمة، وهي ما في الآية «لأنَّ الفرح والفخر يكون بالوجه الأبلغ»(٨٩)، فالنْعماء كلمة عامة واصفة للرحمة ومتجاوزة لها، فلعل الرحمة مرحلة أولية ذُكر فيها إنعام الله عليه، أمَّا آثارها ونفعها لصاحبها وتمتعه بها فلا تدل كلمة (الرحمة) على هذه المعاني، ولذا هي أدق على وصف الحالة النفسيّة لهؤلاء الذين ذاقوا شيئاً من الضر فأصابهم اليأس ثم غمرتهم رحمة الله فزال ما هم فيه وعادوا إلى النعمة السابقة التي كانوا فيها، ففرحوا وعادوا إلى اغترارهم بأنفسهم وبصحتهم ولم يشكروا الله عليها، إضافة إلى أنَّ هذه الكلمة مرتبطة بالأثر الظاهري(٩٠)، ولذا قال البحتري في بيتين له:

أأجحدك النَّعماء وهي ... جليَّة وما أنا للبَّر الخفي بجاحد(٩١)

وقوله:

أأكفرك النّعماء عندي وقد نمت ... على نمو الفجر والفجر ساطعُ(٩٢)

فكل من يرى صاحبها يعلم فضل الله عليه؛ سواء أكان في صحة بدن أم في سعة الرزق، فهي كلمة امتنان يمتن الله بها على الناس على نعمه التي أعطاهم إياها، وهي من الكلمات التي يصح وصف هبات الله على الناس مؤمنهم وكافرهم بخلاف كلمة النعيم التي يُراد بها نعيم الآخرة(٩٣).

٤- الدلالة على البُعد كما في عدول يعقوب عليه السلام في خطابه لبنيه عن لفظ (متباعدة) إلى قوله: ﴿مُتَفَرِّقَةٍ﴾(٩٤)؛ لأنَّ التباعد بين الأبواب مقصد رئيس له، وليس دخولهم من أبواب متعددة فقط، فالتعدد شرط يلزمه البُعد بينها، فهذا

''أدخل في مراده'' كما قال البَسيلي(٩٥)، وفصَّل الطاهر بن عاشور مراد البَسيلي فقال: «والمتفرقة أراد بها المتعددة؛ لأنَّه جعلها في مقابلة الواحد، ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علة الأمر، وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة»(٩٦)، والمراد إبعاد الحسد والعين عنهم لجمالهم وكمالهم وبسطة أجسامهم(٩٧).

٥- أتى العدول للمبالغة في المعنى كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾(٩٨)، ففي التعبير بالنزع دون الخروج دلالة دقيقة، فـ«كأنَّه فارق يده لشدة مخالفة لونها للونه»(٩٩)، فبياض يده كان شديداً وصفه الزمخشري بالشعاع الذي يكاد يُغشي الأبصار ويسد الأفق(١٠٠)، وموسى عليه السلام كان ذو دم أحمر مائل إلى السواد(١٠١)، فمع ظهور هذه المعجزة تباين اللونان، بينما لفظ الخروج لا يُوحي بهذه الدلالة المختصرة التي تدل على معنى المفاجأة في هذا المشهد بدليل الجار والمجرور ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ وهذه المفاجأة مقصودة بدليل حذف الفاعل (موسى) من الجملة اهتماماً بهذه المعجزة.

٦- للدلالة على المقصود الأدق كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾(١٠٢)، فهذه الآية فيها وصف لحال المشركين مع أصنامهم، فهم يستبشرون إذا ذُكرت وتشمئز قلوبهم إذا ذكر الله وحده، فأصل الكلام: (لا يُؤمنون بالله) لتطابق هذه الآية فاعل فعل الشرط؛ لأنَّ سياق الكلام له، ولكن عُدل ليتطابق الأمر مع معتقدهم، فهم يرونها شافعة لهم في الدنيا عند الله عز وجل وليس لها من أمر الآخر نصيب، «فإنَّ الآية ردَّ على دعواهم التشريك لا جحدهم الآخرة، قلت: هو إشارة إلى أنَّهم إنَّما ادَّعوا شفاعة الأصنام في الدنيا، وأنكروها في الآخرة»(١٠٣).

ومن شواهده في هذا الغرض قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ

فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾(١٠٤)، فالمطابق لقولها: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ (فخرج عليهن) إلا أنَّه عُدل إلى ما في الآية لتوصيف حالهن قبل خروجه عليهن، فهن «أكبرنه بنفس رؤيتهن إياه قبل خروجه»(١٠٥)، وبعض المفسرين كأبي السعود ذكر أنَّ المعدول عنه حُذف تحقيقاً لمعنى المفاجأة التي يقتضيها سياق الآية(١٠٦)، وهو معنى تحتمله الآية، إلا أنَّ البسيلي ركز على مقدار هذا الذهول والمفاجأة، وأنَّ جماله عليه السلام تبدى لهن قبل أن يصل إليهن، ويقف في مجلسهن، فلعلهم رأوا جماله وحسنه من بعيد.

٧- ذكر البَسيلي أنّه يُذْكر فعل دون مرادفه الذي يحتمله الكلام؛ لأنَّ في الأول تكرارا واستمرارا مطلوباً في أداء المقصود كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾(١٠٧)، فالجملة يمكن أن تكون بـ(أمرنا) بدلًا من (وصينا)؛ إلا أنَّ (وصينا) فيها «التكرار بخلاف الأمر»(١٠٨)، ومن سبقه من المفسرين كالزمخشري(١٠٩) والبيضاوي(١١٠) ذكروا أنَّ وصى هنا بمعنى أمرنا إلا أنَّهم لم يذكروا الفرق بين الفعلين، وفرّق بَينهما أبو السعود فذكر أنَّ التوصية تستعمل فيما فيه نفع عائد إلى المأمور أو غيره، وهذا وجه الإيثار عنده(١١١)، وما ذكره البَسيلي فيه معنى المداومة على الفعل والمبالغة في الاحتفاء بهما ما لم يأمرا بمعصية.

٨- ربط البَسيلي الدلالة القرآنية في اختيار الكلمات بالحالة النفسية للمخاطبين كما في تحليله لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ﴾(١١٢)، لم يقل: ساعة من ليل كما هي عادة العرب في التأريخ، فيقولون: ثلاثة ليالي وأربعة ليالي، والشهر فيه ثلاثون أو تسع وعشرون ليلة وهكذا؛ «لأنَّ ساعات النَّهار يعقبها ظلام الليلّ، وساعات الليلّ يعقبها ضياء النَّهار، فلُبث ساعة من الليلّ يعقبها الفرج، ومن النَّهار بخلافه»(١١٣)، وهذا التعليل فيه دقة؛ لأنَّ المفسرين نظروا

إلى هذه الآية من زاوية مقارنة الدنيا بالآخرة، فهي لا تساوي منها إلا مقدار ساعة، وهناك تعليل آخر لطيف، وهو «أنَّ ساعة النَّهار تبدو للناس قصيرة لما للناس في النهار من الشواغل بخلاف ساعة الليل تطول، إذ لا يجد الساهر شيئاً يشغله»(١١٤)، وهذا تعليل قريب، وكلا التعليلين نُظر فيه لحال الناس مع الوقت.

٩- التحقير كما في العدول عن فعل الرمي إلى فعل الإرسال في قوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾(١١٥)، ففي هذا العدول «إشارة إلى أنَّهم لا يُؤبه بهم؛ لأنَّ الرمي يكون بقوة»(١١٦)، وهذا التعليل فيه ملحظ ربما غفل عنه البَسيلي، وهو تعدية الفعل (أرسل) بحرف الجر (على) لأنَّ ارتباطه به دل على المبالغة في المباشرة والعذاب(١١٧)، وهذا الفعل يُستعمل في مكان الرمي مجازاً(١١٨) في حال كان الرامي أقوى للتدليل على معنى الاستعلاء والغلبة.

١٠- الترقي في الذم كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾(١١٩) ففيها عدول عن البخل الذي يستلزمه سياق الآية إلى ذم اليهود بالحسد؛ فهم تجاوزوا مرحلة الأمر المتعلق بذاتهم وهو البخل إلى مرحلة تمني زاول ما عند الآخرين، وهذا هو مقصد البَسيلي(١٢٠)، فلعله ذهب إلى أنَّ كل بخيل حسود في طبعه، فهو يمنع خيره عن الآخرين ويتمنى فناء ما عند الآخرين، فصفة الحسد متأصلة فيه فهو مبعث الفعلين الذاتي والغيري، وأقام الرازي علاقة بينهما وذكر أنَّهما يشتركان في أنَّ صاحبهما يُريد منع النعمة عن الغير، فالبخيل يمنع نعمة نفسه عن الغير، والحاسد يمنع نعمة الله من عباده، وأنَّ سبب وجود الفعلين هو الجهل(١٢١).

١١- العتاب واللوم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾(١٢٢)، ففي الآية عدولان ذكر البَسيلي أحدهما، وهو العدول عن لفظ الجلالة إلى لفظ الرب المشعر بالإحسان على هذا العبد

الجاحد، ففيها «استشعار العبد الوقوف بين يدي الرب المحسن إليه، المنعم عليه، وعرضه؛ لاقتضاء لفظ الرب ذلك»(١٢٣)، فلفظ الرب وردت بمعاني عدة تدور حول معنى الإحسان وإسداء الخدمة من السيد لمن هو دونه، وهي: المدبِّر، والمربِّي والمقيِّم، والمنعِم(١٢٤).

والعدول الثاني كان في إقامة الظاهر مقام المضمر، فأصل الكلام: (يُعرضون عليه) لأنَّه سُبق بلفظ الجلالة، والغرض منه تأكيد معنى جحودهم وإنكارهم لفضل الله عليهم.

وفي موطن آخر حصل العكس فعُدل من (رب) إلى لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(١٢٥)، فـ «لم يقل: (أم الرب) لدلالة اسم الجلالة على الخلق والاختراع»(١٢٦)؛ لأنَّ المقام مقام إبراز عظمة الله ﷻ وقدرته واستحقاقه للعبودية.

وجمع البَسيلي بين غرضين في شاهد واحد واضعاً أداة احتمالية كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾(١٢٧)، فالقول الصادر من أم موسى يمكن أن يُؤدى بطريقتين؛ أن يُقال: وقالت لابنتها أو ما ورد في الآية وهو ما كان، وعلة ذلك عند البَسيلي أمرين:

الأول: أنَّه كان أخاها من أبيها.

الثاني: تعليقاً بالوصف المناسب، فهي أرادت أن تذكر لها وصف الأخوة المقتضي للشفقة والرحمة والحنان(١٢٨)، وهو الأقرب بدلالة الآيات التي بعدها.

وفي بعض المواضع يذكر أنَّ هذه اللفظة أبلغ من مرادفاتها دون أن يذكر النكتة البلاغية كما في العدول من المغرقين إلى الكافرين في قصة ابن نوح عليه السلام

في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾[١٢٩]، وجمع من المفسرين عللوا لنهيه عن الكفر رغم علم نوح عليه السلام بكفره[١٣٠]، ولعل العلة في ذلك: أنَّ نوح عليه السلام كان يأمل إيمانه، فيأمن من الغرق التي هي قضية متأكدة في حال استمراره على الكفر، فعدوله عن الأمر إلى النهي يُؤكد هذا الأمر، فلم يقل له: يا بني اركب معنا وآمن، وإنَّما وضع أمام عينيه مصير الكّفار الذي بدأ يراه بدليل مخاطبة نوح له بركوب السفينة، وأسلوب النهي في بداية الجملة المنسوقة وعدوله عن الفعل تكفر إلى الاسم لإرادة الدلالة على أنَّهم بلغوا في الكفر أقصاه، فهم ثابتون عليه.

الدلالة البلاغية لهيئة المفردة القرآنية:

أولاً: الحذف والزيادة: وازن البَسيلي بين الكلمات المتحدة في جذر واحد، ووردت في موضعين مختلفين، كل منَّهما له سياق خاص به، فيُحذف من أحدهما حرف أو أكثر أو يُزاد فيه، فيُبين العلة البلاغية في ذلك معتمداً على ما في الآية من تراكيب.

الزيادة: ذكر أنَّ الزيادة في البنية الصرفية تدل على اختلاف المعنى، وشاهده قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[١٣١]، فرّق البَسيلي بين الاستجابة والإجابة، فذكر أنَّ ما زيد فيها حرفي السين والتاء معناها أخص من نظيرتها، فهي ترد في الموافق، ويقصد أنَّ المخاطَب والمدعو يُجيب المتكلم والداعي فيما يسأله عنه ويدعوه إليه وفق ما يُريد هذا المتكلم، بخلاف الإجابة التي ذكر أنَّها ترد في الموافق وغير الموافق[١٣٢]، فكل استجابة هي إجابة، وليس كل إجابة استجابة فقد يُجيبه خلاف ما يُريد، وهذا على خلاف

ما ذكره المعجميون الذين يرون أنَّهما بمعنى واحد(١٣٣)، وخلاف من فرّق بينهما فذكر أنَّ استجاب طلب أن يفعل الإجابة، وأمَّا أجاب فمعناه عنده فعل الإجابة(١٣٤).

وتأتي الزيادة للدلالة على معنى التكلف كالعدول من صيغة (فعل) إلى صيغة (تفعَّل) المزيدة بحرفين، وهذا الوزن يدل على معنى التكلف كما ذكر سيبويه(١٣٥)، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾(١٣٦)، ففي هذه الآية عدول من (نزل) إلى (تنزّلَ) وعلة ذلك عند البَسيلي أنَّ في الثانية تكلفاً، «فإذا لم يستطيعوا مع تكلفهم، فأحرى لا معه»(١٣٧)، ويقصد بأنَّهم بدون تكلف لن يستطيعوا، فلو قيل: ما نزلت به الشياطين، لكان مجرد نفي لأن يكون من قبلهم، ولكنَّه زيد على هذا المعنى بأنَّ ذكر أنَّهم مهما تكلفوا فلن يستطيعوا، ومن باب أولى أنَّهم لن يستطيعوا بدون تكلف، وهذه الآية أتت للرد على من ادّعى من كفار قريش أنَّ ما جاء به النبي ﷺ هو من جنس ما تتنزل به الشياطين على الكهنة(١٣٨)، فكذبوا ورُد عليهم في آية بعدها فيها تبيان لسبب عجزهم ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(١٣٩).

الحذف: ذكر في حذف المفرد أنواعاً منه كحذف المقابل المفرد، وذكره في موضع واحد فقد بيَّن أنَّ في تخصيص المحصنات بالذكر دون المحصنين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾(١٤٠) "لأنَّ لحوق المعرة للنساء"(١٤١) أكثر وضرره عليهن أشد، وهذا أمر مشاهد.

ومن أنواع حذف المفرد التي ذكرها حذف المضاف، وورد عنده في ثلاثة مواضع؛ منَّها قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(١٤٢)، فأصل الكلام: (إنَّ كيد أولياء الشيطان) ولكن حُذف المضاف لتلازمهما(١٤٣).

ثانياً: تراكيب المبالغة: يأتي العدول من صيغة إلى أخرى للدلالة على أنَّ المتحدث عنه في أعلى منزلة كما في قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾(١٤٤)، ففيها عدول عن (يختارون) التي تُشعر بالأريحية في الاختيار والانتقاء إلى (يتخيرون) ومفردها (تخيّر) على وزن (تفعَّل) الدال على معنى التكثير(١٤٥) والتكلُّف كما ذكرت سابقاً، فلكثرة ما في الجنة من النعيم يتحيرون فيما يختارون، وربطها البَسيلي بلازم هذا الفعل «وهو كون المختار في أعلى درجات الحُسن، فهي دلالة التزام لا مطابقة»(١٤٦).

وذكر أنَّ في العدول من صيغة اسم الفاعل إلى صيغة المبالغة زيادة في المعنى، فقد عُدل من كافر إلى كفَّار في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(١٤٧)، للمبالغة في المعنى، فـ (فعالاً) أبلغ من (فعول)؛ لأنَّ الكفر أشدُّ من الظلم، فلذلك أُوتي بصيغته أبلغ من صيغة الظلم»(١٤٨).

ثالثاً: الجمع والإفراد: تنبَّه البَسيلي لدلالة الجمع والإفراد، وما تُوحيان به من دقائق المعنى، وسار في ذكر هاتين الهيئتين على ثلاثة طرق، هي:

١- ذكر مجموعة من الخصائص لبعض الكلمات القرآنية كجمع السموات وإفراد الأرض، فقد جُمعت الأولى في مائة وخمسين موضعاً(١٤٩)، فذكر أنَّ جمعها مرتبط بحاسَّة البصر، خصوصاً عند «من نظر في هيئات الأفلاك بخلاف الأرض»(١٥٠)، فتعدد السموات يُشاهده كل من كان له حظ من النظر والتدبر «بناء على مشاهدتهم تعدد حركات الكواكب بخلاف الأرض، فإنَّ تعددها لم يثبت إلا بالشرع والاستدلال»(١٥١).

وذكر العلماء مجموعة من الأوجه لسرِّ هذه المخالفة:

أ- أنَّ السموات أشرف من الأرض، والجمع أبلغ في التفخيم من الواحد(١٥٢).

ب- أنَّ أوامره تخترق جميع السماوات السبع[١٥٣].

ج- أنَّ السموات طبقات متفاصلة بالذات، مختلفة الحقيقة، بخلاف الأرضين[١٥٤].

د- أنَّ السموات طبَّاق بعضها فوق بعض، والأرض كذلك إلاّ أنَّها بعضها موال لبعض[١٥٥].

هـ- أنَّ جمع الأرض ثقيل بخلاف السموات[١٥٦].

و- أنَّ السموات مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرضيين، فإنَّ كلها من جنس واحد، وهو التراب[١٥٧].

وبعض العلماء ربطها بالأجرام السيَّارة في السماء كعُطاردة والزهرة والمريخ وغيرها[١٥٨].

ويُلحظ في هذا الآراء أنَّها لم تربط الجمع والإفراد بالمقام والنظم الموجود في الآية حتي تستبين العلة من هذا العدول، ولعل أقرب ما ذكر فيها من المراد هو أنَّ جمعها كان في كل مقام يُراد فيه عظمة وجلال قدرة الله ﷻ؛ ليكون ذلك مدعاة إلى التأمل والنظر[١٥٩]، فهذا الرأي ربط العدول في الصيغة بقيمة بلاغية أظهرت لنا شيئاً من إعجاز القرآن في وضع كل صيغة في مكانَّها اللائق بها بخلاف ما صنع البَسيلي الذي ربطها بعنصر غير بلاغي.

ومن المواطن التي ذكرها إفراد السبل وجمعها، فذكر أنَّ الجمع باعتبار الأشخاص، وتوحد إذا ذكرت مقابلاً لسبل الباطل[١٦٠]، فالحق طريقه واحد بخلاف الباطل فأنواعه وحقائقه مختلفة.

٢- الموازنة بين الآيات داخل القصة الواحدة: فلفظة الديار وردت بأكثر من صيغة، فوردت بصيغة الإفراد في قصة صالح مع قومه في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[١٦١]، وبصيغة

الجمع في ختام القصة في سورة هود في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(١٦٢)، وعلل البَسيلي ذلك بأنَّ الرجفة المذكورة في الآية الأولى أشدُّ من الصيحة في الآية الثانية، وأنَّ الديار في الآية الثانية وإنَّ وردت بصيغة الجمع «فتُردَّ الديار كدار واحدة»(١٦٣)، فالبَسيلي ربطها بالسياق الذي ورد فيها، فهذا العقاب وقع مباشرة بعد المهلة (ثلاثة أيام) التي أمهلهم الله إياها بدلالة الفاء الدالة على معنى التعقيب، إضافة إلى أنَّ الرجفة أخصَّ من لفظ الصيحة؛ لأنَّ الثانية تشمل الأولى وزيادة، فإذا ما ذكرت الرجفة فهي للدلالة على العذاب خاصة، ولذا ناسب الجمع الصيحة لعموم اللفظ، وأفرد الرجفة لخصوص اللفظ(١٦٤)، وذكر الدكتور/ محمد الأمين الخضري أنَّ علة الاختلاف نابعة من اختلاف المخاطب، فسورة الأعراف كان الخطاب فيها بين الأنبياء وسادة القوم، بينَّما سورة هود بين الأنبياء وأقوامهم(١٦٥)، وهو رأي له حظه من النظر.

٣- العدول من الإفراد إلى الجمع أو العكس: يُعدل في بعض أساليب القرآن عن الإفراد الذي يطلبه تركيب الكلام، وربمَّا الواقع إلى الجمع، وذكر البَسيلي ثلاثة أغراض، هي:

أ- التدليل على شناعة الجرم الذي ارتكبه صاحبه كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾(١٦٦)، فقوم نوح عليه السلام كانوا من أوائل الأمم المكذبة؛ ونبيهم نوح عليه السلام كان أول نبي أُرسل، فأصل الكلام: كذبت قوم نوح رسولهم، ويعود الضمير إلى نوح، أو إذا أُدخل آدم معه فيكونوا كذبوا بالاثنين، فيكون جمعاً؛ لأنَّ أقل الجمع اثنين كما رأى السيرافي(١٦٧) ووافقه البَسيلي وهو خلاف رأي النحاة، أو من باب المجاز، فيكون تكذيبهم لرسول تكذيب لجميع الرسل ممن أتوا بعدهم؛ لأنَّ دعوة الرسل واحدة وهي التوحيد، فهو من استعمال اللفظ

في حقيقته ومجازه كما ذكر البَسيلي(١٦٨)، وأضاف ابن عرفة إلى هذين النبييّن إدريس عليه السلام فيكون قد كذبوا ثلاثة(١٦٩)، فالجمع إذن على حقيقته المعنوية، وعُلل للجمع باختلاف حال الرسول في خطابه فمرة يكون مُبشراً ومرة منذراً مخوفاً من عذاب الله(١٧٠)، وهو جيد إلا أنَّ الأول أقرب لما في الجمع من الإيحاء بشناعة ما ارتكبوا وعظم جرمهم، فنوح عليه السلام مكث يدعوهم هذه المدة الطويلة ألف سنة إلا خمسين عاماً ولم يؤمن به إلا القليل.

ب- التعظيم والتشريف كما في عدول بلقيس في حديثها عن سليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾(١٧١)، فأصل الكلام: وإنِّي مُرسلة إليه بضمير الغائب المفرد، ولكنَّها عدلت لأمرين كما قال البَسيلي:

الأول: تعظيماً لسليمان عليه السلام لدخوله في قولها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ﴾(١٧٢).

الثاني: إلهام الله لها تعظيمه تشريفاً لهذا النبي الكريم(١٧٣).

ج- للتدليل على القلة كما في إفراد الصديق(١٧٤) في قوله تعالى:﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾(١٧٥)، ورجح هذا الرأي على ما ذكره المفسرون كالزمخشري وشيخه ابن عرفة في أحد رأييه(١٧٦) الذين ذكروا أنَّ الألف واللام يصح أنْ يُراد بها الجنس، فالكلمة تدل على المفرد والجمع(١٧٧).

ومن الصور الملحقة بهذا الباب العدول عن التثنية إلى الإفراد كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ

يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾[١٧٨]، ففي هذه الآية عدول من التثنية (حكمين من أهلهما) إلى الإفراد المذكور في الآية رغم أنَّ الأول أخصر من المذكور، فما العلة في ذلك، ذكر البَسيلي أنَّه لتجنب اللبس؛ «لأنَّ المراد أن يكون كل واحد من الحكمين من أهل أحد الزوجين لا من أهلهما معاً»[١٧٩]، فلو ثُنيت الجملة لربما فُهم أن يكفي أن يكون الحكم من أحد الطرفين، وهذا غير مقصود، بل الحكمان من الطرفين.

رابعاً: الكلمة بين الاسمية والفعلية ودلالتها البلاغية:

تناول البَسيلي في هذه الجزئية عدة أمور:

أ- العدول بين المتقابلات، فورود أحدها بالاسم والآخر بالفعل مدعاة للتساؤل الموصل إلى حقيقة المعنى المراد كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾[١٨٠]، ففي هذه الآية أكثر من تساؤل بلاغي ذكره البَسيلي، ومنها العدول في كلمتي ﴿تُقَاتِلُ﴾ و﴿كَافِرَةٌ﴾ فالأولى وردت بصيغة المضارع بينما الثانية وردت بصيغة الاسم، وعلّل البَسيلي ذلك بأنَّ طبيعة القتال متجددة، فهو فعل ينشأ باستمرار لأسباب مختلفة، ولذا عُبّر عنه بما يُفيد التجدد، بينما الكفر اعتقاد راسخ في القلب[١٨١].

ومن شواهده قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[١٨٢]، فالمتقون عُبّر عنهم بصيغة الفعل بينما عُبّر عن الكفار عنهم بالاسم، ودلالة ذلك عند البَسيلي أنَّ الله عز وجل بكرمه يعفو عن المتقين بحصول مطلق التقوى، وفي هذا دليل على سعة رحمة الله[١٨٣] بخلاف الكفر.

ب- وازن بين جملتين في آية واحدة من مادة واحدة ذاكراً العلة في اختلافهما، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ

اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(١٨٤) ذُكر لفظ العذاب مرتين؛ مرة بصيغة الفعل المضارع مؤكداً باللام، والمرة الثانية بصيغة الاسم، «ووجه ذلك أنَّ وجوده عليه السلام فيهم أقوى في دفع العذاب من استغفارهم، فأتى في الأول بالنفي الأخص؛ لأنَّ الاسم أخص من الفعل لدلالته على الثبوت، ونفي الأخص أعم من نفي الأعم، ونفي الأعم أخص من نفي الأخص»(١٨٥)؛ فاستند في إثبات ما قال على قاعدة أصولية، فنفي في الآية الأولى بالفعل للدلالة على أنَّ وجوده ﷺ بينهم أقوى في دفع العذاب عنهم من استغفارهم وهو المنفي الأعم، فنفي الأخص أقوى من نفي الأعم.

ج- ذكر البَسيلي كغيره من البلاغيين أنَّ الفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾(١٨٦)، فالتعبير بالفعل المضارع عن هذا القول رغم وقوعه في زمن ماضي أتى للدلالة «للإشارة إلى تجدد هذا القول منهم»(١٨٧).

تقديم المفردات بعضها على بعض:

في بعض الآيات تتقدم بعض المعطوفات على بعض، فيسعى العلماء في تبيان أسرار هذا التقديم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١٨٨)، ففي الآية تقديم للمغفرة على الرحمة، فما العلة في ذلك؟ العلة كما رأى البَسيلي أنَّ المغفرة راجعة لدفع المؤلم، وهو آكد(١٨٩)، ويقصد بالمؤلم الذنوب والخطايا التي اقترفها الإنسان فهو بين رجاء المغفرة وخوف الذنب، ولذا بُشر بالمغفرة مؤكدة باللام، وأمّا الرحمة فهي أعم؛ لأنَّها شاملة لمحو السيئة وكتابة الحسنة، ففي الآية عطف تأسيس(١٩٠).

ووزان البَسيلي بين موضعين من آية واحدة، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ﴾(١٩١)، فهذه الآية تحدثت عن القتل وأنواعه، وقُسمت فيها أحوال المقتول، ففي القسم الأول: مؤمن مقتول بالخطأ، فيجب على قاتله تحرير رقبة لا بد أن تكون مؤمنة، ثم عطف عليها الدية، وهي موطن المقارنة، بينما في القسم الثاني ذكر المؤمن لكنَّه ينتمي إلى عدو للمسلمين فديته تحرير رقبة مؤمنة، والقسم الثالث ذكر فيه مقتول غير مؤمن لكن ينتمي إلى جماعة عقدت ميثاق مع المسلمين، فكفارته الدية ثم تحرير رقبة مؤمنة أو صيام شهرين، فترتيب القسم الثالث مخالف لترتيب القسم الأول، والعلة في ذلك اختلاف ديانة المقتولين ورد لما قد يُتوهم فيه سقوط الدية كالقسم الثاني، فقُدمت اهتماماً بها(١٩٢).

ووازن بين تقديم المذكر في جريمة السرقة وتأخيره في جريمة الزنا في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾(١٩٣) وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾(١٩٤) وعلَّة ذلك الأكثرية، فـ «الزنا في الإناث أغلب، والسرقة في الذكور أغلب»(١٩٥)، وأمّا تقديم الزاني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾(١٩٦)، فلأنَّه الأصل في النكاح، وهو المخاطب والفاعل للوطء»(١٩٧).

ويرى البَسيلي أنَّ التقديم والتأخير يأتي للمحافظة على فواصل الآي كما في تعليله لتقديم السجود على القيام في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾(١٩٨)، فتأخير القيام ذكر أنّه يُراد به» ما بعد السجود، أو لرؤوس الآي»(١٩٩).

وأمَّا التعريف والتنكير في المفردة سواء كان في المسند أو المسند إليه أو في المتعلق، فلم يذكر البَسيلي التنكير إلا في المضاف في باب المتشابه اللفظي[٢٠٠]، وأما الثاني فلم أجد له فيه شيئاً.

وفي خاتمة هذا البحث خلصت إلى النتائج الآتية:

- تميزت لغة الإمام البَسيلي في هذا الكتاب بالسهولة والإيجاز في طرح الفكرة، والابتعاد عن الأساليب الملتوية والتعبيرات الغامضة.
- تأثر الإمام البَسيلي بشيخه ابن عرفة في تفسيره، خصوصاً في منهجه البلاغي.
- أوجز البسيلي في عرض آراءه في كثير من المسائل، والعلة في ذلك أنّ كتابه موجه للعلماء وطلابهم.
- تميز البَسيلي في دراسة بلاغة المفردة القرآنية في كتابه دون غيرها من أبواب البلاغة.
- ذكر البسيلي أحد عشر غرضاً في سر اختيار كلمات دون مرادفاتها، وهذا ينم عن عقلية متعمقة في فهم الفروق بين المفردات، وقدرته على ربطها بسياقها الذي وردت فيه.
- أجاد البسيلي في تبيان أسرار اختيار كلمات بهيئات صرفية معينة في القرآن دون غيرها سواء كان في المزيد أو في صيغ المبالغة أو في الجمع والإفراد.
- أكثر البَسيلي من تتبع المتشابهات اللفظية في القرآن الكريم، وأجاد في كثير مما ذكره.

الهوامش والتعليقات:

(١) حقق هذا الجزء الدكتور عبدالله الطوالة في رسالة دكتوراه عام، وطبعه عام ١٤١٢ـ/١٩٩٢ في دار كنوز اشبيليا.

(٢) حقق هذا الكتاب الأستاذ محمد الطبراني، وهو من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية.

(٣) الدكتور/ محمد الطبراني، (المصادر الأدبية والنحوية والبلاغية عند أبي العباس أحمد البَسيلي (تـ ٨٣٠هـ- ١٤٢٧م) من خلال مخطوط (التقييد الصغير في التفسير) حوليات كلية اللغة العربية بمراكش- المغرب، ع١٤, ٢٠٠٠م.

(٤) التقييد الكبير ١٩٩، ويُنظر في ترجمته: نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بن عمر التنبكتي١١٥، و شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ٣٦١/١، والأعلام ٢٢٧/١، ومعجم المفسرين لعادل نويهض ٧١، وتراجم المؤلفين التونسيين ١٠٣/١، والتفسير والمفسرون في غرب أفريقيا ١٧٦/١.

(٥) شجرة النور الزكية ٣٦١/١، وتراجم المؤلفين التونسيين ١٠٣/١.

(٦) الضوء اللامع ٢٦١/٢.

(٧) ذكره السخاوي بهذا الاسم ١٣٦/٢, ٦٨/٧ ولم يُترجم له، ويُنظر نكت وتنبيهات ٢/ ٧٤, ٢/ ٢٦٣.

(٨) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ٤٦١.

(٩) المصدر السابق٤٦٢.

(١٠) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣٧٠/٣، ونيل الابتهاج ٤٦١-٤٦٢.

(١١) نيل الابتهاج ١٠٧.

(١٢) يُنظر في ترجمته: الديباج المذهب ٣٣١/٢-٣٣٣، والوفيات لابن قنفذ ٣٧٩-٣٨٠، وذيل التقييد ٤٠١/١, وغاية النهاية في طبقات القرا، ٢١٤/٢, والضوء اللامع ٢٤٠/٩، ونيل الابتهاج ٤٦٣.

(١٣) يُنظر في ترجمته: الضوء اللامع ١٥١/٦، ونيل الابتهاج ٢٩٧، وشجرة النور الزكية ٣٥٠/١، ومعجم أعلام الجزائر ١/ ٢٥٠.

(١٤) يُنظر في ترجمته: الإحاطة في أخبار غرناطة ٤٩٧/٣، وذيل التقييد ١٠١/٢، ورفع الإصر لابن حجر ٢٣٣-٢٣٧.

(١٥) شجرة النور الزكية ٣٦١/١.
(١٦) يُنظر: نيل الابتهاج ٥٣٧، والأعلام ٧-٤-٥، ومعجم أعلام الجزائر ٨٠.
(١٧) الضوء اللامع ٢٦٨/١١، والجوهر والدرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر ٤٢٧/١, والأعلام ٢٣٠/١.
(١٨) تراجم المؤلفين التونسيين ١٠٥/١.
(١٩) نيل الابتهاج ١١٥، وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي ٧٣/٢.
(٢٠) المرجع السابق.
(٢١) يُنظر البحث البلاغي عند العرب للدكتور/ أحمد مطلوب ٥٦-٧٦.
(٢٢) يُنظر نكت وتنبيهات ٩٩/٢-١٠٠، ١٢٩/٢, ١٣١/٢.
(٢٣) سورة آل عمران ٢١.
(٢٤) الكشاف ٣٧٩/٢.
(٢٥) سورة البقرة ١٢٦.
(٢٦) نكت وتنبيهات ١٠٢/٢-١٠٣.
(٢٧) يُنظر المصدر السابق ١٤٨/٢.
(٢٨) المصدر السابق ١٧١/٢.
(٢٩) المصدر السابق ٢٢٣/٢.
(٣٠) سورة هود ١٤.
(٣١) نكت وتنبيهات ٢٢٨/٢.
(٣٢) سورة يونس ١٣.
(٣٣) سورة يوسف ٨٢.
(٣٤) سورة طه ١٩-٢٠.
(٣٥) نكت وتنبيهات ٣٤٧/٢، ويُنظر ٣٨٠/٢.
(٣٦) المصدر السابق ٥٢٢/٢.
(٣٧) سورة العنكبوت ٥٢.
(٣٨) نكت وتنبيهات ٣٨٠/٢، ويُنظر ٢٨٧/٢, ٣٦٨/٢, ٤٤٨/٢.
(٣٩) يُنظر المصدر السابق ٢/ ٤٥٠، ٤٨٩/٢.
(٤٠) سورة البقرة ٢٠.
(٤١) نكت وتنبيهات ٦٥/٢، ويُنظر ٢٧٦/٢، ٤٤٩/٢، ٤٥٣/٢، ٥٢٥/٢ .

(٤٢) المصدر السابق ٢/٦٦، ويُنظر ٢/١٤٩.
(٤٣) سورة يوسف ٣٨.
(٤٤) نكت وتنبيهات ٢/٢٥٧، ويُنظر ٢/٦٦، ٢/٣٣١، ٢/٣٣٥، ٢/٣٥١.
(٤٥) سورة الفتح ٦.
(٤٦) نكت وتنبيهات ٢/٥٣٧.
(٤٧) المصدر السابق ٢/٩٩-١٠٠. ويُنظر ٢/٢٢٨، ٢/١١٦.
(٤٨) يُنظر ٢/١٣١, ٢/١٦٥.
(٤٩) نكت وتنبيهات ٢/٢٩٠.
(٥٠) سورة النساء ٥٤.
(٥١) نكت وتنبيهات ٢/١٦٩، ٢/٢٢٨.
(٥٢) المصدر السابق ٢/٢٩٩.
(٥٣) المصدر السابق ٢/٢٩٢. ويُنظر ٢/٣٤٨، ٢/٣٥١.
(٥٤) المصدر السابق ٢/١٤٩. ويُنظر ٢/١٦٣.
(٥٥) سورة يونس ٣٧.
(٥٦) نكت وتنبيهات ٢/٢٢٠.
(٥٧) المصدر السابق/٤٧٩. ويُنظر ٢/٥٨٠.
(٥٨) سورة النساء ٥٦-٥٧.
(٥٩) حديث صحيح رواه الشيخان في صحيحهما؛ صحيح البخاري كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾٩/١٢٥، رقم الحديث (٧٤٢٢) وذكره في حديث آخر برقم (٧٥٥٣) ٩/١٦٠، وصحيح مسلم كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنَّها سبقت غضبه ١١٩٢، رقم الحديث (٦٩٦٩).
(٦٠) سورة آل عمران ١٤١.
(٦١) التقييد الكبير ٥٧٢.
(٦٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/١٠٦.
(٦٣) نكت وتنبيهات ٢/٢٥١.
(٦٤) يُنظر ٢/ ٢٢٠، ٢/ ٢٢٦.
(٦٥) يُنظر ٢/ ٢٣٧.
(٦٦) يُنظر ٢/١٥٩.

(٦٧) سورة البقرة ٤٩.
(٦٨) نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد ٦٦/٢، ويُنظر ٢٨٧/٢.
(٦٩) تفسير ابن عرفة ١١١/١.
(٧٠) سورة النساء ١.
(٧١) نكت وتنبيهات ١٤٨/٢-١٤٩.
(٧٢) التحرير والتنوير ٢١٧/٤.
(٧٣) إرشاد العقل السليم ١٠٩/٢.
(٧٤) سورة النساء ١١.
(٧٥) كقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ الأحزاب: ٦.
يُنظر مفاتيح الغيب للرازي ٥٠٩/٩.
(٧٦) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ٥٠٩-٥١٠.
(٧٧) سورة العنكبوت ٥٣.
(٧٨) نكت وتنبيهات ٣٨١/٢.
(٧٩) مفاتيح الغيب ٦٧/٢٥.
(٨٠) سورة النساء ٤٣.
(٨١) نكت وتنبيهات ١٤٩/٢.
(٨٢) البديع في علم العربية لابن الأثير ٨/١، والنحو الوافي ١٦/١.
(٨٣) سورة الصافات ٩٢.
(٨٤) نكت وتنبيهات ٢/ ٤٧٩، ويُنظر ٢٩٠/٢، ٣٧٧/٢.
(٨٥) المفردات في غريب القرآن ٨١١.
(٨٦) سورة آل عمران ١٦٨.
(٨٧) يُنظر نكت وتنبيهات ١٣١/٢.
(٨٨) سورة هود ١٠.
(٨٩) نكت وتنبيهات ٢٢٦/٢.
(٩٠) يُنظر الفروق في اللغة ٣٣٩.
(٩١) الديوان ٦٢٦

(٩٢) الديوان ١٣٠٥
(٩٣) الإعجاز البياني للقرآن للدكتور عائشة بنت الشاطئ ٢٣٦.
(٩٤) سورة يوسف ٦٧.
(٩٥) نكت وتنبيهات ٢/٢٦١.
(٩٦) التحرير والتنوير ١٣/٢١.
(٩٧) الجامع لأحكام القرآن ١١/٣٩٩.
(٩٨) سورة الشعراء ٣٣.
(٩٩) نكت وتنبيهات ٢/٣٧٠.
(١٠٠) الكشاف ٣/١١١.
(١٠١) المحرر الوجيز ٩/١٤.
(١٠٢) سورة الزمر ٤٥.
(١٠٣) نكت وتنبيهات ٢/٤٩٠.
(١٠٤) سورة يوسف ٣١.
(١٠٥) نكت وتنبيهات ٢/٢٥٤، ويُنظر ٢/٣٦٥.
(١٠٦) تفسير أبي السعود ٣/٤٢٤.
(١٠٧) سورة العنكبوت ٨.
(١٠٨) نكت وتنبيهات ٢/٣٧٧.
(١٠٩) تفسير الزمخشري ٣/١٩٧.
(١١٠) تفسير البيضاوي ٣/٣٠.
(١١١) يُنظر إرشاد العقل السليم ٥/١٤٩.
(١١٢) سورة الأحقاف ٣٥.
(١١٣) نكت وتنبيهات ٢/٥٢٥
(١١٤) التحرير والتنوير ٢٦/٦٨.
(١١٥) سورة الذاريات ٣٣.
(١١٦) نكت وتنبيهات ٢/٥٦٧
(١١٧) المحرر الوجيز ٢٧/٧٥.
(١١٨) التحرير والتنوير ٢٧/٦.
(١١٩) سورة النساء ٥٤.

(١٢٠) نكت وتنبيهات ١٦٩/٢
(١٢١) تفسير الرازي ١٠٢/١٠
(١٢٢) سورة هود ١٨.
(١٢٣) نكت وتنبيهات ٢٣٠/٢.
(١٢٤) لسان العرب مادة (ربب).
(١٢٥) سورة يوسف ٣٩.
(١٢٦) نكت وتنبيهات ٢٥٨/٢.
(١٢٧) سورة القصص ١١.
(١٢٨) يُنظر نكت وتنبيهات ٣٧٠/٢.
(١٢٩) سورة هود ٤٢.
(١٣٠) المحرر الوجيز ١٧٤/٣، والجامع لأحكام القرآن ٤٦/٩، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل ١٣٦/٣، ونظم الدرر ٢٨٨/٩-٢٨٩.
(١٣١) سورة إبراهيم ٢٢.
(١٣٢) يُنظر نكت وتنبيهات ٢٩٢/٢.
(١٣٣) الصحاح ١٠٤/١، ولسان العرب ٢٨٣/١.
(١٣٤) الفروق في اللغة ٣٩٢.
(١٣٥) الكتاب ٧١/٤.
(١٣٦) سورة الشعراء ٢١٠.
(١٣٧) نكت وتنبيهات ٣٥٣/٢.
(١٣٨) يُنظر تفسير الكشاف ١٣٠/٣-١٣١.
(١٣٩) سورة الشعراء ٢١٢.
(١٤٠) سورة النور ٤.
(١٤١) نكت وتنبيهات ٣٣٢/٢.
(١٤٢) سورة النساء ٧٦.
(١٤٣) نكت وتنبيهات ١٧٥/٢، ويُنظر ٢١٨/٢, ٥٧٥/٢.
(١٤٤) سورة الواقعة ٢٠.
(١٤٥) نكت وتنبيهات ٥٧٨/٢.
(١٤٦) المصدر السابق ٥٧٨/٢.

(١٤٧) سورة إبراهيم ٣٤.
(١٤٨) نكت وتنبيهات ٢/٢٩٩.
(١٤٩) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٤/١١٨.
(١٥٠) نكت وتنبيهات ٢/٢٧٦.
(١٥١) تفسير المظهري ١/١٦٠.
(١٥٢) النكت والعيون ٢/٩٢.
(١٥٣) المصدر السابق ٢/٩٢.
(١٥٤) يُنظر تفسير البيضاوي ١/١١٦، والتحرير والتنوير ٢/٧٢.
(١٥٥) يُنظر تفسير النسفي ١/٤٨٩.
(١٥٦) حاشية الشهاب ٢/٢٦٢.
(١٥٧) البحر المحيط ٣/١٧٠.
(١٥٨) التحرير والتنوير ٢/٧٧.
(١٥٩) التفسير القرآني للقرآن ٤/١١٩.
(١٦٠) يُنظر نكت وتنبيهات ٢/٢٨٩.
(١٦١) سورة الأعراف ٧٨.
(١٦٢) سورة هود ٦٧.
(١٦٣) نكت وتنبيهات ٢/٢٣٩.
(١٦٤) ملاك التأويل ١/٥٣٤.
(١٦٥) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ٢١٨.
(١٦٦) سورة الشعراء ١٠٥.
(١٦٧) شرح كتاب سيبويه ٤/٢٣١.
(١٦٨) نكت وتنبيهات ٢/٣٤٨.
(١٦٩) تفسير ابن عرفة ٣/٢٤٦.
(١٧٠) المصدر السابق.
(١٧١) سورة النمل ٣٥.
(١٧٢) سورة النمل ٣٤.
(١٧٣) نكت وتنبيهات ٢/٣٥٦.
(١٧٤) يُنظر نكت وتنبيهات ٢/٣٣٥.

(١٧٥) سورة النور ٦١.
(١٧٦) تفسير ابن عرفة ٣/٢٣٠.
(١٧٧) الكشاف ٣/٧٧.
(١٧٨) سورة النساء ٣٥.
(١٧٩) نكت وتنبيهات ٢/١٦٣.
(١٨٠) سورة آل عمران ١٣.
(١٨١) نكت وتنبيهات ٢/٩٩-١٠٠، ويُنظر ٢/١٣٥.
(١٨٢) سورة الرعد ٣٥.
(١٨٣) يُنظر نكت وتنبيهات ٢/٢٨٥.
(١٨٤) سورة الأنفال ٣٣.
(١٨٥) نكت وتنبيهات ٢/٢٠٩.
(١٨٦) سورة الرعد ٢٧.
(١٨٧) نكت وتنبيهات ٢/ ٢٨٢.
(١٨٨) سورة آل عمران ١٥٧.
(١٨٩) نكت وتنبيهات ٢/١٢٨.
(١٩٠) تفسير ابن عرفة ١/٤٣٥.
(١٩١) سورة النساء ٩٢.
(١٩٢) نكت وتنبيهات ٢/١٨٤.
(١٩٣) سورة المائدة ٣٨.
(١٩٤) سورة النور٢.
(١٩٥) نكت وتنبيهات ٢/٣٣٠.
(١٩٦) سورة النور ٣.
(١٩٧) نكت وتنبيهات ٢/٣٣١.
(١٩٨) سورة الفرقان ٦٤.
(١٩٩) نكت وتنبيهات ٢/٣٤٠.
(٢٠٠) المصدر السابق ٢/١٠٢.

المصادر والمراجع

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب، حقق نصَّه ووضع مقدمته وحواشيه/ محمد عبدالله عنان، ط١، مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لمحمد بن محمد بن مصطفى العمادي، حققه وخرج أحاديثه/ محمد علي جيلالي، المكتبة التوفيقية- القاهرة- ط١، ٢٠١٣م.
- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ (دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن) لمحمد الأمين الخضري، ط١، مطبعة الحسين الإسلامية- القاهرة- ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
الأعلام، لخير الدين بن حمود بن محمد الزركلي، ط١٥، دار العلم للملايين- بيروت- ٢٠٠٢م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لعبدالله بن عمر البيضاوي، تحقيق/ محمد صبحي حسن حلاق ومحمد أحمد الأطرش، ط١، دار الرشيد ومؤسسة الإيمان –دمشق وبيروت- ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- البحث البلاغي عند العرب لأحمد مطلوب، طبعة ١٩٨٢م، دار الجاحظ للنشر- بغداد-.
- البحر المحيط في التفسير لمحمد بن يوسف الأندلسي المعروف بأبي حيَّان، تحقيق/ محمد معتز كريم الدين وماهر حبّوش، ط١، دار الرسالة العلمية- دمشق- ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
- البديع في علم العربية لأبي السعادات مجد الدين ابن الأثير الجزري، تحقيق ودراسة الدكتور/ فتحي أحمد عليّ الدين، مطبوعات مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى- مكة- ١٤٢٠هـ.
- تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق/ أحمد عبدالغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين- بيروت- ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ، ط٢، دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٩٩٤م.
- تعريف الخلف برجال السلف لمحمد بن أبي القاسم الحفناوي، مطبعة بيير فونتانة الشرقية- الجزائر- ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.
- تفسير ابن عرفة لمحمد بن محمد بن عرفة الورغمي، تحقيق/ جلال الأسيوطي، ط١، دار الكتب العلمية –بيروت- ٢٠٠٨م.

- تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد التونسي، الدار التونسية للنشر- تونس- ١٩٨٤م.
- التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي- القاهرة-.
- التفسير المظهري لمحمد ثناء الله المظهري، تحقيق/ غلام نبي التونسي، طبعة ١٤١٢هـ، مكتبة الرشدية- باكستان.
- التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا لمحمد بن رزق طرهوني، ط١، دار ابن الجوزي- الدمام - ١٤٢٦هـ.
- التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد لأحمد بن محمد البَسيلي، تحقيق الدكتور/ عبدالله مطلق الطوالة، ط١، دار كنوز اشبيليا، الرياض- ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بترقيم محمد فؤاد عبدالباقي) ١٤٢٢هـ.
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان لمحمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق الدكتور/ عبدالله عبدالمحسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق/ إبراهيم باجس عبدالمجيد، ط١، دار ابن حزم — بيروت- ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق/ إبراهيم باجس عبدالمجيد، ط١، دار ابن حزم - بيروت- ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لأحمد بن علي العسقلاني المعروف بابن حجر، دائرة المعارف العثمانية، تصوير إحياء التراث العربي، ١٣٤٩هـ.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لإبراهيم بن علي بن محمد اليعمري، تحقيق وتعليق الدكتور/ محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر- القاهرة-.
- ديوان البحتري الوليد بن عبيد، عُني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه/ حسن كامل الصيرفي، ط٣، دار المعارف- القاهرة.
- ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد لمحمد بن أحمد بن علي الفاسي، تحقيق محمد صالح بن عبدالعزيز المراد، ط١، مطبوعات جامعة أم القرى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

- شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية لمحمد بن محمد بن عمر مخلوف، خرَّج حواشيه وعلق عليه عبدالمجيد خيّالي، ط١، دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- شرح كتاب سيبويه للحسن بن عبدالله السيرافي، تحقيق/ أحمد حسن مهدلي وعلي سيد علي، ط١، دار الكتب العلمية- بيروت-.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي، ط١، منشورات دار الجيل- بيروت- ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

عناية الراضي وكفاية القاضي لأحمد بن محمد الخفاجي، دار صادر- بيروت.

- غاية النهاية في طبقات القراء لمحمد بن محمد الجزري، عُني بنشره لأول مرة، ج برجستراسر، ط١، دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري، تحقيق/ جمال عبدالغني مدغمش، ط١، مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- الكتاب لبشر بن عمرو بن قنبر المعروف بسيبويه، تحقيق/ عبدالسلام هارون، ط٤، مكتبة الخانجي- القاهرة- طبعة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري، حقق الرواية/ محمد الصادق قمحاوي، الطبعة الأخيرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢.
- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن علي الإفريقي، ط٣، دار صادر- بيروت- ١٤١٤هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعبدالحق بن غالب الأندلسي، تحقيق/ الرحالة الفاروق وزملاؤه، ط٢، مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية- قطر- ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل لعبدالله بن أحمد النسفي، حققه وخرَّج أحاديثه/ يوسف علي بديوي، ط١، دار الكلم الطيب- بيروت- ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله r لمسلم بن الحجاج القشيري، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- المملكة العربية السعودية- ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- معجم أعلام الجزائر لعادل نويهض، ط٢، مؤسسة نويهض الثقافية- بيروت- ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر لعادل نويهض، ط٣، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر- بيروت- ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- مفاتيح الغيب لمحمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين، ط٣، دار إحياء التراث العربي- بيروت- ١٤٢٠هـ.
- المفردات في غريب القرآن للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق/ صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم- دمشق- ١٤١٢هـ.
- ملاك التأويل لأحمد بن إبراهيم الغرناطي، تحقيق/ سعيد الفلاح، ط٢، دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- المنهاج (شرح صحيح مسلم) لمحي الدين بن يحيى بن شرف النووي، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- النحو الوافي، لعباس حسن، ط١٩، دار المعارف- القاهرة- ٢٠١٦م.
- نظم الدرر في تناسي الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي، ط١، الطبعة الهندية- حيدر آباد- نسخة مصورة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠.
- النكت والعيون للماوردي علي بن محمد بن حبيب، راجعه وعلق عليه/ السيد بن عبدالمقصود عبدالرحيم، دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافية- بيروت.
- نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد لأحمد بن محمد البَسيلي، تحقيق الدكتور/ محمد الطبراني، ط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا بن أحمد التنبكتي، تحقيق الدكتور/ عبدالحميد بن عبدالله الهرامة، ط٢، دار الكاتب- طرابلس ليبيا- ٢٠٠٠م.
- الوفيات لأحمد بن حسين القسنطيني المعروف بابن قنفذ، تحقيق عادل نويهض، ط٤، دار الآفاق الجديدة- بيروت- ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

التَّحْلِيل النَّحْوِي لِتَرْكِيب (أيّ) وَصْلَة النّداء

د. رياض رزق الله أبو هولا

د. أحمد حسن الحسن

الجامعة الهاشمية - كلية الآداب - قسم اللغة العربية (الأردن)

ورد البحث في ١٢/ ١/ ١٤٤٠هـ وقُبل للنشر في ٧/ ٦/ ١٤٤٠هـ

التَّحْلِيل النَّحْوِي لِتَركِيب (أيّ) وَصْلة النّداء

د. رياض رزق اللّه أبو هولا
د. أحمد حسن الحسن

الملخص:

هذه دراسة تتناول (أيّ) وصلة النداء، وما تقع فيه من تركيب؛ إذ كانت أجزاءه محل خلاف بين العلماء، وقد خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج من أهمها: وجود عدد من الآراء المنسوبة إلى غير أصحابها في هذه المسألة وهي: القول بأنّ (أيّ) صلة لا وصلة لنداء ما فيه (أل) المنسوب للأخفش، وجواز نصب تابع (أيّ) عند المازني، وجواز الاستغناء عن وصف اسم الإشارة بما فيه (أل) المنسوب لابن مالك تبعًا لابن عصفور، وكلها آراء قد سبقوا إليها. كما تعددت الآراء في ماهية الـ(ها) الملحقة بـ(أيّ) ونظنّ أنّ الصواب أنّها تولدت من ألف الوصل في المعرف بعد (أيّ) لأجل تسهيل النطق. وكان إعراب التابع لـ(أيّ) محل خلاف، إذ أُعرب وصفًا أو عطف بيان، ونظن أنه لا إشكال في إعرابه منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأنه المنادى في الحقيقة، و(أيّ) وصلة لا محل لها من الإعراب، أو أن يعرب بدلًا منها.

الكلمات المفتاحية: أيّ- وصلة النداء- التركيب- التحليل.

Syntactic Analysis of the Vocative Particle ʔayy

Abstract:

This study investigates the debatable structures of the vocative particle *ʔayy*. This work has come up with a number of results, one of which is the existence of a number of opinions which were attributed to its non-founders in this concern. These opinions are: (i) *ʔayy* is a relative particle (*ṣilah*) , but not a vocative particle (*waṣlatu nidaaʔ)* which connects the defined vocative noun. This opinion was mistakenly attributed to Al-Akhfash. (ii) The license of assigning the accusative case for the *ʔaay*'s subordinate, which was mistakenly attributed to Al-Mazini. (iii) The optional dispense of the relative pronoun by the definite noun, which was mistakenly attributed to Ibn Malik after Ibn ʕAsfur. A variety of opinions have also been emerged concerning the -*ha* attached to *ʔayy*. The researches argue that it takes place from the relative*ʔalif* together with the defined noun after *ʔayy* for ease of articulation. The syntactic structure of nouns following *ʔayy* is also debatable. Some argue that it is parsed as an attribute (*waṣf*) , and some parse it as an appositive (*ʕaṭf bayaan*). However, the researchers have assumed that it is possible to be parsed as a primitive vocative noun which is assigned the diacritic -*u* replacing its accusative counterpart because it is the real vocative noun. *ʔayy* is therefore, a connecting particle which is not parsed syntactically.

Alternatively, they argue that the vocative noun is presumably parsed as an appositive of this particle.

Keywords: ʔayy, Vocative Particle, Construction, Analysis.

المقدمة:

البحث في العربية وعلومها باب يتسع لكل شغوف بها، فللعربية تراث عظيم تتميز به عن سائر الأمم ولغاتها، وفي مقدمة هذا التراث الدراسات النحوية واللغوية بشكل عام، والناظر فيه يجد أنه محاط بالدراسات والمؤلفات في كل فرع من فروع اللغة، بل في كل جزء من جزئياتها، فيظن الباحث أن لا موضع قدم له فيه، ومع هذا فما زال المجال رحبًا أمام كل دارس، إذ أتاحت التقانة لنا سرعة الوصول للمعلومة، وازدادت جهود التحقيق لتراث علمائنا الأكابر في مختلف العصور، وفيه ما فيه من تعدد الآراء، واختلاف وجهات النظر، ومن هنا جاء هذا البحث ساعيًا وراء تناول أداة من الأدوات النحوية، كثر الحديث حولها، والاختلاف في أحكامها، فلا نكاد نجد رأيًا فيها وفيما يتعلق بها من تركيب إلا وعليه اعتراض، بل وأُسْنِدت العديد من الآراء فيها لغير أصحابها، هذه الأداة هي (أيّ) الوصلة لنداء ما فيه (أل)، وعزز البحث فيها أن لا أحد –في حدود اطلاعي– أفردها في دراسة مستقلة بسط فيها آراء العلماء حتى عصرنا الحاضر.

ولقد تناولت المسائل متعلقة بهذه الأداة، وبتركيب الجملة الحاوي لها، وبناء على ذلك قسمت الدراسة إلى ثلاثة فصول، حمل الفصل الأول عنوان: بين يدي أيّ الوصلة، وقسمته إلى مبحثين حمل المبحث الأول عنوان: الدراسات السابقة لـ(أيّ) وصلة النداء، وكان المبحث الثاني بعنوان: أيّ من حيث إثبات الوجود أو نفيه. وقسمت كل فصل من الفصلين الثاني والثالث إلى ثلاثة مباحث، فكانت على النحو الآتي: الفصل الثاني: جملة (أيّ) وصلة النداء (التركيب والإعراب)، ومباحثه هي: المبحث الأول: تركيب (يا أيّها الرجل)، المبحث الثاني: حكم (الرجل) في قولنا: يا أيّها الرجلُ، من حيث البناء والإعراب، المبحث الثالث: جواز نصب (الرجل) في قولنا: يا أيّها الرجلُ عند المازني وموقف النحاة منه.

وحمل الفصل الثالث عنوان: أحكام التابع في جملة (أيّ) وصلة النداء، أمّا مباحثه فهي: المبحث الأول: الممنوع من الوصف، المبحث الثاني: وصف تابع (أيّ)، المبحث الثالث: موقع اللفظ التابع لـ(أيّ) من الإعراب. ثم أتبعت ذلك بخاتمة بينت فيها أهم ما وصلت إليه من نتائج.

وكان منهج البحث وصفيًا تحليليًا؛ إذ قمت بجمع الآراء التي تناول فيها العلماء هذه الأداة، ثم قمت بعرضها ومناقشتها من خلال كتب النحو وكتب اللغة المختلفة، محاولًا الوصول إلى ترجيح رأي غلب الظن بأنه صواب، أو تصويب معلومة سادت في إسناد رأي لعالم ما وهو ليس له أو مسبوق إليه.

الدراسات السابقة لـ (أيّ) وصلة النداء:

لا شك أنّ العلوم بشكل عام تتسم بالهرمية أو التكامل في تناولها، فكل دراسة لا بدّ أن تفيد من الدراسات السابقة التي تناولت الموضوع المقصود بالدراسة، أو عرجت على شيء من جزئياته، وقد تناول عدد من العلماء والباحثين (أيّ) الندائية بالدراسة، سواء أكان في بحث مستقل أم ضمن دراسة لموضوع أكبر منها. أمّا اللتان تناولتا (أيّ) الندائية فهما:

أولًا: رسالة (شفاء الغُلّة في تحقيق مسألة (أيّ) المجعولة وصلة) لأحمد بن محمد الحمويّ (١٠٩٨هـ) وهي من تحقيق الدكتور: حازم سعيد البياتي(١). وقد عرف المحقق بالمؤلف وآثاره والمخطوط الذي اعتمد عليه وما يقابله من نسخ أخرى، ثم جاء النص المحقق بسبع ورقات، حيث كانت الرسالة ردًا على ما قاله ابن كمال باشا من أنّ (أيًّا) منادى مفرد معرفة، ثم نقض كلامه وقال بأنها نكرة ولا تصلح أن تكون موصوفًا، وعليه لا بدّ من تقدير موصوف، فعند القول: يا أيّها الذين، يكون التقدير: يا أيها (القوم) الذين، وردّ عليه الحموي بأنّ العلماء جميعًا

أكدوا أنها معرفة توصف بأحد ثلاثة؛ ما اتصلت به (أل) من أسماء الأجناس، أو الاسم الموصول المقترن بـ(أل)، أو اسم الإشارة، ثم بيّن أن تقدير ابن كمال لا يخرج المسألة من باب الوصف؛ إذ إنّ المقدر يكون صفة لأيّ.

وذكر أنّ المعتد هو قول الرضي؛ إذ لا يجوز اجتماع أداتي تعريف (يا وأل) على معرف واحد، ولذا طلبوا اسمًا مبهمًا يقع عليه النداء، بشرط قطعه عن الإضافة، وراح يقارن بين (أيّ) وغيرها من المبهمات وأنّها أشدهن إبهامًا، رادًا على من التمس العذر لما قاله ابن كمال باشا من العلماء. وعرّج على أنّ الـ(ها) في أيها عوض عن محذوف، وهو المضاف إليه. وأكد على أنّ الاسم بعدها حقه الرفع؛ لأنه المقصود بالنداء، وذكر المسألة الخلافية بين الجواليقي وملك النحاة، والتي نقلها ابن الشجري حول حركة التابع لأيّ، فهل هي حركة إعراب أم بناء أم إتباع؟ وقد رجّح رأي الرضي بأنّ التابع يتبع حركة متبوعه في حالة الإعراب لا البناء، ولذلك نقول: جاءني هؤلاءِ الكرامُ لا الكرامِ.

وأطال الحديث أثناء هذه الرسالة عن الاسم الموصول (الذين) إذ هو ليس جمعًا للذي كما قال بذلك ابن كمال باشا؛ لأنّ الذين لا تكون إلا للعاقل، والذي تكون له ولغيره، والأصل أن يكون الجمع كالمفرد في دلالته.

ومن السابق نرى أن هذه الرسالة تختلف عمّا نحن بصدده من دراسة (لأيّ) في العديد من الجوانب؛ إذ تركز هذه الدراسة على البحث في صحة إسناد الآراء المتعلقة بهذه المسألة للعلماء، كما لم تعالج رسالة الحموي تركيب الجملة الندائية وآراء العلماء فيها، ولا الآراء في إعراب التابع، ولا حكم تابع التابع، واقتصر على رأي واحد في علة إضافة الـ(ها)، ولم يقف عند إجازتهم نصب التابع، والخلاف في ذلك، ولا الممنوع من الوصف في هذا الباب، وخلاف العلماء في تجويز غير

الثلاثة المذكورة، ويلاحظ أنه لم يذكر آراء متقدمي النحاة كسيبويه وغيره من النحاة، وغير ذلك من الجزئيات.

ثانيًا: بحث (الوصلة في النّداء) للدكتور محمد بن نجم السيّالي[٢]. حيث تناول الباحث نداء ما فيه (أل) بدون وصلة، والنداء مع وصلة النداء، وأشكال الوصلة في القرآن الكريم، ويقع البحث في تمهيد ومبحثين، عالج فيه عدم جواز نداء ما فيه (أل) مباشرة، إلا في خمسة مواضع هي: لفظ الجلالة، ومحكي الجمل كـ (يا المنطلق زيد)، والموصول المقترن بـ (أل)، وواسم الجنس المشبه به كـ (يا الأسد شدة)، ونداء الضرورة كما في الشعر. ثم تناول الوصلة في الحديث فبيّن معناها، وأنواعها، وعلة الإتيان بالوصلة، وذكر أنواع (أيّ) وذكر رأي الأخفش في كون الوصلة في الحقيقة هي أيّ الموصولة حذف صدر صلتها، وبيّن أن (أيّ) الوصلة لا تضاف لأنها مبهمة، وأن الـ(ها) تلحقها عوضًا عمّا فاتها من الإضافة.

ووضح الدكتور أنواع التابع لأي، وآراء العلماء في إعرابه، وذكر رأي المازني الذي يجيز النصب في هذا التابع، فرأى أن ذلك من قبيل القليل والكثير، ثمّ عرج على تابع التابع وجواز رفعه ونصبه، وتوقف أخيرًا عند (أيّ) الوصلة في القرآن الكريم من حيث صور مجيئها، وتكرارها، وتذكيرها وتأنيثها.

والحقيقة أنّ دراسة الدكتور السيّالي دراسة جيدة فيها ذكر للآراء المختلفة، بيد أن دراستي تختلف عنها في العديد من الجوانب؛ إذ إنها كما قلت سابقًا تركز على البحث في صحة إسناد الآراء في هذه المسألة لأصحابها، إذ يظهر من خلال البحث أن غالب الآراء المسندة للعلماء كانت آراءً لمن سبقهم من العلماء، ولقد اقتصر السيّالي على رأي واحد في علة إضافة الـ(ها)، ولم يفصل الحديث في حكم الرجل من حيث الإعراب والبناء وآراء العلماء قديمًا وحديثًا، ولم يتطرق للممنوع من الوصف في هذا الباب بشكل مفصل والخلاف فيه،

وإضافة لما سبق فإننا استعنّا بعلم الأصوات لتفسير بعض الأمور، وعرجنا على آراء بعض المحدثين، ولنا رأي آخر في إعراب (أيّ) وتابعها وجزئيات أخرى مبثوثة في ثنايا البحث.

وأمّا ما كان من دراسات ضمت بين طياتها الحديث عن (أيّ الوصلة) فقد اطلعت على رسالة للشيخ عثمان النجدي (١٠٩٧هـ) بعنوان (أيّ المشدّدة) وهي من تحقيق الدكتور عبد الفتاح الحموز(٣)، وقد عرف المحقق بالمؤلف وبآثاره، وبالمخطوط، وجاء النص المحقق ليتناول (أيّ) المشددة فبيّن أن أنواعها ستة هي: الشرطية والاستفهامية، والواقعة صفة والواقعة حالًا، والموصولة، ووصلة النداء، ثم ذكر المعرب والمبني منها. وفي حديثه عن (أيّ) وصلة النداء عرف بها بما لا يتجاوز صفحة واحدة؛ إذ ذكر أنه جيء بها للوصول للمنادى المعرف لعدم اجتماع أداتي تعريف عليه، وأن هاء التنبيه جاءت جبرًا لما فاتها من الإضافة، وأنّ ما بعدها نعت لها حكمه الرفع(٤). ويظهر للقارئ أن هذه الرسالة تعرف بأنواع (أيّ) وأنّ ما جاء من حديث حول (أيّ) الوصلة كان إشارة عامة تشبه إشارات المعاجم النحوية.

أمّا البحث الآخر فهو بحث الدكتور حماد الثمالي، وعنوانه: أيّ الموصولة في الدرس النحوي(٥). وظاهر من خلال عنوانه أن الدراسة تتناول (أيًّا) الموصولة، ولذا لم يعرج الكاتب على (أيّ) وصلة النداء إلا من باب ذكرها عند الحديث عن أقسام (أيّ) وأنّها مبنية لا معربة.

أيّ من حيث إثبات الوجود أو نفيه:

لا يكاد المتتبع لكلام العلماء يجد خلافًا في إثباتهم لوجود قسم من أقسام (أيّ) يطلق عليه: أي الوصلة لنداء ما فيه (أل)(٦) أو الندائية(٧)، قال سيبويه نقلًا

لتساؤل بعضهم: «هل رأيتم شيئا يكون موصوفا لا يُسكَت عليه؟ فقيل لهم: نعم، يا أيها الرجل. الرجل وصفٌ لقوله يا أيها، ولا يجوز أن يُسكَت على يا أيّها. فرُب اسم لا يحسن عليه عندهم السكوت حتى يصفوه وحتى يصير وصفُه عندهم كأنه به يتم الاسم، لأنهم إنما جاؤوا بـ(يا أيها) ليصلوا إلى نداء الذي فيه الألف واللام»(٨). هذا الكلام قال به غالب النحاة(٩). وقد قاس بعضهم (أي) بـ(ذي) وذلك أن (أيًا) إنما جيء بها ليتوصل إلى نداء ما فيه الألف واللام؛ إذ كانت أدوات النداء لا تجتمع معهما، فأتوا بـ(أي) لذلك، كما أتوا بـ(ذي) التي بمعنى (صاحب) ليتوصل بها إلى الوصف بأسماء الأجناس»(١٠).

وقد علل النحاة سبب اختيار (أيّ) دون غيرها من المبهمات لتقوم بوظيفة الوصل، قال ابن الوراق: «فإن قال قائل: فمن أين خصت (أَي) من بين سائر الأَسماء المبهمة بأن جعلت وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللّام؟ قيل له: لِأَن (أيًا) لا معنى لها في نفسها، وإنّما يحسن معناها لما يُضَاف إِليها. وأما (هذا وذاك) وما أشبههما فلها معان في أَنْفسها، فلمَّا أَرادوا إِدْخال اسم لغير فائدة في نفسه، بل للوصلة إلى غيره، كان (أيًا)، إِذْ لا معنى له في نفسه، فكان أولى بالزِّيادة مِمَّا لهُ معنى في نَفسه»(١١).

وينقل العلماء مخالفًا واحدًا لهذا الرأي؛ إذ يبيّنون أنّ له رأيين(١٢)، بيد أنهم لا ينقلون إلا الرأي المخالف وهو كون (أي) موصولة وليست وصلة. هذا المخالف هو الأخفش، ولعل أول من نقل لنا هذه الرأي هو الزجاج، ثم تناقله العلماء من بعده، حيث قال: «وأما إِعراب (يَا أيُّها)(١٣) فأي:اسمٌ مُبْهَم مبني على الضم؛ لأنه منادى مفرد والناس صفة لأي لازمة... وقال أبو الحسن الأخفش إن الرجل **أنْ يَكون صلة لأي أقيس**، وليس أحد من البصريين يتابعه على هذا القول»(١٤). وقال: «وقوله عزَّ وجلَّ: (يَا أَيُّهَا)(١٥) نداء مفرد مبهم و(الذين) في

موضع رفع صفة لـ(أَيُّهَا). هذا مذهب الخَليل وسيبويه، وأما مذهب الأخفش. **فالذين صلة لأي** وموضع الذين رفع بإضمار الذكر العائد على أي كأنَّه على مذهب الأخفش بمنزلة قولك: يا من الذين، أي يا من هم الذين»[١٦]. أي أنّ «المرفوع بعدها خبر لمبتدأ محذوف، والجملة صلة (لأي) ولذلك التزم رفع ما جاء بعدها؛ لأنه خبر لمبتدأ محذوف»[١٧]. وعليه يكون تقدير جملة: يا أيّها الرجل: «يا أيها هو الرجل، كأنه:يا الذي هو الرجل، ولا يتكلم به»[١٨]. والعلة في ذلك «أن (أيا) لا تكون اسمًا في غير الاستفهام والجزاء إلا بصلة»[١٩].

ومن هنا انقسم العلماء وفق هذا الرأي إلى قسمين؛ قسم خالفه ولم يقبله، وقسم خالفه -أيضًا- وذلك بذكره (أيّ) الوصلة كقسم من أقسام أي، بيد أنه رد على بعض الاعتراضات التي وجهها القسم الأول، ولعل هذا يشير إلى موضوعية هؤلاء العلماء. وقد تمثلت اعتراضات القسم الأول بالآتي[٢٠].

أولًا: أنه يلزمه النصب لأنه منادى مطوَّل.

ثانيًا: أنه لو جاز كونها موصولًة لجاز ظهور المبتدأ، ولكان أولى من الحذف، لأن كمال الصلة أولى من اختصارها، فأن لم يفعلوا ذلك قط دليل على أنها على غير ما قال.

ثالثًا: أنها لو كانت موصولة لجاز أن يغني عن المرفوع بعدها جملة فعلية، وظرف ومجرور، ولجاز أن يكون بغير ألف ولام، كما يجوز ذلك في (أيّ) في غير النداء، وفي جميع الموصولات مطلقا وإن قل، لكنهم التزموا معها ذا الألف واللام دون زيادة، فدل على أنها غير موصولة، ولذلك قيل: لَيْسَ لنا عَائِد يجب حذفه وَلَا مَوْصُول الْتزم كَون صلته جملَة اسمية.

رابعًا: أن كون (أي) لا تكون اسما في غير الاستفهام والجزاء إلا بصلة قول فاسد؛ لأنه لو كان الأمر على ما ذكر؛ لما جاز ضمه؛ لأنه لا يبنى في النداء ما كان

موصولا، ألا ترى أنه لا يقال:يا خير من زيد (بالضم) إنما تقول: يا خيرا من زيد (بالنصب)؛ لأن (من زيد) من تمام (خير) فكذلك (الرجل) من تمام (أي).

خامسًا: أَنّ أيا الموصولة لا تكون إِلَّا مُضَافَة لفظا أَو نِيَّة وَالْإِضَافَة منتفية فِي هَذِه بوجهيها.

أمّا الردود على اعتراضات القسم الأول فهي كالآتي(٢١):

أولًا: رد على لزوم النصب لأن المنادى مطول بأن هذا لا يلزم؛ لأن الصلة لا موضع لها من الإعراب، وإنما يطول الاسم بالمعمول. وأيضًا لو كان كذلك للزم النصب في (بعلبك) ونحوه إذا نودي، وليس كذلك.

ثانيًا: رد على مسألة حذف العائد، وتخصيص الجملة الاسمية بالصلة: أَنَّهُم التزموا فِيهَا ضربا من الصِّلَة كَمَا التزموا فِيهَا ضربا من الصّفة؛ ومجيء الاسم بعدها إما على طريق الصفة -وهذا المذهب الأول- وإما أن يكون خبرًا لمبتدأ مضمر، والجملة صلة لأي على مذهب الأخفش، وعلق أبو حيان على هذا الرد بقوله: «وما ذهب إليه أولى -يقصد الأخفش- لأنها لا تكون اسمًا في غير الاستفهام والجزاء والوصف بها إلا بصلة»(٢٢).

ثالثًا: وفي مسألة حذف المبتدأ، فقد أجَاب عنه أَبُو حَيَّان(٢٣) وابن هشام(٢٤) بِأَن لَهُ أَن يَقُول: إِنَّهُم التزموا حذفه فِي هَذَا الْبَاب لِأَن النداء بَاب حذف وَتَخْفِيف بِدَلِيل جَوَاز التَّرْخِيم فِيهِ بِخِلَاف غَيره. وبقَوْلهم: لَا سِيمَا زيدٌ بِالرَّفْع كَذَلِك، فزيد خبر لمبتدأ محذوف وقد التزمت العرب الحذف عند رفعه، أي (زيد).

رابعًا: أجِيب عن ضم الاسم الواقع بعدها:بأَن ذَلِك إِنَّمَا يلْزم إذا قدرت معربة قبل النداء، أمّا إِذا قدرت مبنية على الضم قبل النداء، فلا يلزم ذلك؛ لأن المبني قبل النداء يبقى في النداء على ما كان عليه، كما أن أي الموصولة إذا حذف أحد طرفي صلتها جاز فيها البناء والإعراب، فإن أعربت ودخل عليها حرف

النداء وجب نصبها، وإلا جانبه الصواب. وعلاوة على ذلك فإن البناء عند حذف صدر الصلة أكثر من الإعراب فالتزَموه.

خامسًا: رد على كون الموصولة غير مضافة لا لفظًا ولا تقديرًا: بِأَن (هَا) عوضت فِيهَا من الْمُضَاف الْمَحْذُوف فجرت مجْرَاه فَكَأَنَّهَا مُضَاف.

إنّنا ومن خلال عرض الآراء السابقة نرى أن قسطًا كبيرًا من تفكير العلماء صرف لبيان صحة التوجه من خطئه، ونحن هنا لا نحاول البحث عن ترجيح رأي على آخر؛ إذ كون (أي) الوصلة للمنادى هي قسم من أقسام (أيّ) عمومًا يعد أمرًا قارًا لدى جمهور النحاة، فلا نجد -في حدود اطلاعي- مخالفًا معروفًا لا من البصرة ولا من الكوفة، عدا ما نقل عن الأخفش. والسعي هنا ينصرف للبحث في مدى صحة إسناد هذا الرأي للأخفش، ولقد علمنا سابقًا أنّ له قولين، أمّا الرأي الأول فمثبت قد ورد في كتابه المعاني إذ يقول:﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾[٢٥] ف(ما) ههنا اسم ليست له صلة لأنك إن جعلت ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ صلة لـ(ما) صار كقولك: إنّ اللهَ نِعْمَ الشيء، أو:نعم شيئًا فهذا ليس بكلام. ولكن تجعل (ما) اسما وحدها كما تقول:غَسَلتُه غَسْلاً نِعِمّا؛ تريد به: نِعْمَ غَسْلاً. فإن قيلَ: كيفَ تكونُ (ما) اسمًا وحدها وهي لا يتكلم بها وحدها؟ قلتُ:هي بمنزلة (يا أيُّها الرجل) لأن «أيًا» ههنا اسم، ولا يتكلم به وحده حتى يوصف فصار (ما) مثل الموصوف ها هنا»[٢٦]. وهذا صريح اعتراف منه بكون (أي) اسم مبهم لا يتكلم به وحده، وما بعده صفة له لا صلة.

أمّا الرأي الثاني فلا نجد له نصًا في كلام الأخفش، بل نُقل عنه نقلًا، والعبارتان اللتان نقلتا عنه -كما رأينا سابقًا- هما قوله: «إنّ «أَيًّا»لا تكون اسمًا في غير الاستفهام والجزاءِ إلّا بِصِلةٍ». وقوله:«إِن الرجل أنْ يَكون صلة لأي أقيس»، ونقول:

أولًا: العبارة الأولى هي للخليل -رحمه الله- وقد نص سيبويه على ذلك، قال: «وسألتُ الخليل -رحمه الله- عن قولهم:اضربْ أيُّهم أفضل؟ فقال: القياس النصب، كما تقول:اضرب الذي أفضلُ، **لأن أيًّا في غير الجزاء والاستفهام بمنزلة الذي**، كما أن مَن في غير الجزاء والاستفهام بمنزلة الذي»(٢٧). فهل كان الخليل مستحضرًا لجميع أقسام (أي) عندما قال هذا الرأي؟ ولماذا لم يذكر سيبويه هذا الرأي عند حديثه عن أي التي يُتوصل بها للنداء؟ ثم لماذا أثبت العلماء هذا الرأي للأخفش؟!

ثانيًا: قال الفارسي: «في الكتاب:واعلم أن قولك:**يا أيُّها الرّجلُ أن يكون الرجلُ صلة لأي أقيس؛ لأن (أيّ) لا يكون اسمًا في غير الاستفهام والمجازاة إلا صلة. قال الأخفش:ليس هذا قول سيبويه**. قال أبو علي: لو كان الرجل في (يا أيُّها الرجلُ) صلة غير صفة لوجب أن يكون جملة، ولم يكن اسمًا مفردًا؛ لأن الأسماء الموصولة لا توصل إلا بِجُمَل، والصفة هنا تبين كما تبين الصلة فإن أراد هذا القائل بقوله: صلة أنها تبْيين كان له وجه، وإن أراد به غير ذلك لم يَجُز لما بيَّنا»(٢٨)، ونرى من خلال كلام الفارسي، ما يأتي:

أولًا: أن العبارة السابقة -في الحديث عن يا أيها الرجل- ليست من متن كتاب سيبويه وإنما هي حاشية عليه، علق بها أحدهم.

ثانيًا: نفي الأخفش أن تكون من كلام سيبويه دليل حفظه لكلام سيبويه، واستهجانُهُ لها دليل كونها ليست من كلامه -أقصد الأخفش- وإلا لصرح بذلك.

ثالثًا: إنّ القائل لهذه العبارة إما معاصر للأخفش أو سابق له.

رابعًا: قول الفارسي: وفي الكتاب، دليل على وجود نسخة من الكتاب ذات حواشٍ وبها هذا التعليق، فها هو الكتاب بين أيدينا ولا توجد فيه هذه العبارة،

وعلاوة على ذلك فإننا لا نعلم بوجود حاشية للأخفش على كتاب سيبويه، وإنْ وجدت لماذا خص الأخفش هذه العبارة بهذا التعليق دون غيرها؟!

إنّ الناظر في ما سبق يجد أنّ العلماء صرفوا وقتًا وجهدًا للرد على رأي نُسِبَ للأخفش، وهو ليس له، ولو توقف العلماء عند هذا الرأي مسندًا إلى (قال بعضهم) لما أولوه هذا الاهتمام، ولكنه نُسب للأخفش، وهو من هو، ولعل الزجاج عندما قال ذلك –ونحن رأينا التطابق التام في العبارة المنسوبة للأخفش، وتعليقه عليها– ظنَّ أنها له فأسندها إليه، ثم تناقلها العلماء بعد ذلك.

– جملة (أيّ) وصلة النداء (التركيب والإعراب):

• تركيب (يا أيها الرجل):

سنحاول في هذا المبحث أن نبيّن رأي العلماء في أصل هذا التركيب الندائي، ومن أين جاءت (ها) فيه. لقد انقسم العلماء في هذا المقام إلى عدة آراء، وهي:

الرأي الأول: قال سيبويه في: (باب لا يكون الوصف المفرد فيه إلا رفعا، ولا يقع في موقعه غيرُ المفرد): "وذلك قولك، يا أيها الرجلُ، ويا أيها الرجلان، ويا أيها المرأتان. فأيُّ ههنا فيما زعم الخليل رحمه الله كقولك يا هذا، والرجل وصفٌ له كما يكون وصفا لهذا. وإنما صار وصفه لا يكون فيه إلا الرفع لأنك لا تستطيع أن تقول: يا أيُّ ولا يا أيها وتسكت، لأنه مبهَم يلزمه التفسيرُ، فصار هو والرجل بمنزلة اسمٍ واحد، كأنك قلت: يا رجل" (٢٩). وقال في موضع آخر: "وأما الألف والهاء اللتان لحقتا أي توكيدًا، فكأنك كررت يا مرتين إذا قلت: يا أيها، وصار الاسم بينهما كما صار هو بين (ها) و(ذا) إذا قلت ها هو ذا... وذلك أنه إذا قال: يا رجل ويا فاسقُ، فمعناه كمعنى يا أيها الفاسقُ ويا

أيها الرجل، وصار معرفة لأنك أشرت إليه وقصدت قصدَه، واكتفيت بهذا عن الألف واللام، وصار كالأسماء التي هي للإشارة"[٣٠].

بناء على كلام سيبويه السابق يمكن أن نلحظ ما يلي:

أولًا: يعدّ هذا التركيب بمثابة الكلمة الواحدة التي لا يتم معناها إلا بنطق حروفها كاملة؛ فلا يجوز السكوت على (يا أي) بل لا بدّ من وصل الكلام؛ ليتضح المبهم (أي).

ثانيًا: إنّ الوصف -على حد حكم سيبويه- الواقع بعد (أيها) وصف لازم.

ثالثًا: يا أيها الرجل = يا أي يا رجل، فـ(يا) الثانية توكيد للأولى.

رابعًا: أنّ (رجل) في قولنا: يا رجل معرفة ولا حاجة له بـ(أل)، وذلك بسبب القصد والإشارة، وهو مساوٍ لاسم الإشارة المعرّف من خلال المشار إليه[٣١]، وبناء على ذلك فإن (رجل) = (أيها الرجل).

ولقد أخذ بهذا الرأي عدد من العلماء منهم: النحاس[٣٢]، والشاطبي[٣٣]، والسيوطي[٣٤]. لكننا نثير تساؤلًا مفاده، هل حقيقة (يا رجل) تساوي (يا أيها الرجل)، والمثير لهذا التساؤل أن (أيها) لا تدخل على الأسماء الملازمة لـ(أل) فقط بل تدخل عليها وعلى غيرها، فلعل فيها نوعًا من تعظيم الصفة، سواء أكانت سلبًا أم إيجابًا.

الرأي الثاني: وهو تبع للرأي الأول في كون التركيب السابق لا يمكن السكوت عند جزئه الأول، بيد أنهم يرون أنّ: "(ها) لازمة لأي عوض عما حذف منها لِلإضافة، وزيادة في التنبيه. وأي في غير النداءِ لا يكون فيها (هاء) ويحذف معها الذِّكْر العائد عليها، تقول: أضرب أيُّهم أفضل، وأيُّهم هو أفضل- تريد الذي هو أفضل"[٣٥]. وعليه فلمّا كانت (أيّ) في أقسامها الأخرى ملازمة للإضافة،

(وأيّ) الوصلة للمنادى قسم من أقسام (أيّ) إلا أنها ليست مُضافة لا لفظًا ولا تقديرًا فلما فاتها ذلك عوضت بـ(ها) التنبيه. ومن الذين قالوا بهذا الرأي: ابن الشجري(٣٦)، وابن الخشاب(٣٧)، وابن يعيش(٣٨)، والمرادي(٣٩)، والشاطبي(٤٠)، والأشموني(٤١)، والسيوطي(٤٢)، والنجدي(٤٣)، والدقر(٤٤).

ولعلنا نلاحظ أنّ كلًا من الشاطبي، والسيوطي قد تكرر اسمه مع الرأيين! وذلك لأنّ كلًا منهما جمع بينهما، وهذا ما فعله أبو حيان قبلهما إذ يقول: ‘‘و(ها) ألزمت (أيّا) عوضًا عن المحذوف منها، وهو المضاف، ألا ترى أنها لا تستعمل في غير النداء إلا مضافة في اللفظ والمعنى، وكان العوض (ها) لما فيه من التأكيد لمعنى النداء‘‘(٤٥).

الرأي الثالث: وقد ذكره ابن الوراق، فقال: ‘‘إنّ ما فيه الألف واللّام هو المنادى فِي المعنى، فلمَّا لم يَصح دخول (يَا) عليه أدخلوا على (أَيّ) (هَا) للتنْبِيه، فَلْيَكُن قَائِما مقَام حرف النداء الَّذِي يسْتَحقّهُ الْألف واللّام‘‘(٤٦). وكأن التركيب يصبح بناؤه بناء هذا الرأي على النحو الآتي: يا أيُّ يا رجل، وفي الحقيقة فإنّ هذا الرأي لا يتجاوز رأي سيبويه السابق، وقد قال به ابن الحاجب(٤٧). وقريب من هذا الرأي رأي ملك النحاة، إذ إنهم ’’لمّا قصدوا تأكيد التنبيه، وقدّروا تكرير حرف النداء، كرهوا التكرير فعوّضوا عن حرف النداء ثانيًا (ها) في (أيّها) وثالثًا الألف واللام‘‘(٤٨)، فيصبح التقدير على النحو الآتي: يا أيّ يا يا رجل.

الرأي الرابع: وهو مذهب الكوفيين وابن كيسان: إذ يرون أنّ (ها) هي (ها) التنبيه الداخلة على اسم الإشارة، الواجب وجوده مع التركيب (يا أيهذا الرجل) وقد يحذف مع بقاء (ها) التنبيه مشيرًا إليه، ثم إنّ (أيًا) مكتفية يوقف عندها؛ إذ هي منادى وليست موصوفة، فليس الوصف بعدها لازمًا؛ إذ لا

تشكل معه كلًا متلازمًا. قال ثعلب: "وقال سيبويه والخليل وأصحابهما: يا تنبيه، وها تنبيه وأيُّ المنادى، والرجل وما جاء بعد (يا أيها) وصف لازم، قال[يقصد نفسه]: وهذا لا يصح. قال الفراء: الدليل على أنه ليس كما قالوا إنه يقال: يا أيُّهذا أقبل، فيُسقط الثاني الذي زُعِم أنه وصف لازم. ولكن قال الفراء: يا أيّهذا اكتفوا بالرجل من ذا، وبذا من الرجل، ويجمعون بينهما فيقولون: يا أيهذا الرجل، وأنشد:

أَيُّهَذَانِ كُلَا زَادَكُمَا وَذَرَانِي وَاغِلًا فِيمَنْ يَغِلْ(٤٩)

فجاء بهذا وأسقط الرجل وتأويله: يا أيُّ ثم لم يعرف ما بعده، فقال هو: هذا الرجل، فاستأنف به فلذلك قالوا: يا أيهذا الرجل ذو المال، فردوا ذا المال على الرجل"(٥٠).

وقد ردّ هذا المذهب لأنهم "إذا جعلوا ما بعد (أيّ) مستأنفًا صار خبرًا، واحتاج إلى الخبر، والمخبر هو المنادي، وإنّما يشار إلى اسم الإشارة إلى غير المخبر، ولا يشار به إلى نفسه، ألا ترى أنه لا يجوز أن توقع اسم الإشارة على مخاطَبك فتقول: هذا قام، تريد: أنت قمت"(٥١). وبهذا نرى أن التأويل الذي ذهب إليه الكوفيون تأويل ناقص في دلالته فلم يلق قبولًا حتى عند ابن كيسان، ولذا اتخذ رأيًا مستقلًا.

الرأي الخامس: رأي ابن كيسان، قال أبو حيان: "وقال ابن كيسان لـمّا رأى فساد مذهب الكوفيين، وفسد عنده مذهب البصريين في دعواهم أنّ الرجل صفة لأي لما يلزم فيه من الفصل بين الموصوف وصفته بـ (ها) التي للتنبيه، وهما كالشيء الواحد، قال: ولم نسمع أحدًا يقول: يا أيُّ الرجلُ، فهذا مخالف لسائر الموصوفات. قال: أيُّ منادى، وهذا تبيين له؛ لأنه يفهم منه أنّ المنادى بالحضرة

حيث يشار إليه، والرجل تبيين لاسم الإشارة... وإذا قالوا: يا أيها الرجل فـ(ها) عنده يراد بها هذا؛ لأنهم حذفوا (ذا) واكتفوا بـ(ها) التي للتنبيه منها... و(الرجل) نعت لـ(ها) كما هو نعت لـ(ذا)، لأن معنى (ها) وهذا واحد"[٥٢].

لقد أوقع ابن كيسان نفسه في إشكالية؛ إذ مادام (الرجل) يبيّن (هذا) و(هذا) يبيّن (أيّ) فالذي يبيّن الثاني قادر على تبيين الأول "ولزم على هذا المذهب إجازة (يا أيُّ الرجل)؛ فذهب إلى إجازته، ولا يحفظ من كلامهم"[٥٣]. فلمّا كان هذا الأسلوب ليس من كلام العرب، ولا يحفظ من كلامهم إسقاط (ها) التنبيه كان توجه ابن كيسان توجهًا غير موفق عند باقي العلماء.

إنّ الناظر فيما سبق من آراء يجد أن تعدد هذه الآراء يدل على عدم وجود دليل مادي يشير إلى الرأي الصحيح، وإنما هي طروحات فكريه لم تصل إلى درجة القوة فكان الطعن والرفض مصيرها، ولا نريد هنا أن نقول: إنّنا نملك الرأي الصواب، بل نريد أن ننطلق من الواقع الاستعمالي المنطوق، بعيدًا عن التحليلات الفلسفية؛ إذ اللغة ليست خاضعة للمنطق المطرد، بل لا تكاد تجد قاعدة إلا وخولفت من اللغة ذاتها، ولهذا نقول:

أولًا: إنّ ما قاله سيبويه ومن قبله الخليل أمر يطابق الواقع إذ إنّ الناطق لهذا النداء لا يتوقف عند أي وليست هي المقصودة بالنداء. "أمّا إن قصد نداء اسم الإشارة، وقدر الوقف عليه" بأن عرفه المخاطب بدون نعت، كوضع اليد عليه فلا يلزم نعته، ولا رفع نعت نعته؛ لأن حكم نعت النعت في هذه الحالة هو حكم النعت"[٥٤].

ثانيًا: يؤكد الكلام السابق هذا القرآن الذي بين أيدينا وقراءاته؛ إذ ورد هذا الأسلوب نحو مئة وثلاث وأربعين مرة ولا نجد قراءة تقف عند أيّ. بيد أنّنا

يجب أن نفرق بين الترابط الدلالي في اكتمال الدلالة المقصودة عند المتكلم، وبين الإعراب الذي لا يخضع للصحة الدلالية في بعض الأحيان، كالجر على الجوار، والجمل الصحيحة تركيبًا الفاسدة دلالة.

ثالثًا: يعدُّ رأي الكوفيين رأيًا متكلفًا مجانبًا للواقع اللغوي المنطوق، بل ولا يقصده المنادي إذ ذاك، ولهذا نجد ابن كيسان قد عدل عنه، ولهذا أيضًا يقول الدكتور عبد الفتاح الحموز: "وهو تكلّف لا مُحوج إليه"(٥٥). وعلاوة على هذا فإنّ التقدير الذي قال به الكوفيون لا يليق بمقام الله؛ إذ ورد هذا الأسلوب في كتاب الله كثيرًا فهل يجوز أن يكون الله نادى ثم لم يعرف ماذا بعد!

رابعًا: يعد رأي ابن كيسان رفضًا لرأي البصريين ولرأي الكوفيين، لكنه لم يلق قبولًا؛ لأنه أدخل نفسه في دائرة إجازة غير المسموع، واللغة تقعد على أساس المسموع.

خامسًا: قول من قال: إنّ (ها) عوض عمّا فاتها من الإضافة وكأنه أمر واجب أمر ترفضه اللغة؛ لأن اللغة ليست قانونًا علميًا، بل الواقع اللغوي يشير إلى أنّ لكل قاعدة شواذ، فالأفعال مبنية والمضارع معرب، والأسماء معربة ومنها المبني، وغير ذلك الكثير الكثير، بل إنّ أيّ الموصولة تعرب في حالات وتبنى في أخرى.

سادسًا: قول سيبويه بأنّ (ها) توكيد أمر فيه نظر؛ لأنّ التوكيد يحصل في حال وقع السامع في شك من قول المخاطب، ورأى المتكلم أو شعر أنّه بحاجة لتوكيد كلامه حتى يصدقه السامع، أو لأنّ المتكلم يعلم مسبقًا بتكذيب السامع فيؤكد كلامه، والتركيب هنا لا يعدو أن يكون نداء يأتي بعده الخبر المحتمل للتصديق والتكذيب.

سابعًا: القول بأنّ (ها) بقية من اسم الإشارة يجعلنا نستحضره ذهنيًا في كل التراكيب، فنقول: يا أيهذا الرجل، ويا أيهذا الذي، ويا أيتهذه التي... وذلك مع

المفرد والمثنى والجمع ومع المذكر والمؤنث، لكن غالب هذه الصيغ التي في المثنى والجمع لم تسمع عن العرب(٥٦)، بل وحتى التي مع المفرد المؤنث(٥٧) وعلاوة على ذلك فإنّ العرب استعملت تركيب: يا أيّها الرجل، ويا أيهذا الرجل(٥٨) في آن معًا فهل هما متساويان في الدلالة؟

ولعلني أقول: إنّ الناظر في هذا التركيب، يجد أنّ ما قاله سيبويه من أن (يا أيها الرجل) كلام لا يسكت عند أحد أجزائه أمر يصدِّقه الواقع، بيد أنّ (ها) التي لحقت (أيّ) جيء به لتسهيل النطق، من أجل الوصول إلى (أل) (يا أيُّ الْرجل) فهمزة الوصل ساقطة في درج الكلام واللام ساكنة، و(أيّ) مبنية على الضم، ولو أراد الناطق أن ينطق بإظهار حركة البناء دون الاعتماد على الألف بعدها، وهي همزة الوصل لاضطرّ للوقف، وهذا مالا يحصل في النطق، وعند وصل الكلام نجد صعوبة في النطق، ونعتمد على همزة الوصل التي هي فتحتين (يا أيُّ َ َلْرجل) فننطق بواحدة، ونسقط الأخرى، فيصبح الاعتماد ضعيفًا، وكأنه نطق بهاء خفيّة، ثم تحولت هاء قوية هذا من جهة، علاوة على أنها لا تؤثر على الدلالة من جهة أخرى.

وبعد هذا الاحتياج للتسهيل أصبح تركيب (أيّ مع ها) تركيبًا يشبه العديد من الأدوات التي ركبت معًا لتحمل دلالة جديدة، وتؤدي وظيفة جديدة، فلم يعد النطق منفصلًا ممكنًا في هذا المقام، ولهذا يقول المرادي: ‘‘أن (ها) تلزم (أيًّا)؛ لنطقه بهما معا’’(٥٩). والمتأمل لهذا الكلام يجد أنّ قوله (لنطقه) يشير إلى تلازم الجزأين حتى شكلا كلمة واحدة.

وعلاوة على ما سبق فإنّ (يا أيّها الرجل، ويا أيهذا الرجل) أسلوبان متباينان؛ إذ إنّ زيادة اسم الإشارة تدل على التخصيص؛ فالمتكلم بقوله: يا أيّها الرجل، ينادى دون شعوره بأنّ النداء سينصرف إلى غير هذا الرجل، فهو نداء لمباشر لا

ينصرف الذهن لغيره، أمّا: يا أيهذا الرجل فهذا مستوى آخر من الخطاب فيه تحديد لذات معينة دون غيرها عند تعدد الاحتمالات.

- **حكم (الرجل) في قولنا: يا أيّها الرجلُ، من حيث البناء والإعراب:**

لقد مرّ سابقًا نص سيبويه الذي يقول فيه: ''باب لا يكون الوصف المفرد فيه إلا رفعا ولا يقع في موقعه غيرُ المفرد؛ وذلك قولك:يا أيها الرجلُ، فأيُّ ههنا فيما زعم الخليل -رحمه الله- كقولك: يا هذا، والرجل وصفٌ له كما يكون وصفا لهذا. وإنما صار وصفه لا يكون فيه إلا الرفع''(٦٠). فما معنى (الرفع) هنا؟ ونحن نعلم أنّ الرفع مصطلح يدل على الإعراب، لكن هل سيبويه يقصد أنّ (الرجل) نعت مرفوع رفع إعراب؟ أم رفع إتباع؛ لأنه مع (أيّ) يشكلان اسمًا واحدًا؟ أم هي حركة بناء؛ لأنّ (أيًّا) مبنية في محل نصب؟ وهذه الأسئلة مشروعة لأنّ الناظر في كتب النحو يرى أنهم يعربون (الرجل) عند حد الرفع على أنه نعت؛ فيقولون: الرجل نعت مرفوع لـ(أيّ).

بناء على الكلام السابق كانت هذه الحركة في (الرجل) مثار تساؤل بين الدارسين ومحل خلاف بين العلماء، ولهذا فقد عقد ابن الشجري في المجلس الثامن والخمسين بابًا لهذا التساؤل، الذي نصه: ''ما يقول السّادة النحويّون -أحسن الله توفيقهم- في قول العرب: يا أيُّها الرجلُ، هل ضمّة اللام فيه ضمّة إعراب؟''(٦١)، وبناء عليه انقسم النحاة بين قائل بالإعراب وقائل بالبناء؛ وبالأخِيرِ قال ملك النحاة أبو نزار(٦٢)، إذ يرى أنّ: ''الضمّة في اللام من قولهم: يا أيّها الرجل، ضمّة بناء، وليست ضمّة إعراب، لأن ضمّة الإعراب لا بدّ لها من عامل يوجبها، ولا عامل هنا يوجب هذه الضمّة... فالرجل مبنيّ بناء عارضًا، كما أنّ قولك: يا زيدُ، يعلم منه أنّ الضمة فيه ضمّة بناء عارض''(٦٣).

ويرى الزجاج أنّ الضمة هنا ضمة إعراب –كما هو الظاهر من كلامه– إذ يقول تعليقًا على كلام سيبويه السابق: ''لأن النداءَ يطرد في كل اسم مفرد. فلما كانت البِنيْةُ مطردة في المفرد خاصة شبه بالمرفوع [يقصد أيًّا] فرفعت صفته''(٦٤). وقال بذلك الجواليقي فرأى أنّ ''ضمّة اللام من قولك: يا أيّها الرجل وشبهه، ضمّة إعراب، ولا يجوز أن تكون ضمّة بناء، ومن قال ذلك فقد غفل عن الصّواب، وذلك أنّ الواقع عليه النداء (أيّ) المبنيّ على الضمّ لوقوعه موقع الحرف، والرجل، وإن كان مقصودا بالنّداء، فهو صفة (أيّ) فمحال أن يبنى أيضًا؛ لأنه مرفوع رفعًا صحيحًا ولهذا أجاز فيه أبو عثمان النصب على الموضع كما يجوز في: يا زيد الظريف، وعلّة رفعه أنه لما استمرّ الضمّ في كلّ منادى معرفة، أشبه ما أسند إليه الفعل، فأجريت صفته على اللفظ، فرفعت''(٦٥)، فالجواليقي يؤكد أنّ الضمة هنا ضمة إعراب لكنه يقول في نهاية كلامه إنها حركة إتباع مجاراة للفظ. وتبعه فيما قال ابن القيم(٦٦).

إنّ الكلام السابق كان محلّ تأييد من ابن الشجري، فقد أيّد كلام الجواليقي من جهة، وسفّه رأي ملك النحاة من جهة أخرى، ورد عليه برد طويل رأينا أن نختصره، وفحواه(٦٧):

أولًا: إنّ ضمة (الرجل) ضمة إعراب، لكنها منزلة بين المنزلتين، مثل همزة بين بين، والإمالة، فهي ليست مثل ضمة (حيثُ) لأنها غير مطردة، بل مخصوصة بهذا الظرف، وليست مثل ضمة (زيد) في: جاء زيدٌ؛ لأنّ الجالب لها العامل.

ثانيًا: المنادى المفرد حركته مطردة وتشبه حركة العامل المعنوي الرافع للمبتدأ.

ثالثًا: الحركة هنا هي حركة إتباع؛ لأنّ العرب تتبع الشيء الشيء لأدنى ملابسه، ومثال ذلك حركة الإتباع في: (الحمدِ لِله).

رابعًا: استدل على إعراب (الرجل) بأنه ينعت بالمضاف، فيكون المضاف مرفوعًا؛ يا أيُّها الرجل ذو المال، والصفة المضافة في باب النداء، والصفة المضافة في باب النداء لا تحمل على اللفظ بل على المحل، فيقال: يا زيدُ ذا المال.

وقد أكّد النجديّ كلام ابن الشجري، وراح يبيّن سبب الإتيان بحركة الإتباع بقوله: ‘‘وَإِنَّمَا جَازَ اتِّبَاع وصف (أَيّ) لَهَا فِي حَرَكَة بنائها لِأَنَّهُ عَارض وَالْحَرَكَة الْحَادِثَة بمجيء النداء شَبيهَة بحركة الْإِعْرَاب الْحَادِثَة بمجيء الْعَامِل وَنَظِير هَذَا نعت اسْم (لا) الْمَبْنِيّ مَعهَا فَإِنَّهُ يجوز فِيهِ النصب إتباعا لفتح اسْم (لا) عِنْد بَعضهم نَحْو: لَا رجل صَالحا محروم، وَقد أَشَارَ إِلَى ذَلِك الْعَلامَة ابْن هِشَام فِي مُغنِي اللبيب(٦٨) فَقَالَ فِي الْجِهَة السَّادِسَة من الْبَاب الْخَامِس مَا نَصه: وَأما لَا رجل ظريفا فَإِنَّهُ عِنْد سِيبَوَيْهٍ مثل يَا زيد الْفَاضِل بِالرَّفْع انْتهى وَهَذَا بِخِلَاف حَرَكَة الْبناء فَإِنَّهُ لَا يجوز إتباعها لعدم الشّبَه الْمَذْكُور’’(٦٩).

إنَّنا أمام تيارين أحدهما حاضرٌ بقوة أمام الآخر، ولا نكاد نجد أحدًا تبع ملك النحاة فيما ذهب إليه، بيد أنّنا نجد تيارًا ثالثًا يرى أنّ هذه الضمة لا توصف بإعراب ولا بناء، وهذا ما قاله الصبّان ردًّا على الأشموني، وهو ردٌّ على من سبقه، إذ كيف يكون الرجل هو المقصود بالنداء، ومع ذلك لا يجوز أن يكون محله نصبًا؛ فهو ليس المفعول به، بل تابع للمفعول، ونصّ كلامه: ‘‘وأنا أقول: يرد عليه أن تابع ذي محل له محل متبوعه وحينئذٍ ينبغي أن يكون محل تابع أي: نصبًا وأن يصح نصب نعته، ويؤيده ما قدمناه عن الدماميني(٧٠) في: يا زيد الظريف صاحب عمرو أنه إن قدر صاحب عمرو نعتًا للظريف لفظ به كما يلفظ بالنعت إن رفعًا فرفع وإن نصبًا فنصب، اللهم إلا أن يكون منع نصب نعت تابع أي: لعدم سماعه أصلًا’’(٧١).

لقد أعجب الدكتور عباس حسن بكلام الصبان الذي نقله حرفيًا، ثم علّق عليه قائلًا: إنّ ‘‘الصبان قال بعد ذلك كلامًا قويًا موافقًا للضوابط والأصول العامة يعترض على ما سبق، فالصبان يرى أن تابع (أيّ) لا بد أن يكون منصوبًا محلًا مثل المتبوع (أيّ)؛ لأن كلمة (أيّ) مبنية على الضم في محل نصب والشأن في التابع -دائمًا- أن يكون له محل كمحل المتبوع. وهذا كلام صحيح قوي لا يعترض الأخذ به إلا عدم ورود السماع به، وللسماع الأهمية الأولى في انتزاع حكم لا يعتوره عيب أو ضعف’’(٧٢).

والحقيقة أنّ رأي الصبان هو عين كلام ابن الشجري، ولا فرق إلا في المصطلح؛ إذ قال ابن الشجري: الضمة منزلة بين المنزلتين، في حين رأى الصبّان أنها بين الإعراب والبناء -على حد تعريف الدكتور عباس حسن- والواقع يقول إنّ ما قاله ملك النحاة صواب من جهة، وما قال به الزجاج والجواليقي وابن الشجري، صوابٌ من جهة أخرى، وعليه فهذا مفهوم من المفاهيم التي يجب على الدارسين الإحاطة بها؛ فالاسم إما أن يكون معربًا أو أن يكون مبنيًا، والتاع يتبع ما قبله في إعرابه وفي حركته، فكيف يكون محل (أيّ) نصبًا، وتابعها مرفوع وجوبًا؟ إذن هذا مثال على اتساع اللغة، وأنّ الأحكام النحوية ليست مطردة، فلكل قاعدة شواذ. والوقفة التالية توسع دائرة النظر في الكلام السابق حتى نصل بذلك إلى إعراب (الرجل) الواقع بعد (أيّها).

- جواز نصب (الرجل) في قولنا: يا أيّها الرجلُ عند المازني وموقف النحاة منه:

لقد رأينا سابقًا أن سيبويه نص على أنّ تابع (أيّ) واجب الرفع، وهذا ما قال به جمهور النحاة كما رأينا، بيد أنّ الزجاج نقل لنا أنّ المازني أجاز النصب

فيه قياسًا على نصب (الظريف) في قولنا: يا زيدُ الظريف، فيكون نصبًا على المحل لا على اللفظ، قال الزجاج: "والمازني يجيز في يا أيّها الرجلُ النصب في الرجل، ولم يقل بهذا القول أحد من البصريين غيره، وهو قياس لأن موضع المفرد المنادى نصب فحملت صفته على موضعه، وهذا في غير يا أيها الرجل جائز عند جميع النحويين نحو قولك يا زيدُ الظريفُ والظريفَ، والنحويون لا يقولون إلا يا أيها الرجل، يا أيها الناسُ، والعرب لغتها في هذا الرفع ولم يرد عنها غيره"(٧٣). وقال في موضع آخر: "فهذا مطروح مرذول لمخالفته كلام العرب والقرآن وسائر الأخبار"(٧٤). وقال أيضًا: "وهذا غلط من المازني، لأن زيداً يجوز الوقف والاقتصار عليه دون الظريف"(٧٥).

لقد تواتر النقل عن الزجاج في هذه المسألة إلى حدٍّ جعل من بعضهم يشمل الزجاج في هذه الرأي، كابن مالك(٧٦) وابنه(٧٧)، لكن غالب العلماء عارضوا رأي المازني، "فهو رأى ضعيف جدًا لا يليق بمنصب المازني"(٧٨)، والعلة في ذلك أنّ "حق اللَّفْظ أَن يكون اللَّفْظ أخذًا من الْمَعْنى، وَالضَّم فِي المنادى قد اطرد حَتَّى جرى مجْرى الْمَفْعُول، فَلَمَّا كَانَ المنادى فِي الْمُفْرد لَهُ لفظ وَمعنى، صَار حمل النَّعْت على اللَّفْظ أَكثر، وَقد يجوز أَن يحمل على الْمَعْنى، إِذْ كَانَ المنادى يَصح السُّكُوت عَلَيْهِ، فَيَقَع التَّصَرُّف فِي النَّعْت، فَإِذا كَانَ المنادى لَا يَصح السُّكُوت عَلَيْهِ، لم يجز التَّصَرُّف فِي نَعته، وَحمل على لَفظه"(٧٩).

إنّ المتتبع لآراء العلماء في هذه المسألة يجد أنّ الإشكال لديهم عدم ورود السماع في هذا الرأي، ولقد رأينا سابقًا أنّ الصبان بيّن أنّ النصب موافق لكل الضوابط، ورأينا إعجاب الدكتور عباس حسن بهذا الكلام، بيد أنّ السماع حال دون تجويز هذا الأمر. فما هو موقع حقيقة وجود السماع في هذه المسألة؟ وعليه نقول:

أولًا: ذكر العلماء أنّ ابن الباذش قال إنّ النصب مسموع من كلام العرب(٨٠).

ثانيًا: لقد وردت قراءة شاذة في هذا الباب، وهي الآية الأولى من سورة الكافرون؛ إذ روي (قل يا أيُّها الكافرين) بالنصب(٨١). وقد أجاز العلماء الاحتجاج بالقراءات القرآنية سواء أكانت متواترة، أم قراءة آحاد أم شاذة، يقول السيوطي: ''أمّا القرآن فكل ما ورد أنه قُرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء أكان متواترًا أم آحادًا أم شاذًا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسًا معروفًا، بل لو خالفته يُحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه، وإن لم يجز القياس عليه''(٨٢). وبناء على هذا يؤيّد الدكتور عبد الفتاح الحموز رأي المازني فيقول: ''ولسنا نتفق مع المانعين؛ لأنّ القراءة على شذوذها يقاس عليها؛ لأنها جاءت بلغة من لغات العرب، ولا التفات إلى ادّعائهم بأنّ الحمل على الموضع يجب أن يكون بعد تمام الكلام''(٨٣).

ثالثًا: فيما يلي نصّان للفراء أراهما يدلان على أنّ رأي المازني مسبوق برأي الفراء، وفيه من الدليل ما يغني عن التعليق، حيث قال: ''تقول: يا عمرو والصلت أقبلا. فتجعل الصلت تابعا لعمرو وفيه الألف واللام لأنك نويت به أن يتبعه بلا نية (يا) فِي الألف واللام. فإن نويتها قلت: يا زيد ويا أيها الصّلت أقبلا. فإن حذفت (يا أيّها) **وأنت تريدها** نصبت كقول اللّه عز وجل: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾(٨٤) نصب الطير على جهتين: على نية النداء المجدد له إذ لم يستقم دعاؤه بما دعيت به الجبال، وإن شئت أوقعت عليه فعلا: وسخرنا له (الطَّيْرَ) فتكون النية على سخرنا»(٨٥). وقال في موضع آخر الكلام ذاته عن الآية، ثم أردف قائلًا:»... والوجهُ الآخر بالنداء، لأنك إِذَا قلت: يا عَمْرو والصَلْت أقبِلا، **نصبت الصلت لأنه إنما يدعى بيا أيّها**''(٨٦).

ولعلني أقول إنّ هذا الرأي كان أسبق من الفراء، فلعله لعيسى بن عمر، إذ روي ولقد «كان أبو عمرو وعيسى يقرآن: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ ويختلفان في التأويل، كان عيسى يقول على النداء، كقولك: يازيد والحارث لما لم يمكنه: يا زيد يا الحارث وقال أبو عمرو: لو كانت على النداء لكانت رفعا ولكنها على إضمار: (وَسَخَّرْنا) الطير»(٨٧). وهذا دليل على أنّ المسألة ليست متعلقة بالعطف في إجازة النصب، بل في النداء الصريح والحديث هنا عمّا فيه (أل) وهولا يدعى إلا بـ(أيّها).

– أحكام التابع في جملة (أيّ) وصلة النداء:

الممنوع من الوصف:

لقد بيّن العلماء في باب وصف (أيّ) أنها توصف باسم اقترن بـ(أل)، واسم الإشارة، والاسم الموصول المقترن بـ(أل)، ومنعوا ما عدا ذلك، سواء بقطع (أيّ) عَن الصّفة فلا يُقال: يَا أَيها دون ذكر الصفة، أو بغير ما ذكر من الأوصاف السابقة؛ لأنه ليس من كلام العرب؛ إذ منعوا الوصف بالأسماء الموصولة الأخرى مثل (مَن) والأعلام كـ(زيد) والمضاف كقولهم: يا أيها صاحب الرجل(٨٨)، وقد علل ابن الوراق عدم جواز كون المضاف نعتًا لـ(أَي) في النداء "لِأَن الْمُضَاف يُمكن أَن تدخل عَلَيْهِ (يَا)... فَإِن كَانَ الْمُضَاف يَصح دُخُول (يَا) عَلَيْهِ، لم يحْتَج إِلَى (أَي)، فَلهَذَا لم يجز أَن تنعَت (أيا) بالمضاف"(٨٩).

وتوقفوا عند النوع الأول من الوصف فبينوا أنّ (أل) يجب أن تكون جنسية، قال ابن مالك: «والكلام الصحيح أن يتوصل إلى نداء ما فيه الألف واللام الجنسيتان بجعله صفة لأيّ متلوة بهاء التنبيه نحو: يأيها الرجل... ويقوم مقام ذي الألف واللام الجنسيتين موصولٌ مصدّر بالألف واللام نحو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾(٩٠) أو اسم إشارة عار من الكاف»(٩١).

إنّ كلام ابن مالك السابق هو محل اتفاق بين غالب العلماء من حيث إثبات الصحة، بيد أنّ هناك خلافًا في بعض الجزئيات؛ إذ في اشتراط العلماء أن تكون (أل) جنسية التي «صارت بعد (أي) للحضور، كما صارت كذلك بعد اسم الإشارة»(٩٢) خلاف، قال أبو حيان: «فلو كان في التابع (أل) للمح الصفة كالنضر، والحارث، والعباس، فمذهب الجمهور أنه لا يجوز: يا أيها الحارث، وهو علم و(أل) فيه للمح الصفة، وقد أجازه الفراء، والجرمي ونص عليه»(٩٣). وهذا الذي ذكره أبو حيان من المنع نص عليه سيبويه إذ قال: «ولا يجوز أن تقول: يا أيُّها الذي رأيت؛ لأنه اسمٌ غالب كما لا يجوز يا أيُّها النَّضر وأنت تريد الاسم الغالب»(٩٤). وقد بين السيرافي مراد سيبويه فقال: «والمسمى بما فيه الألف واللام لا يجوز أن تجعله نعتا لاسمها في النداء لا تقول: يا أيها النضر لرجل اسمه النضر؛ لأنه قد صار علما، وإنما تنعت أيها بأسماء الأجناس أو صفاتها، وكذلك إذا كان اسمه (الذي رأيت) لم يجز: يا أيها الذي رأيت»(٩٥). ويتبع ذلك العلم الذي فيه (أل) بالغلبة، مثل: الصّعق(٩٦)، و«كذلك (أل) التي يجبر بها فقد العلمية نحو: الزيدان، والزيدون، والهندات، فلا تقول: يا أيها الزيدان، أو الزيدون، ولا: يا أيتها الهندات»(٩٧).

وقد بيّن ابن الأثير أنّه «إذا ناديت هذا النّوع من الأسماء أسماء رجال، فبعضهم يقول: يا حارث، ويا عبّاس، ويا فضل، وهذا يلتبس بمن سمّى حارثا في الأصل، وبعضهم يقول: يا أيّها الحارث، وفيه قبح؛ لجعل العلم وصفا، كما قالوا: مررت بهذا الحارث، فإن اعتبرت الوصفيّة فيه، كان وجهًا، قال شيخنا: والصّواب عندي: يا من هو الحارث أقبل، والأوّل أكثر»(٩٨). لكنّ أبا حيان يقول: «العلم الذي فيه (أل) في ندائه خلاف، قيل يحذف وينادى وقيل: لا ينادى، وهو الظاهر، لأن نداءه، وحذف (أل) تغيير لصيغة العلم، وينادى (بأي)»(٩٩).

إنّ الناظر في الكلام السابق ليجد نوعًا من الحيرة في بعض الآراء، فكيف يكون العلم لا ينادى، هل هذا من واقعية اللغة في شيء؟ أَلِأَنَّ العلم منقول من صفة وفيه (أل)؟ أوليس غالب الأعلام منقولة!؟وأمّا قول من قال:ينادى بقولنا: يا من هو الحارث، فهذا كلام يتشابه مع كلام من جعل (أيّ) موصولة، وهو نوع من التفسير، كما فسروا قوله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾(١٠٠) (أَمَّنْ) بِمَعْنَى الدُّعَاءِ، يُرَادُ بِهَا: يَا مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَالْعَرَبُ تُنَادِي بِالْأَلِفِ كَمَا تُنَادِي بِيَا، فَتَقُولُ: أَزَيدُ أَقْبِلْ، وَيَا زَيْدُ أَقْبِلْ»(١٠١)، وقد وجدت من خلال النظر في كتب الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة الكرام عندما ينادون العباس -رضي الله عنه- كانوا يحذفون (أل)، وهذا يؤكد الأسلوب الأول. إلا أنّ ما أجازه الفراء والجرمي له وجهه؛ وذلك:

أولًا: قال سيبويه:: «ويقولون: يا عمرو والحارثُ، وقال الخليل رحمه الله: هو القياس، كأنه قال: ويا حارثُ»(١٠٢). والقياس على الكثير، ولا يعني عدم وجود المخالف.

ثانيًا: إنّ المطالع لكلام الفراء في المعاني يجد أنه يستعمل كثيرًا (وسمعت من العرب) وهذا يؤكد صحة هذا الأسلوب.

ثالثًا: تأكيد ابن الأثير يشير إلى استعمال هذا الأسلوب، ولو كان أقلّ من الأول، وفيه اتحاد العلم مع الصفة(١٠٣)، وهذا يوافق تقييد النحاة إتباع (أي) بالصفة.

رابعًا: قال المرادي: «ويتعين أن يجعل عطف بيان عند من أجازه»(١٠٤). وهذا يشير إلى الموافقة على صحة الأسلوب، وإلا لما وجهه هذا التوجيه. وتبعه الأشموني(١٠٥).

خامسًا: يبين المعري أنّ حذف (أل) أيسر من حذف أداة النداء في باب هذه الأسماء، فقال: «إلا أنه لا يمتنع أن يحذف منه الألف واللام في النداء؛ لأنه سمي

وهما فيه، كما قالوا: الضحاك والعباس، فكأن حذف الألف واللام منهما أيسر منه في قولك: رجل أقبل. والنحويون يرون ذلك من الضرورات»(١٠٦).

ويتعلق في هذا الباب مسألة التابع لاسم الإشارة الواقع نعتًا لـ(أي)؛ إذ اشترط كثير من العلماء أن يكون مقترنًا بـ(أل) كقولنا: يا أيهذا الرجل، بيد أنهم ذكروا أنّ ابن مالك لا يشترط ذلك تبعًا لابن عصفور(١٠٧). والحق أنّ ابن مالك نص على هذا في غير كتاب من كتبه، قال في شرح التسهيل: «أو اسم إشارة عار من الكاف، كقول الشاعر:

أيُّهذان كُلا(١٠٨) [البيت] والأكثر أن يجمع بين اسم الإشارة وذي الألف واللام، كقول الفرزدق(١٠٩):

أَلَا أَيُّهَذَا السَّائِلِي عَنْ أَرُومَتِي(١١٠).. أَجِدَّكَ لَمْ تَعْرِفْ فَتَبْصِرَهُ الْفَجْرَا

... ويساوي اسم الإشارة أيًّا في وجوب رفع صفته، واقترانها بالألف واللام الجنسيتين. ويخالفها بجواز استغنائه عن الوصف»(١١١). وتبعه غير واحد منهم: ابن هشام(١١٢)، وابن القيم(١١٣)، والنجار(١١٤).

والحقيقة أنّ غالب العلماء نقلوا رأي ابن مالك دون طعن، وذُكر أنّ ابن الضائع نص على اشتراط ذلك(١١٥)، وعلاوة على هذا فإنهم لم يؤوِّلوا النص الظاهر، بيد أنّ الذي أنكر على ابن مالك هو أبو حيان، إذ قال: «وهذا البيت الذي أنشده المصنف وغيره دليلًا على أنّ (أيًّا) توصف باسم الإشارة وحده دون وصف بما فيه (أل) قد بنى عليه المصنف وابن عصفور جوازَ: يا أيّهذا، دون وصف وهو بيت غاية في الندرة، وينبغي ألّا تبنى عليه قاعدة، وأن يُتأوّل على حذف الموصوف ضرورة، تقديره: أيهذان الرجلان»(١١٦). ثم ذكر العديد من الشواهد على وصف اسم الإشارة بما فيه (أل).

إنّ المدقق فيما سبق من أقوال يجد أنّ ما نسب لابن مالك في واقع الأمر ليس له، وما تحاملُ أبي حيان إلا لما نعلمه من موقفه من ابن مالك، والصواب أنّ هذا الرأي للفراء، وعليه فهو رأي كوفي، وقد نقله ثعلب إذ قال: «قال الفراء: يا أيّهذا اكتفوا بالرجل من ذا، وبذا من الرجل، ويجمعون بينهما فيقولون: يا أيهذا الرجل، وأنشد:

أَيُّهَذَانِ كُلَا زَادَكُمَا وَذَرَانِي وَاغِلًا فِيمَنْ يَغِلْ

فجاء بهذا وأسقط الرجل»(١١٧). وجاء في النص ذاته أنّ الفراء نقل أنهم يقولون: يا أيّهذا أقبل، وهذا يقوي ما ذهب إليه هؤلاء العلماء من جواز الاستغناء عن وصف اسم الإشارة بما فيه (أل)، وقد جعل هؤلاء العلماء هذا من باب القليل مقابل الكثير. وقد علمنا سابقًا أنه إذا قصد نداء اسم الإشارة، وقدر الوقف عليه وعرفه المخاطب بدون نعت، فلا يلزم نعته.

وصف تابع (أيّ):

تناول العلماء مسألة متعلقة بوصف وصف (أيّ)، وكانت محل خلاف بينهم؛ إذ منهم من أطلق الحكم دون تفصيل، ومنهم من فصل المسألة، والذين فصّلوا اختلفوا أيضًا فيما بينهم. وبداية لدينا مستويان من وصف الوصف، وهما: وصف الوصف بالمفرد: يا أيّها الرجل (الطويل). و وصف الوصف بالمضاف: يا أيّها الرجل (ذو المال).

لقد كان سيبويه أوّل من حكم بالرفع على هذه الصفات، فقال: "واعلم أن هذه الصفات التي تكون والمبهمة بمنزلة اسم واحد، إذا وُصفت بمضاف أو عُطف على شيء منها، كان رفعا، من قبل أنه مرفوع غيرُ منادى. واطرد الرفع في صفات هذه المبهمة كاطراد الرفع في صفاتها إذا ارتفعت بفعلٍ أو ابتداء، أو

تبنى على مبتدأ، فصارت بمنزلة صفاتها إذا كانت في هذه الحال... فمن ذلك قول الشاعر(١١٨):

يا أَيُّها الجاهلُ ذو التَّنزِّي''(١١٩)

وتبعه في ذلك عدد من العلماء منهم: ابن مالك(١٢٠)، والمرادي(١٢١)، والأزهري(١٢٢).

وذهب المبرد إلى التفصيل في هذه المسألة، فقال: ''فَإِن الَّذِي يخْتَار الرّفْع؛ وَذَلِكَ لِأَن الرجل مَرْفُوع غير مَبْنِيّ، وَ(ذُو التنزي) نعت لَهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَة قَوْلك جَاءَنِي الرجل ذُو المِال. وَالنّصب يجوز على أَن تَجْعَلهُ بَدَلا من أَي فكأنك قلت يَا أَيهَا الرجل يَا ذَا التنزي... وَأما قَوْله يَا أَيهَا الرجل ذُو الجمة فَلَا يجوز أَن يكون ذُو الجمة من نعت (أَيّ) لَا تَقول: يَا أَيهَا ذَا الجمة؛ وَذَلِكَ لِأَن المبهمة معارف بأنفسها فَلَا تكون نعوتها معارف بغَيْرهَا لِأَن النَّعْت هُوَ المنعوت فِي الْحَقِيقَة''(١٢٣). فالمبرد تناول المضاف فقط، فإن كان نعتًا للرجل فحكمه الرفع، وإن نصبت فعلى أن يكون بدلًا من (أيّ) على المحل، ولكن يفهم من كلامه أنه لو كان نعت النعت مفردًا (يا أيها الرجلُ الطويل) لجاز النصب نعتًا لـ(أيّ) على المحل، فهو معرفة بذاته. وقد روي توجيه النصب عن الأخفش(١٢٤) سابقًا للمبرد، وتبعه في هذا: ابن السراج(١٢٥)، وابن الوراق(١٢٦) وابن الأثير(١٢٧). وابن الشجري(١٢٨)، مخالفًا بهذا الرأي رأيه السابق الذي أوجب فيه الرفع(١٢٩).

وجاء أبو حيان فسلك مذهبًا آخر في هذا الباب؛ إذ يرى(١٣٠) أنّ المفرد والمضاف يقعان نعتًا (للرجل) ويكونان مرفوعين: يا أيّها الرجلُ الطويلُ ويا أيّها الرجلُ ذو المالِ. ويجوز في المفرد أن يكون نعتًا لـ(أيّ) وليس بدلًا كما قال سابقوه، وهذا النعت يجوز فيه الرفع والنصب؛ فالرفع على اللفظ، والنصب على المحل (محل أيّ): يا أيّها الرجلُ الطويلُ، ويا أَيُّها الرجلُ الطويلَ. أمّا المضاف

فيكون أيضًا نعتًا لـ(أيّ) بيد أنه لا يجوز فيه إلا النصب على موضع (أيّ): يا أيّها الرجلُ ذا المالِ. واستأنس أبو حيان بقول ابن أصبغ، فقال: "وذكر ابن أَصْبَغ أن جواز النصب في الصفة المكررة باتفاق من النحويين. ويعني إذا كانت الصفة محمولة على أي على موضعها، وإذا كانت غير مضافة فإنها إن تبعت الصفة الأولى رفعت وصفا لها، وإن كانت مضافة نصبت»(١٣١).

ولقد توقف ناظر الجيش عند كلام أبي حيان فلم يرق له، فقال: إنّ النصب -يقصد في باب المضاف- فيه على الموضع، ولم يتجه لي ذلك؛ لأنه لو جاز مراعاة الموضع بالنسبة إلى الثاني -يقصد ذا المال- لجاز مراعاته بالنسبة إلى الأول -يقصد الرجل- وإن كان الوصف مفردًا فالظاهر وجوب الرفع حملًا على لفظ (أيّ). لكن الشيخ ذكر أن النصب جائز حملًا على موضع (أيّ) ولم يظهر لي وجه ذلك، وكيف يكون لـ(أيّ) موضع بالنسبة إلى الوصف الثاني ولا يكون لها موضع بالنسبة إلى الوصف الأول. إلا أن يقال: لما تم الكلام بذكر الوصف الأول أمكن مراعاة الموضع لأن الموضوع إنما يراعى بعد تمام الكلام كما تقدم. وفي ذلك نظر، لأن (أيًّا) إنما أتي بها وصلة لنداء ما بعدها فصورتها صورة المنادى، وليست بمناداة، وإذا لم تكن مناداة فكيف يتحقق لها موضع؟»(١٣٢).

إنّ الأسئلة التي طرحها ناظر الجيش، أسئلة مشروعة تشير إلى أنّ التعامل مع هذه التركيب كان على أساس اللفظ المفرد المنفصل عن الآخر، فجُعل لـ(أيّ) محلًا يبنى عليه النصب، مع أنها وصلة فقط، ومع أنها هي وما بعدها كالكلمة الواحدة -هذا على حدّ قولهم- أمّا سيبويه ومن تبعه في جعله الرفع واجبًا، قد خالف النقل؛ إذ روي البيت الذي استشهد به بالنصب كما جاء عند ابن الشجري(١٣٣)، وأجازه العلماء باتفاق النحويين كما رأينا.

– موقع اللفظ التابع لـ(أيّ) من الإعراب:

لقد أخرت هذا الكلام عن تابع (أيّ) مع أنه أسبق من حيث ترتيب الجملة من وصفه؛ أي وصف تابع (أيّ) كي نطلع على مدى الخلاف بين العلماء في مسألة محل (أيّ) من الإعراب، وما سبقه من كلام عن جواز نصب تابع أي عند المازني، كما نقلنا –سابقًا– آراء العلماء في نوع (أيّ) من جهة، وتركيب (يا أيها الرجل)، ونريد أن نعرف توجيههم الإعرابي لكلمة (الرجل) وما شاكلها، وذلك على اعتبارها (وصلة) لا على كونها موصولة؛ فهناك عدة مذهب في هذا المقام، بل لقد تعددت الإعرابات في المذهب الواحد، وهي على النحو الآتي:

أولًا: أن يكون صفة لـ(أيّ): وهذا هو مذهب الخليل وسيبويه؛ وذلك أنّ الاسم الواقع بعد (أيّ) تبع حركتها، وعليه فهو تابع بلا شك، فلمّا لم يتم الكلام بـ(أي)، وكان بلا رابط لم يكن عطفًا، "واتفقوا على أنه لا يكون بدلا لعدم استقلال أي بالنداء"[١٣٤]. فبقي أن يكون عطف بيان أو نعتًا، فاختاره سيبويه، وقد ذكر ذلك في العديد من المواضع في الكتاب، ومنها قوله: "باب لا يكون الوصف المفرد فيه إلا رفعا، ولا يقع في موقعه غيرُ المفرد، وذلك قولك: يا أيها الرجلُ، ويا أيها الرجلان، ويا أيها المرأتان. فأيُّ ههنا فيما زعم الخليل رحمه الله كقولك يا هذا، والرجل وصفٌ له كما يكون وصفا لهذا"[١٣٥]. وقد تبع هذا الرأي غالب العلماء، ومنهم: الزجاج[١٣٦]، والنحاس[١٣٧]، وابن الوراق[١٣٨]، وابن جني[١٣٩]، وابن يعيش[١٤٠]، وابن مالك[١٤١]، وابن القيم[١٤٢]، والأزهري[١٤٣]، والسيوطي[١٤٤]، والنجدي[١٤٥]، والمفهوم من كلام المبرد[١٤٦].

ويؤكد الشاطبي هذا الرأي فيقول: "إن ذا الألف واللام الواقع بعد (أي) صفة مطلقًا، كان مشتقًا أو جامدًا. أما إذا كان مشتقًا فظاهر إن قلنا: إنه

ليس على حذف الموصوف، نحو: يا أيها الفاضل. وأما إذا كان جامدًا فكذلك أيضًا، إلا أنهم استجازوا هنا الوصف بالجامد"(١٤٧).

ثانيًا: أن يكون عطف بيان؛ لأنه ليس مشتقّا وما كان منه مشتقّا فيتأول بغير المشتق وقد رجّح هذا ابن السيد(١٤٨)، وقال ناظر الجيش نقلًا عن شرح المفصل لابن عمرون(١٤٩): "قال: وإذا قلت: يا أيها الرجل، فأي منادى معرفة بالإشارة والقصد و(ها) مقحمة بين أي وصفتها، والرجل عطف بيان، ومن ذكر أنه وصف فتسامح. نص عليه ابن جني(١٥٠) وغيره"(١٥١).

ثالثًا: التفصيل في الرأيين السابقين؛ فإن كان مشتقًا فهو نعت وإن كان جامدًا فهو عطف بيان(١٥٢)، ورجح هذا الرأي كل من الأشموني(١٥٣)، والنجار(١٥٤).

رابعًا: أن يكون خبرًا وهذا ما ذهب إليه الكوفيون -كما رأينا سابقًا- ولذا فإن جملة (يا أيها الرجل) هي في الأصل يا أيُّ + هذا الرجل، وعليه فالرجل خبر لاسم الإشارة، والجملة تفسيرية لـ(أيّ)(١٥٥).

خامسًا: أن يكون (الرجل) نعتًا لاسم الإشارة الذي هو (ها) وهو مذهب ابن كيسان، أي: يا: (أداة نداء) أيُّ: (منادى) ها= هذا (نعت لأيّ) الرجل: (نعت لهذا)(١٥٦).

ولعلنا نقول: إنّ الراجح من هذه الآراء هو كون (الرجل) من التوابع، أمّا رأي الكوفيين وابن كيسان فقد بينا ما عليهما من مآخذ عند حديثنا عن أصل التركيب، لكن الحكم على (الرجل) أنه من التوابع كما رأينا سابقًا ليس محل اتفاق من الجميع من حيث نوعية التابع، ومنشأ الخلاف مبني على أساس نوع اللفظة، أهي مشتقة أم جامدة؟ وعليه هل هو نعت أم عطف بيان؟

ويجدر بنا أن نقف عند الفرق بين النعت وعطف البيان؛ ليتسنى لنا ترجيح أقرب هذه الآراء إلى الصواب، أمّا الفرق بينهما(١٥٧) فقد:

١- سمي عطف البيان بذلك؛ لأن اللفظ الثاني تكرار للفظ الأول، ويشبه أن يكون مرادفًا؛ للأول؛ لأن الذات المدلول عليها باللفظين واحدة، وإنما يؤتى بالثاني لزيادة البيان.

٢- ويشترط فيه أن يكون جامدًا، بخلاف النعت؛ فإنه لا يكون إلا مشتقًا، أو مؤولًا به.

٣- والنعت يوضح متبوعه ببيان صفة من صفاته، ومعنىً فيه، أو في سببيه. أما عطف البيان؛ فيوضح متبوعه ويزيل عنه شائبة الإبهام بنفسه.

ونحن نرى أنّ التركيب إمّا أن يتبع بمشتق أو بجامد فيقال: يا أيّها الرجل، ويا أيّها الفاضل، وفي كلا الحالتين نحن نعلم أنّ المنادى في الحقيقة هو الاسم الثاني، و(أيّ) شديدة الإبهام، فالمسألة ليست من باب: جاء زيدٌ الطويلُ ولا من باب جاء أبو حفص عمر، فاللفظ الأول في كلا الجملتين يحمل دلالة في ذاته ومستقل عن الثاني، وبالتالي فإنني في الواقع لا أنعت أيّا ولا أعطف عليها، ولكن لـمّا كانت الحركة حركة إتباع، وأصبح حيّز الاختيار من التوابع محصورًا بين هذين، كان ما كان من الحكم، إذ هو قائم على مبدأ اللفظ لا الدلالة، وعليه فلا صحة -برأيي- للنظر إلى شروط الاسم الواقع نعتًا أو عطف بيان، وتطبيق هذه الشروط على هذا التركيب المغاير، وإذا كان العلماء يعربون (أيّا) بأنها منادى مبني على الضم في محل نصب والمنادى حقيقة الرجل أو الفاضل «وإنما كان: يا أيها الرجل، هو الأصل لقولك: يا رجل، لأن المقصود نداء المعرفة»(١٥٨)، فلماذا لا يكون بدلًا؟ ونحن قد رأينا أن (أيّا) تحتل موقع الوصلة فقط؛ فنصل من خلالها للمنادى فهو المنادى إذن، ولـمّا لم أستطع حذفها اصبحت لازمة تحمل

دلالة الثاني والثاني يحل محلها معنًى وهو شرط صحة البدلية. أو منادى مبني على الضم و(أيّ) وصلة زائدة لازمة لا محل لها من الإعراب؛ ولقد رأينا سابقًا ناظر الجيش يستغرب من كون (أيّ) لها محل، إذ كيف يراعى المحل في الوصف الثاني ولا يراعى في الوصف الأول؟

وأقول: لقد أعرب العلماء تركيب (يا أيهذا الرجل) بقولهم: أي: منادى مبني على الضم في محل نصب، وها: للتنبيه، وذا: صفة أي في محل رفع، والرجل: صفة لذا أو عطف بيان مرفوع بضمة ظاهرة. فإذا كانت (أيّ)= (ذا) و(ذا)= (الرجل) فـ(الرجل)= (أيّ) والرجل نعت أو عطف بيان وكل ما جاز أن يكون عطف بيان جاز أن يكون بدلًا، ولو أنّ (أيّ) مبهمة و(ذا) مبهمة بيد أن (أيًّا) أشد إبهاما من أسماء الإشارة[١٥٩]، والرجل وضح (ذا)، فكان توضيح الدلالة جاريًا بالتدريج.

وإنما قلت ما قلت اعتمادًا على قول سيبويه: «لأنك لا تستطيع أن تقول: يا أيُّ ولا يا أيها وتسكت، لأنه مبهَم يلزمه التفسيرُ، فصار هو والرجل بمنزلة اسمٍ واحد، كأنك قلت يا رجل»[١٦٠]. فماذا يقصد بقوله التفسير؟ هل النعت هو التفسير؟ إنّ التفسير أداة لتوضيح مبهم مثل التمييز، الذي إن حذف بقي المبهم على إبهامه، وليس النعت كذلك إذ يمكن الاستغناء عنه ولا يضر بأصل الدلالة. وعلى قول الرماني: «لأن (أيًّا) وصلة إلى ذكر ما فيه الألف واللام في النداء، يصلح أن تذكر، ويصلح أن تترك في النداء، فيقال:يا أيها الرجل، ويا رجل»[١٦١]. فلو قابلنا بين جملة النعت وجملة النداء هنا فكانت أي منادى تساوي المنعوت في جملة أخرى، هل يجوز لنا حذف المنعوت وبقاء النعت، وتبقى الدلالة واحدة؟

واعتمدت على قول أبي حيان: «ويجوز أن يوصف (أي) باسم الإشارة فتقول: يا أيهذا... ويجوز (يا أيهذا الجملة) بدلاً من (أي) لا صفة لهذا»(١٦٢). فالجملة الواقعة بعد اسم الإشارة بدل من (أيّ) واسم الإشارة في الحقيقة هو (أيّ) وهو المنادى، فكيف يكون ما بعده بدلًا لـ (أي) ولا يكون بدلًا له؟ ونحن نقول: جاء هذا زيدٌ، ونعرب زيدًا بدلًا من اسم الإشارة، والجملة في الحقيقة: أنادي أيًّا، أي: أنادي الرجل.

وقد نقل ناظر الجيش لنا قول ابن عمرون في مسألة الوصف فقال: «قال -يقصد ابن عمرون-: لأن اسم الإشارة يوصف بما توصف به أي فقولهم: يا أيهذا الرجل كان اسم الإشارة **توكيدًا لأي**. قال ابن جني(١٦٣): أصحابنا يستضعفون وصف أي في النداء بهذا، لأنها مبهمة ومحتاجة إلى الصفة، وهذا مبهم محتاج إلى موضح فلم يكن في القياس أن ينفي الإبهام بمعرف في الإبهام، لكنه لما كان هذا هنا موصوفا بما فيه الألف واللام صار الاعتماد على الصفة واستهلك هذا بينهما انتهى كلام ابن عمرون»(١٦٤). ويعلق ناظر الجيش على ما نقله ابن عمرون من كلام لابن جني قائلًا: «وأنت إذا تأملت كلام ابن جني هذا علمت أنه كلام من وفق وسدد وأطلعه الله تعالى على خفايا الحكمة من اللغة العربية»(١٦٥). وبهذا الكلام نرى أن مسألة الاتفاق على كون اسم الإشارة يقع صفة لأي أمر كان محل رفض لدى العلماء.

والكلام السابق لابن جني مستوحى من كلام أبي عمر ومن شيخ ابن جني أبي علي، إذ «روى عن الفارسي أنه قال: كنت قديمًا أستوحش من وصف (أي) بـ(ذا) وأرى أنه لا فائدة فيه، لأنهما معًا مبهمان، حتى رأيت لأبي عمروٍ في بعض كتبه مثل الذي أنكرت. قال بعضهم: قلت لأبي علي: إلا أن انضمام (الرجل) إليه هو الذي يفيده اختصاصًا قال: فهذا يقع بـ(الرجل) فأي حاجةٍ بنا

إلى (هذا)؟ قال ابن خروف: وهذا من أبي عمرٍو وأبي علي تحكم، ورد لما قالت العرب واستحسنته»[١٦٦]. نعم لقد أتبعت العرب (أيًّا) اسم الإشارة لكنها لم تقل هذا وصف له، فأين التحكم وأين الرد في كلامهما؟

الخاتمة:

وبعد هذا العرض لـ(أيّ) الوصلة لنداء ما فيه (أل) ودراسة التركيب الندائي الواقعة فيه، وبيان آراء العلماء فيها، خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، من أهمها:

أولًا: إنّ القول بأنّ (أيّ) في جملة (يا أيُّها الرجلُ) صلة لا وصلة لنداء ما فيه (أل) رأي نسب للأخفش، وبذل العلماء جهدًا كبيرًا لرده أو للدفاع عنه دون قبوله، وهو ليس له وإنما سبق إليه.

ثانيًا: تعددت الآراء في ماهية الـ(ها) الملحقة بـ(أيّ) وهذا التعدد يشير إلى عدم وجود دليل مادي، يرجح صحة رأي على آخر، ونظنّ أنّ الصواب أنّها تولدت من ألف الوصل في المعرف بعد (أيّ)؛ إذ إنّ الصعوبة النطقية التي جلبت لأجلها (أيّ) للوصول لنداء المعرف بأل بقيت حاضرة، والمسهل لهذا الأمر وجود الـ(ها).

ثالثًا: إنّ رأي المازني المجوز لنصب تابع (أيّ) رفض من قبل العلماء لعدم ورود السماع لديهم، وقد أوردنا أدلة تؤكّد وجود السماع فيه من جهة، وأنه ليس للمازني بل هو رأي سبق إليه من جهة أخرى.

رابعًا: إنّ الاستغناء عن وصف اسم الإشارة بما فيه (أل) أمر يؤكده السماع، والحقيقة أنّ هذا الرأي ليس لابن مالك تبعًا لابن عصفور، بل هو للفراء.

خامسًا: إنّ نداء العلم المنقول المقترن بـ(أل) التي للمح الصفة أو للغلبة ينادى بحذف (أل) أو بـ(أيّها)، والإحصاء يظهر أنّ الأمر مبني على القلة والكثرة لا على المنع. كما أنّ النداء بـ(يا أيها) يمكن أن يشير إلى دلالة التعظيم للصفة مما هو ليس في (يا) وحدها.

سادسًا: اختلف العلماء في مسألة (وصف وصف) أيّ؛ فأوجب سيبويه ومن تبعه الرفع، والسماع يخالفهم، كما أنّ (أيّ) لا محل لها يراعى، ثم أعربت (أيّ) منادى مبني على الضم في محل نصب. وأجاز غيره النصب لورود السماع وللخروج من إشكال اعتبار المحل على أن يكون (وصف الوصف) بدلًا من (أيّ) لا نعتًا لها. وأجاز أبو حيان أن يكون المنصوب نعتًا لـ(أيّ) على المحل. وبهذا نرى مدى الخلاف في مسألة (محل أيّ).

سابعًا: كان إعراب التابع لـ(أيّ) محل خلاف بين العلماء؛ إذ أعربه سيبويه وصفًا مطلقًا، سواء أكان جامدًا أم مشتقًا، ورأى ابن عمرون أنه عطف بيان والجامد يؤول بالمشتق، وتبعه ابن السيد، في حين فَصَل غيره بينهما؛ فجعل الجامد عطف بيان والمشتق نعتًا، ونظن أنه لا إشكال في إعرابه منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأنه المنادى في الحقيقة، وعليه تعدّ (أيّ) وصلة لا محل لها من الإعراب، أو أن يعرب بدلًا منها.

الهوامش والتعليقات:

(١) الرسالة منشورة في: مجلة آفاق الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، السنة العاشرة، ع (٣٩)، ٢٠٠٢م. ١٧٣- ١٩٧.

(٢) هذا البحث منشور في: مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ع (١٥)، ٢٠١٥م. ٦١-١٢٠.

(٣) نشرت هذه الرسالة من قبل: دار عمار، عمان، الأردن، دار الفيحاء، عمان، الأردن، ط١، ١٩٨٦م.

(٤) انظر: ٣٨-٤٠.

(٥) نشر هذا البحث في: مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ج (١٥) ع (٢٧) ١٤٢٤هـ. ٦١٣-٦٧٩.

(٦) نداء ما فيه (أل) مسألة خلافية بين العلماء، انظر: الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، المسألة (٤٦) ١/ ٢٧٤-٢٧٨، وناظر الجيش، تمهيد القواعد، ٧/ ٣٥٥٦ ومابعدها.

(٧) لم أجد هذا المصطلح -في حدود اطلاعي- إلا عند عبد الغني الدقر في معجم النحو، ٧٩.

(٨) الكتاب، ٢/ ١٠٦.

(٩) انظر على سبيل المثال: الفراء، معاني القرآن، ١/ ١٢١، والمبرد، المقتضب، ٤/ ٢٦٦- ٢٦٧. والزجاج، معاني القرآن، ١/ ٩٨ و٣/ ٤٠٩، والنحاس، إعراب القرآن، ١/ ١٩٧، والسيرافي، شرح كتاب سيبويه، ٢/ ١٧٧، و٢/ ٣٣٩، وابن الوراق، علل النحو، ٣٥٤، والرماني، شرح كتاب سيبويه، ١/ ٢٧٧، وابن يعيش، شرح المفصل، ١/ ٣٢٢، وابن مالك، شرح التسهيل، ٣/ ٣٩٩، والمرادي، توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٧، وابن هشام، مغني اللبيب، ١٠٩.

(١٠) الشاطبي، المقاصد الشافية. ٥/ ٣١٠.

(١١) علل النحو، ٣٤٥. وانظر أيضًا في تعليل اختيار (أي) دون غيرها من المبهمات: الإستراباذي، رضي الدين، شرح الكافية، ١/ ٣٧٤- ٣٧٥.

(١٢) انظر: المرادي، توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٨، وأبا حيان، ارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٦، والأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ٣/ ٣ ٤.

(١٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ٢١.

(١٤) معاني القرآن، ١/ ٩٨-٩٩.

(١٥) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة: ١٥٣.

(١٦) الزجاج، معاني القرآن، ١/ ٢٢٨-٢٢٩.

(١٧) أبو حيان، ارتشاف الضرب ٤/ ٢١٩٦.

(١٨) الشاطبي، المقاصد الشافية، ٥/ ٣١٢.

(١٩) ابن يعيش، شرح المفصل، ١/ ٣٢٣.

(٢٠) انظر هذه الاعتراضات (بتصرف) في: ابن يعيش، شرح المفصل، ١/ ٣٢٣. ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد، ٣/ ٤٠٠، والمرادي، توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٨، والشاطبي، المقاصد الشافية، ٥/ ٣١٢، والأُشْمُوني، شرح الأشموني ٣/ ٣٤.

(٢١) انظر هذه الردود (بتصرف) في: أبي حيان، التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٩٠-٢٩٢، وابن هشام، مغني اللبيب، ١٠٩، والشاطبي، المقاصد الشافية، ٥/ ٣١٢، والسيوطي، همع الهوامع، ٢/ ٥٢-٥٣.

(٢٢) التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٩١.

(٢٣) التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٩١.

(٢٤) ابن هشام، مغني اللبيب، ١٠٩.

(٢٥) النساء: ٥٨.

(٢٦) الأخفش، معانى القرآن، ١/ ٣٩.

(٢٧) الكتاب، ٢/ ٣٩٨.

(٢٨) الفارسيّ، التعليقة على كتاب سيبويه١/ ٣٣٩-٣٤٠.

(٢٩) الكتاب، ٢/ ١٨٨-١٨٩.

(٣٠) السابق، ٢/ ١٩٧.

(٣١) انظر: ابن مالك، شرح التسهيل، ٣/ ٣٩٨ (بتصرف).

(٣٢) إعراب القرآن، ١/ ١٩٧.

(٣٣) المقاصد الشافية، ٥/ ٣١٠.

(٣٤) همع الهوامع، ٢/ ٥٠.

(٣٥) الزجاج، معاني القرآن، ١/ ٢٢٨.

(٣٦) الأمالي، ٢/ ٣٧ .

(٣٧) المرتجل، ١٩٤.

(٣٨) شرح المفصل، ١/ ٣٣٩.
(٣٩) توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٥.
(٤٠) المقاصد الشافية، ٥/ ٣١٠.
(٤١) شرح الأشموني، ٣/ ٣٤.
(٤٢) همع الهوامع، ٢/ ٥٠.
(٤٣) رسالة أيّ المشدّدة، ٣٨.
(٤٤) معجم النحو، ٧٩.
(٤٥) التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٨٨.
(٤٦) علل النحو، ٣٤٦.
(٤٧) الأمالي، ٢/ ٨٤٨.
(٤٨) ابن الشجري، الأمالي، ٢/ ٣٦٤.
(٤٩) البيت من بحر الرمل وهو بلا نسبة في: ابن مالك، شرح التسهيل، ٣/ ٣٩٩، وأبي حيان، ارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٤، والعيني، المقاصد النحوية، ٤/ ١٧١٧.
(٥٠) مجالس ثعلب، ص٤٢. وانظر: أبا حيان، التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٨٩، وارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٥، والأشموني، شرح الأشموني، ٣/ ٣٤، والسيوطي، همع الهوامع، ٢/ ٥٢.
(٥١) أبو حيان، التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٨٩.
(٥٢) السابق نفسه. وانظر: ارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٥، والأشموني، شرح الأشموني، ٣/ ٣٤، والسيوطي، همع الهوامع، ٢/ ٥٢.
(٥٣) أبو حيان، ارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٥.
(٥٤) حسن، عباس، النحو الوافي، ٤/ ٥١.
(٥٥) النجدي، رسالة أيّ المشددة، الحاشية، ٣٨.
(٥٦) انظر: أبا حيان، ارتشاف الضرب، ٤/ ٢٤٩٥.
(٥٧) انظر: ناظر الجيش، تمهيد القواعد، ٧/ ٣٥٥٨.
(٥٨) ورد هذا التركيب في العديد من الشواهد الشعرية، انظر على سبيل المثال: أبا حيان، التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٨٧-٢٨٨.
(٥٩) توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٦.
(٦٠) الكتاب، ٢/ ١٨٨.

(٦١) أمالي ابن الشجري، ٢/ ٣٦٣.

(٦٢) قدمنا رأي من قال بالبناء لأن بعض من قال بالإعراب كان ردًا عليه.

(٦٣) السابق، ٢/ ٣٦٤. وانظر: السيوطي، همع الهوامع، ٢/ ٥٠.

(٦٤) معاني القرآن، ١/ ٩٨.

(٦٥) ابن الشجري، الأمالي، ٢/ ٣٦٥.

(٦٦) انظر: إرشاد السالك، ٢/ ٦٧٥.

(٦٧) الأمالي، ٢/ ٣٦٧-٣٧٠ (بتصرف).

(٦٨) انظر صفحة: ٧٤٥. ويرى ابن هشام أنّ مذهب سيبويه يقضي بأنّ (لا) في لا رجل غير عاملة لافي الاسم ولا في الخبر؛ لأنها صارت كالجزء من الكلمة، والقياس هنا على قولهم: يا زيدُ الفاضلُ، فرفعُ الفاضلِ على المشاكلة، ولو كان على المحل لنصب.

(٦٩) رسالة أي المشددة، ٣٩.

(٧٠) انظر: تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، ٤/ ٩٧و١٢٤.

(٧١) الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني، ٣/ ٢٢٣.

(٧٢) النحو الوافي، ٤/ ٤٧.

(٧٣) معاني القرآن، ١/ ٩٨-٩٩.

(٧٤) السابق، ١/ ٢٢٨-٢٢٩.

(٧٥) السابق، ٣/ ٤٠٩.

(٧٦) بن مالك، شرح الكافية الشافية، ٣/ ١٣١٨.

(٧٧) انظر: شرح ابن الناظم على الألفية، ص ٤١٠.

(٧٨) الشاطبي، المقاصد، ٥/ ٣١٤.

(٧٩) ابن الوراق، علل النحو، ٣٤٥. وانظر: أبا حيان، التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٩٣، وناظر الجيش، تمهيد القواعد، ٧/ ٣٥٦٣، والشاطبي، المقاصد الشافية، ٥/ ٣١٤، والسيوطي، همع الهوامع، ٢/ ٥٠.

(٨٠) انظر: أبا حيان، التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٩٢، والمرادي، توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٧.

(٨١) انظر هذه القراءة في: الجاحظ، البيان والتبيين، ٣/ ٢٥٧، وابن هشام، شرح شذور الذهب، ٤٥٠، وأبي الفداء، الكناش في فني النحو والصرف، ١/ ٣٤و ١٦٥.

(٨٢) الاقتراح، ص٦٧-٦٨.

(٨٣) انظر: حاشية رسالة أيّ المشدّدة للنجدي، ص٣٩.

(٨٤) سبأ: ١٠. قرأ روح وزيد عن يعقوب: «يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ» بالرفع مثل قراءة عبيد بن عمير والأعرج وغيرهما. وقرأ الباقون ورويس (وَالطَّيْرَ) بالنصب. النيسابوري، أبو بكر، المبسوط، ٣٦١.

(٨٥) الفراء، معاني القرآن، ١/ ١٢١.

(٨٦) السابق، ٢/ ٣٥٥.

(٨٧) الجمحي، ابن سلام، طبقات الشعراء، ص٢٤.

(٨٨) انظر: المرادي، توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٦، والشاطبي، المقاصد الشافية، ٥/ ٣١٨. والسيوطي، همع الهوامع، ٢/ ٥١.

(٨٩) ابن الوراق، علل النحو، ٣٤٦-٣٤٧.

(٩٠) الحجر: ٦.

(٩١) ابن مالك، شرح التسهيل، ٣/ ٣٩٩.

(٩٢) المرادي، توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٨. وانظر: شرح الأشموني، ٣/ ٣٤، والنجار، ضياء السالك، ٢/ ٢٦٧.

(٩٣) ارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٤. وانظر: المرادي، توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٨، وشرح الأشموني، ٣/ ٣٤،

(٩٤) الكتاب، ٣/ ٣٣٤.

(٩٥) السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ٤/ ٩٠. وانظر أيضًا: الفارسي، التعليقة، ٢/ ١٥٣، أبا حيان، ارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٤، والسيوطي، همع الهوامع، ٢/ ٥٠.

(٩٦) انظر: ابن مالك، شرح التسهيل، ٣/ ٣٩٩.

(٩٧) الشاطبي، المقاصد الشافية، ٥/ ٣١٨. وانظر: ابن مالك، شرح التسهيل، ٣/ ٣٩٩، والسيوطي، همع الهوامع، ٢/ ٥٠.

(٩٨) ابن الأثير، البديع في علم العربية، ١/ ٣٩٧-٣٩٨.

(٩٩) ارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٣. وانظر: التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٨٤-٢٨٥.

(١٠٠) الزمر: ٩.

(١٠١) الطبري، جامع البيان، ٢٠/ ١٧٤.

(١٠٢) الكتاب، ٢/ ١٨٧.

(١٠٣) انظر هذا الكلام مفصّلًا عند: الشاطبي، المقاصد الشافية، ١/ ٥٧٦-٥٧٧.

(١٠٤) المرادي، توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٨.

(١٠٥) شرح الأشموني، ٣/ ٣٤.
(١٠٦) المعري، اللامع العزيزي في شرح ديوان المتنبي، ٣٦٧.
(١٠٧) انظر على سبيل المثال: المرادي، توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٧، والشاطبي، المقاصد الشافية، ٥/ ٣٢٠، والجوجري، شرح شذور الذهب، ١/ ٣٢٣، والأشموني، ٣/ ٣٧، والسيوطي، همع الهوامع، ٢/ ٥١. والحقيقة أنّني بحثت في كتب ابن عصفور المتاحة فلم أجد هذا الرأي.
(١٠٨) سبق ذكره وتخريجه في الهامش رقم (٤٩).
(١٠٩) البيت من الطويل، وهو في ديوانه ص ٢٨٢.
(١١٠) أرومتي أي: أصلي.
(١١١) ابن مالك، شرح التسهيل، ٣/ ٣٩٨-٤٠٤. وانظر: ابن مالك، شرح الكافية الشافية، ٣/ ١٣٢٠، وابن مالك، شرح عمدة الحافظ، ٢٨١-٢٨٢.
(١١٢) شرح شذور الذهب، ١/ ١٩٨-١٩٩.
(١١٣) إرشاد السالك، ٢/ ٦٧٧.
(١١٤) ضياء السالك، ٣/ ٢٦٧.
(١١٥) انظر: أبا حيان، التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٨٨، والسيوطي، همع الهوامع: ٢/ ٥١.
(١١٦) التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٨٧. وانظر: ارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٤.
(١١٧) مجالس ثعلب، ص٤٢.
(١١٨) الرجز لرؤبة في ديوانه، ص٦٣. والتنزي: نزوع الإنسان إلى الشرّ.
(١١٩) الكتاب، ٢/ ١٩٢.
(١٢٠) شرح الكافية الشافية، ٣/ ١٣١٩.
(١٢١) المرادي، توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٩.
(١٢٢) الأزهري، شرح التصريح، ٢/ ٢٢٩.
(١٢٣) المقتضب، ٤/ ٢١٩. وانظر: ٤/ ٢٦٧.
(١٢٤) انظر: الأصول في النحو، ١/ ٣٧٦.
(١٢٥) انظر: السابق، ١/ ٣٧٥-٣٧٦.
(١٢٦) انظر: علل النحو، ١/ ٣٤٦.
(١٢٧) انظر: البديع، ١/ ٤٠٢.
(١٢٨) انظر: الأمالي، ٣/ ٤٥.

(١٢٩) السابق، ٢/ ٣٧٠.
(١٣٠) انظر: التذييل والتكميل، ١٣/ ٢٩٣.
(١٣١) السابق نفسه.
(١٣٢) تمهيد القواعد، ٧/ ٣٥٦٤.
(١٣٣) الأمالي، ٣/ ٤٥.
(١٣٤) ناظر الجيش، تمهيد القواعد، ٧/ ٣٥٦٠.
(١٣٥) الكتاب، ٢/ ١٨٩، وانظر: ٢/ ١٠٦ و١٨٨، و١٩١، ١٩٣، و١٩٥.
(١٣٦) معاني القرآن، ١/ ٩٨، و٣/ ٤٠٩.
(١٣٧) إعراب القرآن، ١/ ١٩٧.
(١٣٨) علل النحو، ٣٤٤.
(١٣٩) اللمع، ١١١.
(١٤٠) شرح المفصل، ١/ ٣٢٢.
(١٤١) شرح الكافية، ٣/ ١٣١٨، وشرح التسهيل، ٣/ ٣٩٩.
(١٤٢) إرشاد السالك، ٢/ ٦٧٥.
(١٤٣) شرح التصريح، ٢/ ٢٢٩.
(١٤٤) همع الهوامع، ٢/ ٥٠.
(١٤٥) رسالة أيّ المشددة، ٣٨.
(١٤٦) المقتضب، ٤/ ٢١٦.
(١٤٧) الشاطبي، المقاصد، ٥/ ٣١٢.
(١٤٨) انظر: المرادي، توضيح المقاصد، ٢/ ١٠٧٦، وشرح الأشموني، ٣/ ٣٤، والسيوطي، همع الهوامع، ٢/ ٥٠.
(١٤٩) هو: محمد بن محمد بن أبي علي بن أبي سعيد بن عمرون الشيخ جمال الدين أبو عبد الله الحلبي النحوي، ولد سنة ست وتسعين وخمسمائة تقريبا، وسمع من ابن طبرزد، وأخذ النحو عن ابن يعيش وغيره، وبرع به وتصدر لإقرائه، وتخرج به جماعة، وجالس ابن مالك، وأخذ عنه البهاء بن النحاس، وروى عنه الشرف الدمياطي، وشرح المفصل، مات في ثالث ربيع الأول سنة تسع وأربعين وستمائة. السيوطي، بغية الوعاة، ١/ ٢٣١.
(١٥٠) لم أجد هذا الكلام في كتب ابن جني، وقد ذكرت آنفًا أنه جعله من باب الوصف في اللمع.

(١٥١) تمهيد القواعد، ٧/ ٣٥٦٠.

(١٥٢) انظر: السابق نفسه.

(١٥٣) شرح الأشموني، ٣/ ٣٤.

(١٥٤) ضياء السالك إلى أوضح المسالك، ٣/ ٢٦٧.

(١٥٥) انظر: ثعلب، المجالس، ٤٢، وأبا حيان، ارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٥، والتذييل والتكميل، ١٣/ ٢٨٩.

(١٥٦) انظر: أبا حيان، ارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٥، والتذييل والتكميل، ١٣/ ٢٨٩.

(١٥٧) أوضح المسالك، الحاشية، ٣/ ٣٠٩.

(١٥٨) ابن الحاجب، الأمالي، ٢/ ٨٥٠.

(١٥٩) ناظر الجيش، تمهيد القواعد، ٧/ ٣٥٦٢.

(١٦٠) الكتاب، ٢/ ١٨٨.

(١٦١) شرح كتاب سيبويه، ١/ ٢٢٧.

(١٦٢) ارتشاف الضرب، ٤/ ٢١٩٥.

(١٦٣) لم أجد هذا الكلام فيما بين يدي من كتب ابن جني.

(١٦٤) تمهيد القواعد، ٧/ ٣٥٦١.

(١٦٥) السابق نفسه.

(١٦٦) الشاطبي، المقاصد الشافية، ٥/ ٣١٥.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات (٦٠٦هـ)، البديع في علم العربية، تحقيق: فتحي أحمد، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٠هـ.
- الأخفش، أبو الحسن المجاشعي (٢١٥هـ) معانى القرآن، تحقيق: هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٠ م.
- الأزهري، خالد (٩٠٥هـ) شرح التصريح على التوضيح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- الإستراباذي، رضي الدين (٦٨٦هـ)، شرح الكافية، تحقيق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس، بنغازي، ط١، ١٩٨٧م.
- الأُشْمُوني، علي بن محمد بن عيسى (٩٠٠هـ) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- الأنباري، أبو البركات (٥٧٧هـ) الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧م.
- الأندلسي، أبو حيان (ت: ٧٤٥هـ)، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق: رجب عثمان محمد، مكتبة الخناجي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م.
- الأندلسي، أبو حيان (٧٤٥هـ) التكميل والتذييل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق: حسن هنداوي، دار كنوز إشبيليا، الرياض، ط١، ٢٠١٦م.
- ثعلب، أحمد بن يحيى (٢٩١هـ) المجالس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٧م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر (٢٥٥) البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- الجمحي، ابن سلام (٢٣٢هـ) طبقات الشعراء، تحقيق: طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ) اللمع في العربية، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت.
- الجَوجَري، شمس الدين محمد (٨٨٩هـ)، شرح شذور الذهب، تحقيق: نواف بن جزاء الحارثي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٤م.

- ابن الحاجب، عثمان بن عمر (٦٤٦هـ) الأمالي، تحقيق: فخر الدين قدارة، دار عمار، الأردن، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩م.
- حسن، عباس (١٣٩٨هـ) النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، ط٤.
- ابن الخشاب، عبد الله بن أحمد (٥٦٧هـ) المرتجل في شرح الجمل، تحقيق: علي حيدر، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٢م.
- الدقر، عبد الغني، معجم النحو، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٩٨٨م.
- الدماميني، محمد بدر الدين (٨٢٧هـ) تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، تحقيق: محمد المفدى، ١٩٨٣م.
- الرماني، علي بن عيسى (٣٨٤هـ) شرح كتاب سيبويه (رسالة دكتوراه)، تحقيق: سيف العريفي، جامعة الإمام، الرياض، ١٩٩٨م.
- رؤبة (١٤٥هـ)، الديوان، عناية: وليم بن الورد البروسي، دار ابن قتيبة، الكويت.
- الزجاج، إبراهيم بن السري (٣١١هـ) معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- ابن السراج، أبو بكر (٣١٦هـ) الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م.
- سيبويه، عمرو بن عثمان (١٨٠هـ) الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م.
- السيرافي، أبو سعيد (٣٦٨ هـ) شرح كتاب سيبويه، تحقيق: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
- السيوطي، جلال الدين (٩١١هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان.
- السيوطي، جلال الدين (٩١١هـ) همع الهوامع، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
- الشاطبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى (٧٩٠ هـ)، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك)، تحقيق (الجزء الخامس): د. عبد المجيد قطامش، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ٢٠٠٧ م.

- ابن الشجري، أبو السعادات هبة الله (٥٤٢هـ)، الأمالي، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- الصبان، محمد بن علي (١٢٠٦هـ) حاشية الصبان على شرح الأشموني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- الطبري، محمد بن جرير (٣١٠هـ) تفسير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- العيني، محمود بن أحمد بن موسى (٨٥٥ هـ) المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، تحقيق: علي محمد فاخر، أحمد محمد توفيق السوداني، عبد العزيز محمد فاخر، دار السلام، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
- الفارسيّ، الحسن بن أحمد (٣٧٧هـ) التعليقة على كتاب سيبويه، تحقيق: د. عوض بن حمد القوزي، ط١، ١٩٩٠م.
- أبو الفداء، عماد الدين (٧٣٢هـ)، الكناش في فني النحو والصرف، تحقيق: رياض خوام، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠م.
- الفراء، يحي بن زياد (٢٠٧هـ) معاني القرآن، تحقيق: أحمد نجاتي ومحمّد النجار، نشر ناصر خسرو، طهران.
- الفرزدق (٣٨هـ)، الديوان، شرح وضبط: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- ابن القيم، برهان الدين (٧٦٧هـ) إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد السهلي، أضواء السلف، الرياض، ١٩٥٤م.
- ابن مالك، جمال الدين (٦٧٢هـ) شرح تسهيل الفوائد، تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م.
- ابن مالك، جمال الدين (٦٧٢هـ)، شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ، تحقيق: عدنان الدوري، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧م.
- ابن مالك، جمال الدين (٦٧٢هـ) شرح الكافية الشافية، تحقيق: عبد المنعم هريدي، مكة المكرمة، إحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ط١، ١٩٨٢م.
- المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ) المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٦٣م.

- المرادي، بدر الدين حسن بن قاسم (٧٤٩هـ) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
- المعري، أبو العلاء (٤٤٩هـ)، اللامع العزيزي في شرح ديوان المتنبي، تحقيق: محمد سعيد المولوي، مركز الملك فيصل، الرياض، ط١، ٢٠٠٨هـ.
- ناظر الجيش، محمد بن يوسف (٧٧٨هـ) تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تحقيق: علي محمد فاخر وآخرون، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ.
- ابن الناظم، أبو عبد الله، (٦٨٦هـ) شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- النجار، محمد عبد العزيز، ضياء السالك على أوضح المسالك، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- النجدي، عثمان (١٠٩٧هـ) رسالة أيّ المشددة، تحقيق: عبد الفتاح الحموز، دار عمار، عمان، الأردن، دار الفيحاء، عمان، الأردن، ط١، ١٩٨٦م.
- النحاس، أبو جعفر (٣٣٨هـ) معاني القرآن الكريم وإعرابه، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ.
- النيسابوري، أبو بكر (٣٨١هـ) المبسوط في القراءات العشر، تحقيق: سبيع حمزة حكيمي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨١م.
- ابن هشام، عبد الله جمال الدين (٧٦١هـ) شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨٦م.
- ابن هشام، عبد الله جمال الدين (٧٦١هـ)، مغني اللبيب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمدالله، دار الفكر، بيروت، ط٦، ١٩٨٥م.
- ابن الوراق، محمد بن عبد الله بن العباس (٣٨١هـ)، علل النحو، تحقيق: محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.
- ابن يعيش، علي (٦٤٣هـ)، شرح المفصل، تحقيق: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

ابن الفخار

محمد بن الحسن الحضرمي المالقي (ت٥٣٩هـ)

حياته وما تبقى من شعره ونثره

جمعٌ وتوثيقٌ ودراسةٌ

د. ازاد محمد كريم الباجلاني

جامعة كرميان - كلية التربية الأساسية - قسم اللغة العربية
(اقليم كردستان العراق)

ورد البحث في ٤/ ١/ ١٤٤٠هـ وقُبل للنشر في ١٠/ ٥/ ١٤٤٠هـ

ابـن الفخار- محمد بن الحسـن الحضرمي المالقـي (ت٥٣٩هـ) حياته وما تبقى من شعره ونثره جمعٌ وتوثيقٌ ودراسةٌ

د. ازاد محمد كريم الباجلاني

الملخص:

فهذا جمع وتوثيق ودراسة لشعر ونثر ابن الفخار، محمد بن الحسن الحضرمي المالقي، أحد شعراء الأندلس وكتابها، وهو من الأعلام غير المشهورين، ممن عاش في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس للهجرة، والذي لم يعط حقه من البحث والدراسة قديماً وحديثاً، وقد أتت عوادي الزمن على أكثر شعره ونثره، إذ نجزم أن هذا ليس كل شعره وما كتبه من رسائل وخطب. وعلى كلٍّ فقد رتَّبنا ما تبقى منها في هذا المجموع بحسب القوافي، وترقيم الأبيات والنصوص الشعرية والنثرية، وشرح ما فيها بما يستحق شرحه، وقدمنا للشعر والنثر المجموع بدراسة موجزة عن حياة الشاعر، وأبرز السمات الفنية والموضوعية لشعره ونثره.

الكلمات المفتاحية: ابن الفخار- شعره ونثره- جمعٌ وتوثيقٌ ودراسةٌ.

Ibn Al Fakhar - Mohammed Bn Alhasan Al hadrame Al Malqi (born 539 H) - His life and which were remained from his poems and proses

collecting, documenting and study

Abstract:

This is collecting ,documenting and study of Ibn Al Fakhar's poems and proses, who was one of Andaluce's poets and writers and he was one of familiar scholars, who lived at the end of fifth century and beginning of sixth century of Hijrah whom is not given his right from the researchs and studies modernly and olderly, vicitudes of time come to the most of his poems and prose, so we assert that this research is not all of his poems and which he wrote of letters and preachments, any ways we have arranged from which were remained of his work according to the rhymes and we numbered the verses (lines), poems and prosaic units, and we explained the poems in what is worthy and we presented a brief study of poet's biograghy, prominent artistic features and subjectivity of his poem and prose.

key words: Ibn Al Fakhar, Poems and Proses, Collecting, Bocumenting and Study.

القسم الأول

ابن الفخار المالقي، دراسة في حياته ونتاجه الأدبي:

١- حياته (الهوية والمكونات المعرفية):

هو محمد بن الحسن بن كامل الحضرمي المالقي، يكنى أبا عبد الله، ويُلقّب بابن الفخار[١]، وكذلك لُقب بـ (الفقيه المشاور)[٢]. ويُعرف أيضاً بـ (صاحب نصف الربض)[٣]. «فقيه، أديبٌ، اشتهر بالأدب، وله شعر يُدوّن، وتَرسيلٌ يفوق»[٤]. وهو علمٌ من أعلام الأدباء والكتاب في الأندلس، كما يثني عليه أغلب من ترجم له وأورد اسمه بين الأعلام.

ولا تذكر المصادر التي ترجمتْ له الشيء الكثير عن حياته، ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته. وكحال الكثير من الأدباء والعلماء الأندلسيين لم يصلنا نتاجه الأدبي مجموعاً.

كان ابن الفخار من أعيان مالقة وكاتباً بليغاً وشاعراً مطبوعاً، وانتهى من كثرة المال وسعة الحال إلى ما لم يصل إليه غيره[٥]. وقد روى عنه الشعر نفر كثر منهم ولده الوزير الأديبُ شاكر المكنى بـ (أبي الحسين) (ت ٥٨٦ هـ) ويعرف بابن الفخار ايضاً، وكان اديباً شاعراً مجيداً حسن العشرة ذكياً[٦]. والخطيب أصبغ بن أبي العباس[٧]، وكذلك روى عنه حفيده أبو بكر بن دحمان الذي يكون ابن الفخار جده لأمه[٨]. وكذلك روى عنه الشعر الشيخ أبو علي الحسن بن علي بن صالح الأندلسي، الذي ارتحل إلى البصرة وفيها ذكر ابن الفخار وقام برواية بعض أشعاره في مجالسها[٩].

وكان ابن الفخار معروفاً بحسن الكتابة، فقد ذكر القفطي بأن «له خطّ حسن من خطوط أهل الأندلس»(١٠)، وأشار أيضاً إلى أنه رأى «بخطه كتاب عارضة الأحوذي في شرح كتاب الترمذي لابن العربي (ت ٥٤٣هـ) وقد قرأه عليه، والخط في غاية الحسن والصّحة»(١١).

أما اتصاله بذوي السلطان في عصره، فيظهر ذلك بشكل واضح من خلال الشعر الذي كان ينظمه في مدحهم أو استعطافهم. ومن جملة من مدحهم الأمير محمد بن سعيد بن مردنيش (ت ٥٦٧هـ) ملك شرق الأندلس(١٢)، والأمير عبد المؤمن بن علي الموحدي (ت٥٥٨هـ)(١٣)، كذلك مدح أبي عبد الله بن أبي رَنْغي(القرن السادس للهجرة) والي سجلماسة(١٤)، وكانت بينه وبين بني حسون منازعة، جعلته مطارداً من قبلهم فاراً عن مالقة خوفاً من سطوتهم، «فأجلسوا عليه الرصائد وضيقوا عليه الوصائد، حتى سيق إليهم، وهو مصفَّدٌ في الحديد، يرثي له القريب والبعيد، فلم يزل يستعطفهم من السّجن»(١٥)، من ذلك قوله:

أُرِيدُ بِأَنْ أَلقاكَ فِي دَارِكَ التِي ... بِهَا أَمِنَ الخُوّافُ مِنْ نُوَبِ الدَّهْرِ
فيمنعُني عَضُّ الحديدِ وَكابِحٌ ... إِذَا رُمْتُ بابَ السِّجْنِ يُدْفَعُ في الصَّدْرِ
يَقولون: جَلْدٌ للمصيبة، ويحهم ... وماذا الذي يُقشي التَّجلّدَ في الأَسْرِ
فَرِشْ لِي جَناحِي، وَاجْبُرِ العَظْمَ إِنّهُ ... مَهيضٌ، وَأَنْتَ المرءُ تُعرفُ بِالجَبْرِ
وَإِنّي عَلَيْهَا مَا حَيِيتُ لَشَاكِرٌ ... كَمَا عُرِفَتْ في المحْلِ عَارِفَةُ القَطْرِ(١٦)

ومن ذلك قوله، ايضاً:

ويَحْسَبُونَ بأَنَّ الدَّهْرَ غَيرَّكُمْ ... والظَّن أَكْذَبُ أَيْنَ الفَضْلُ وَالْكَرَمُ
يَا حَافِظَ العَهْدِ، إِنْ خَانَ الرِّجَالُ بِهِ ... أَلَمْ تَكُنْ بَيْنَنَا فِيمَا مَضَى ذِمَمُ
وَإِنْ تَوقّفَ عَطْفٌ أَوْ جَفَا كَرَمٌ ... فَالطَّرْفُ يَكْبُو، وَيَنْبُو الصَّارِمُ الخذِمُ

أبَا عَلِيٍّ، وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ دَعْ مَا تَجِيءُ بِهِ الظَّنَاتُ والتُّهَمُ
تُسِيءُ بِي الظنَّ والرحمنُ يشهد لي أنّي بحبلـك بعد الله أعتصمُ

وكانت هذه القصيدة سبباً في عفوهم عنه(١٧).

ويمكننا أن نرسم ملامح شخصيته الخُلقية، من خلال ما وصلنا من نصوصٍ شعرية ونثرية، تبْرُزُ فيه علاقته الجيدة مع أصدقائه في حياتهم وبعد مماتهم. فقد أوردت المصادر التي ترجمت له موقفه المدافع عن صديقه القاضي الوحيدي (القرن السادس للهجرة) أمام ابن تاشفين، بقوله: «.........، وإن قاضِيَكَ ابنَ الوحِيدِي الذي قَدَّمْتَهُ فِي مالَقَةٍ لِلأَحْكامِ، وَرَضِيْتَ بِعَدْلِهِ فِيْمَنْ بِها مِنَ الخاصَّةِ والعَوامِ، لَمْ يَزَلْ يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ اخْتِيارِكَ بِحُسْنِ سِيرَتِهِ، ويُرْضِي اللهَ تَعالى ويُرْضِي النَّاسَ بِظاهِرِهِ وَسَرِيرَتِهِ، مَاْ عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوْءٍ، وَلا دَرَيْنا لَهُ مَوْقِفَ خِزْيٍ، وَلَمْ يَزَلْ جارِياً عَلَى مَاْ يُرْضِي اللهَ تَعَالى ويُرضِيْكَ ويُرْضِيْنَاْ إلى أَنْ تَعَرَّضَتْ بَنُوْ حَسُّونٍ إلى الطَّعْنِ في أَحْكَامِهِ، والهَدِّ مِنْ أَعْلامِهِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اهْتِضَامَ المقَدَّمِ، رَاْجِعٌ عَلَى المقَدِّمِ، بَلْ جَمَحُوا في لِجَاجِهِمْ فعَمُوا وَصَمّوا، وَفعَلُوا وَأَمْضَوا مَاْ بِهِ هَمُّوا........»(١٨).

وموقفه هذا كان نصراً له ولصاحبه. وكذلك نجده وفياً لأصدقائه ولمن اتصل بهم بعد مماتهم من خلال مراثيه الجميلة التي قالها حزناً لفراقهم، من ذلك قوله في رثاء القاضي عبيد الله بن حسون (ت٥٠٥هـ) معزياً ابنيه أبا علي وأبا عبد الله:

أمّا الدُّمُوعُ فمنها الوّاكِفُ السَّرِبُ وفي الضُّلُوعِ ضِرَامُ الحُزْنِ يَلْتَهِبُ
مَا كَانَ هلْكُ أَبِي مَرْوَانَ عِنْدَهُمُ إلاّ الكُسُوفَ بِهِ الأعْيانُ تنْقَلِبُ(١٩)

ومثله قوله في رثاء القاضي عبد الله بن خليفة (القرن السادس للهجرة):

أَقضَّتْ عَلَى الْقَوْمِ الكِرَامِ المضَاجِعُ وفُضَّتْ جُمُـوعٌ بَعْـدَهُ وَمَـدَامِـعُ
وَأَصْبَحَتِ الْعَلْيَا يُرَاعُ فُؤَادُهَا وَحُـقَّ لَهَــا أَنْ تَعْتَرِيهَــا الرَّوائِعُ
أَلاَ إِنَّمَــا الدُّنْيَا غَـدَاةَ فِرَاقِــهِ كَكَفٍّ أبيْنَ الخَمْسَ مِنْهَا الأَصَابِعُ [٢٠]

ومن كتبه التي اظهر فيها توجعه وحسرته، واعتذاره لأهل المصاب من عدم مواساتهم في محنتهم ومشاركتهم مصابهم وبيان ذلك من خلال تأسفه لهم، يقول فيها: «........ تَأْبَى الأيامُ ـ أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكَ ـ، إلاّ أنْ تُفْجَعَ بِسَادَاتِهَا، وتَجْرِي مِنْ اخْتِرامِهِمْ عَلَى عَادَاتِهَا، فَالْحَازِمُ مَنْ اسْتَشْرَفَ الحَوَادِثَ قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ، وَهَانَتْ عَلَيهِ مِنْ حَيْثُ شَمِلَتْ الكُلَّ، وإنّ مُصَابَكَ بِفُلان وإنْ كَانْ أجلَّ رُزْءٍ دَهَمَكَ، وأَوْلاَهُ بِأَنْ يَتَقَسَّمَكَ، فَمِنْ حَقِّكَ أنْ تَلِهَاْ عَنْ مُصَابِكَ بالصَّبْرِ الجَمِيْل مِنْ أَوْصَابِكَ، فَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ الحُزْنَ مَاْ نَفَعَ وَلاْ أَجْدَى، ولا اسْتَرَدَّ في الدَّهْرِ سُؤدُداً فُقِدَ ولا مَجْداً، فإنْ كانَ شَأنُ هَذا الحَادِثِ شُمُولاً، وكلُّ على تِلْكَ الأَعْوادِ مَحْمُولاً، فَمَا لَنَا لا نُبقّي أنْفُسَنا وَهِيَ أَحَبُّ، أو نَرْجِعُ فِيمَنْ فَقَدْنَاْ إلى مَاْ أَرَادَهُ الربُّ، فإنا للهِ وإنّا إليه راجِعونَ عَلَيهَا مصيبةٌ قَدَحَتْ ورزيّةٌ فَدَحَتْ، وَقَدْ يَعْلَمُ اللهُ أنِّي ساهَمْتكَ مُساهَمَةً فؤادَكَ، وأَخَذْتُ مِنْ رُزْئِكَ مِمّا أَخَذْتُ مِن وِدَادِكَ، وإِنِّي لأَتَذَمَّمُ مِنْ دَهْرٍ يَعُوقُ، وَلاَ تُقْضَى مَعَهُ الحُقُوقُ، فَكَانَ مِنْ وَاجِبِ مَرْزِيتِكَ، أن أُعْمِلَ قَدَمِي إلى تَعْزِيَتِكَ، ولكنَّ الذَّنْبَ للأَيَّامِ لا لِيَ، وَحَسْبُكَ اليَوْمَ ما لَكَ قَبْلِي» [٢١].

وفاته:

عاش ابن الفخار في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس للهجرة، ولم يُشِرْ من ترجم له سنة ولادته، أو شيئاً عن نشأته. لكن أغلبهم يذكرون سنة وفاته والمكان الذي توفي فيه، مع اختلافٍ طفيف. ففي شهر شعبان سنة تسعٍ

وثلاثين وخمسمائة للهجرة توفي ابن الفخار في المغرب[٢٢]، أو في مالقة حسب الرواية الأخرى[٢٣].

الآراء التي قيلت فيه وفي شعره ونثره:

معظم الذين مروا على ذكر ابن الفخار أو ترجموا له أشادوا به وبشاعريته وبجودة نثره، فقالوا فيه:

- قال ابن خاقان (ت٥٢٩هـ) في كتابه قلائد العقيان: «صاحبُ لَسَنٍ، وراكبُ هواهُ من قبيح أو حسن، لا يُصدُّ إذا صَمَّمَ، ولا يُردُّ عمّا يمَّم، حميُّ الأنف لا يضام، قوي الشَّكيمة لا يُرام، وقف للمطالبة والأسنةُ قد أشرعة، وثبت والأطوادُ قد تضعضعت، حتى أقعد عدوه وصفا له رواحُهُ وغُدوُّهُ، وقد أثبتُّ له ما يُستطاب، ويسري في النَّفس كما يسري في البلح الإرطاب»[٢٤].
- قال الضبّي (ت٥٩٩هـ) في كتابه بغية الملتمس: «فقيهٌ، أديبٌ، اشتهر بالأدب، وله شعر يُدوّن، وترسيلٌ يَفوق، غلبت عليه البادية»[٢٥].
- قال ابن دحية (ت٦٣٣هـ) في كتابه المطرب: «بيت الفَخَار، ومنبت الفضل المشرق إشراق النهار،.... الراسخ في علم الجوهر والعرض»[٢٦].
- قال ابن خميس المالقي (ت٦٣٩هـ): «كان من أعيان مالقة وجلّتها وكاتباً بليغاً وشاعراً مطبوعاً»[٢٧].
- قال علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ) في كتابه المحمدون من الشعراء: «فيه أدب وفضل وعلم ورئاسة في بلده، وله خطّ حسن من خطوط أهل الأندلس»[٢٨].
- قال ابن الابار (ت٦٥٨هـ) في كتابه التكملة لكتاب الصله: «عداده في الأدباء وكان معروفاً بالكتابة»[٢٩].

- قال المراكشي (ت٧٠٣هـ) في كتابه الذيل والتكملة: «كان اديباً كاتباً حسناً، عظيم الجدة شهير اليسار، لم يكن ببلده نظيره في سعة الحال وكثيرة المال»(٣٠).
- قال ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ) في كتابه مسالك الابصار: «رجل عصابةٍ لا تتعتع، ورجل سحابة لا تتقشّع، رأس صناعة ما وشي مثلها منتخب رداء، ولا غشي زمرد النبات لؤلؤ الأنداء، لا يخاض له غمار، ولا يخان ذمار، ويخاف إلاّ منه أسدٌ ذو أطمار»(٣١).
- قال فيه عمر فروخ في كتابه تاريخ الأدب العربي: «كان ابن الفخار المالقيُّ فقيهاً وكان أديباً يَسْبُكُ في الشعر مسلكاً قديماً ومسلكاً جديداً»(٣٢).

أما نسبته وتلقيبه بابن الفخار؛ فقد شاركه فيها خلق كثير، ولدفع هذا الالتباس نذكر فيما يلي أهم من اشتهر بهذه النسبة، منهم:

- أبو عبد الملك مروان بن عبد الملك القرطبي، المعروف بابن الفخار،(توفي في حدود ٣٢٠هـ)(٣٣).
- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مسعود الألبيري، المعروف بابن الفخار (ت ٣٧٨هـ)(٣٤).
- أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن بشكوال القرطبي الحافظ، يعرف بابن الفخار (ت٤١٩هـ)(٣٥).
- أبو عمر يوسف بن عمر بن يوسف الأنصاري الخزرجي، يعرف بابن الفخار، (توفي في حدود ٤٢٠هـ)(٣٦).
- أبو إسحاق إبراهيم الطبيب اليهودي، يعرف بابن الفخار (توفي قبل ٥٠٠هـ)(٣٧).
- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن خلف الأندلسي المالقي، يعرف بابن الفخار(ت ٥٩٠هـ)(٣٨).
- أبو عمران موسى بن عيسى بن خليفة اللخمي القرطبي، يعرف بابن الفخار (ت٦١١هـ)(٣٩).

- أبو الحسن علي بن إبراهيم بن علي بن عبد الرحمن بن حسن الأركشي الشريشي، يعرف بابن الفخار (ت٦٤٢هـ)(٤٠).
- أبو الحسن علي بن يحيى بن علي بن سعيد بن محمد بن عمران الكناني الإشبيلي، بعرف بابن الفخار و بابن يحيولش، كان يعمل مع ابيه الفخارة، (ولد ٥٨٦ هـ) (توفي حوالي ٦٥٠هـ)(٤١).
- أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن هيصم الرعيني الإشبيلي، المعروف بابن الفخار (ت ٦٦٦هـ)(٤٢).
- أبو بكر محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الفخار الجذامي الأركشي المولد، والمنشأ المالقي الدار، (ت ٧٢٣هـ)(٤٣).
- أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد الخولاني البيري النحوي، أستاذ الجماعة، يعرف بابن الفخار (ت ٧٥٤هـ)(٤٤).
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن ميمون الأندلسي الجزائري المغربي المالكي، المعروف بابن الفخار، نسبة لحرفة جده (ت٨٠١هـ)(٤٥).

٢- الشعر:

أ- الأغراض والسمات الموضوعية:

نظم ابن الفخار في أغراض وموضوعات شعرية، كالمديح، و الاستعطاف، والرثاء، والهجاء، والإخوانيات، والشكوى والنصح والعتاب. ويأتي شعره على شكل مقطعات وقصائد متوسطة الطول. والمتفحص لشعره يجد انه لم يركز على غرض شعري أو موضوع، وإنما ينظم شعره حسب الموقف أو الحاجة، فكان الاستعطاف أبرز هذه المواقف التي جعلته ينظم الشعر من داخل السجن، يقول في قصيدته التي كانت سبباً في العفو عنه والتي ضمنها بيت المتنبي المشهور:

فَاخْفِضْ جَنَاحاً وَخُذْ بِالعَفْوِ مَا ظَلَمُوا   لاَ زِلْتَ تَعْفُو، وَمَنْ عَادَاكَ تَنْتَقِمُ

إلى أن يصل إلى قوله:

وَقَدْ دَعَوْتُ إِلَى إِصْلاَحِ فَاسِدِهِ   وَمَا بِأُذْنِكَ عَنْ أَمْثَالِهَا صَمَمُ (٤٦)

وفي المديح نجده يسبغ على ممدوحيه الصفات التي تليق بهم من شجاعة القيادة، إلى جانب البأس والذكاء، والكرم والجود، ولعل من أماديحه الحسان رائيته في مدح الأمير محمد بن سعد بن مردنيش ملك شرق الأندلس، يقول في مطلعها:

اهتزَّ منْشِمُ عَرْفِهِ عَنْ عَنبَرِ   وافترّ مَبْسِمُ ثَغْرِهِ عن جَوْهَرِ

ولَوَى ذَوَائِبَ لَيْله في نَوْمِه   فأنار عَن وَجْهِ الصَّباحِ المسْفرِ

واخْتالَ في ثوبِ الشَّبيبةِ وانثنى   كالغُصْنِ بينَ مُوَرَّقٍ ومُنوَّرِ

ومنها:

جَاءتْ بِكَ الأفلاكُ في دَوَرانِها   كالغَيْثِ جَادَ على الزَّمَانِ المعْسِرِ

ما عُطِّرَتْ بل عَطَّرَتْ أمداحُهُ   نَفْس الزمانِ، فَيَا زَمَانُ تَعَطَّرِ

عهدي به شَكْلَ الضُلُوعَ بأبيضٍ   عهدي به نَقَطَ القُلُوبَ بأَسْمَرِ (٤٧)

وبما أن ابن الفخار كان فقيهاً فقد تجلى أثر ذلك في شعره، من خلال الإخوانيات، والنصح والدعاء أيضاً. وفي هذه الأشعار تجلى لنا من خلال علاقاته ببني عصره ولا سيما في الإجازة، فقد كلفه القاضي ابن حسون أن يذيل له هذا البيت، وانشد له:

أَتَرْضَى أَنْ تَطِيرَ بِريشِ عِزٍّ   وَمَنْ يَهْواكَ مَقْصُوصُ الجَنَاحِ

فقال مرتجلاً:

إِذَا هَاجَتْ مِنَ الأيّام حَرْبٌ ... فَإِنَّ جَمِيلَ رَأْيِكُمْ سِلاَحِي
وَإِنْ مَالَتْ إِلَى الرَّاحَاتِ نَفْسِي ... فَذِكْرُكَ جَنَّتِي وَهَواكَ رَاحِي
وَقَدْ أصْبَحْتُ أُنْشِدُ بَيْتَ شِعْرٍ ... يَلُوحُ الغَدْرُ فِيهِ كالصَّبَاح
(أَتَرْضَى أَنْ تَطِيرَ بِرِيشِ عِزٍّ ... وَمَنْ يَهْواكَ مَقْصُوصُ الجَنَاح)[٤٨]

وكتب إلى أبي الحسن بن معمر[٤٩]، وكان صديقاً له:

إلى كَمْ يَجِدّ الحُرُّ والدَّهْرُ يَلْعَبُ ... وَيَبْعُدُ عَنْهُ الأَمْنُ والخَوفُ يَقْرُبُ
وَهَلْ نافِعِي أنْ كُنْتُ سَيفاً مُصَمَّماً ... إذا لم يكن يُلقى بحدِّيَ مضربُ
أبيّتُهُمْ واللّيلُ كالنِّقْسِ أسْودٌ ... وأهجُمُهُمْ والصُّبْحُ كالطِّرْسِ أشهَبُ
فما أنا عن ما رُمْتُ مِنْ ذاكَ مُقْصِرٌ ... ولا خَيلُ عزْمي للمقاديرِ تَغْلبُ
أبا حَسَنٍ سائِلْ لِمَنْ شَهِدَ الوَغَى ... لئِنْ كُنْتُ لم أُصْبِحُ أَهَشُّ وأضرب[٥٠]

أما الرثاء؛ فكانت له فيه قصيدتان قالهما في رثاء قاضّيين كانا صديقين له، يقول في إحداها وهي في رثاء القاضي عبيد الله بن حسون:

أمّا الدُّمُوعُ فمنها الوّاكِفُ السَّرِبُ ... وفي الضُّلُوعِ ضِرَامُ الحُزْنِ يلْتَهِبُ
مَا كَانَ هلْكُ أَبِي مَرْوَانَ عِنْدَهُمُ ... إلاّ الكُسُوفَ بِهِ الأعْيانُ تنْقَلِبُ
صَارَتْ لَهُ ثَمراتُ العيش مظلمَةً ... وَعَادَ كالصَّابِ في أفْوَاهِنا الضرَبُ[٥١]

أما العتاب، وخاصةً لأصدقائه نجده يقدم النصح لهم في الوصال وعدم القطيعة وما إلى ذلك، فهو يقول في قصيدة معاتباً صديقه أبي الحسن بن معمر:

أَقِلَّ عِتابَكَ إنَّ الكريمَ ... يُجَازَى على حُبِّهِ بالْقِلَى
وَخلِّ اجتنابَكَ إنَّ الزّمانَ ... يُمِرُّ بتكديرهِ ما حَلاَ
وَوَاصِلْ أَخاكَ بعِلاَّتِهِ ... فَقَدْ يُلْبَسُ الثَّوبُ بَعْدَ الْبِلَى[٥٢]

ولم نجد للشاعر في غرض الهجاء سوى بيتين قالهما في هجاء مراكش المدينة:

وأرضٍ سَكَنَّاها فيا بِئْسَ مَسْكَن ... بِهَا الْعَيْشُ نَكْدٌ والجناح مَهِيضُ

نروح ونَغْدُو ليس إلا مُرَوِّع ... عَقَاربُ سُودٌ أَوْ أَرَاقمُ بِيضُ(٥٣)

وكذلك تورد المصادر انه كتب قطعة في أهل بلدته حين أساءوا إلى القاضي الوحيدي، يقول فيها:

لَوْ صَحَّ عَقْلُكَ أَعْطِ النَّفْسَ فطرتها ... وَلَمْ تَكُنْ ميتاً بالحِقْدِ والحَسَدِ

أمّا الخَلِيطُ فَقَدْ حَلُّوا بدارهم ... وأنتَ وَسْطَ الفَيافِي مِنْ بَنِي أسَدِ

....

وَهَلْ يُطِيقُ دِفاعاً عَنْ جَوانِبِهِ ... مَنْ حَبْلُهُ مُوثَقٌ فِي الجِيدِ مِنْ مَسَدِ

ما لِلوحِيديّ ذَنْبٌ فِي سيادَتِهِ ... إنْ كُنْتَ فِي جُمْلَةِ الغَوْغاءِ لَمْ تَسُدِ(٥٤)

كانت هذه أغلب الأغراض والموضوعات الصريحة والظاهرة التي عرفناها في شعر ابن الفخار، وإننا نجد سواها بشكل أقل من خلال نصوص مفردة قالها في الفخر(٥٥)، وذكر الشيب(٥٦)، والدعاء(٥٧).

ب- خصائص شعره الفنية:

لقد نظم ابن الفخار نصه الشعري في جميع البنى الفنية المعروفة عند أهل الشعر والنقد من البيت اليتيم، والنتفة، والمقطعة والقصيدة. وقد استوفى ابن الفخار شروط النظم في هذه البنى ففي البيت اليتيم كانت الوحدة الموضوعية من سماته، وقد قيل في فكرة معينة، أوفاها حقّها وما اراده من البيت.

وفي المقطعة(٥٨)، كذلك جمع ابن الفخار بين براعة النظم، ودقة الوصف، فجاءت مقطعاته موافية الفكرة، مستوعبة الصورة التي اريد لها.

وأما عن القصيدة؛ فما رأينا فيها غير الموضوع الذي نظمت لأجله، فهو قد نأى بنصه الشعري -القصيدة- عن المقدمات الطويلة ولا سيما في المديح، أو الرثاء، أو الاستعطاف......

وقد أنمازت ألفاظه بالسهولة والسلاسة بعيداً عن غريب الكلام ووحشيه، فالقاعدة العامة للشعر الأندلسي تبقى تميل إلى الرقة والسهولة خلا بعض الأغراض كالمديح والرثاء(٥٩)، وذلك ربما يعود إلى طبيعة البيئة التي عاشها.

وصور ابن الفخار بسيطة بعيدة عن التعقيد قريبة إلى ذهن المتلقي، إذ وظف أساليب البيان لرسمها لا سيما التشبيه الذي كان له دور الصدارة في هذا الباب باستعمال الأداة (كأن) و (الكاف)، يقول ابن الفخار مستعملاً الكاف ولأكثر من مرة:

أبيّتُهُمْ واللَّيلُ كالنِّقْسِ أسْودٌ وأهجُمُهُمْ والصُّبْحُ كالطِّرْسِ أشهَبُ(٦٠)

أما الاستعارة فكانت قليلة في رسم صوره لذا كانت بالمرتبة الثانية، وكذلك قلت الكناية في صوره أيضاً.

أما بخصوص الموسيقى والأوزان، فالطويل كان في مقدمة البحور التي نظم عليها ابن الفخار، ثم تلاه البسيط، فالكامل، ومن ثم الوافر، فالخفيف. ولم ترد في شعره البحور النادرة التي تجافى عنها الشعراء كالمقتضب و المضارع والمجتث.

وقوافيه؛ جاءت مطلقة ومقيدة، والأولى أهم واكثر، كما استعمل النصف من حروف العربية روياً لأشعاره، ولكن الملاحظ أن الحروف التي جاءت بالمرتبة الأولى هي (الباء)، و(الراء)، و(الميم)، و(النون)، وهذه الحروف كثيرة الشيوع في الشعر العربي. ويعزى ذلك إلى نسبة ورودها في أواخر كلمات اللغة(٦١).

وبخصوص الإيقاع الداخلي ومكوناته، فقد ورد في مقطعاته وقصائده التكرار، وكذلك جاء الجناس (بأنواعه)، وهذا ساعد في رسم ضربات موسيقية رشيقة تكاتفت مع الموسيقى الخارجية، والصور الشعرية، والبنى الشكلية، لتخرج شعر ابن الفخار بهذه الصورة التي وصلنا بها والتي كانت سبباً في إشادة من ترجم له.

ومن المظاهر التي يمكن الإشارة إليها مسألة التأثر ببقية الشعراء، وهذا أمر وارد مع الجميع لكن باختلاف درجاته. فابن الفخار كان واضحاً في اقتباساته وتضمينه للشعر المشرقي والأندلسي أيضاً. إذ نجده يورد إشارة إلى اقتباسه داخل القصيدة نفسها، كقوله:

وَوَاصِلْ أَخاكَ بعِلاَّتِهِ فَقَدْ يُلْبَسُ الثَّوبُ بَعْدَ الْبِلَى
وَقُلْ كالَّذي قَالَهُ شاعِرٌ نَبيلٌ، وَحَقُّكَ أَنْ تَنْبُلا
«إذا ما خليلي أَسا مَرَّةً وَقَدْ كانَ فيما مَضَى مُجْمِلاَ»
«ذَكَرْتُ المقدَّمَ مِنْ فِعْلِهِ فَلَمْ يُفْسِدِ الآخِرُ الأَوَّلاَ»(٦٢)

وهذين البيتين ينسبهما ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد لـ (طاهر بن عبد العزيز)(٦٣).

كذلك نجده يشير إلى اقتباسه أيضاً في قوله:

وَقَدْ دَعَوْتُ إِلَى إِصْلاَحِ فَاسِدِهِ وَمَا بِأُذْنِكَ عَنْ أَمْثَالِهَا صَمَمُ
وَسُقْتُ بَيْتاً جَرَى فِي دَهْرِنَا مَثَلاً وَالشِعْرُ فِيهِ تُرَى الأَمْثَالُ والحِكَمُ
«يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إلاّ فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الخِصَامُ وأَنْتَ الخَصْمُ والحَكَمُ»(٦٤)

وهذا البيت مشهور وهو لأبي الطيب المتنبي(٦٥).

وهذا الأمر يتكرر في قوله:

أقولُ فيكَ الذي يُعزّى لِفاطمةٍ والْقَلْبُ حَرّانُ مِنْ بَرْحِ الهَوى يَجِبُ
«قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أنباءٌ وَهَيْنَمَةٌ لو كُنْتَ شَاهِدَهَا لمْ تَكْثُرِ الخُطَبُ»(٦٦)

وهذا البيت ينسب إلى سيدتنا فاطمة بنت محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)(٦٧).

ونجد عند ابن الفخار التأثر بشكل آخر، وهو من خلال أخذ المعنى الذي ذكره شاعر سابق في شعره، دون الإشارة -كما سبق- إلى هذا الأخذ، كقوله:

فَقِرِّي جَعَاري إنَّ دونَكِ حارشاً ... يُمَنِّيكِ بالأخلاف والوَلَعَانِ

وما هُوَ إلاَّ الْمَرْءُ يُقْطَعُ رَأْسُهُ ... وإنْ دَهَنُوهُ حِيلةً بِدِهانِ(٦٨)

وهو مأخوذ من قول النابغة الجعدي:

فقلت لها عيثي جَعارِ وجَرّري ... بلحمِ أمرئٍ لم يشهد اليوم ناصِرُهُ(٦٩)

وهذا التأثر لدى ابن الفخار يدل عل سعة اطلاعه ومقدرته على استنباط المعاني وتوظيفها داخل شعره، والذي أضاف جمالية وقوة في التأثير على السامع أو المتلقي.

٣- نثره (موضوعاته وميزاته):

تعددت آثار ابن الفخار المنظوم (الشعر) لتصل إلى المنثور أيضاً، فله مقطعات نثرية أوردها له مترجمو، ومدونو آثاره وأدبه. وأغلب تلك المقطعات التي وصلت إلينا جاءت على أسلوب الرسائل، وهو فن أدبي (نثري) عُرف عند الأدباء العرب قبل الإسلام، شاع وكثر ووصل كل الأصقاع التي حلّ فيها العرب والمسلمون حتى وصل إلى الأندلس. وكانت موضوعات هذه الرسائل -شأنها شأن شعره- تدور في الإخوانيات، والإجازة. كما أن بعضاً منها جاء ليكمل هذه الصبغة الاجتماعية لأدبه فكان في مخاطبة أصهاره، وكذلك الكتابة في عزاء.... وما إلى ذلك.

كما وجدنا نصا نثريا ذكره المقري في نفح الطيب قاله ابن الفخار في الدفاع عن القاضي الوحيدي أمام ابن تاشفين ويدخل ضمن الخطب النثرية، والذي كان سبباً في تخليصه مما اتهم به.

ومن الفنون النثرية الخاصة بأهل الأندلس فن الزرزوريات، وهذا الفن ظهر في عصر المرابطين، وفيه يمزج الكاتب أو الأديب بين طائر الزرزور وشخصية الرجل الملقب بهذا الاسم وهذا ما نجده في نص ابن الفخار النثري الذي يقول فيها: ((..... ولَمَّا قَطَعَ الآنَ إليكَ مِنْها زُرَيْزِيرٌ، لَهُ أبداً بالثَّنَاءِ عَلَيْكَ صَفِيرٌ، قُصَّ جَنَاحُهُ فَهُو نَحْوَكَ حَاذِفٌ، وحَسُنَ صَبَاحُهُ فَكُلُّ قَلْبٍ عَلَيه عَاطِفٌ؛ رَجَوْتُ أَنْ تُعِيدَهُ وَافِرَ الجَنَاحِ، صَافِراً يَذْكُرُكَ في الغُدُوِّ والرَّوَاحِ))[٧٠]. وبهذا يكون ابن الفخار من أوائل من نظم القول في هذا الفن.

ومن سمات رسائله أو (نثره) الفنية الزخرفة اللفظّية والمحسنات البديعية، وكذلك بلغ العناية فيه بالسجع والفواصل عناية كبيرة أخرجته من السهولة إلى الغموض ومن الاهتمام بالألفاظ وجمالها إلى الاهتمام بالمعاني وتزويقها[٧١].

كذلك برزت في نثره ثقافة ابن الفخار الأدبية والتاريخية والدينية و تأثره بالأسلوب القرآني، كما رأيناه يستشهد بالشعر، ويعرض حوادثه. كقوله:

يسْقُطُ الطَّيْرُ حيْثُ يَنْتَثِرُ الحَب وتُغْشَى مَنَـازِلُ الكُرَمَـاءِ

لَمَّا كُنْتَ أَعَزَّكَ اللهُ رَوْضَةً في الأَرْضِ طَيِّبَةَ الماءِ والعُشْبِ، وَغَدَوْت دَوْحَةٌ في المجْدِ مَوْرِقَةً بالتَّهُمُّم، مُثْمِرَةً بالجدِّ،........، قَدْ جَعَلَتْ أرائكَهَا قَضبَ الأَرَاكِ، وبَسَطَتْ دَرَانِيكَهَا فَلَمْ تُقْتَنَصْ بِأَيْدِي الفُخُوخِ والأَشْرَاكِ، تَتَغَنَّى مِنَ الطَّرَبِ، وتَتَنَاشَدَ بمُخْضَرَّةِ القَصَبِ:

يَاْلَكَ مِـن قُبَّرَةٍ بِمَعْمَـرِ خَلاَ لَكِ الجوُّ فَبِيضِي واصْفَرِي
ونقّرِي مَاْ شِئْتِ أن تُنقِّرِي[٧٢]

البيت الاول للشاعر بشار بن برد[٧٣]. والرجز للشاعر طرفة بن العبد[٧٤].

وقد أورد ابن الفخار الدعاء في صدور رسائله، ولو بشكل مقتضب، وهو مما يحسب عليه، كما في قوله:

«أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ السيّدِ المِفَدَّى، والكريمِ الأعزِّ الأَهْدَى، وجلالُهُ مَأْثُورٌ، وأَجْرُهُ مَوْفُورٌ ومدخُورٌ، تَأْبَى الأيامُ -أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكَ-، إلاّ أنْ نُفْجَعَ بِسَادَاتِها،........»[٧٥].

وهذا الأمر مكروه عند أهل هذه الصنعة كما يقول ويرى الكلاعي (القرن السادس للهجرة): الإكثار من الدعاء في الرسائل من أكبر الدلائل على ضعف البضاعة في الصناعة[٧٦]. وكذلك نجده مكثراً في المصنوع الذي يقول فيه الكلاعي أيضاً: «المصنوع لأنه نُمّق بالتصنيع، ووشح بأنواع البديع، وحُليّ بكثرة الفواصل والأسجاع، واستجلب له منها ما يلذّ في القلوب ويحسن في الأسماع»[٧٧].

وقد زين بعض قطعه النثرية بالمغصّن، وهو ما تقابل فيه سجعتان اثنتان، كل سجعة موافقة لصاحبتها[٧٨]. وبعضها ما جاء على المفصّل، وهو ما جمع بين المنظوم والمنثور في رسالة واحدة[٧٩]. كقوله: «........، وَلَمْ يَزَلْ جَارِيًا عَلَى مَاْ يُرْضِي اللهَ تَعَالى ويُرضِيْكَ ويُرْضِيْنَاْ إلى أَنْ تَعَرَّضَتْ بَنُوْ حَسُّونٍ إلى الطَّعْنِ في أَحْكَامِهِ، والهَدِّ مِنْ أَعْلامِهِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اهْتِضَامَ المِقَدَّمِ، رَاْجِعٌ عَلَى المِقَدِّمِ، بَلْ جَمَحُوا في لِجَاجِهِمْ فَعَمُوا وَصَمّوا، وَفَعَلُوا وَأَمْضَوا مَاْ بِهِ هَمُّوا.

وَإلى السُّحْبِ يَرْفَعُ الكَفُّ مَنْ قَدْ جَفَّ عَنْهُ مَسِيْلُ عَيْنٍ وَنَهْرِ»[٨٠]

كل هذه الأمور الأدبية، تدل على تفوق ابن الفخار في المنظوم والمنثور على حد سواء. ولئن ضاع أكثر شعره ونتاجه الأدبي، فإن ما بقي منه ليضعنا أمام شخصية أدبية فذّة، تستحق الدراسة والأعجاب.

٤- منهج المحقق وعمله:

- جمعت نتاج ابن الفخار المالقي (الشعر، والنثر) من شتيت المظان وكتب الطبقات والتراجم التي ترجمت لحياته وأوردت شيئاً من نتاجه.
- أعطيت لكل نص شعري ونثري رقماً يسّهل عملية الرجوع إليه في التخريج والدراسة.
- رتّبت هذا الشعر على القوافي حسب الحروف الأبجدية.
- اثبتُ البحر الشعري لكل نص من نصوص ابن الفخار الشعرية.
- رقّمت أبيات النصوص الشعرية، وأحلت عليها في اختلاف الروايات بين المظان المختلفة.
- اعتماد رواية المصدر الأقدم -الأصح أو الأرجح- الذي روى أكبر كمية من شعره مع مقابلته بالتخريج، والشرح، والاختلاف مع رواية المصادر الأخرى وكمية شعرها.
- عرّفت بالمفردات اللغوية الصعبة التي وردت في شعره ونثره قدر المستطاع.
- تصدير المجموع الشعري بدراسة عن حياة الشاعر ونتاجه الأدبي (المنظوم والمنثور) من حيث الأغراض الموضوعية، والسمات الفنية بما يقتضي الدراسة، وما يستحق الشاعر، ومن الله الإصابة.

القسم الثاني

ما تبقى من شعر ابن الفخار المالقي ونثره:

أ- الشعر: «قافية الباء»

١- كتب إلى أبي الحسن بن مَعْمَر وكان صديقاً له: (من الطويل)

١- إلى كَمْ يَجِدّ الحرُّ والدَّهْرُ يَلْعَبُ ... وَيَبْعُدُ عَنْهُ الأمْنُ والخَوفُ يقْرُبُ
٢- وَهَلْ نافِعي أنْ كُنْتُ سَيفاً مُصَمَّماً ... إذا لمْ يَكُنْ يُلقى بحدِّيَ مَضْرِبُ
٣- أبيتّهُمْ واللَّيلُ كالنِّقْسِ أسْودٌ ... وأهجُمُهُمْ والصُّبْحُ كالطِّرْسِ أشهَبُ
٤- فما أنا عن ما رُمْتُ مِنْ ذاكَ مُقْصِرٌ ... ولا خَيلُ عزْمي للمقاديرِ تَغْلبُ
٥- أبا حَسَنٍ سائِلْ لِمَنْ شَهِدَ الوَغَى ... لئِنْ كُنْتُ لم أُصْبِحُ أَهَشُّ وأضرب
٦- وأعتَنِقُ الأبطالَ حتَّى كأنَّما ... يُعانِقُني عَنْهُمْ مِنَ البيضِ رَبْرَبُ
٧- أُخاتِلُهُمْ كالذِّئْبِ وحْدي وَتارةً ... يَصُولُ بِهِمْ مِنّي الْمُزَعَفَرُ يَغْضَبُ
٨- وفي كُلِّ بَابٍ قَدْ وَلجْتُ أكيدهمْ ... ولكنْ أُموراً لَيْسَ تُقْضَى فَتَصْعُبُ
٩- فيا أسفاً كيف أبيتُ بذِلَّةٍ ... وسَيْفي ضَجيعي والجَوادُ مُقَرَّبُ(٨١)

٢- ومن شعره رحمه الله تعالى يرثي القاضي أبا مروان عبيد الله بن حسّون ويعزي ابنيه أبا علي وأبا عبد الله: (من البسيط)

١- أمّا الدُّمُوعُ فمنها الوّاكِفُ السَّرِبُ ... وفي الضُّلُوعِ ضِرَامُ الحُزْنِ يَلْتَهِبُ
٢- مَا كَانَ هلْكُ أَبِي مَرْوَانَ عِنْدَهُمُ ... إلاّ الكُسُوفَ بِهِ الأعْيانُ تَنْقَلِبُ
٣- صَارَتْ لَهُ ثَمراتُ العيش مظلمَةً ... وَعَادَ كالصَّابِ في أفْوَاهِنا الضَرَبُ
٤- في كلّ وَادٍ وَنادٍ مِنْ عَشَائِرِنا ... أنشا به الجِدُّ لما مَاتَ وَاللَّعِبُ
٥- كُنّا بِهِ مِنْ ضُروب الدَّهْرِ في حَرَمٍ ... والأمْنُ تَلْحَفُنا أبرادُهُ القُشُبُ
٦- وكانَ رَأْس المِعَالي سّامِياً صُعُداً ... فَطُؤْطِيءَ الرَّأْسُ واسْتَعْلَى بِهِ الذَّنَبُ

٧- يا هَضْبَةً هُدَّ رُكْنَ المجْدِ هَدَّتَها ... وَحَربةً فُلَّ لَمَّا فُلَّتِ الحَسَبُ
٨- أقولُ فيكَ الذي يُعزّى لِفاطمةٍ ... والْقَلْبُ حَرّانُ مِنْ بَرْحِ الهَوى يَجِبُ
٩- «قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أنباءٌ وَهَيْنَمَةٌ ... لو كُنْتَ شَاهِدَهَا لمْ تَكْثُرِ الخُطَبُ»
١٠- العِلْمُ والحِلْمُ والتَّقْوى وَهِمَّتُهُ ... فِي الْعَدْلِ والبَذْلِ ثُمَّ الرَّأيُ والأَدَبُ
١١- ما ضَيَّعَ اللهُ قَوْماً أَنْتَ جَارُهُمُ ... أبا عَلِيّ وإنْ خافوا وإنْ طَلبوا
١٢- والسّهْلِ يَصْعُبُ مَهْما كُنْتَ رَاكِبَهُ ... فلا تَهِزّنك الأهوالُ والرُّعَبُ
١٣- وَقدْ حَننْتُ أبا عبدِ الإله لَكُمْ ... كَمّا تَحِنّ لَكَ الأقلامُ والكُتُبُ
١٤- ومَا اليَراعُ إذا أَصْبَحْتَ تعْمِلُها ... إلاّ تذلُّ لهُ الهنديّةُ القُضُبُ
١٥- تَدنُو وتَبْعُدُ والمِنّاتُ عَاليةٌ ... كالطَّرْفِ يوجَدُ فيهِ الجَرْيُ والخَبَبُ
١٦- وإنْ حُجبْتُ زَماناً عنْ زيارَتِكُمْ ... فالشَّمْسُ شَمْسٌ وإنْ كانتْ لَها حُجُبُ
١٧- قَلبي سِنانٌ تَشُقُّ الصَّخْرَ حِدَّتُهُ ... وَمِقولي صَارِمٌ في مَتْنِهِ شُطَبُ
١٨- وَلي وَفاءٌ لَوَ انّ الأرضَ تَعْهَدُهُ ... ما دلَّ فِيها لِفَرْعِ النَّبعةِ الغَرَبُ
١٩- أبَى لِيَ اللهُ إلاّ أنْ يُفَضّلني ... عَلى أُناسٍ وإنْ ذَمُّوا وإنْ خببوا
٢٠- وَكُلّ قولٍ، إذا ما كَانَ مَدْحَكُمُ ... وإنْ أُضِيفَ إلى الإشهار مُقْتَضَبُ
٢١- وإنْ غَدا الجِسْمُ في تُرْبٍ فليسَ لَنا ... إلاّ الدُّعاءُ بِأنْ تَهْمِي لَهُ السُّحُبُ
٢٢- بنعمةِ الله حَتّى الحَشْرِ أعْظُمُهُ ... وَحَامَ فَوْقَ ثَراهُ المزْنُ يَنْسَكِبُ(٨٢)

٣- وسمع ابن الفخار رجلاً ينشد قول الشاعر: (من البسيط)

العلمُ قد ينفع الأحدثَ في مَهَلٍ ... وليس ينفع بعد الكبرةِ الأدبُ
إنَّ الغصونَ إذا قوَّمتها اعتدلتْ ... ولن تلينَ إذا قوَّمتَها الخشبُ

فعارض ذلك بقوله:

١- قد يستفيد الكبيرُ العلمَ في عجلٍ ... وقد يخيب صغيرٌ دأبُه الطلبُ
٢- أما ترى الشجرَ الضخماءَ مثمرةً ... وليس مُثمرةً إذ تُغرس القُضُبُ(٨٣)

٤- أنشدني الشيخ الصالح أبو علي الحسن بن علي بن صالح الأندلسي وقد قدم البصرة في ذي الحجة سنة سبع وخمسين وخمسمائة قال: أنشدني الفقيه المشاور هذا لنفسه، وذكر أنه عمله ارتجالا يخاطب شاعراً جاراه في التوحيد وهو موشح العروض[٨٤]: (من الوافر)

١- رُوَيدك أيُّها الرجُلُ الْمُعَنَّى ... فإنَّ الرِّفْقَ أجملُ باللَّبيبِ
٢- ولا تَعْجَلْ فَرُبَّ فتىً تأنّى ... فأدرك غايةَ الْقَرْمِ النَّجيبِ
٣- فكم عَقْد شديدٍ قد تَسَنّى ... بلا تَعَبٍ ولا طَرَبٍ مُرِيبِ
٤- فإنَّ الجيشَ ليسَ يُطيقُ شَنَا ... لغارتِهِ بلا قَدَرٍ مُصيبِ
٥- ولا يَمضي الحُسامُ يُسَنُّ سَنَّا ... إذا لم يَقْضِ عَلاَّمُ الغُيوبِ
٦- أخوك مُحَمَّدُ لما تَغنَّى ... أصاخَتْ نَحْوَه أُذُنُ الغريبِ
٧- وقَـفَّـاها بواحــدة فتَنَّى ... كَمِثْلِ الرُّمْحِ قُوِّىَ بالْقَضِيبِ
٨- فَخُذْها غادَةً خُضبَتْ يُرَنَّا ... لهَا ثوبٌ قَدْ اقْدِمَ بالصَّبِيبِ
٩- إذا مَا رَامَها مَنْ قَدْ تَبنَّى ... تعرَّضَ دونَها شَبَحُ الحُروبِ
١٠- جَمِيعُ بيَانِهَا لَفْظاً ومَعْنَى ... كما جُمِعَ الْحَبِيبُ مَعَ الحبيبِ[٨٥]

«قافية الحاء»

٥- ومن ذلك قوله: (من الكامل)

١- أنْتَ الكَرِيمُ وَقَدْ مَلَكْتَ فَاسْجِحِ ... وَاغْفِرْ فَقَدْ عَظُمَتْ ذُنُوبِيَ وَاصْفَحِ
٢- لا تَلْتَفِتْ غِشّ الوُلاةِ كَنُصْحِهِمْ ... فَالكاشِحُونَ غِشَاشُهُمْ بِتَنَصُّحِ
٣- يا حَامِياً سُرُجَ السِيادَةِ مُمْرَعاً ... باللهِ عَجِّلْ إنْ رأيْتَ مُسرَّحي
٤- وَاعْلَمْ بِأنِّي لِلْعَوَارِفِ شَاكِرٌ ... كَالْهِيمِ تَشْكُرُ عَارِفَاتِ المتّح
٥- أَشْفَقْتُ مِنْ عَضِّ الحَدِيدِ، وَرَوْعُهُ ... فِي الصَّدْرِ لَمْ تَذْهَبْ وَلَمْ تَتَزَحْزَحِ[٨٦]

٦- وكلفه القاضي ابن حسون أن يذيّل له هذا البيت، وأنشده: (من الوافر)

أَتَرْضَى أَنْ تَطِيرَ بِريشِ عِزٍّ   وَمَنْ يَهْواكَ مَقْصُوصُ الجَنَاحِ

فقال مرتجلاً:

١- إِذَا هَاجَتْ مِنَ الأَيّام حَرْبٌ   فَإنَّ جَمِيلَ رَأْيِكُمُ سِلاَحِي
٢- وَإِنْ مَالَتْ إِلَى الرَّاحَاتِ نَفْسِي   فَذِكْرُكَ جَنَّتي وَهَواكَ رَاحِي
٣- وَقَدْ أصْبَحْتُ أُنْشِدُ بَيْتَ شِعْرٍ   يَلُوحُ الغَدْرُ فِيهِ كالصَّبَاحِ
٤- (أَتَرْضَى أَنْ تَطِيرَ بِريشِ عِزٍّ   وَمَنْ يَهْواكَ مَقْصُوصُ الجَنَاحِ)(٨٧)

«قافية الدال»

٧- وكتب معرّضاً لأهل بلده: (من البسيط)

١- لَوْ صَحَّ عَقْلُكَ أَعْطِ النَّفْسَ فطرتها   وَلَمْ تَكُنْ ميتاً بالحِقْدِ والحَسَدِ
٢- أمّا الخَلِيطُ فَقَدْ حَلُّوا بدارهم   وأنتَ وَسْطَ الفَيافِي مِنْ بَنِي أسَدِ
٣- يا مَنْ أَتاهُ بمعنىً لَيْسَ يَفْهَمُهُ   إنّ النتيجةَ مِنْ آرائِكَ الفُسُدِ
٤- أهْوِنْ بِخَطْبِ أمرئٍ خَلَّتْ بِضَاعَتُهُ   مِنَ النَّمِيمَةِ في أَسْواقِها الكُسُدِ
٥- الدِّينُ يَضْرِبُ غَبّاً مَنْ يُعانِدُنَا   ضَرْباً يُزيّلُ بَيْنَ الرَّأسِ والجَسَدِ
٦- وَهَلْ يُطِيقُ دِفاعاً عَنْ جَوانِبِهِ   مَنْ حَبْلُهُ مُوثَقٌ فِي الجِيدِ مِنْ مَسَدِ
٧- ما لِلوحِيديّ ذَنْبٌ فِي سيادَتِهِ   إنْ كُنْتَ فِي جُمْلَةِ الغَوْغاءِ لَمْ تَسُدِ(٨٨)

«قافية الراء»

٨- أنشد أبو بكر بن دحمان لأبي عبد الله، وهو جده لأمّه هذه القصيدة: (من الطويل)

١- أُرِيدُ بِأَنْ ألقاكَ فِي دَارِكَ الَّتِي   بِهَا أَمِنَ الخُوّافُ مِنْ نُوَبِ الدَّهْرِ
٢- فيمنعُني عَضُّ الحديدِ وَكابِحٌ   إِذَا رُمْتُ بابَ السِّجْنِ يُدْفَعُ فِي الصَّدْرِ

٣- يَقولون: جَلْدٌ للمصيبة، ويحهم ... وماذا الذي يُقشي التَّجَلّدَ في الأَسْرِ
٤- فَرِشْ لِي جَناحِي، وَاجْبرِ العَظْمَ إِنّهُ ... مَهيضٌ، وَأَنْتَ المرءُ تُعرفُ بِالْجَبْرِ
٥- وَإِنّي عَلَيْهَا مَا حَيِيتُ لَشَاكِرٌ ... كَمَا عُرِفَتْ في المحْلِ عَارِفَةُ القَطْرِ(٨٩)

٩- قال ابن الفخار: (من الخفيف)

١- وَإلى السُّحْبِ يَرْفَعُ الكَفُّ مَنْ قَدْ ... جَفَّ عَنْهُ مَسِيْلُ عَيْنٍ وَنَهْرِ

١٠- ومما أنشدنيه لنفسه في الأمير محمد بن سعد بن مردنيش ملك شرق الأندلس من قصيدة أولها: (من الكامل)

١- اهتزَّ منْشِمُ عَرْفِهِ عَنْ عَنبَرِ ... وافترّ مَبْسِمُ ثَغْرِه عن جَوْهَرِ
٢- ولَوَى ذَوَائِبَ لَيْله في نَوْمِه ... فأنار عَن وَجْهِ الصَّباحِ المسْفرِ
٣- واختَالَ في ثوبِ الشَّبيبةِ وانثنى ... كالغُصْنِ بينَ مُوَرَّقٍ ومُنوَّرِ
٤- زَارَتْ تَثَنَّى في الوشاحِ تَسَتُّراً ... والرِّدْفُ يُنْبي عنه عَقْد المِئْزَرِ
٥- ظَنَّت بأنَّ الليلَ يَكتُمُ سِرَّها ... والحُسْنَ يَفْضَحُ غُرَّةَ المتَسَتِّرِ
٦- كالنُّورِ لم يَفْتِنْكَ رَائقَ حُسْنِهِ ... حَتَّى تَبسَّمَ في القضيبِ الأخضرِ
٧- وأَقامَ زَهْرَةَ وَرْدِها في خَدّها ... ماءُ الصبا وحَيَا الشَّبابِ الأَنْضَرِ
٨- بَخِلَتْ عليَّ وقد سَأَلْتُ قِطَافَه ... وَجَنتْهُ أَزرارُ الرِّدَا والمِعْجَرِ
٩- سَاومْتُ هذا الحُبَّ طيبَ وصالِهِ ... والهجرُ يَغْمِزُني بأن لا أشْتَرِي
١٠- فالحُسْنُ يُنكرُني، ويعرفني الهوى ... شَتَّان بَينَ مُعَرَّفٍ ومُنكَّرِ
١١- إن جارَ هذا الحُبُّ في أحكامِه ... فالجَوْرُ في ذا الحُبِّ ليس بِمُنْكَرِ
١٢- نفسي أَلُومكِ؛ كان يَنْهَاني الهوى ... فأمرْتِ قَاسِيَ صَعْبه فتصَبَّري
١٣- مَنْ منصفي من ظالمٍ ومُحَلِّلٍ ... غَصْبَ الهَوَى مِنّي جميلَ تَصَبُّري
١٤- إلاّ المهَنّا بالسُّرورِ الأكبرِ ... إِلّا الممَدَّحَ بالثَّناءِ الأعطرِ

١٥- أَمُؤَمَّلٌ غَيْرُ الأَمِيرِ مُحَمَّدٍ ... ذاكَ ابْنُ سَعْدٍ، يامدائِحُ فابْشِرِي
١٦- كم جئتُم من أطْهَرٍ في أطهرٍ ... ونقَلْتُمُ من أَطْهُرٍ في أَطْهُرِ
١٧- وجَنَيْتُمُ ثَمَرَ الفتوحِ بِرَوْضةٍ ... للرِّزْقِ تَنْبُتُ بالرُّعَافِ المِمْقَرِ
١٨- وجَلوْتُمُ صَدَأَ الدُّهُورِ فأصبحَتْ ... كالسّيفِ كَشَّفَ صَقْلَه عن جَوْهَرِ
١٩- وصقَلْتُمُ مَرْأَى الزَّمانِ فمَنْ يَشَأْ ... نَظَرَ السُّرورِ فهاكَهُ، فليَنْظُرِ
٢٠- جَاءتْ بِكَ الأفلاكُ في دَوَرانِها ... كالغَيْثِ جَادَ على الزَّمَانِ المعْسِرِ
٢١- يَهْتَزُّ عَطْفَ الحمدِ منه نافحا ... عن مِدْحَةٍ فتَقَتْ بِمِسْكٍ أَذْفرِ
٢٢- ما عُطِّرَتْ بل عَطَّرَتْ أمداحُهُ ... نَفْس الزمانِ، فَيَا زَمَانُ تعَطَّرِ
٢٣- عهدي به شَكْلَ الضُلُوعَ بأبيضٍ ... عهدي به نَقَطَ القُلُوبَ بأَسْمَرِ
٢٤- حتى إذا ما البأسُ حلَّ ذماره ... صَبَغَ الفَضَائلَ في النَّجيعِ الأحمرِ(٩٠)

«قافية السين»

١١- وكان ابن الفخار جالساً عند القاضي أبي عليّ بن حسون بمالقة في مجلس أحكامه، وقد حضر جملةٌ من أعيان مالقة، فجاءه رجلٌ فأخبره أن قوماً يُعرفون ببني العصيريّ من قرية يرفة، وتعرف الآن برذلفة وبنو العصيريّ بها الآن، فأخبروه أنّهم سيّبوا مواشيهم على غراسٍ وزرع كان له بالقرية المذكورة أو قريباً منها، فتناول إِضبارة وكتب فيها: (من الكامل)

١- يَا ذَا الذِي بِجَمَالِهِ وَكمالِهِ ... رَدَّ القُلُوبَ النَّافِرَاتِ أَوَانِسَا
٢- بَقَرُ العَصيرِيِّ بِقَرْيَةِ يَرْفَةٍ ... رَتَعَتْ فآذَتْ غَارِساً أَوْ دَارِسَا
٣- وَلَهُ رُعَاةٌ مِنْ بَنِيهِ خَمْسَةٌ ... أَخْنَوْا عَلَى شَجَرِي فَأَصْبَحَ يَابِسَا

ودفعها للقاضي، فأمر بهم فأحضرهم وسجنهم واشتدّ عليهم(٩١).

«قافية الضاد»

١٢- وأنشد في مراكش بأقصى المغرب: (من الطويل)

١- وأرضٍ سَكَنَّاها فيا بِئْسَ مَسْكَن ... بِهَا الْعَيْشُ نَكْدٌ والجناح مَهِيضُ
٢- نروح ونَغْدُو ليس إلا مُرَوِّع ... عَقَارِبُ سُودٌ أَوْ أَرَاقِمُ بِيضُ[٩٢]

«قافية العين»

١٣- ومن شعره رحمه الله يرثي القاضي أبا عبد الله بن خليفة: (من الطويل)

١- أَقضَّتْ عَلَى الْقَوْمِ الكِرَامِ المَضَاجِعُ ... وفُضَّتْ جُمُوعٌ بَعْدَهُ وَمَدَامِعُ
٢- وَأَصْبَحَتِ الْعَلْيَا يُرَاعُ فُؤَادُهَا ... وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَعْتَرِيهَا الرَّوائِعُ
٣- أَلاَ إِنَّمَا الدُّنْيَا غَدَاةَ فِرَاقِهِ ... كَكَفٍّ أُبِينَ الخَمْسَ مِنْهَا الأَصَابِعُ
٤- وَكُلُّ كَرِيمٍ بَعْدَهُ غَالَهُ الأَسَى ... وَأَصْبَحَ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ المَطَالِعُ
٥- شِهَابٌ هَوَى، فَالْعِلْمُ أَسْوَدُ حَالِكٌ ... وَنَجْمٌ خَوَى، فَالْخَيْرُ أَغْبَرُ شَاسِعُ
٦- وَطِرْفٌ كَبَا، والطِّرْفَ لَمْ يَكُ عَاثِراً ... وَسَيْفٌ نَبَا، وَالسَّيْفُ أَبْيَضُ قَاطِعُ
٧- فيَا لِدُمُوعِ العَيْنِ غِيضَتْ مِنَ الْبُكَا ... وَيَا لِحَصَاةِ القَلْبِ هُنّ الصَّوَادِعُ[٩٣]

«قافية الغين»

١٤- وكتب إلى أبي عبد الله بن أبي رنغي، عند ولايته سجلماسة، والشعر طويل، أتيت منه ببعضه: (من الطويل)

١- بِمَنْ حَلَّ فِي سَرْغٍ فُؤادُكَ هَائِمٌ ... وهَيْهاتَ مِنْكَ اليومَ مَنْ حَلَّ فِي سَرْغِ
٢- وَتَكْلَفُ بالدَّاعِي هَلُمَّ إلى الْوَغَى ... طَمَاعاً بِأَنْ تَدْنو مِنْ ابنِ أَبِي رَنْغِي
٣- وكُنَّا بِهِ نَبْغِي قَضَاءَ لُبَانَةٍ ... وَلَوْ أَنَّهُ يبْقَى لَقَضَّى الَّذي نَبْغِي
٤- سَلاَمٌ عَلَيْهِ عَذَّبَ النَّفْسَ بُعْدُهُ ... عَقَارِبُ هَمٍّ لا تَفِيقُ مِنَ اللَّدْغِ
٥- وَشَوْقاً إليهِ أصبحَ الْقَلْبُ عِنْدَهُ ... ولَمْ تَثْنِهِ خَوْدٌ مُعَقْرَبَةُ الصُّدْغِ[٩٤]

«قافية اللام»

١٥- وله أيضاً: (من المتقارب)

١- أَقِــلَّ عِتــابَـكَ إنَّ الكــريمَ يُجازَى على حُبِّهِ بالْقِلَى
٢- وَخلِّ اجتنـابَكَ إنَّ الزَّمـانَ يُمِرُّ بتكديرِهِ ما حَلاَ
٣- وَواصِـلْ أَخـاكَ بعِلاَّتِهِ فَقَدْ يُلْبَسُ الثَّوبُ بَعْدَ الْبِلَىَ
٤- وَقُلْ كالَّذي قالَهُ شاعِرٌ نَبيلٌ، وَحَقُّكَ أَنْ تنبُلا
٥- «إذا ما خليلي أَسا مَرَّةً وَقَدْ كانَ فيما مَضَى مُجْمِلاَ»
٦- «ذَكَرْتُ المقَدَّمَ مِنْ فِعْلِهِ فَلَمْ يُفْسِدِ الآخِرُ الأَوَّلاَ»
٧- أَبا حَسَنٍ أَيَّما حَادثٍ يُجَرِّدُ لي سَيْفُكَ المِفْصَلاَ
٨- فَوُدِّي جديدُكَ لم أَبْلِهِ يَروقُكَ في حَلْيِهِ والحُلا
٩- أُوَلِّي الْمَلامَةَ عَنْكَ الزَّمانَ وأصْحَبُكَ الأَكْرَمَ الأَفْضَلاَ
١٠- أَقُولُ -وأنْتَ لِسَانُ المقالِ وَعَيْنُ الْكَمَالِ وراسُ العُلاَ-:
١١- لئن جارَ فيكَ عليَّ الزَّمانُ فقَدْ كانَ لي حَكَماً أَعْدَلاَ
١٢- ليالِيَ كُنْتَ صَحيحَ الإِخاءِ صَريحَ الوَفَاءِ بِمَا أَمَّلاَ
١٣- تُدافِعُ عَنِّي خُطوبَ الزَّمانِ بضَرْبِ الرِّقابِ وطَعْنِ الْكُلاَ
١٤- ولكنْ أَطَعْتَ غُواةَ الرِّجال وَبِعْتَ صَديقَكَ لا بالْغَلاَ
١٥- سَأَصْبِرُ لِلْخَطْبِ حَتَّى يَزولَ وأَدْعُو لَهُ رَأْيَكَ الأَجْمَلاَ
١٦- وَدونَكَهَا كالْعَرُوْسِ الْكَعَابِ عَلَيْها من الْحَلْى ما فُصِّلاَ
١٧- فكالزُّبْد بالدُّهْن في لِينِهَا وَتَخْزي لِشدَّتها الْجَنْدَلاَ
١٨- إذا صِيدَ للشِّعْرِ طَيْرٌ بُغَاثٌ رَأَيْتَ لَهَا الطَّائِرَ الأَجْدَلاَ
١٩- وَلَمْ أُلْفِ جِدَّكَ جِدَّ الَّذي أَكُفُّ بِهِ النَّازلَ الْمُعْضِلاَ(٩٥)

«قافية الميم»

١٦- يقول ابن الفخار: (من البسيط)

١- ويَحْسبُونَ بأنَّ الدَّهْرَ غيرَّكُمْ ... والظَّن أَكْذَبُ أَيْنَ الفَضْلُ وَالْكَرَمُ
٢- يَا حَافِظَ العَهْدِ، إِنْ خَانَ الرِّجَالُ بِهِ ... أَلَمْ تَكُنْ بَيْنَنَا فِيمَا مَضَى ذِمَمُ
٣- وَإِنْ تَوقّفَ عَطْفٌ أَوْ جَفَا كَرَمٌ ... فَالطِّرْفُ يَكْبُو، وَيَنبُو الصَّارِمُ الخذِمُ
٤- أبَا عَلِيّ، وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ ... دَعْ مَا تَجِيءُ بِهِ الظِّنَّاتُ والتُّهَمُ
٥- تُسِيءُ بِي الظنَّ والرحمنُ يشهد لي ... أنّي بحبلك بعد الله أعتصمُ
٦- مَنْ غَيَّرَ الوَدَّ مَا بَيْنِي وبَيْنَكُمُ ... فَغُيِّرَتْ عِنْدَهُ الأَرْزَاقُ وَالنِّعَمُ
٧- فَلاَ تُطَاوِعْ أُناساً فِي صُدُورِهِمُ ... مَعَ الحَسَادَةِ نَارُ الحِقْدِ تَضطَرِمُ
٨- مِنْ أَجْلِ نكْسٍ يرَى أَنّ الصَّلاَحَ بِهِ ... أَنْ يُظْهِرَ الشَّرّ مِثْلَ الموْجِ يلْتَطِمُ
٩- فَاخْفِضْ جَناحاً وَخُذْ بِالعَفْوِ مَا ظَلَمُوا ... لاَ زِلْتَ تعْفُو، وَمَنْ عَادَاكَ تنْتَقِمُ
١٠- إِذَا أصَابَتْ مِنَ الأَيّامِ حَادِثَةٌ ... فَأَنْتَ نُورٌ لَدَيهِ تَنْجلِي الظُّلَمُ
١١- وإنْ غَدَوْتُ خَفِيفَ الجِسْمِ ضَامِرَهُ ... فَالذّابِلاَتُ إِلَيْهَا تَجْنَحُ البُهمُ
١٢- الخَيْلُ تَسْبِقُ إنْ كانَتْ مُضمَّرةً ... وَالسَّهْمُ ينْحتُ وَالصَّمْصَامُ وَالْقَلَمُ
١٣- فَلاَ تُمَكِّنْ سَفِيهاً مِنْ إِرَادَتِهِ ... فيُصْبِحَ الرَّأْسُ تعْلُو فَوْقَهُ القَدَمُ
١٤- شَاوِرْ أَخَاكَ وَدَعْ بَعْضَ الوَرَى هَمجاً ... أمَّا الذِّئَابُ فَمَا تَرْعَى بِهَا الغَنَمُ
١٥- وَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِمَنْ صَحّتْ مَوَدّتُهُ ... فَلَيْسَ يُدْبَغُ جِلْدٌ مَسّهُ جَلَمُ
١٦- وَقَدْ دَعَوْتُ إِلَى إِصْلاَحِ فَاسِدِهِ ... وَمَا بِأُذْنِكَ عَنْ أَمْثَالِهَا صَمَمُ
١٧- وَسُقْتُ بيْتاً جَرَى فِي دَهْرِنَا مَثَلاً ... وَالشِعْرُ فِيهِ تُرَى الأَمْثَالُ والحِكَمُ
١٨- «يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إلاّ فِي مُعَامَلَتِي ... فِيكَ الخِصَامُ وأَنْتَ الخَصْمُ والحَكَمُ»

قال أبو العباس أصبغ رحمه الله: هذه القصيدة كانت سبب عفوهم، والله يغفر للجميع[٩٦].

١٧- ورأى يوماً ابناً لأحد إخوانه في بطالةٍ، فقال ينهاه: (من الوافر)

١- فَدَيْتُكَ أَرْعِنِي سَمْعاً فَإِنِّي ... نَظَمْتُ لَكَ النَّصِيحَةَ فِي نِظَامِ
٢- وَلاَ يُوحِشْكَ عَتْبٌ مِنْ مُحِبٍّ ... فَإِنّ الطِّبَّ يَذْهَبُ بِالسّقَامِ
٣- وَإِنَّ العِلْمَ تَدْرُسُهُ صَغِيراً ... كَمِثْلِ النَّقْشِ ثَبّتَ فِي الرُّخَامِ
٤- أَبُوكَ أَبُوكَ دَيْناً لا يُبَارَى ... وَجَدُّكَ عِلْمُهُ كَالْبَحْرِ طَامِ
٥- وَعَمُّكَ لَمْ يَزَلْ مُذْ كَانَ يَسْمُو ... إِلَى العَلْيَاءِ بِالْهِمَمِ السّوَامِي
٦_ وَأَنْتَ فَتىً كَمِثْلِ النَّجْمِ لَكِنْ ... يَعِزُّ عليَّ كونُكَ فِي ظَلاَمِ[٩٧]

«قافية النون»

١٨- ومن شعر ابن الفخار المذكور، ويُعرف بابن نصف الربض، قوله: (من الطويل)

١- أَمُسْتَنكِرٌ شَيْبَ الْمَفارِقِ في الصِّبا ... وَهَلْ يُنْكَرُ النَّوْرُ المفتَّحُ في غُصْنِ
٢- أَظُنّ طِلاَبَ المجْدِ شَيَّبَ مَفرِقي ... وإِنْ كُنْتُ في إِحْدَى وعِشْرِينَ من سِنّي[٩٨]

١٩- يقول ابن الفخار: (من الطويل)

١- بأَيِّ حُسَامٍ، أَمْ بأَيِّ سِنَانِ ... أُنازِلُ ذاكَ القِرْنَ حينَ دَعَانِي؟
٢- لئن عُرِّيَ اليومَ الجوادُ لِعلَّةٍ ... فبالأمْسِ شَدُّوا سَرْجَهُ لِطَعَانِ
٣- وَإِنْ عُطِّلَ السَّهْمُ الّذي كُنْتُ رائِشاً ... فَفِيهِ دَمُ الأَعْداءِ أَحْمَرُ قاني
٤- أَلاَ إِنَّ دِرْعِي نَثْرَةٌ تُبَّعِيَّةٌ ... وسَيْفِي صِدْقٌ إِنْ هَزَزْتُ يماني
٥- وَمَا قَصَبَاتُ السَّبْقِ إِلاَّ لِأَدْهَمِي ... إذا الخَيْلُ جالَتْ في مَجالِ رِهَانِ
٦- تَمَنَّى لِقَائي مَنْ حَلَلْتُ وَثَاقَهُ ... وَأَعْطَى غَدَاةَ المنِّ ذِلَّةَ عَانِ
٧- وَقَدْ علَم الأقوامُ من صحّ وُدّهُ ... وَمَنْ كان مِنّا دائمَ الشَّنآنِ

٨- وَما يَزْدهيني قَوْلُهُ كُلَّ نَخْوَةٍ ... ولَيْسَ لَهُ بالْمُضْلِعاتِ يَدانِ
٩- وإِنّي لنهَّاضٌ بكُلِّ عظيمةٍ ... يَضيقُ عَلَيْها ذَرْعُ كُلَّ جَبانِ
١٠- وَيَزْعُمُ أَنّي في الْبَيْانِ مقَصِّرٌ ... وَيَأْبَى بَنَاني واقْتِدارُ لِسَاني
١١- نَهَضْتُ بِهَا وَحْدي وغيريَ مُدَّعٍ ... يُشارِكُ أَهْلَ القَوْلِ شَرْكَ عِنَانِ
١٢- أَيَنْسَى مَقَامِي إِذْ أُكَافِحُ دُونَهُ ... وقَدْ طَارَ قَلْبُ الذُّعْرِ بالخَفَقَانِ
١٣- وَيَذْكُرُ يَوْماً قُمْتُ فِيهِ بِخُطْبَةٍ ... كآثارِ عَدِّ الْمَاءِ بالسَّيَلاَنِ
١٤- فَقِرِّي جَعَاري إنَّ دونَكِ حارِشاً ... يُمَنِّيكِ بالأَخْلاف والْوَلَعَانِ
١٥- وما هُوَ إِلاَّ الْمَرْءُ يُقْطَعُ رَأْسُهُ ... وإِنْ دَهَنُوهُ حِيلةً بِدِهانِ
١٦- تَهَاونَ بالإِنصافِ حَتَّى أَحَلَّهُ ... -وقَدْ كانَ ذَا عِزٍّ- بِدارِ هَوَانِ
١٧- وَلَوْ كَانَ يُعْطِي الزَّائرينَ حُقوقَهُمْ ... لَمَا تَرَكُوهُ في يَدِ الْحَدَثانِ(٩٩)

ب- النثر:

١- ومن كتبه رحمه الله ما كتب به في حق أحد أصهاره:

«المفاتحة (١)-أعزّكَ اللهُ-خوضَ غمارٍ، وضَرْبَ قمارٍ، وَقَدْ أَلأَمُ الشَّعْبَ، وأرأبُ الصَّعْبَ. لكن تَنْشَأُ أزماتٌ، وَتَطَرأُ لمن لا يرد مِنَ القراباتِ (٢) عزماتٌ، يُوْضَعُ لها الخدُّ، ويركبُ فيها الجدُّ ويُتْرَكُ الأهونُ ويُؤْخَذُ الأشدُّ. وإِني اقتضبتُ هذه الحروفَ من خُطوبٍ تَنُوبُ، وحَوادِثَ مُضِلاّتٍ لا تَؤُوبُ، وكأَنِّي أَنْحَتُها من حِجارةِ الأزارِقِ (٣)، وأَسْتَنْزِلُها من خُلَّب البَوارِقِ، وأسأَلُها (٤) عَوْدَ الشَّباب المفَارِقِ، وَردّ الليالي الحالكةِ على المفَارِقِ، فناهيكَ بها عسرةً وإِضافةً (٥)، وافتقاراً إِلى عطائِكَ (٦) وفاقَةً، وحسرةٌ لا تَرْجُو منها الخَواطِرُ إِفَاقَةً. وفلانٌ كَرَّ على القُفِّ ولا يَعْرِفُ ما في الخُفِّ، قد رَكِبَ لَجَاجَتِهِ، ولَمْ يرَ مَا حِيلَةً إِلاّ حاجَتَهُ، ولولا ولاءٌ صادِقٌ (٧) حَثَّهُ، وثَنَاءٌ عَاطِرٌ بَثَّهُ، وشَهَادَةٌ في محاسِنكَ اسْتَحْفَظَهَا،

ونُبْذٌ من مَحَامِدِكَ (٨) نبذَهَا إليَّ ولَفَظَهَا، اسْتَحَقَّ بها مِنّي إحْمَاداً، واسْتَوْجَبَ لِمَكَانِها اعْتِدَاداً واعتِمَاداً (٩)، إلى ما اعْتَرَفَ بِهِ مِنْ إِكْمَالِ (١٠) نَاظِرٍ واهتِبَالِ خَاطِرٍ (١١) عَمّهُ فَضْلُها، وعَمَرَهُ طُوْلُها (١٢)، ما تَمَكَّنَ لي كَتْبُ حَرْفٍ (١٣)، ولا تَنَسَّمْتُ (١٤) مِنْ إجْهَاضِ الحَوَادِثِ بِعَرْفٍ. واللهُ يَشْكُرُ إجْمَالَكَ، ويَحْمَدُ إِخْلالَكَ (١٥)، وَيبْلُغُكَ فِي الدَّارَيْنِ آمالَكَ بِمَنّه»(١٠٠).

٢- وكتب معزياً:

«أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ السيّدِ المفَدَّى، والكريمِ الأعزِّ الأَهْدَى، وجلالُهُ مَأْثُورٌ، وأَجْرُهُ مَوْفُورٌ ومدخُورٌ (١) تَأْبَى الأيامُ -أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكَ-، إلاّ أنْ تُفْجَعَ (٢) بِسَادَاتِهَا، وتَجْرِي مِنْ اخْتِرامِهِمْ عَلَى عَادَاتِهَا، فَالْحَازِمُ مَنْ اسْتَشْرَفَ (٣) الحَوَادِثَ قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ، وَهَانَتْ عَلَيهِ مِنْ حَيْثُ شَمِلَتْ الكُلَّ، وإنّ مُصَابَكَ بِفُلان وإنْ (٤) كَانْ أجلَّ رُزْءٍ دَهَمَكَ، وأَوْلاَهُ بِأَنْ يَتَقَسَّمَكَ، فَمِنْ حَقِّكَ أنْ تَلِهَا عَنْ مُصَابِكَ بالصَّبْرِ الجَمِيْل مِنْ أَوْصَابِكَ، فَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ الحُزْنَ مَا نَفَعَ وَلاَ أَجْدَى، ولا اسْتَرَدَّ فِي الدَّهْرِ سُؤدُداً فُقِدَ ولا مَجْدَاً، فإنْ كانَ شَأنُ هَذا الحَادِثِ شَمُولاً، وكلٌّ على تِلْكَ الأَعْوادِ مَحْمُولاً، فَمَا لَنَا لا نُبقّي (٥) أنْفُسَنا وَهِيَ أَحَبُّ، أو نَرْجِعُ فِيمَنْ فَقَدْنَاْ إلى مَاْ أَرَادَهُ الربُّ، فإنا للهِ وإنّا إليه راجِعونَ عَلَيهَا مصيبةٌ قَدَحَتْ ورزيّةٌ فَدَحَتْ، وَقَدْ يَعْلَمُ اللهُ أنِّي ساهَمْتكَ مُساهَمَةَ فؤادَكَ، وأَخَذْتُ مِنْ رُزْئِكَ مِمّا (٦) أَخَذْتُ مِن وِدَادِك، وإنّي لأَتَذَمَّمُ مِنْ دَهْرٍ يَعُوقُ، وَلاَ تُقْضَى مَعَهُ الحُقُوقُ، فَكَانَ مِنْ وَاجِبِ مَرْزيتِكَ، أن أُعْمِلَ قَدَمِي إلى تَعْزِيَتِكَ، ولكنَّ (٧) الذَّنْبَ للأَيّامِ لا لِيَ، وَحَسْبُكَ اليَوْمَ ما لَكَ قَبْلِي»(١٠١).

٣- وكتب في حقّ المعروف بالزريزير، وكان رجلاً حسن الإنشاد، يردّ على النبهاء فيخفّ عليهم، ولكتّاب العصر فيه كتبٌ مشهورةٌ منها ما كتب به أبو

عبد الله المذكور وهو:

يسْقُطُ الطَّيْرُ حيْثُ ينْتَثِرُ(١) الحَبُّ وتُغْشَى مَنَـازِلُ الكُرَمَاءِ(٢)

لَمَّا كُنْتَ أَعَزّكَ اللهُ رَوْضَةً في الأَرْضِ (٣) طَيّبَةَ الماءِ والعُشْبِ، وَغَدَوْتَ دَوْحَةٌ في المجْدِ مَوْرِقَةً بالتَّهُمُّم (٤)، مُثْمِرَةً بالجدِّ، أَوْشَكَتْ طُيورُ الثَّناءِ (أَنْ تَنْشرَ) (٥) عَلَيْكَ قِلاعاً (٦)، وحامَتْ عَصَافِيرُ الرَّجاءِ عَلَيكَ عِطاشاً وجِياعاً، فَوَجَدَتْ بِثَرَاكَ الحَبَّ النَّثيرَ، والماءَ العَذْبَ النَّميرَ، فَشَرِبَتْ والتَقَطَتْ، وانْتَفَضَتْ وتَرَنَّمتْ، وَلَمْ تُرَعْ بِصَرْصَرَةِ الصُّقُورِ، حِيْنَ غَدَتْ (٧) فِي الماءِ النَّميرِ، فَهِيَ مَائِلَةٌ عَلى طَيِّ الأَجْنِحَةِ، مُثْنِية عَلَيْكَ بالألسِنَةِ المفْصِحَةِ، قَدْ جَعَلَتْ أرائكَهَا قَضبَ (٨) الأَرَاكِ، وبَسَطَتْ دَرَانِيكَهَا (٩) فَلَمْ تُقْتَنَصْ بِأَيْدِي الفُخُوخِ والأَشْرَاكِ، تتَغَنَّى مِنَ الطَّرَبِ، وتَتَنَاشَدَ بمُخْضَرَّةِ (١٠) القَصَبِ:

يَاْ (١٢) لَكَ مِن قُبَّرَةٍ بمَعْمَرِ خَلاَ لَكِ الجوُّ فَبِيضِي واصْفَرِي

ونقّرِي مَاْ شِئْتِ أن تُنقِّرِي(١٣)

ولَمَّا قَطَعَ الآنَ إليكَ مِنْها زُرَيْزِيرٌ، لَهُ أبداً بالثَّناءِ عَلَيْكَ صَفِيرٌ، قُصَّ جَناحُهُ فَهُو نَحْوَكَ حَاذِفٌ (١٤)، وحَسُنَ صَبَاحُهُ فَكُلُّ قَلْبٍ عَلَيه عَاطِفٌ؛ رَجَوْتُ أَنْ تُعِيدَهُ وَافِرَ الجَنَاحِ، صَافِراً يَذْكُرُكَ فِي الغُدُوِّ والرَّوَاحِ»(١٠٢).

٤- لما تألّبَ بنو حَسُّون علي القاضي الوحيدي المذكور صادر عنه العالم الأصولي أبو عبد الله بن الفخار، وطلع في حقّه إلى حضرة الإمامة مراكش، وقام في مجلس أمير المسلمين ابن تاشفين، وهو قد غصّ بأربابه، وقال:

«إِنّهُ لَمَقَامٌ كَرِيمٌ، نَبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْهُ، ونُصَلِّي عَلَى خِيْرَةِ أَنْبِيائِهِ مُحَمَّدٍ الهَادِي إِلَى الصِّرَاطِ المسْتَقِيْمِ، وَعَلَى آلِهِ وَ صَحَابَتِهِ نجومُ الَّلَيْلِ البَهِيمِ،

أَمَّا بعْدُ فَإنَّا نَحْمَدُ اللهَ الذِي اصْطَفَاكَ لِلمُسْلِمِيْنَ أَمِيْراً، وَجعَلَكَ لِلدِّيْنِ الحَنِيفِيّ نَصِيْراً وَظَهِيراً، وَنَفْزَعُ إليْكَ مِمَّا دَهَمْنا فِي حِماكَ، ونبُثُّ إليكَ مَا لَحِقْنا مِن الضَّيْمِ ونَحْنُ تَحْتَ ظِلِّ عُلاكَ، وَيأبَى اللهُ أَنْ يُدْهِمَ مَنِ احْتَمَى بِأَمِيرِ المسْلِمِيْنَ، ويُصَابُ بِضَيْم مَنْ ادَّرَعَ بِحِصْنِهِ الحَصِينِ، شَكْوَى قُمْتُ بِها بَيْنَ يَديكَ فِي حَقّ أَمْرِكَ الذِي عَضَدَهُ مُؤيدُهُ، لِتَسمَعْ مِنْها ما تَخْتَبِرُهُ بِرأيكَ وَتَنْقُدُهُ، وإن قاضِيَكَ ابنَ الوحِيدِي الذي قَدَّمْتَهُ فِي مالَقَةِ لِلأَحْكامِ، وَرَضِيْتَ بِعَدْلِهِ فِيْمَنْ بِها مِنَ الخاصَّةِ والعَوامِ، لَمْ يَزَلْ يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ اخْتِيارِكَ بِحُسْنِ سِيرَتِهِ، ويُرْضِي اللهَ تَعالى ويُرْضِي النَّاسَ بِظاهِرِهِ وَسَرِيرتِهِ، مَاْ عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوْءٍ، وَلا دَرَيْنا لَهُ مَوْقِفَ خِزْيٍ، وَلَمْ يَزَلْ جارِياً عَلَى مَاْ يُرْضِي اللهَ تَعَالى ويُرضِيْكَ ويُرْضِينَاْ إلى أَنْ تعَرَّضَتْ بَنُوْ حَسُّونٍ إلى الطَّعْنِ فِي أَحْكَامِهِ، والهَدِّ مِنْ أَعْلامِهِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اهْتِضَامَ المقَدَّمِ، رَاْجِعٌ عَلَى المقَدِّمِ، بَلْ جَمَحُوا فِي لِجَاجِهِمْ فَعَمُوا وَصَمّوا، وَفعَلُوا وَأَمْضَوا مَاْ بِهِ هَمُّوا.

وَإلى السُّحْبِ يَرْفَعُ الكَفُّ مَنْ قَدْ جَفَّ عَنْهُ مَسِيْلُ عَيْنٍ وَنَهْرِ

فَمَلأَ سَمْعَهُ بَلاغةً أَعْقَبَتْ نَصْرَهُ وَنَصْرَ صَاحِبِهِ»(١٠٣).

الهوامش والتعليقات:

(١) ينظر ترجمته في: قلائد العقيان: ٤/ ٩٠٨، بغية الملتمس: ١/ ٩٨، المطرب من أشعار أهل المغرب: ١٩٧، أدباء مالقة: ٥٥ (وفيه: محمد بن الحسين بن كامل)، المحمدون من الشعراء وأشعارهم: ٢٩٥ (وفيه: محمد بن الحسن......الفخاري)، أعلام مالقة: ٨٢، التكملة لكتاب الصلة: ١/ ٣٦١، الذيل والتكملة:السفر السادس/ ٦/ ١٦٢، خريدة القصر وجريدة العصر: ٢/ ٣٣٤، المغرب: ١/ ٤٣٢ (وفيه: أبو عبد الله محمد بن الفخار الأصولي المالقي)، مسالك الأبصار: ١٧/ ٢٧٦، الأعلام: ٦/ ٨٥ (وفيه: ابن الفخاري المالقي)، تأريخ الأدب العربي: ٥/ ٢٤٥.

(٢) ينظر: المحمدون من الشعراء وأشعارهم: ٢٩٥ (وفيه: أبو عبد الله بن الفقيه المشاور)، خريدة القصر وجريدة العصر: ٢/ ٣٣٤، الأعلام: ٦/ ٨٥.

(٣) ينظر: الذيل والتكملة:السفر السادس/ ٦/ ١٦٣، المطرب من أشعار أهل المغرب: ١٩٧ (وفيه: يعرف بابن نصف الربض)، أدباء مالقة: ٥٥، أعلام مالقة: ٨٢ (وفيه: يعرف بصاحب نصف الربص (بالصاد))، نفح الطيب: ٣/ ٣٩٢ (وفيه: ويُعرف بابن نصف الربض).

(٤) بغية الملتمس: ١/ ٩٨.

(٥) ينظر: أعلام مالقة: ٨٢، أدباء مالقة: ٥٥.

(٦) ينظر: ترجمته في: أعلام مالقة: ٣٥٣، و أدباء مالقة: ٣٧٩، و الذيل والتكملة: السفر الرابع/ ٢/ ١١٨.

(٧) ينظر: المطرب من أشعار أهل المغرب: ١٩٧.

(٨) ينظر: أعلام مالقة: ٨٢، أدباء مالقة: ٥٥.

(٩) ينظر: المحمدون من الشعراء وأشعارهم: ٢٩٥.

(١٠) م. ن: ٢٩٥

(١١) م. ن: ٢٩٥، وينظر: الأعلام: ٦/ ٨٥.

(١٢) ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر: ٢/ ٣٣٨. وينظر ترجمته في: الاحاطة: ٢/ ٧٠.

(١٣) ينظر: م، ن: ٢/ ٣٣٩، وينظر ترجمته في: تاريخ اسبانيا الاسلامية (أعمال الأعلام): ٢٦٥.

(١٤) وهو والي سجلماسة بالمغرب من قبل يوسف بن تاشفين، واسمه في خريدة القصر وجريدة العصر (أبو عبد الله بن أبي زبغي). ينظر: القلائد: ٤/ ٩١١، خريدة القصر وجريدة العصر: القسم ٤/ ج٢/ ٢٩٢.

(١٥) أعلام مالقة: ٨٢، وينظر: أدباء مالقة: ٥٥.

(١٦) مجموع شعره: النص رقم (٨).

(١٧) مجموع شعره: النص رقم (١٦)

(١٨) ينظر: القطعة النثرية رقم (٤).

(١٩) مجموع شعره: النص رقم (٢)

(٢٠) مجموع شعره: النص رقم (١٣)

(٢١) ينظر: القطعة النثرية رقم (٢).

(٢٢) ينظر: بغية الملتمس: ١/ ٩٨، المحمدون من الشعراء وأشعارهم: ٢٩٥، التكملة لكتاب الصلة: ١/ ٣٦١، الذيل والتكملة: السفر السادس/ ٦/ ١٦٣، خريدة القصر وجريدة العصر: القسم ٤/ج٢/ ٢٨٨ و٢/ ٣٣٥، الأعلام: ٦/ ٨٥.

(٢٣) ينظر: أعلام مالقة: ٨٩، أدباء مالقة: ٦٣ (وفيه يذكر ويرجح ابن خميس سنة وفاته إذ يقول: توفي بمالقة في شهر شعبان سنة خمسٍ بل تسع وثلاثين وخمسمائة).

(٢٤) القلائد: ٤/ ٩٠٨.

(٢٥) بغية الملتمس: ١/ ٩٨.

(٢٦) المطرب من أشعار أهل المغرب: ١٩٧.

(٢٧) أدباء مالقة: ٥٥، وينظر: أعلام مالقة: ٨٢.

(٢٨) المحمدون من الشعراء وأشعارهم: ٢٩٥.

(٢٩) التكملة لكتاب الصلة: ١/ ٣٦١.

(٣٠) الذيل والتكملة: السفر السادس/ ٦/ ١٦٢.

(٣١) مسالك الأبصار: ١٧/ ٢٧٦.

(٣٢) تأريخ الأدب العربي: ٥: ٢٤٥.

(٣٣) ينظر ترجمته في: تاريخ علماء الأندلس: ٢/ ٨١٥.

(٣٤) ينظر ترجمته في: م، ن: ٢/ ٧٦٧.

(٣٥) ينظر ترجمته في: الانتصار لأهل المدينة: ٣١، التبصرة في نقد رسالة ابن أبي زيد القيرواني: ٩٤، الصلة: ٢/ ٧٤٦، الوافي بالوفيات: ٤/ ٢٤٥، نفح الطيب: ٢/ ٦٠.

(٣٦) ينظر ترجمته في: الصلة: ٣/ ٩٧٠.

(٣٧) ينظر ترجمته في: المغرب: ٢/ ٢٣، المسلك السهل: ٩٣، الوافي بالوفيات: ٢٩/ ١٠.

(٣٨) ينظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٢٤١، تراجم طبقات النحاة واللغويين والمفسرين والفقهاء: ٢٣، سُلم الوصول إلى طبقات الفحول: ٤/ ٨٧.

(٣٩) ينظر ترجمته في: صلة الصلة: ٣/ ٥٤.

(٤٠) ينظر ترجمته في: كنز الكتاب ومنتخب الآداب: ١/٢٥٨، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ١٤/ ٣٨٦.

(٤١) ينظر ترجمته في:الذيل والتكملة: السفر الخامس/ القسم ١/ ٣٢٣.

(٤٢) ينظر ترجمته في: برنامج شيوخ الرعيني: ط، وينظر: برنامج شيوخ الرعيني، مجلة معهد المخطوطات: مج ٥/ ج١/ ١٠٣، الذيل والتكملة: السفر الخامس/ القسم ١/ ٣٢٣.

(٤٣) ينظر ترجمته في:الإحاطة ٣/ ٦٤-٦٧، الكتيبة الكامنة: ٧٠-٧١.

(٤٤) ينظر ترجمته في:الإحاطة: ٣/ ٢٢-٢٥، نفح الطيب: ٥/ ٣٥٥، أزهار الرياض: ١/ ١٨٨ و٢/ ٩.

(٤٥) ينظر ترجمته في:الضوء اللامع: ١٠/ ٢٣.

(٤٦) مجموع شعره: النص رقم (١٦).

(٤٧) مجموع شعره: النص رقم (١٠).

المقطعة هنا دون عشرة ابيات.

(٤٨) مجموع شعره: النص رقم (٦).

(٤٩) ينظر ترجمته في: أعلام مالقة: ٣٠٩.

(٥٠) مجموع شعره: النص رقم (١).

(٥١) مجموع شعره: النص رقم (٢).

(٥٢) مجموع شعره: النص رقم (١٥).

(٥٣) مجموع شعره: النص رقم (١٢).

(٥٤) مجموع شعره: النص رقم (٧).

(٥٥) مجموع شعره: النص رقم (١٩).

(٥٦) مجموع شعره: النص رقم (١٨).

(٥٧) مجموع شعره: النص رقم (٩).

(٥٨) المقطعة هنا دون عشرة ابيات.

(٥٩) ينظر: اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري: ٢٢٧.

(٦٠) مجموع شعره: النص رقم (١).

(٦١) ينظر: موسيقى الشعر: ٢٤٨.

(٦٢) مجموع شعره: النص رقم (١٥).
(٦٣) ينظر: العقد الفريد: ٢/ ١٣٥. وينظر:خريدة القصر: القسم ٤/ ٢/ ٢٩٣. لم اقف على ترجمة له فيما بين يدي من مصادر.
(٦٤) مجموع شعره: النص رقم (١٦).
(٦٥) ينظر: ديوان أبي الطيب المتنبي: ٣/ ٣٦٦.
(٦٦) مجموع شعره: النص رقم (٢).
(٦٧) ينظر: بلاغات النساء، لابن طيفور: ١٨، وينظر: أعلام مالقة: ٨٤.
(٦٨) مجموع شعره: النص رقم (١٩).
(٦٩) ديوان النابغة الجعدي: ٩٢، وجعار: الضبع، وفي المثل: (عيثي جعار) يضرب في إبطال الشيء والتكذيب به، أو في فرار الجبان وخضوعه، ينظر: مجمع الأمثال: ٢/ ١٦، المستقصى في أمثال العرب: ٢/ ١٧٣.
(٧٠) ينظر: القطعة النثرية رقم (٣).
(٧١) ينظر: القطعة النثرية رقم (١) و (٢).
(٧٢) ينظر: القطعة النثرية رقم (٣).
(٧٣) ينظر: ديوان بشار بن برد: ١/ ١٣٦.
(٧٤) ينظر: ديوان طرفة بن العبد: ١٥٨.
(٧٥) ينظر:القطعة النثرية رقم (٢).
(٧٦) ينظر: إحكام صنعة الكلام: ٧٢.
(٧٧) م. ن: ١١٤-١١٥. وينظر:القطعة النثرية رقم (٢).
(٧٨) م. ن: ١٤١.
(٧٩) م. ن: ١٤٤.
(٨٠) ينظر: القطعة النقدية رقم (٤).
(٨١) أدباء مالقة: ٥٨-٥٩، أعلام مالقة: ٨٥-٨٦، القلائد: ٤/ ٩١٠، خريدة القصر: ٢/ ٣٣٦ و القسم ٤/٢/ ٢٩٠-٢٩١، مسالك الأبصار: ١٧/ ٢٧٧.البيت الاول: أدباء مالقة (يعزبُ) بدل (يقربُ)، وفي خريدة القصر و مسالك الأبصار(المرءُ) بدل (الحر). البيت الثاني: في القلائد (لحدي) بدل (بحدي)، وفي مسالك الأبصار (تلقاءَ) بدل (يُلقى). في القلائد (لحدي) بدل (بحدي)، البيت الثالث: في مسالك الأبصار هذا البيت وبقية الأبيات لم تذكر، وفي أدباء مالقة (وأهجهم) بدل (وأهجمهم) و (كالنفس) بدل=

=(كالنقس). البيت الرابع:في القلائد وخريدة القصر (فلا أنا عَمَّا) بدل (فما أنا عن ما)، وفي أدباء مالقة (للمقادر) بدل (للمقادير).البيت الخامس: في أعلام مالقة و القلائد وخريدة القصر (وأطربُ) بدل (وأضرب). البيت السابع لم يذكر إلا في القلائد. (المزعفر: وهو اسم المفعول من زعفر، ويقال زعفر الثوب: أي صبغه بالزعفران، وزعفر الطعام: جعل فيه الزعفران)، (يعضب: والعضبُ: القطع. عضبه يعضبهُ عضباً. قطعه وتدعو العرب على الرجل فتقول: ما له عضَبَه الله؟ يدعون عليه بقطع يده ورجله) ينظر: لسان العرب: ١/ ٦٠٩. البيت الثامن: في أعلام مالقة و القلائد وخريدة القصر(لكيدهم) بدل (اكيدهم)، وفي القلائد وخريدة القصر (أُمورٌ) بدل (أموراً).البيت التاسع: في أعلام مالقة (كم قد) بدل (كيف)، وفي القلائد وخريدة القصر (فوأسفاً، كم ذا) بدل (فيا أسفاً كيف)، وفي خريدة القصر (يقرب) بدل (مقرب).

(٨٢) أدباء مالقة: ٥٧-٥٨، أعلام مالقة: ٨٤-٨٥.البيت الثالث: في أعلام مالقة (نيران العين) بدل (ثمرات العيش) و(الطرب) بدل (الضرب)، (الصاب: يقال صبَ الماء ونحوه يصُبُه صبا فصُبَّ وتصبب أراقه، وصببت الماء: سكبته. ويقال: صببت لفلان ماءً في القدح ليشربه.) ينظر: لسان العرب: ١/ ٥١٥.البيت الرابع: في أعلام مالقة (انتابه) بدل (أنشا به). البيت الخامس: في أعلام مالقة (خطوب) بدل (ضروب)، وفي أدباء مالقة (تلحقنا) بدل (تلحفنا).البيت السابع: في أعلام مالقة (وحده) بدل (حربة). البيت الثامن: في أعلام مالقة (فرط) بدل (برح).البيت التاسع: في أعلام مالقة (أنباء) بدل (أبناء). البيت الحادي عشر: في أعلام مالقة (طافوا) بدل (خافوا).البيت الرابع عشر: في أعلام مالقة (تعمله) بدل (تعملها). البيت التاسع عشر:في أعلام مالقة (جلبوا) بدل (خببوا). البيت العشرون: في أعلام مالقة (الإسهاب) بدل (الإشهار). البيت الحادي والعشرون: في أدباء مالقة (من) بدل (في) و (تمحى له الحجب) بدل (تهمي له السحب). البيت الثاني والعشرون: في أعلام مالقة (فنعم) بدل (بنعمة).

(٨٣) فكاهات الأسمار: ١٩٩- ٢٠٠

(٨٤) توشيح العروض أو (التوحيد): التزام نسق معين في ختام أواخر الشطور الأولى من الأبيات مع بقاء الأبيات نفسها مختومة بقوافي على رويّ آخر، وهذا لم يبلُغْ إلى أن يكون توشيحاً.

(٨٥) خريدة القصر: ٢/ ٣٣٤-٣٣٥، القسم ٢/٤/ ٢٨٧-٢٨٨، المحمدون من الشعراء وأشعارهم: ٢٩٥-٢٩٦. و(يُرنَّا): الحناء. البيت الثالث: في خريدة القصر (سديد) بدل (شديد). البيت الرابع: في المحمدون من الشعراء وأشعارهم (شيئاً) بدل (سَنّا) و (يُعرضه)=

=بدل (لغارته). البيت الخامس: في المحمدون من الشعراء وأشعارهم (يمضِ) بدل (يقض). البيت السادس: هذا البيت والأبيات الأخرى لم تذكر في: المحمدون من الشعراء وأشعارهم.

(٨٦) أدباء مالقة: ٥٦، أعلام مالقة: ٨٢-٨٣.البيت الاول: في أدباء مالقة (فاسمح) بدل (فاسجح). البيت الثاني: في أدباء مالقة (ونصحهم) بدل (كنصحهم) و (عشاهم) بدل (غشاشهم). البيت الثالث: في أعلام مالقة (تسرحي) بدل (مسرحي) (ممرعاً: المرع: الكلأ، والمريعُ: ذو المراعة والخصب. يقال: أمرع الوادي إذا اخصب.) ينظر: لسان العرب: ٨/ ٣٣٤-٣٣٥. البيت الرابع: في أعلام مالقة (الأمنح) بدل (المتح). البيت الخامس: في أعلام مالقة (يذهب) بدل (تذهب).

(٨٧) أدباء مالقة: ٦٠-٦١، وأعلام مالقة: ٨٧ .

(٨٨) أدباء مالقة: ٥٩. وأعلام مالقة: ٨٦. البيت الاول: في أعلام مالقة (قدوتها) بدل (فطرتها) و(منبئاً) بدل (ميتاً). البيت الثاني: في أعلام مالقة (بأرضهم) بدل (بدارهم). البيت الثالث: في أعلام مالقة (معمى) بدل (بمعنى) و (النسيجة) بدل (النتيجة). البيت الرابع: في أعلام مالقة (حلت) بدل (خلت). البيت الخامس: في أعلام مالقة (عنا) بدل (غباً) و(يزايل) بدل (يزيل). البيت السابع: في أعلام مالقة (حملةٍ) بدل (جملةٍ).

(٨٩) أدباء مالقة: ٥٥، أعلام مالقة: ٨٢. البيت الاول: في أدباء مالقة (أن) بدل (بأنْ). البيت الثاني: في أعلام مالقة (وكالح) بدل (وكابح).البيت الثالث: في أعلام مالقة يذكر هذا البيت بهذا الشكل:

يقولُ تجلد للحديد وعضه   ومَنْ ذا الذي يُعطى التجلد في الأسر

(٩٠) خريدة القصر: ٢/ ٣٣٨-٣٣٩، (وقد أشار محقق الكتاب أن نسبة هذه القصيدة في إحدى نسخ المخطوطة تعود للفقيه أبي يحيى اليسع بن عيسى بن اليسع الغافقي الأسدي الأندلسي)، و القسم ٤/ ٢/ ٢٩٣-٢٩٦.البيت الثامن: الردا: مقصور الرداء، والمعجر: ثوب يمني. البيت السادس عشر: الأظهر: جمع ظهر وهو الركاب يريد أن يقول إنكم تسلسلتم من أصلاب طاهرة وتنقلتم فوق صهوات الخيل من نصر إلى نصر. البيت السابع عشر: (الرعاف: الرَّعْفُ: السبق، ورعفه يرعفه رعافاً: سبقه وتقدمه) ينظر:لسان العرب: ٩/ ١٢٣، (الممقر: المقرُ: دقُّ العُنُقْ. مَقَرَ عنقه يمقرها مقراً إذا دقها وضربها بالعصا حتى تكسر العظمُ، والجلد صحيح) ينظر: لسان العرب: ٥/ ١٨٢.البيت الثالث والعشرون: المراد هنا شك القلوب بسيفه وغمزها برمحه.

(٩١) أدباء مالقة: ٦٠، أعلام مالقة: ٨٦-٨٧. البيت الثاني: في أعلام مالقة (فآذت) بدل (فآذن).

(٩٢) خريدة القصر: ٢/ ٣٣٩ (وقد أشار محقق الكتاب أن نسبت هذين البيتين في إحدى نسخ المخطوطة تعود للفقيه أبي يحيى اليسع بن عيسى بن اليسع الغافقي الأسدي الأندلسي)، و القسم ٤/ ٢/ ٢٩٦.

(٩٣) أدباء مالقة: ٥٨. أعلام مالقة: ٨٥. البيت الاول: في أدباء مالقة (أفضت) بدل (أقضت). البيت الرابع: في أعلام مالقة (هاله) بدل (غاله).

(٩٤) القلائد: ٤/ ٩١١. خريدة القصر: ٢/ ٣٣٧، والقسم ٤/ ٢/ ٢٩٢.البيت الأول: (سرغ: سروغ الكرم قضبانه الرطبة. وسرغ الرجل إذا أكل القطوف من العنب بأصُولها. وسرغٌ: موضع من الشام قيل إنه وادي تبوك) ينظر: لسان العرب: ٨/ ٤٣٤. البيت الثاني: في خريدة القصر (ندنو) بدل (تدنو)، (زنغي) بدل (رنغي).البيت الثالث: في خريدة القصر (يبغي) بدل (يبقى).

(٩٥) القلائد: ٤/ ٩١٢-٩١٣. المغرب في حلى المغرب: ١/ ٤٣٢ (يوجد البيت ٥ و٦ فقط). نفح الطيب: ٣/ ٣٩٣ (من البيت السابع إلى نهاية القصيدة لم يذكر في نفح الطيب). خريدة القصر: ٢/ ٣٣٨، القسم ٤/٢/ ٢٩٢-٢٩٣ (الأبيات ٨، ٩، ١١،١٠، ١٣،١٢، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٩ لم ترد في خريدة القصر).

البيت الاول: في خريدة القصر(ليس) بدل (إن)، (يجاري) بدل (يجازي)، (بالقلا) بدل (بالقلى). البيت الخامس: في خريدة القصر (خليل) بدل (خليلي)،(في ما) بدل (فيما)، وفي نفح الطيب (خليلٌ) بدل (خليلي).البيت السابع: في خريدة القصر (إن أتى) بدل (أيما)، (المنصلا) بدل (المِفصلا). البيت السابع عشر: (الجندلا: والجدل: شدة الفتل، وجدلتُ الحبل اجدله جدلا إذا شددت فتله وفتلته فتلاً محكماً) ينظر: لسان العرب: ١١/ ١٠٣. البيت الثامن عشر: في خريدة القصر (رُئيت) بدل (رأيت).

(٩٦) أدباء مالقة: ٥٦-٥٧. أعلام مالقة: ٨٣. البيت الثالث: السيف الخذم: السيف القاطع. البيت السادس: في أعلام مالقة (تغيرت) بدل (فغيرت). البيت الثامن: في أعلام مالقة (نكسي) بدل (نكسٍ). البيت التاسع: في أدباء مالقة (ينتظم) بدل (تنتقم). البيت الحادي عشر: في أدباء مالقة (تجلج) بدل (تجنح). البيت الثاني عشر: (الصمصام: السيف الصلب القاطع). البيت الخامس عشر: في أعلام مالقة (حلُمُ) بدل (جلم)..

(٩٧) أدباء مالقة: ٦٠. وأعلام مالقة: ٨٦.

(٩٨) المطرب من أشعار أهل المغرب: ١٩٧. القلائد: ٤/ ٩١١. نفح الطيب: ٣/ ٣٩٢. خريدة القصر: ٢/ ٣٣٧، والقسم ٤/ ٢/ ٢٩١.البيت الاول: في القلائد و نفح الطيب و خريدة القصر (الغصن) بدل (غصن).

(٩٩) القلائد: ٤/ ٩٠٨-٩٠٩. المغرب في حلى المغرب: ١/ ٤٣٢ (البيت الـ ٥، ٦، ٨،إلى نهاية القصيدة لم ترد في الغرب في حلى المغرب). خريدة القصر: ٢/ ٣٣٥-٣٣٦، والقسم ٤/٢/ ٢٨٩-٢٩٠. مسالك الأبصار: ١٧/ ٢٧٧ (البيت الـ ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ١٠، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧لم ترد في مسالك الابصار).البيت الخامس: في خريدة القصر (له الخيل) بدل (إذا الخيل).البيت الثامن: في خريدة القصر (قول كل مموه) بدل (قوله كل نخوةٍ). (بالمعضلات) بدل (بالمضلعات).البيت العاشر: في خريدة القصر (بياني) بدل (بناني).البيت الحادي عشر: في مسالك الأبصار يروى العجز (يُشارك فيها شرْكَةً بعنانِ).البيت الثاني عشر: في مسالك الأبصار يروى الصدر(أنيس مقامي إذْ أُكافِحُ للعدا)، (الزَّمرِ) بدل (الذُعْرَ).البيت الثالث عشر: في خريدة القصر (عهد) بدل (عَدِّ). ١٤_ في خريدة القصر (فقرّي جعارُ) بدل (فقري جعاري).البيت السادس عشر: في خريدة القصر (عِزٍّ) بدل (عِرٍّ)

(١٠٠) أعلام مالقة: ٨٧، أدباء مالقة: ٦١. ١- (المفاتحة: فاتح يفاتح، مُفاتحةً، فاتحه في أمره أو في قضيته: بدأه به وخاطبه، حادثه) ينظر: لسان العرب: ٢/ ٥٣٦. ٢- في أدباء مالقة (القربات). ٣- في أدباء مالقة (الأرزاق). ٤- في أدباء مالقة (وأسلها). ٥- في أدباء مالقة (وإضاقة). ٦- في أدباء مالقة (إغضائك). ٧ - في أدباء مالقة (ولاه إذن). ٨- في أدباء مالقة (محتدك). ٩- في أدباء مالقة (واعتداداً). ١٠_ في أدباء مالقة (إجمال). ١١- في أدباء مالقة (مآثر). ١٢- في أدباء مالقة (وعمرها قولها). ١٣- في أدباء مالقة (الكَتْبُ بحرف). ١٤- في أدباء مالقة (تبسطت). ١٥- في أدباء مالقة (خلالك).

(١٠١) أدباء مالقة: ٦١-٦٢، أعلام مالقة: ٨٨. ١- في أعلام مالقة (ومذخور). ٢- في أعلام مالقة (تفجع). ٣- في أعلام مالقة (استسر). ٤- لم ترد (وإن) في أدباء مالقة. ٥- في أعلام مالقة (نبكي). ٦- في أعلام مالقة (ما). ٧- في أعلام مالقة (لكن).

(١٠٢) أدباء مالقة: ٦٢-٦٣، أعلام مالقة: ٨٨-٨٩. ١- في أدباء مالقة (نشر). ٢- هذا البيت لبشار بن برد، ينظر: ديوان بشار بن برد: ١/ ١٣٦. ٣- في أعلام مالقة (الأدب). ٤- (بالتهمم: تهمم الشيءَ: طلبه. والهميمة: المطر الضعيف. وقيل: الهميمة من المطر الشيء الهين.) ينظر: لسان العرب: ١٢/ ٦٢٢. ٥- لم ترد (أن تنشر) في=

=أدباء مالقة. ٦- في أدباء مالقة (قلوعًا). ٧- في أدباء مالقة (عَدَت). ٨- في أدباء مالقة (قصب). ٩- في أدباء مالقة (أرائكها). ١٠- في أدباء مالقة (بمخصره). ١١- في أعلام مالقة (فيا). ١٢- الرجز لطرفة بن العبد، وهو مثلٌ مشهور ورد في: جمهرة الأمثال للعسكري: ١/ ٤٢٢، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: ٢٩٠، ٣٩٦. وينظر: ديوان طرفة بن العبد: ١٥٨,١٣- في أدباء مالقة (حادف) و(الحاذف: حذَفَ الشيء يحذفه حذفاً: قطعه من طرفه، والحجام يحذف الشعْر) ينظر: لسان العرب: ٩/ ٣٩.

(١٠٣) نفح الطيب: ٣/ ٣٩٢.

المصادر والمراجع:

- ابن الفخار الرعيني الإشبيلي ومختصر أشعار شيوخه، عارف عبد الكريم مطرود، مجلة آداب ذي قار، العدد ٤، مج ١، تشرين الأول ٢٠١١.
- إحكام صنعة الكلام، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي الكلاعي (القرن السادس الهجري)، تح: د. محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.
- الأعلام، خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦ هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
- اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، نافع محمود، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠.
- أدباء مالقة، أبو بكر محمد بن علي بن خميس المالقي (٦٣٩هـ)، تح: د. صلاح جرار، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار البشير، الأردن، ط١، ١٩٩٩.
- أزهار الرياض في أخبار عياض، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.
- أعلام مالقة، لابن عسكر و ابن خميس، تح: د. عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الأسلامي – بيروت و دار الأمان – الرباط، ط١، ١٩٩٩.
- الانتصار لأهل المدينة، الأمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن عمر ابن الفخار القرطبي (ت ٤١٩ هـ)، تح: د. محمد التمسماني الإدريسي، دار الأمان للنشر والتوزيع، الناشر: مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث الرباط، ط١، ٢٠٠٩.
- برنامج شيوخ ابن الفخار الرعيني (ت٦٦٦هـ)، إبراهيم شبوح، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٥، ج ١، ١٩٥٩.
- برنامج شيوخ الرُعيني وهو أبو الحسن، علي بن محمد بن علي الرعيني الإشبيلي (ت ٦٦٦هـ)، تح: إبراهيم شبوح، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٦٣.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أبو جعفر الضبي (ت٥٩٩هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط١، ١٩٨٩.

- بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام، الإمام أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠ هـ)، تح: أحمد الالفي، طبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، ١٩٠٨.
- تاريخ إسبانية الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ط٢، ١٩٥٦.
- تاريخ عُلماء الأندلس، لابن الفرضي، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري _القاهرة، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط٢، ١٩٨٩.
- تاريخ الأدب العربي، د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨١.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ)، تح: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
- التبصرة في نقد رسالة ابن أبي زيد القيرواني، لأبي عبد الله محمد بن عمر ابن الفخار القرطبي (ت ٤١٩ هـ)، تح: بدر بن عبد الإله العمراني، مجلة الأحمدية، العدد ١٧، جمادي الأولى ١٤٢٥ هـ.
- تراجم طبقات النحاة و اللغويين والمفسرين والفقهاء، تقي الدين ابن قاضي الشهبي الأسدي الدمشقي الشافعي (ت ٨٥١ هـ)، تح: د. محسن غياض، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- التكملة لكتاب الصلة، أبو عبد الله بن الأبار (ت٦٥٨هـ)، تح: د. عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.
- جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم و عبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٨.
- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الأندلس)، للعماد الأصفهاني الكاتب، تح: عمر الدسوقي و علي عبد العظيم، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٤.
- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب والأندلس)، للعماد الأصفهاني الكاتب، تح: آذرتاش آذرنوش و آخرين، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧١.

- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا، و إبراهيم الأبياري، و عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، (د. ت).
- ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق وشرح: محمد الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة- الجزائر، ٢٠٠٧.
- ديوان طرفة بن العبد شرح الأعلم الشنتمري وتليه طائفة من الشعر المنسوب إلى طرفة، تح: درية الخطيب و لطفي الصقال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، دار الثقافة والفنون- البحرين، ط٢، ٢٠٠٠.
- ديوان النابغة الجعدي، جمعه وحققه وشرحه: د. واضح الصّمد، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تح: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.
- سُلم الوصول إلى طبقات الفحول، مصطفى عبد الله القسطنطيني العثماني المعروف بكاتب جلبي وبحاجي خليفة، إشراف وتقديم: أكمال الدين إحسان أوغلي، تح: محمود عبد القادر الأرناؤوط وآخرين، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ٢٠١٠.
- سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تح: د. بشار عواد معروف و د.محيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١، ١٩٩٦.
- الصلة، لابن بشكوال (ت٥٧٨هـ)، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٩.
- صلة الصلة، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، تح: عبد السلام الهراس، و الشيخ سعيد أعراب، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، ١٩٩٣.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الجيل، بيروت، (د، ت).

ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ)، تح: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
ـ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري، حققه وقدم له: د. إحسان عباس و د. عبد المجيد عابدين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣.
ـ فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار، لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل الفزاري، تح: د. عبد الله حمادي، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للأبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٤.
- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، الفتح بن خاقان (ت٥٢٩هـ)، تحقيق: د. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٩٨٩.
ـ الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، لسان الدين بن الخطيب، تح: د. إحسان عباس ، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.
ـ كنز الكتاب ومنتخب الآداب، لأبي إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن علي بن احمد بن علي الفهري الشريشي المعروف بالبونسي (ت ٦٥١ هـ) (السفر الأول من النسخة الكبرى)، تحقيق ودراسة: حياة قارة، المجمع الثقافي، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٤.
ـ لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.
ـ مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني (ت ٥١٨ هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٥.
ـ المحمدون من الشعراء وأشعارهم، علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ)، تح: حسن معمري، جامعة باريس كلية الآداب والعلوم الإنسانية، باريس، ١٩٧٠.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحي (ت٧٤٩هـ)، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١٠.
ـ المستقصى في أمثال العرب، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.
ـ المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل، محمد الإفراني، تح: محمد العُمري، مطبعة فضالة، المغرب، ١٩٩٧.

ـ المطرب من أشعار أهل المغرب، لابن دحية أبي الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣هـ)، تح: إبراهيم الأبياري وآخرين، دار العلم للجميع، القاهرة، ١٩٥٥ ، تح: د. بشار عواد معروف و د. محيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١١، ١٩٩٦.

ـ المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد الأندلسي، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٧٨

- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، دار القلم، بيروت، ط٤، ١٩٧٢.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ)، تح: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧.

- الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، تح: وداد القاضي ، دار النشر فرانز شتاينر ، شتوتغارت ، ط٢ ، ١٩٩١.

أثـر تعليـم اللغة الأجنبيـة في تعلم اللغـة العربية وتعليمها في مرحلة الطفولة

دراسةٌ لسانيةٌ نفسيةٌ تطبيقيةٌ

أ.د. وليد أحمد العناتي

مدير برنامج نون والقلم لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها
(عمّـان - الأردن)

ورد البحث في١٦/ ١/ ١٤٤٠هـ وقُبل للنشر في ١٠/ ٥/ ١٤٤٠هـ

أثـر تعليـم اللغـة الأجنبيـة فـي تعلـم اللغـة العربيـة وتعليمهـا فـي مرحلـة الطفولـة

أ.د. وليد أحمد العناتي

الملخص:

يقصد هذا البحث إلى مقاربة أثر تعليم اللغات الأجنبية في تعلم اللغة العربية وتعليمها في مراحل اكتساب اللغة وتعلمها.

وينطلق البحث من مقاربتين:

الأولى: لسانية نفسية تجتهد في دراسة اكتساب اللغة الأم والاستعداد البيولوجي الفطري له انطلاقًا من رؤى تشومسكي في الفطرية، ورؤى أخرى في كيفية اشتغال العقل ثنائي اللغة وعمله في التواصل اللغوي.

والثانية: لسانية اجتماعية تتفحَّص الشروط الاجتماعية لاكتساب اللغة الأم وما يعترضها من عوامل التدخل المتنوعة وأهمها الثنائية اللغوية، وما يكتنفها من التناوب اللغوي واستراتيجيات التواصل ثنائي اللغة.

وينتهي البحث من ذلك كله إلى رصد آثار واقعية مشهودة من أثر تعليم اللغات الأجنبية في اللغة العربية لدى الناشئة.

الكلمات المفتاحية: الطفولة- اللغة الأم- اللغة الأجنبية- تأثير متبادل- التَّعرُّض.

The effect of Teaching a Foreign Language on the Learning and Teaching of Arabic in Childhood

An Applied Psycholinguistic Study

Abstract:

The article presents An Applied Psycholinguistic Study of the effect of teaching a foreign language on teaching and learning Arabic in childhood.

The article utilizes two approaches:

The first approach is psycholinguistic: where it studies the acquisition of the first language (mother tongue) and its biological innate basis. This study depends on Chomsky's theory of Nativism, in addition to other notions on the operational mechanism of the bilingual mind and its role in linguistic communication.

The second approach is sociolinguistic: where it examines the social conditions of first language acquisition and the different factors of intervention of this process, mainly bilingualism, which includes lexical alternation and bilingual communications strategies.

The article concludes with the identification and perception of actual real-life effects of second language learning on Arabic in children.

Key words: Childhood,first language, Foreign Language, bidirectional influence, exposure.

إطار البحث

توطئة:

بات مستقرًا في أعراف الدرس اللساني مقولةُ أن اللغة ظاهرة اجتماعية من ناحية وظاهرة معرفية إدراكية من ناحية أخرى؛ وتَصْدُقُ المقولتان من حيث إن اللغة تُسْتَعْمل في مجتمع قائم، وتمثِّل أداته الأساسية في الممارسات الاجتماعية كلّها، ومن حيث إنها شطرٌ من المعرفة الإنسانية الخاضعة لعمليات عقلية وإدراكية متنوعة.

وتسليمًا بهاتين المقولتين فإن العوامل الاجتماعية المتنوعة تؤثر في اللغة بل تتحكم فيها استعمالاً وبنيةً ووجودًا أو عدمًا، وكذا القول في العمليات النفسية والعقلية؛ فإنها ضابط رئيسي في إنتاج الكلام وتوجيهه نحو مقاصدَ وغاياتٍ متنوعةٍ.

ومنذ القديم كانت الهجرات البشرية وما يترتب عليها من تزاوج وممارسات اجتماعية أخرى سببًا مباشرًا في الاختلاط والتمازج اللغوي، وما يتصل بذلك من مسائل التدافع اللغوي والتحيُّز والانتصار للغة الأصلية أو المهَيْمِنة؛ ومنذ ذاك الوقت كانت الثنائيةُ اللغويةُ!

ولكنَّ تعقُّدَ أوضاع العالم والمجتمعات الفقيرة تحديدًا دفع إلى كثير من الهجرات طَلَبًا للحرية السياسية والتمتع بالحياة وكرامتها؛ فأدى ذلك إلى اختلاط لغوي أكبرَ وأعمَّ في المجتمعات الغربية، وانعكس ذلك في النُّظم التعليمية في مظاهرَ كثيرةٍ أهمها التعليم ثنائي اللغة(1).

ولعل هيمنة العولمة ولغتها الإنجليزية واتجاه العالم كلِّه نحو التعدد اللغوي، وتشجيع التعليم ثنائي اللغة في أوروبا لمقتضيات الاتحاد الأوروبي لفت الانتباه

إلى هذا الموضوع الحيويّ من الدراسة اللسانية؛ إذ كان أثر اللغة الأم في اللغة الأجنبية الموضوعَ المهيمنَ.

وحقًا تظل هذه المقاربة جديرة بالبحث والمدارسة؛ بالنظرِ إلى اتجاه كثير من دول العالم إلى التعليم ثنائي اللغة المدفوع بدوافعَ اقتصاديةٍ وتكنولوجيةٍ واجتماعيةٍ فرضتها العولمةُ والرغبةُ الجامحةُ في الاندماج في مجتمعٍ عوْلميّ تقوده الإنجليزية؛ ولكنَّ نُذُرَ الضياع اللغوي وفقدان السيادة اللغوية وهيمنة الإنجليزية على اللغات القومية في بلادها دفعا كثيرًا من اللسانيين والمفكرين إلى تدبُّر الأمر ومقاربته مقارباتٍ متعددةً أهمها المقاربة اللسانية التي تتوقَّف عند آثار هيمنة اللغة الأجنبية على عقول الناشئة وتدخُّلها المباشر في تغيير رؤيتهم للحياة والكون، وهي الرؤية التي غالبًا ما تخالِف الرؤية الموروثة ثقافيًا واجتماعيًا وأحيانًا دينيًا.

ويتوقف كثير من الباحثين عند الثنائية اللغوية بوصفها شكلاً من الرِّدَّة اللغوية(٢)، ويرى آخرون أنها تهديد مباشر للأمن اللغوي والسيادة اللغوية؛ بينما ينظر إليها آخرون بوصفها طريقًا للتحضُّر ودخول المجتمعِ طريقَ التحديث ومجتمعَ المعرفة والمنافسة الاقتصادية(٣).

وعلى الجانب الآخر يُنَظِّر لسانيون مرموقون لجدوى الثنائية اللغوية المتوازنة(٤)؛ فهي تهيئ لثنائي اللغة فهمًا أعمقَ باللغة وكيفية استعمالها بفاعلية، وتوفِّر له فرصًا أكثرَ لمعالجة اللغة ولاسيما عندما يطوِّر مهارات القراءة والكتابة باللغتين، و هي تمدُّه بالقدرة على المقارنة بين تنظيم اللغتين للواقع ورؤيته(٥).

وتستطلع هذهِ الدراسةُ الثنائيةَ اللغويةَ من جوانبها اللسانية الاجتماعية واللسانية النفسية (المعرفية) متخذةً من تعليم اللغات الأجنبية وسيادتها في المجتمع العربي مثالاً، وهي في هذا المسعى تقف على وجوهِ تأثير اللغة الأجنبية في لغة

الطفل العربي ولاسيما حينما تكون الثنائية مُخْتَلَّةً تُهَيْمِنُ فيها اللغة الأجنبية على اللغة الأم.

مشكلة الدراسة:

تتمثَّلُ مشكلة الدراسة في هيمنة الرأي القائل بأن تأثير اللغة الأجنبية في اللغة الأم دائمًا تأثيرٌ سلبيٌّ بصرف النظر عن المتغيرات الرئيسية المتحكمة في هذا التأثير ولاسيما التَّعَرُّض اللغوي ومداه ونوعه؛ ولذلك فإنه من الواجب بيان الآراء الأخرى المخالفة لهذا الرأي وما يكتنفها من متغيرات نفسية واجتماعية.

أسئلة الدِّراسَة:

تقصد الدراسة إلى الإجابة عن سؤال عريض مفاده: ما تأثير اللغة الأجنبية في اللغة الأم؟

وتتفرع منه أسئلة جوهرية منها:

- ما طبيعة العلاقة الذهنية التي تربط اللغة الأجنبية باللغة الأم؟
- ما طبيعة تأثير اللغة الأجنبية في اللغة الأم: سلبيٌّ أم إيجابيٌّ؟
- ما أثر نوع الثنائية اللغوية في تحديد طبيعة تأثير اللغة الاجنبية في اللغة الأم: إنْ سلبًا أو إيجابًا؟
- ما التأثيرات السلبية للثنائية الجائرة (العربية والإنجليزية) على لغة الطفل العربي كفايةً وأداءً؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

١- تَبَيُّن أثر اللغة الأجنبية في اللغة الأم؛ إنْ سَلْبًا أو إيجابًا.

٢- تَبَيُّن أهمية التَّعَرُّض اللغويّ، طبيعته ومداه، ومنزلته في تحديد نوع الثنائية اللغوية ومن ثَمَّ نوع تأثير الثانية.

٣- تحليل أثر الثنائية اللغوية الجائرة على لغة الطفل العربيّ في مستوياتها وعناصرها الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية والكتابية والتداولية.

أهمِّيَّة الدِّراسة:

تتمثَّل أهمية هذه الدراسة في أنها تطرق مجالاً جديدًا ليس مألوفا في اللسانيات النفسية التطبيقية العربية، وأنها تُقاربُ الموضوع من زوايا جديدة تضاف إلى الزاوية الانطباعية الشائعة: أن اللغة الأجنبية تؤثر تأثيراً سلبيًا في اللغة الأم، ولاسيما إنْ تَعَلَّق الأمر بالعربية. كما تتمثل أهميتها في أنها تحلل كثيراً من الدراسات العربية والأجنبية التي تناولت الموضوع، وكشفت أن أكثر الدراسات العربية انطباعية لا تقوم على درس علميّ رصين موثوق على خِلاف الدراسات الأجنبية.

الدراسات السابقة:

لَم يُلقِ الباحثون العرب، على اختلاف اختصاصاتهم، عنايةً لهذا الموضوع، ولكن ثمة "دراسات" لامست الموضوع من جانب ما؛ ومن هذه الدراسات:

١- دراسة ريما الجرف (٢٠٠٤)(٦):

هدفت هذه الدراسة إلى استطلاع آراء عينة من الأمهات حول تعليم الأطفال الصغار اللغةَ الإنجليزيةَ. وأظهرت نتائج الدراسة أن ٧٠٪ من الأمهات

يعتقدن أن السن المناسبة لتعليم الأطفال اللغة الإنجليزية هي الرابعة والخامسة. ويعتقد نحو ٧٠٪ أن تعلم الطفل اللغة الإنجليزية في سن مبكرة ليس له أي أثر سلبي في تعلم الطفل اللغة العربية في آن واحد، وأنَّ له أثرًا ايجابيًا في تحصيل الطفل في المراحل الدراسية اللاحقة. وأظهرت نتائج الدراسة وجود تصوراتٍ ومفاهيمَ خاطئةٍ لدى الأمهات عن السن المناسبة لتعلم اللغة الإنجليزية، وأثر تعلم اللغة الإنجليزية للأطفال الصغار في اللغة العربية وفي التحصيل، وأن سبب ضعف طلاب المرحلتين المتوسطة والثانوية في اللغة الإنجليزية هو عدم دراستهم لها في سن مبكرة، وأن الطفل الصغير يتعلم اللغة الأجنبية بيسر وسهولة لأن لديه قدرة كبيرة على الحفظ كأنه مُسَجِّل! ولعل أهم ما جاء في الدراسة أنها فسرت الاعتقاداتِ الخاطئةَ الآنفة تفسيرًا مسنودًا بدراسات أجنبية متنوعة أظهرت أنه ليس ثمة رأيٌ حاسم بإطلاق في هذه المسائل.

٢- دراسة خالد الدامغ (٢٠١١)(٧):

وتقوم هذه الدراسة على استطلاع آراء الطلبة وأولياء الأمور والمشرفين التربويين، وبناء على النتائج التي تميل إلى تفضيل تعليم اللغة الإنجليزية في مراحل مبكرة من الدراسة أوصت الدراسة بتعليم اللغة الإنجليزية في المدارس الحكومية السعودية بدءًا من الصف الثاني الابتدائي.

٣- دراسة سميرة لطفي محمود (٢٠١١)(٨):

هدفت الدراسة إلى بيان أثر تعليم اللغة الأجنبية (الإنجليزية) في تعلم اللغة الأم(العربية) في الصفين الأول والثالث الابتدائيين في مدارس نابلس وطولكرم في فلسطين المحتلة من وجهة نظر معلمي اللغة الإنجليزية. وقد أظهرت الدراسة أثرًا إيجابيًا لتدريس الإنجليزية في تعلم اللغة العربية من وجهة نظر المعلمين؛ فهي تُطوِّر مهارات الطلبة! ولم تظهر دلائل على سلبية التأثير.

وظاهر لنا أن عينة الدراسة التي شملها الاستطلاع هم من مدرسي الإنجليزية؛ فكيف تسنّى لهم إصدار أحكامهم دون مراقبة أداء الطلبة في دروس اللغة العربية؟! وهل كان هؤلاء المعلمون يدونون ملحوظاتهم في أثناء التدريس؟ إن هذه الدراسة كغيرها من الدراسات تعتمد على استطلاع رأي ولا تستند على دراسات ميدانية في صفوف اللغة العربية؛ ولذلك فإنّ مصداقيتها تظل على المِحَك؛ فهي آراء يغلب أن تكون انطباعية ليس إلا!

ومستصفى النظر في الدراسات العربية السابقة ما يلي:

– أن الدراسات العربية يغلب عليها أن تكون دراساتٍ مسحيةً تستطلع آراء فئات متنوعة من المجتمع: الطلبة وأولياء الأمور والمشرفين التربويين والمدرسين؛ وهي دراسات تقوم على انطباعات الفئات المستطلَعة؛ تلك الانطباعات غير المسوَّغة بتسويغات علمية (لسانية أو لسانية نفسية أو لسانية عصبية)؛ فهؤلاء يُعَبِّرون عن آرائهم دون أسانيدَ علميةٍ أو آراء رصينة. وينضاف إلى ذلك أن هذه الآراء إنما هي انعكاس لعواملَ أخرى ليست وثيقة الصلة بالتعلم ونظرياته؛ فكثير من آراء أولياء الأمور تستند إلى عوامل اجتماعية أو اقتصادية أو تواصلية معينة، ولكنهم لا يعون نظريات اكتساب اللغة وتأثيراتها....... أما الطلبة أنفسهم فهم أصغر من أن يدركوا عواقب تعليم اللغة الأجنبية أو فوائدها؛ وإنما يُعَبِّرونَ عن رغبة تُحَرِّكها تجربةٌ ما؛ فالطلبة الذين عانوا صعوباتٍ في اللغة الأجنبية يغلب أنهم يفضلون تأخيرها، وأما الطلبة الذين وجدوا فيها دهشةَ الاكتشافِ ولَذَّتَهُ فإنهم يفضلون تقديمها في مراحلَ أَبْكَرَ.

وقد تحرِّك هذهِ الرغبةَ عواملُ أخرى تتعلق بالوضع الاقتصادي أو الاعتباري للعائلة!

أما المعلمون والمشرفون التربويون فأكثرهم بعيد عن التعمق في نظريات اكتساب اللغة وتعليمها بل لعل بعضهم لم يَدْرُسْ يوما أي مقرر في الموضوع. وقد يجنح بنا الأمر إلى القول: إنّ ثمةَ عواملَ اقتصادية واجتماعية مهمة تثوي تحت هذه الآراء: الثراء المادي، والوضع الاجتماعي والاقتصادي الجيد؛ فتدريس الإنجليزية منذ الصف الأول يعني الحاجة إلى أساتذة ومشرفين ومؤلفي كتب ومدرسين خصوصيين...إلخ. وهذه أحسبها أسبابًا قوية وكافية لدعم تعليم الأجنبية في مراحل التعليم المبكر والابتدائي.

– أن هذه الدراسات لم تقدِّم نماذجَ حقيقيةً تفحص الأداء اللغوي الدقيق الذي يمكّنِنا من الوقوف على الآثار الإيجابية والسلبية لتعليم اللغة الأجنبية؛ ولذلك وَجَدْتُها لا ترصد تأثيراتٍ سلبيةً أو إيجابيةً تتجاوز الانطباعات.

أما الدراسات الأجنبية فهي رُكامٌ كبير متنوع، وهي دراسات أُنْجزت في عدد من اللغات سوى الإنجليزية: اليابانية، والصينية، والتركية، والإسبانية، والألمانية، وعدد من لغات المهاجرين واللغات الأصلية في الولايات المتحدة وأستراليا(٩).....إلخ، منها:

١– دراسة عائشة غوريل(١٠):

وهدفت إلى تعرف أثر اللغة الإنجليزية في اللغة التركية من حيث أسلوب الاستفهام وتركيبه وحرية حركته؛ فاللغتان مختلفتان في قيود الاستفهام ومواضعه (wh). ولذلك اتخذت مجموعتين: التجريبية؛ وهم من الجيل الأول من الأتراك الذين قضوا سنوات طويلة في بريطانيا وأمريكا، وبلغوا درجة من الكفاية بالإنجليزية تشبة كفايات الناطقين بها. أما المجموعة الضابطة فتألفت من ناطقين أصلاء باللغة التركية أمضوا حياتهم في تركيا، وبلغوا مستوى بسيطًا من الإنجليزية. وقد أظهرت النتائج أن التغيراتِ التي ظهرت لا تشير إلى أثر اللغة الثانية، ويمكن أن

يكون ذلك ناتجا عن عمليات لسانية نفسية تقصد إلى تجنب الحالات والبنى النحوية المعقدة، وأن اللغة الثانية ليست متورطة في ذلك بالضرورة.

٢- دراسة "إيفا فان آسكي" وفريقها البحثي[١١]:

وقصدت محاولة تعرف أثر معرفة اللغة الثانية في مهارة القراءة في اللغة الأم. وكان سؤالها الرئيس:هل يمكن لثنائي اللغة أن يقيّد مباشرةَ تمثيلِ اللغة الأم للنص (عندما يقرأ) أم أن ثَمَّة لغةً غير اللغة الأم تؤثر في قراءته تأثيرًا كافيًا؟ وبعبارة أخرى: هل يمكن لثنائي اللغة عندما يقرأ أنْ يفصل بين تمثيل اللغة الأم واللغة الثانية ويُحيِّد دور اللغة الثانية في اللغة الأم؟

وقد اعتمدت الدراسة استثمار مفرداتٍ ذات أصول مشتركة في الألمانية والإنجليزية (المعنى والكتابة) لدراسة أثر اللغة الثانية في فهم معاني الجملة، وقياس سرعة معالجتها وفهمها. وقد انتهت الدراسة إلى أن معرفة اللغة الثانية تُغيِّر القراءة (ومِنْ ثَمَّ المعالجة والفهم) باللغة الأم؛ ذلك أن قراءة الكلمات الألمانية المشابهة للإنجليزية في الرسم والمعنى قد يسَّرت معالجة المفردات ومن ثمَّ قراءتها وفهمها كثيرًا. على أن أهم ما في الدراسة أنها تجاوزت فكرة أثر اللغة المهيمنة في الاستعمال؛ فاللغة الإنجليزية أثَّرت في قراءة الألمانية رغم أن الألمانية هي اللغة الأم والأكثر تداولاً.

٣- دراسة "مارغريتا كاوشنكسايا" وزميلاتها[١٢]:

انطلقت الدراسة من الفرضيات اللسانية النفسية في الثنائية اللغوية التفاعلية[١٣]. وبناء على ذلك قصدت الدراسة إلى معرفة أثر الخبرة[١٤] باللغة الثانية في اللغة الأم من ناحيتين: معرفة المفردات، والطلاقة القرائية.... معتمدة على فحص مجموعتين ثنائيتي اللغة: (إسبانية- إنجليزية، مندرين- إنجليزية).

وقد استخدمت الأدوات البحثية التالية:

- استبانة الكفاية اللغوية والخبرة؛ وهي معلومات عن التعرض اللغوي وعمر المتعلم.
- اختبار الصورة؛ سماع كلمة ثم اختيار الصورة الممثلة للمنطوق.
- اختبار المفردات التعبيرية؛.. صورة ولفظها ثم الطلب إلى المستجوب إعطاء المرادف.
- الطلاقة القرائية؛ سرعة القراءة وكيفيتها.

وقد أظهرت الدراسة أنَّ ثمة تأثيرًا للخبرة باللغة الثانية في اللغة الأم؛ تأثيرًا في المفردات والطلاقة القرائية. ويعتمد هذا التأثير على خصائص النظام الكتابي للغة الثانية ومدى مشابهته لنظام اللغة الأم الكتابي. وقد انعكس ذلك في مهارات القراءة والطلاقة القرآئية؛ فثنائيو اللغة (إسبانية- إنجليزية) كانوا أَقْدَرَ على القراءة وأَكْثَرَ طلاقةً من ثنائيي اللغة (مندرين- إنجليزية)، وقد عَزَت الباحثةُ ذلك إلى التشابه في النظام الكتابي؛ والقدرة على القراءة والفهم مِنْ ثَمَّ.

ويُظْهِر لنا هذا المسحُ أن ثَمَّةَ بَوْنا شاسعًا بين ''الدراسات'' العربية والدراسات الغربية؛ بَوْنًا يكافئ السَّطحيَّ والعميق!!

مقدمة في اكتساب اللغة وتعلمها:

يتصل فهم عملية اكتساب اللغة الأم وتعلمها بالوجود الإنساني ومحاولات تَفَهُّم سلوكه العقلي المعرفي والاجتماعي التواصلي، وانطلاقًا من ذلك حظي الموضوع بعناية كبيرة في المعارف الإنسانية المتنوعة في موضوعها ومنهجها ومجال العناية المتخصصة. ولعل ثورة اللسانيات الحديثة قد ألقت كثيرًا من الضوء على هذا الحقل، وصار ثمة فروع بينية تعتني بدراسة اكتساب اللغة وتعلمها؛ أهمها اللسانيات النفسية واللسانيات الاجتماعية واللسانيات العصبية. وازدهر أمر

النظر في كيفية اكتساب اللغة الأم في اللسانيات التطبيقية حين قوربت العملية بالتزامن مع تعلم اللغة الأجنبية وظهور مفاهيم لسانية متنوعة كالثنائية اللغوية.

ويمكن القول باطمئنان: إن اكتساب اللغة الأم وتعلم اللغة الأجنبية من الموضوعات الجوهرية والمحورية في اللسانيات النفسية واللسانيات الاجتماعية واللسانيات العصبية؛ وأما انتسابها إلى اللسانيات النفسية فمن جهة كونها تتعلق بالعمليات النفسية العقلية والمعرفية التي ينجزها ابن اللغة ومتعلمها الأجنبي حين يستقبل اللغة وينتجها. وأما انتسابها إلى اللسانيات الاجتماعية فكونها تمثل ممارسة اجتماعية يومية يستعين بها الفرد لقضاء حوائجه والعيش والاجتماع. وأما كونها لسانياتٍ عصبيةً فلأنها تتناول وجوهًا من العوامل البيولوجية والعصبية المتعلقة بسلوك الدماغ وتشريحه وعملياته المختلفة عند اكتساب اللغة وإنتاجها وتحكمها بنوع هذا الإنتاج وكيفيته.

ومجمل القول فى اكتساب اللغة الأم أنها تقتضي شرطين أساسيين لا غنى عنهما:

الأول: شرط بيولوجي عضوي يتمثل في امتلاك الإنسان موهبة فطرية إلهية يحتفظ بها الإنسان في عقله، وهي متعلقة بمفهوم تشومسكي (القواعد العالمية) أو (القواعد الكلية). ويتصل بهذه الملكةِ الفطريةِ سلامةُ جميع الأعضاءِ المساهِمة في إنتاج اللغة واستقبالها: الأذن وقنواتها وأعصابها، ومواضع اللغة في الدماغ؛ ذلك أن أي عطب أو قُصور في هذه الأعضاء سيقف سدًّا منيعًا أمام مرور اللغة إلى المعالِج الرئيسي:الدماغ. ولكن هذه الملكة الفطرية وما يساعدها من سلامة الأعضاء وفعاليتها تظل مُعَطَّلة دون وقود يَشْحَذُها ويُسيّرها؛ إنه:

الشرط الثاني: وهو شرط اجتماعي خالص يتمثل في المدونة اللغوية؛ المادةِ اللغويةِ التي ينبغي استقبالها لتشغيل جهاز اكتساب اللغة وتعلمها. إنها اللغة التي

يتلقاها الطفل من مجتمعه الكلامي الذي يعيش فيه لتنقدح شرارة عمل أجهزة اللغة بدءًا من الأذنِ؛ القناةِ الناقلةِ إلى المعمل والمركز في الدماغ.

وتمثل المدونة اللغوية التي يتلقاها الطفل في سنيه الأولى عاملاً حاسمًا في بناء كفايته اللغوية في لغته الأم الأولى؛ فهي المادة التي ستعمَلُ آلياتُ اكتساب اللغة على تحليلها، وتجريدها، وتثبيت بعض قواعدها وإقصاء بعضها، وتعديل أخرى؛ إنها العامل الحاسم في اكتساب اللغة، ويؤكِّد ذلك أن قواعدَ الملكة الفطرية (النحو الكلي، القواعد العالمية) إنما هي المشترك بين الناس، أما لغة المجتمع فهي المختلفة والمتنوعة؛ وهذا يعني أن الشرط الاجتماعي هو المسؤول المباشر عن تحديد كفاية الطفل اللغوية في العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية.

وصفوة القول في ذلك أن الملكة الفطرية وما يعاضدها من سلامة الأعضاء لا يكفيان لاكتساب اللغة، وأن ولادة الطفل في مجتمع كلامي ما غير ضمين لاكتسابه اللغة؛ وإنما هما متشارطان لا غنى لأحدهما عن الآخر، ولابد أن تتوسطهما سلامةُ الأعضاء لنقل المدونة اللغوية إلى المعمل (الدماغ).

ووفاقًا لما تقدم فإن أي عملية متعلقة باستقبال اللغة وإنتاجها لا تخرج عن الإطار اللساني الاجتماعي أو اللساني النفسي أو اللساني العصبي، وقد تتقاطع الأطر الثلاثة معًا.

تباين الآراء في السن المناسبة لتعليم اللغة الأجنبية:

يتفاوت اللسانيون تفاوتًا فارقًا في أمر السن المناسبة لتعليم اللغة الأجنبية[١٥]؛ ولكل رأي حججه اللسانية المساندة. ونميِّز هنا رأيين واضحين:

الأول: الطفولة المبكرة هي السن الأنسب لتعليم اللغة الأجنبية. وينطلق أصحاب هذا الرأي من أفكار علمية محددة، وقد ينطلق بعضهم من افتراضات

لم يثبتها العلم بعد. ويرى هذا الفريق أن الطفل في مراحل نموه الأولى يمتلك قدراتٍ ذهنيةً كبيرةً جدًا تمكنه من اكتساب أكثر من لغة في الوقت نفسه؛ ومرجع ذلك إلى ليونة الدماغ والقدرة على استثمار القواعد العالمية استثمارًا فاعلاً قبل أن تجفَّ وتضيع.

ويعتمد أصحاب هذا الرأي كثيرًا على فكرة ''الفترة الحرجة''(١٦) ومنطوياتها؛ فهم يؤكدون أن هذه الفترة هي الفترة الجوهرية في اكتساب اللغة؛ لأن الطفل إنْ تجاوزها فإنه لن يقتدر على اكتساب اللغة، وسيضيع كثيرٌ من جهده لاحقًا دون بلوغ المؤمَّل وهو بناء كفاية لغوية تضاهي كفاية الناطقين الأصلاء.

ولعله فات كثيرًا من هؤلاء أن مفهوم الفترة الحرجة اتصل أول أمره باللغة الأم، ومؤدَّاها: أن الطفل إذا لم يكتسب لغته الأم في هذه المرحلة (بين ١٠-١٦) فإنه لن يكتسبها أبدًا. ثم انتقل المفهوم إلى حقل تعليم اللغة الأجنبية ومفاده أن متعلم اللغة الأجنبية إذا تعلمها راشدًا بعد انقضاء الفترة الحرجة فإنه لن يقتدر عليها كأبناء اللغة؛ ومِنْ ثمَّ فإن سرعة اكتساب اللغة الأجنبية تقلّ مع التقدُّم في السنّ. وبناءً على الاعتصام بمبدأ ''الفترة الحرجة'' فإن هؤلاء يدعمون تعليم اللغة الأجنبية في سن الطفولة وبالتزامن مع اللغة الأم(١٧).

وأما **القسم الثاني** من اللسانين فإنهم يعارضون تعليم اللغة الأجنبية في مراحل الطفولة المبكرة وقبل اكتمال النظام اللغوي؛ فبعضهم يرى أن تعلم اللغة الأجنبية بعد اكتمال نظام اللغة الأم سيمكِّن المتعلم الأجنبي من الاستفادة من القواعد العالمية التي احتفظ بكثير منها في لغته الأم؛ وبذلك فإن اللغة الأم ستكون عاملاً مساعدًا وميسِّرًا لاكتساب اللغة الأجنبية وتعلمها. ويرى آخرون أن تعلم اللغة الأجنبية في سن الرُّشد يمكِّن المتعلمين من تعلُّم اللغة تعلُّمًا واعيًا

وقاصدًا يوظِّف القدراتِ المعرفيةَ والفكريةَ التي بناها المتعلم من لغته الأم ومن حصيلته المعرفية والفكرية؛ فهو قادر على تجريد القواعد والأنماط والقوانين اللغوية المتنوعة؛ بل إنه سيكون على وعي ظاهر باختلاف لغته الأم عن اللغة الهدف.

وأما القول بأن تعلم اللغة الأجنبية بعد الفترة الحرجة سيحول دون بلوغ كفاية تضاهي كفاية الناطق الأصيل فأمر ما يزال فيه نظر كبير.

وعلى ذلك يرى هؤلاء أن السنَّ الأنسب لتعليم اللغة الأجنبية هو سن الرشد وبعد اكتمال اكتساب اللغة الأم.

مقدمة في تعالق اللغة الأم واللغة الثانية وتبادل التأثير:

لعل موضوع تأثير اللغة الأم في اللغة الأجنبية يكون أهم موضوع طرقته اللسانيات التطبيقية المعتنية بمجال اكتساب اللغة الثانية، ولاسيما اللسانيات النفسية التي ركزت عنايتها على هذا الجانب. وتُجْمِعُ آراء اللسانيات النفسية على أن اللغة الأم تؤثر تأثيرًا كبيرًا في اكتساب اللغة الثانية وتعلمها لدى الراشدين من المتعلمين(١٨)؛ خلاصته:

أ- **تأثير سلبي**؛ ومفاده أن متعلم اللغة الثانية يتمثَّل نظام لغته الأم تمثُّلا غير واعٍ عندما يتعلم اللغة الثانية؛ وانطلاقًا من ذلك التمثُّل فإنه ينقل كثيرًا من عناصرِ نظام لغته الأم ويطبقها على نظام اللغة الهدف. ولا يتوقف الأمر عند ذلك ولكنه يتجاوزه إلى أبعادٍ أعقدَ وأخطرَ تتمثل في النقل التداولي.

لقد كان هذا التأثير السلبي المعروف بالنقل السلبي موضوعًا محوريًا ملازمًا لجميع مراحل تطور حقل اكتساب اللغة الثانية وتعلمه؛ فقد انبثق منهج التحليل التقابلي لمقابلة النظامين اللغويين للمتعلم: اللغةِ الأم واللغةِ الهدف؛ قصد الوقوف

على وجوه الافتراق بينهما بالنظر إلى أن هذه الاختلافات ستكون المصدرَ الأساسيَّ لصعوبات التعلم ومن ثمَّ مصدر الأخطاء(١٩).

وتجاوز الأمر ذلك حين عولج موضوع النقل التداولي في سياق التأثير السلبي من حيث إن المتعلم يميل إلى نقل نظام لغته الأم التداولي عندما يستخدم اللغة الثانية المتعلَّمة؛ فتراه يستعمل تراكيبَ وعباراتٍ من اللغة الثانية كأنما يستعملها في لغته الأم؛ فيصير إلى مفارقة صارخة لأعراف التداول في اللغة الهدف؛ وذلك كُلُّه ينبئ بنقص فادح وقادح في الكفاية التداولية.

ويتصل بهذا الجانب أيضًا نظرية كابلان (R. Kaplan) البلاغة التقابلية (Contrastive Rhetoric) ومفادها أن متعلمي اللغة الأجنبية عندما يكتبون فإنهم ينقلون نظام الكتابة وتنظيم النص في لغتهم الأم؛ كأنهم ينقلون بنية النص وتمثيله الثقافي والتداوليّ إلى اللغة المتعلمة(٢٠).

ب- تأثير إيجابي:

ويستند أصحاب هذا الرأي إلى الانطلاق من مبادئ القواعد العالمية (UG)؛ إذ يرون أن امتلاك المتعلم للقواعد العالمية وتثبيتها في لغته الأم سيكون عاملاً مساعدًا في توظيف هذه القواعد للوصول إلى قواعد اللغة الجديدة؛ انطلاقًا من أن القواعد العالمية قواعد مشتركة بين اللغات جميعًا، وأن اللغاتِ أَمْيَلُ إلى التشابه والتطابق في البنى العميقة وتمثيلها العقليّ في الدماغ(٢١).

وثمة من يَنْظرون إلى الأثر الإيجابي من زاوية لسانية خالصة مفادها أن التأثير الإيجابي (النقل الإيجابي) يكون أفْعَلَ وأنْجَعَ وأَنْجَحَ عندما تتقارب اللغات في أصولها؛ فالنقل الإيجابي بين الفرنسية والإنجليزية أَوْضَحُ وأقوى منه بين الفرنسية والعربية(٢٢).

وتظل هذه المقاربات اللسانية النفسية والمعرفية مقتصرة على سياق تربوي وتعليمي واحد هو تعلم لغة ثانية في سن الرشد؛ بعد أن اكتمل نظام اللغة الأم، وليس في سياق ثنائي اللغة تُهَيمْنُ فيه اللغة الثانية.

أثر اللغة الثانية في اللغة الأم:

هل ثمة تأثيرات للغة الثانية في اللغة الأم؟

إن هذه المقاربة اللسانية لا يمكن أن تكون مضبوطة وصارمة النتائج إن اعتمدت أقاويلَ أو تكهنات أو فلتات من صحافي أو إعلامي أو سياسي؛ إنها مقاربة لسانية معرفية تسبر أغوار الدماغ البشري وتتقصد تفَهُّم طبيعة عمله في سياق ثنائي اللغة. ومقتضى هذه المقاربة أن يتسيَّد المشهدَ سؤالٌ عريضٌ مفاده:

كيف يمثِّل ثنائيُّ اللغة النظامين اللغويين في دماغه؟

وينشعب من هذا السؤال أسئلة فرعية مهمة منها:

- هل ثمة نظامان لغويان منفصلان كليًّا أحدهما للغة الأم والثاني للغة الثانية؟
- هل ثمة انفصال تام بين عمليات اللغة الأم وعمليات اللغة الثانية؟
- كيف نفسِّر ظواهر لسانية وتواصلية عند ثنائي اللغة؛ كالتناوب اللغوي، والاستراتيجية التدبيرية؟

ومقتضى الإجابة عن هذه الأسئلة تفحُّص آراء العلماء المشتغلين بالموضوع اشتغالاً علميًا تجريبيًا(٢٣).

تعد دراسة ''أنيتا بافلينكو''(٢٤) Pavlenko, Aneta المسحية دراسة مهمة في هذا الموضوع؛ فقد انطلقت الباحثة من مفهوم الكفاية المتعددة(٢٥) لإثبات

تأثير اللغة الأجنبية في اللغة الأم، وتأسيسًا على ذلك وضعت إطاراً تصنيفيًا لتأثير اللغة الثانية في اللغة الأم، وهو إطار يستغرق الكفاية من حيث هي النظام اللغوي الضمني والأداء اللغوي من حيث هو الظاهر من اللغة في الاستعمال، ويقوم هذا الإطار التصنيفي على خمسة عناصر هي:

١- النقل بالاقتراض أو إضافة عنصر من اللغة الثانية إلى اللغة الأولى؛ كأن تضاف مفردات جديدة من اللغة الثانية.

٢- الانبثاق: اختلاق نظام ثنائي متميز عن نظام اللغة الأم ونظام اللغة الثانية؛ كإنتاج صوامت تقع بين نظامي اللغتين الأم والثانية(٢٦).

٣- الانتقال:الانتقال من بنية لغوية أو وظيفة في اللغة الثانية وإسقاطها على اللغة الأولى (التوسع الدلالي بواسطة عناصر معجمية راسخة في اللغة الثانية واستعمال مقابلاتها الترجمية في اللغة الأولى).

٤- إعادة البناء: نقل عناصر من اللغة الثانية إلى اللغة الأم أو إدماجها فيها؛ ويظهر هذا في بعض التغيرات أو الاستبدالات أو النقل الجزئي مثل: إعادة البناء التركيبي وفق قواعد اللغة الثانية.

٥- تَآكُلُ اللغة الأم: فقدان بعض عناصر اللغة الأم بأثر من اللغة الثانية أو عدم الاقتدار على إنتاجها؛ من ذلك قبول الانحرافات التركيبية.

وبعد تحليل مسحي عميق لعدد كبير من الدراسات التي تناولت الموضوع انتهت إلى وضع قائمة للقيود المحتملة لتأثير اللغة الثانية في اللغة الأولى(٢٧):

ويمكن تقسيم هذه العوامل إلى ثلاثة مجاميع:

١- عوامل فردية: عمر متعلم اللغة، وبداية التعلم، وأهداف المتعلم، واتجاه المتعلم نحو اللغة الثانية، والكفاية اللغوية، والفروق الفردية.

٢- عوامل لسانية اجتماعية: سياق التعلم، والتعرض اللغوي.. طوله ونوعه، ومنزلة اللغة الثانية.

٣- عوامل لسانية ولسانية نفسية: مستوى اللغة، والتشابه النمطي (خصائص اللغتين)، وعوامل تطورية تتعلق بمستقبل البحث العلمي في المجال.

ومن مزايا هذه الدراسة أنها لم تُصْدِر أحكامًا تقييمية لتأثير اللغة الثانية في الأولى؛ فهي لم تتخذ موقفًا محددا من وصف التأثير بأنه سلبي أو إيجابي..... وإن كانت الدراسات الكثيرة التي وقفتْ عليها وحللّتْها انتهت إلى آثار سلبية(٢٨).

ويعدُّ ''استفان كيسِكس''(Istvan Kecskes) باحثًا بارزًا في هذا المجال(٢٩)؛ إذ صرف جهده لدراسة أثر اللغة الأجنبية في لغة المتعلمين الأم في سياقات تربوية ثنائية اللغة، وهي دراسات تجريبية تعتمد فحص كيفية تمثيل النظامين اللغويين وأثر اللغة الأجنبية في اللغة الأم.

ينُظِّر ''كيسِكس'' لمفهوم اللغة الثنائية (Dual Language) منطلقًا من فكرة لسانية عصبية مفادها '' أنه ثمة نظام مفهومي واحد لدى ثنائي اللغة، وهذا النظام المفهومي ينشعب في قناتين غير مُمْتَزِجَتَيْنِ؛ و لكل لغةٍ منهما قناةٌ مستقلة عن الأخرى. ونظرًا لأن هذين النظامين اللغويين ينطلقان من نظامِ تمثيلٍ مفهوميٍ واحد فإنه طبيعي أن يؤثر الواحد منهما في الآخر، ولاسيما اللغة الأجنبية إن كانت هي اللغة المهيمنة في الحياة اليومية ومدى تعرُّض الطفل أو المتعلم لها أَعْظَمُ من اللغة الأم.

ويرى ''كيسِكس'' أن المقاربة التي سماها ''اللغة الثنائية'' مقاربة ناجعة ومفيدة، وأنها تنطلق من رؤيةٍ مفادها أن بناء النظام اللغوي إنما هي عملية ديناميكية حركية، وهي تأليف من عدد من العناصر هي:

١- تغيرات مفهومية.

٢- تأثير ثنائي الاتجاه بين اللغتين: ل١ ⟵⟶ ل٢

٣- أن عملية التطور ليست عملية نحو الأعلى فقط وإنما تحدث في عمق سلسلة عملية التطور.

وظاهر أن ''كيسِكس'' يدعم الأثر الإيجابي للغة الأجنبية في اللغة الأم في دراساته المتعددة؛ فقد اعتمد في دراساته على دراسة ترتيب نظام الجملة في اللغتين، وكيفية انتقاء المفردات للتعبير عن المعاني والمفاهيم. وانتهى من ذلك إلى التأثير الإيجابي.

على أن تقييد نتائج دراسة ''كيسِكس'' أمر حقيق بالتذكار؛ لضرورته العلمية التي تُقَيِّد الأحكام والنتائج وتعصمها من التعميم الزائد. لقد اشتملت خلاصة تلك الدراسة وسواها على تقييدات جوهرية تتمثل في أن:

- تأثير اللغة الثانية في اللغة الأم معرفي وتداوليّ أكثر منه معجميًا خلافًا لتأثير اللغة الأم في اللغة الثانية الذي يغلب عليه الجانب النحوي والمعجمي (الأخطاء النحوية والمعجمية..إلخ).
- التأثير المثمر للغة الثانية في تطوير مهارات اللغة الأم يظل احتمالاً وليس ضرورة وشرطًا.
- لا تقود جميع أنواع التعليم ثنائي اللغة إلى كفاية لغوية متعددة (بلغات متعددة).
- يقود تعليم اللغة الثانية إلى تطوير النظام المعرفي في اللغة الأم إذا كان تعليمًا مكثَّفًا وثريَّ المحتوى، ويقع في إطار المحفزات المؤثرة في تعلم الطالب.

- التأثير المثمر للغة الثانية في اللغة الأم يحدث إذا بقي التعرُّض للغة الأم في مستوى ملائم؛ وإلا فإن فقدان اللغة الأم وضياعها في الاستعمال سيكون واردًا.
- اتخاذ اللغة الثانية لغة تعليم (لغة محتوى) ينبغي أن يؤخذ بحذر وتنبُّه شديد وتخطيط دقيق يتضمن:

أ- إصلاح نظام التعرُّض للغة الأم (تعرُّض متواصل).

ب- محتوى التعرُّض في اللغتين أهمُّ من كمية التعرُّض.

وظاهر أن تقييداته عوامل حاسمة جدا في ضبط التأثير وتعرُّفه؛ ذلك أنه يركِّز على قضيتين هامتين هما:

١- مدى التعرُّض. ومعلوم أن اكتساب اللغة يعتمد اعتمادًا كبيرًا على مدى التعرُّض للغة؛ كلما زاد التعرُّض زاد مقدار الاكتساب والتعلم وجودته ونوعه، وتَحَوَّلَتِ المدْخَلاتُ إلى مُسْتَدْخلاتٍ.

٢- ثراء المحتوى وتنوعه؛ فلا جدوى كبيرة من تعرُّض طويل وكبير لمحتوى فقير متكرر؛ فالمحتوى المتكرر لا يساعد المتعلم على بناء نظامه اللغوي كلِّه وإنما يركز على جانب معين فحسب.

وإذا نظرنا في هذين المعيارين أمكننا حقا النظر بعين العدل والإنصاف إلى أثر اللغة الأجنبية في التعليم ثنائي اللغة؛ إذ واضح أن التعليم ثنائي اللغة الذي تهيمن فيه اللغة الأجنبية على الأم سيكون ذا تأثير سلبي على لغة المتعلم وتمثيله المعرفي وما يتصل به من أنساق رمزية أهمها النسق الثقافي للغة الأم[٣٠].

ويعدُّ كَمِنْز (Cummins) عالما بارزًا في قضايا الثنائية اللغوية، ويميل إلى تأييد الأثر الإيجابي للغة الثانية؛ على أن يكون تعليمها مشروطًا بالتعرض والتحفيز[٣١].

ومستصفى القول في أثر اللغة الأجنبية (الثانية) في اللغة الأم[٣٢]:

- أن ثنائيي اللغة أبطأ من أحاديي اللغة في ربط الصور بالألفاظ الدالة عليها باللغة الأم.
- أنَّ الثنائية اللغوية تؤثر في مفردات اللغة الأم واكتسابها.
- أنَّ تأثير اللغة الأجنبية في اللغة الأم يتفاوت مدى وشكلاً بناء على التشابه أو الاختلاف في النظام الكتابي؛ ذلك أن التشابه في النظام الكتابي يسهِّل التعرف على الحروف (معالجتها) بسرعة ومن ثمَّ فهمها بسرعة، وتوظيفها في معرفة الكلمات الغامضة من شكلها ومن ثمَّ من السياق.
- أنّ تأثير اللغة الثانية في اللغة الأم يتأثر بعوامل متعددة منها: العمر، ومدى التعرض للغة الثانية، ومدة التعرض، ومستوى الكفاية باللغة الأم.
- أنّ تعلُّم الأطفال اللغة الثانية يكون أفضل وأجود عندما يكون متمكنًا من لغته الأم، وكلما تمكَّنَ من نظام لغته الأم تمكَّنَ من اللغة الثانية.
- أنّ تطور اللغة الأم ونموها لدى الطفل ينبئ بمستوى الاقتدار على اللغة الثانية والتمكُّن منها.
- أنّ التركيز على اللغة الثانية في النظام التعليمي ثنائي اللغة (عدم التوازن) قد يقلل الإنجاز فيها والتمكُّن منها إن كان ذلك التركيز يقلِّص فرص التعرُّض للغة الأم واستعمالها.

نماذج تطبيقية من آثار اللغة الثانية في العربية[٣٣]:

تُظْهِرُ المراجعات النظرية أنّ ثمة تفاوتًا بين المدارس والاتجاهات اللسانية في تفسير خطأ الطفل في لغته الأم في مراحل الاكتساب؛ فالسلوكيون، وفي مقدمتهم سكنر، يرون أن خطأ الطفل في لغته الأم إنما يرجع إلى سوء تقليده الوالدين والأقران أو فشله في التقليد؛ فالأمر سلوكي محض. أما تشومسكي فِطريُّ النزعةِ فإنه يرى رأيًا مختلفًا تمامًا، وهو رأي ينطلق من فلسفته العقلانية ورؤيته الفطرية في ملكة اللغة؛ إذ اللغة عنده ملكة فطرية موهوبة تشحذها المدخلات اللغوية التي يتلقاها الطفل من بيئته ومحيطه. وحصيلة رأي تشومسكي أن الطفل إنما أخطأ لأنه في مرحلة بناء نظامه اللغوي (كفايته اللغوية)؛ وموضع الخطأ هو مرحلة لم يتعرض لها الطفل حتى الآن، ولم يتلق مدخلاتٍ لغويةً يستطيع منها وبها أن يجرّدِ قواعد جديدة. فإن أخطأ الطفل العربي في تأنيث (أحمر) على (أحمرة) فإنما كان ذلك لأنه لا يعرف قاعدة التأنيث من (أفعل/ فعلاء)؛ فهي ليست أشهر قواعد التأنيث العربية وأكثرها تواترًا[٣٤].

إن ما تقدَّم يشير إلى وجهات نظر متباينة في تفسير خطأ الطفل أحادي اللغة في لغته الأم؛ فكيف يكون الأمر إن كان الطفل ثنائيَّ اللغة وتُهَيْمِنُ عليه اللغة الأجنبية وهو ما يزال في مراحل بناء كفايته اللغوية في لغته الأم؟

الراجح والمسنود بأدلة علمية أن اللغة الأجنبية تسهم في أخطاء الطفل في لغته الأم، ولا يقتصر هذا الخطأ على البنية اللغوية السطحية فحسب؛ وإنما تتجاوزها إلى البنية العميقة وتمثيل اللغة ونظامها الثقافي والمعرفي، وبذلك فإن كثيرًا من أخطاء الطلبة ثنائيي اللغة في لغتهم الأم مرجعها إلى أن نظام اللغة الأجنبية يُهَيْمِنُ على نظام اللغة الأم هيمنة تحمل معها رؤية العالم وتمثيله إلى حد بعيد في اللغة الأم، ولعل ذلك يظهر في تمثيلات الجنس النحوي، والزمن،....إلخ.

وسنعرض لبعض هذه التأثيرات عرضًا مدعومًا بدراسات علمية دقيقة وموثوقة.

١- في الأصوات: كيف يؤثر النظام الصوتي للغة الثانية في اللغة الأم؟

بالرجوع إلى الإطار التصنيفي العام الذي رسمته أنيتا بافلينكو نجد أنها أشارت إلى التأثير الصوتي للغة الأجنبية في اللغة الأم، ومن مظاهر هذا التأثير إنتاج أصوات بينية تقع بين اللغتين الأم والثانية، وهذا يعني أن الصوت في اللغة الأم يفقد بعض خصائصه متأثرا باللغة الأجنبية. وقد يحدث تداخل حين يُسْقِطُ الطفل أصواتًا من اللغة الثانية على أصوات من اللغة الأم ظنًّا منه أنها تحمل القيمة الوظيفية نفسها؛ أو بلفظ آخر: إن تمثيله المعرفي لذلك الصوت في اللغة الأجنبية يحمله على مقاربة ذلك الصوت إلى أقرب نظير في اللغة الأم أو العكس.

ومما رصده الباحث من أخطاء الأصوات[٣٥]

النص	موضع الخطأ	التفسير
مش زابت[٣٦]	/ت/	الأصل أن يكون الصوت/ط/؛ والكلمة عامية تحريف (ضابط)؛ حيث رققت الطفلة (ط) المفخَّمة وحوَّلتها إلى (ت)؛ والطاء صوت عربي ليس موجودًا في الإنجليزية.
هَلأ دِفْتك	/د/	تحريف لصوت/ض/ والمقصود بالعامية (ضِفْتَك) وهو تحريف للفعل الفصيح (أضفتك)، حيث رققت الطفلة (ض) المفخَّم وحوَّلته إلى (د)؛ والضاد صوت عربي ليس موجودًا في الإنجليزية.
لوجود كثير من الفَعَليات والأنشطة المتعددة فيها	الفتحة التي تلي العين	الفعاليات؛ تقصير العلة الطويلة وتمثيلها كتابيًا؛ والإنجليزية (اللغة المهيمنة) طول الصوائت فيها غير فونيمي؛ فهو لايميّز وظيفيًا.

٢- في المعجم: يتنوع تأثير اللغة الثانية في اللغة الأم تنوعًا ظاهرًا في الحقل المعجمي، وتتجلى هذه التأثيرات في جوانب متعددة أهمها الاقتراض اللغوي[٣٧]: أن يستعين ثنائي اللغة بمفردات من اللغة الأجنبية في سياق تحدثه باللغة الأم. وتعَدُّ هذه العملية النفسية العقلية المعروفة بـ(التناوب أو التحول اللغوي) عملية لاواعية من ناحية معالجة اللغة، وهي في الوقت نفسه عملية لسانية اجتماعية وتعد جوهر الكفاية التدبيرية (الاستراتيجية) للمضي في عملية التواصل. ومن أمثلة ذلك[٣٨]:

- صباح الخير بابا أسفة باباكنت رح أحكي معك و بعدين طلعلي notification بقولي انه في واحدة عمرها ١٣ سنة ماتت..إلخ.
- ابعث الـ request وبعدين نحكي من اللابتوب.
- لما رُحنا على er ما كان فيه ممرضات.
- ما بَعْرِف إذا الـ video chat يشتغل.

وأظهرت دراسات أخرى آثارًا لغوية واضحة للغة الأم في مفردات اللغة الثانية؛ فقد وجدت دراسة (إيفا فان آسكي) أن لمفردات اللغة الأجنبية تأثيرًا في مفردات اللغة الأم من حيث المعالجة وسرعة الفهم؛ فقد وجدت أن ثنائيي اللغة (إسبانية، إنجليزية) قد استفادوا من التشابه بين اللغتين في نظام الكتابة وما ترتب على ذلك من أثر دلالي في فهم معنى الجملة، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل تجاوزه إلى أن الكتابة والتشابه في المعنى قد انعكسا إيجابيًا في معالجة الجمل المكتوبة ومن ثمَّ فهمها؛ وبناء على ذلك كان لهذا التشابه تأثير إيجابي في سرعة القراءة والفهم أي الطلاقة اللغوية. ومقارنة بنظرائهم من ثنائيي اللغة (مندرين/ إنجليزية) ظهر واضحًا أثر النظام الكتابي في تعرف المفردات ومن ثم الطلاقة اللغوية؛ إذ كانوا أقل طلاقة وأبطأ في تعرف المفردات ومعالجتها (فهم معانيها).

٣- في الصرف:

تتباين اللغات في أنظمتها الصرفية تباينا ظاهرًا يَسَعُنا معه أنْ نحدد بدقة مرجع أخطاء الطفل ثنائي اللغة في لغته الأم. ولعل فصيلة الجنس تكون أبرز مظاهر تأثير اللغة الثانية؛ فقد أجرت إيلينا أندونوفا(٣٩) Elena Andonova وزميلاتها دراسة قصدت تفحص أثر اللغة الثانية في اللغة الأم، واتخذت فصيلة الجنس نموذجًا لدراسة ذلك الأثر. وقد أجريت الدراسة على طلبة من البلغاريين ثنائيي اللغة (بلغارية- ألمانية) و (بلغارية- إسبانية)، وكان مقصد الدراسة الإجابة عن سؤال عريض مفاده: هل يؤثر نظام فصيلة الجنس في اللغة الثانية في تصور فصيلة الجنس في اللغة الأم؟

لقد أظهرت الدراسة أنَّ ثمة تأثيرًا واضحًا للغة الأجنبية في تصنيف المفردات استعارةً من اللغة الأجنبية (الألمانية أو الإسبانية)؛ فقد أظهر هؤلاء الطلاب مَيْلا إلى تأنيث المفردات المحايدة في البلغارية تأثُّـرًا بنظام اللغة الألمانية والإسبانية. كما أظهروا ميلا أقل في الأسماء المذكرة. ومن وجهة نظر لسانية معرفية فإن هذا يُظْهِرُ أن ثمة أثرا واضحًا في تمثيل نظام فصيلة الجنس وكيفية معالجته في اللغة الثانية ثم انتقاله إلى اللغة الأولى، كما أن تفضيلات المتعلمين أظهرت أن ثمة وعيًا ظاهرًا في عملية تمييز المذكر من المؤنث وتمثيله في اللغة الثانية واللغة الأم.

وقد وقفتُ على قريب من هذا التأثير لدى طفلة ثنائية اللغة تُهَيمِنُ الإنجليزية على لغتها الأم في التعرض والاستعمال اليومي. ومن أمثلة ذلك:

- **هذه البيت** جميل.
- أتذكر أول يوم زرت في**ها** دبي.
- أعرف أن الأنانية مَكرو**ها**.
- لما رحنا على المسجد صلينا في**ها** الظهر.

٤- في الترجمة الحرفية[٤٠]:

وذلك بأنْ ينقل المتعلم معنى الكلمة أو الجملة بالترجمة الحرفية من اللغة الأجنبية، ومعلوم أن هذه العملية هي أحد عناصر الكفاية التدبيرية (الاستراتيجية)، والغالب أن العملية تحدث بلاوعي، وتشمل جوانب متعددة من الأداء اللغوي؛ منها: نقل بنية الجملة، أو نقل البنية الصرفية، أو ترجمة المعنى حرفيًا. وهذه أمثلة متنوعة:

- لم أرى مدينة بجمال وميزات دبي لوجود كثير من الفَعليات والأنشطة المتعددة فيها. أتذكر أول يوم زرت فيها دبي **وأول شيء الذي أذكره** كان ملفت للنظر كان برج خليفة لطوله. ولكن لم يكن برج خليفة **الشيء الوحيد الذي أحببته** في دبي **والأشياء الأخرى** كانت صحراء أبو ظبي التي **قمنا بفعل الأنشطة المهلكة** فيها ودبي مول، حيث **حالفني الحظ وقمت بالسبح** مع الأسماك **والقروش**[٤١].

تضمن النص السابق مجموعة من أخطاء الترجمة الحرفية؛ فجملة (قُمْنا بِفِعْل الأنشطة المهْلِكة) ترجمة حرفية، وكان القصد منها: قمنا بمغامرات أو ألعاب إثارة. وأما جملة (قُمْت بالسَّبح مع الأسماك والقروش) فأخطأت فيها باختيار المكافئ الترجمي الخاطئ صرفيًا ومن ثم دلاليًا؛ والصواب: السباحة، والقِرْش أو أسماك القِرْش.

- الفلم **تعرَّفت عليه** قبل أسبوعين[٤٢]. (عرفته، عرفت عنه).
- سيستمر الصف للبنات وبعدين **بيفرقوا**. (يفصلون).
- بتعمل أشياء **بتسهل الحياة**. (تيسِّر الحياة).
- بنات ماتوا **بدرجة الرضاعة**. (عمر الرضاعة)
- ما كانت الأم **تقبله** يأكل لحاله. (تَسمْح له)

- لما صار العمر ١٥ **لِسَّه أمه بتطعميه**. (ماتزال أمه تطعمه)
- بابا فاضي نحكي **بنص ساعة**. (خلال نصف ساعة)

٥- في الكفاية التداولية:

ثم إننا لا نكتسب عناصر النظام اللغوي في فراغ أو بمعزل عن المحيط الاجتماعي والمجتمع الكلامي؛ وهذا يعني ضمنًا أن اكتساب عناصر اللغة ونظامها الداخلي يسير بالتزامن مع اكتساب استعمال هذا النظام اللغوي في السياقات والظروف المناسبة، وما تقتضيه أعراف المجتمع الكلامي من مطابقة الكلام لمقتضى الظاهر (الاستعمال الحرفي) أو مخالفة الكلام لمقتضى الظاهر (استعمال الألفاظ والتراكيب في غير ما وُضِعَتْ له أصلا) أو أنها لا تدل على المعنى الحرفي، وما يتصل بذلك من أفعال الكلام وكيفية إنجاز الأشياء بالكلمات. فإن اختل شرط الممارسة الاجتماعية للغة اختلت الكفاية التداولية، وصارت مظاهر قصورها بادية للعيان. وهذه هي النقيصة الكبرى التي يعانيها متعلمو اللغة الثانية في غير موطن اللغة.

ويمثل افتقار الطفل العربي للكفاية التداولية في بيئة ثنائية اللغة تهيمن عليها اللغة الأجنبية أظهرَ وجوه القصور في تمثُّل نظام لغته الأم ووجوه توظيفه في التواصل الأمثل. ولعل أبرز مظاهر هذا القصور هو فهم التراكيب والأداءات اللغوية فهمًا حرفيًا ظاهرًا؛ ويظهر ذلك على نحو بيِّن من استجابة الطفل لمخاطبه بعبارات تنبئ عن أنه لم يفهم مغزى القول وإنما فهمه بمعناه الحرفي. ولعل الأمثلة التالية تبين عن المقصود:

التركيب	دلالته التداولية	استجابة الطفل
لسانُكِ طويل	كثيرة الكلام	لا. لساني قصير؛ انظر!
أنت «مِشْ» قليل!	ناضج أو عارف بالأشياء	لا والله؛ أنا كثير.. «شايِف» ما أطْوَلْني!
بُكْرة بْنِسْمَع الأخبار	قريبا سنرى نتائج هذا العمل	لأ. خليها الأسبوع الجاي.
مَيّت من التعب	مُتْعَبٌ جدًا	الميِّت ما بِحْكي ولا بِتْحرَّك.
مِشْ شايِف الفضا!	في غاية التعب أو الغضب	لأنّ الدنيا ليل وأصلاً ما في فضا.
خذي الباب وراكِ	أغْلقي الباب خَلْفَكِ	الباب ثقيل كتير.
مِثْل الأطْرَش في الزَّفّة	لا يَسْمَعُ ولا يَعْقِلُ	الأطرش ما بِسْمَع وليش يروح عَ الزَّفّة.

الخاتمة

اجتهدت الدراسة أن تعاين أثر اللغة الأجنبية في اللغة الأم نظريةً وتطبيقًا. ولعلَّ أهم ما انتهت إليه:

– أن أثر اللغة الأجنبية (الثانية) في اللغة الأم أمر واقع فعلاً؛ ولكنه يتفاوت سلبًا وإيجابًا؛ وإنما مرجع هذا التفاوت إلى تفاوت الدراسات العلمية في عيناتها المدروسة وتطبيقاتها ومتغيرات دراساتها.

– أن الوصول إلى رأي حاسم في السن المناسبة لتعليم اللغة الأجنبية لا يعتمد على استطلاعات الرأي؛ وإنما يقتضي دراساتٍ علميةً تنتهج منهج البحث اللساني النفسي والاجتماعي الدقيق وطويل المدى لتكون التوصيات دقيقة جدا ولاسيما حين يترتب عليها قرارات رسمية تنتسب إلى التخطيط اللغوي ورسم السياسات اللغوية في تعليم اللغات الأجنبية؛ فلا يمكن أن يقوم مستقبل الدول والأجيال القادمة على آراء غير المتخصصين وغير الباحثين.

– ثمة اتفاق ظاهر بين اللسانيين العصبيين على أن الطفل ثنائي اللغة يَفْضُلُ قرينه أحاديّ اللغة في نواحٍ متعددة؛ على أن تكون الثنائية متوازنةً لا جائرةً تُهَيْمِنُ فيها اللغة الأجنبية على اللغة الأم.

– لا خلاف في أن الثنائية الجائرة التي تهيمن فيها لغة أجنبية على اللغة الأم تؤثر تأثيراتٍ سلبية لغوية ونفسية واجتماعية؛ إذ ثبت لكثير من العلماء أن اللغة المُهَيْمِنةَ تَرْسم للطفل معالم عالمه ورؤيته للكون والحياة، ومن هنا يحدث الاختلال والانفصام بين ما يتمثله الطفل في دماغه مقترنا باللغة الأجنبية وما يعيشه واقعًا في مجتمعه.

- أن الثنائية التي تجور فيها الإنجليزية على العربية تؤثِّر تأثيراتٍ سلبيةً في اكتساب العربية وبناء كفاياتها بناءً سليمًا.

- أن الثنائية التي تجور فيها الإنجليزية على العربية، تَعَرُّضًا وتوظيفًا وتفاعُلاً، تُؤدِّي إلى عثراتٍ واضحةً في أداء الطفل العربي، وهي عثرات تقع في مستويات اللغة جميعها: أصواتها، وصرفها، ونحوها، ونظامها التركيبي، ورَسْمِها، وتداوليتها.

توصية:

لعل ما جاء في الخاتمة يشي بتوصية هذه الدراسة؛ أن يقوم مشروع بحثي عريض وطويل المدى لدراسة أثر اللغة الأجنبية في لغة الطفل العربيّ، ومن ثَمَّ في تفكيره وتفضيلاته واتجاهاته. وهذا المشروع المؤمَّل يكون نواة أساسية لاتخاذ قرارات مصيرية تتعلق بطبيعة الثنائية اللغوية المنشودة، وكيفية إنجازها؛ لنخرج من الواقع الحالي الماثل في ثنائية جائرةٍ ترقى أحيانًا إلى مرتبة الأحادية اللغوية؛ ولكن باللغة الأجنبية.

الهوامش والتعليقات:

(١) ظهر ذلك في برامج كثيرة وتحت مسميات متنوعة: برامج تعليم اللغة الأصلية، تعليم لغات المهاجرين الأم، تعليم اللغات المهددة بالانقراض، برامج الاستبقاء اللغوي، برامج الإصلاح اللغوي.........إلخ.

(٢) يستعمل نبيل علي هذا المصطلح كثيرًا ولاسيما في الحديث عن التعليم باللغات الأجنبية.

(٣) تفاصيل وافية عن وجهة النظر هذه والوجهات الأخرى في الكتاب الممتاز «السياسة اللغوية... خلفياتها ومقاصدها، لـ«جيمس طوليفسون»، ترجمة محمد خطابي، مؤسسة الغنيّ، ط١، الرباط، ٢٠٠٧. وانظر ايضًا كتاب وليد العناتي» العربية في اللسانيات التطبيقية، ص١٤٣-١٤٤.

(٤) الثنائية التي توازن بين اللغة الأم واللغة الأجنبية في التعليم والتعرُّض.

(5) Jim Cummins, Bilingual Children's Mother Tongue: Why is it important for education? SPROGFORUM NR. 19, 2001

(٦) هل نعلم اللغة الإنجليزية للأطفال قبل سن السادسة، اللقاء السنوي الثاني عشر للجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية: الطفولة المبكرة؛ خصائصها واحتياجاتها، ٤-٦/ ١٠/ ٢٠٠٤.

(٧) السن الأنسب للبدء بتدريس اللغات الأجنبية في التعليم الحكومي، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٧/ العددان ١-٢، ٢٠١١، ص: ٧٥٣-٨١١.

(8) Samira Lotfy Mahmoud , An Investigation of the Influence of Foreign Language Teaching on Mother Language Learning in 1st and in 3rd Grade Students from the Perception of Teachers in Nablus and Tulkarm Districts, M.A, An-Najah National University, 2011.

(٩) نظرًا للتقيد بحدود صفحات البحث فإنني سأقتصر هنا على بضع دراسات عملية، وسأشير إلى عدد آخر في ثنايا معالجة الجوانب التطبيقية.

(10) Ayşe Gürel, First language attrition of constraints on wh-scrambling: Does the second language have an effect? International Journal of Bilingualism,2015, Vol. 19(1) 75–91.

(11) Eva Van Assche, Wouter Duyck, Robert J. Hartsuiker, and Kevin Diependaele, Does Bilingualism Change Native-Language Reading? Cognate Effects in a Sentence Context, aps: A Journal of the Association of Psychological Science, Volume 20—Number 8, 2009.

(12) Margarita Kaushanskaya, Jeewon Yoo, Viorica Marian , The Effect of Second-Language Experience on Native-Language Processing, Vigo International Journal of Applied Linguistics, n-8/2011:55-77.

(١٣) فرضية ترى أن ثمة تفاعلًا معرفيًا بين اللغتين في الدماغ.

(١٤) قصدت الدراسة بالخبرة العناصر التالية: سن اكتساب اللغة الثانية، ومدى التعرض السابق للغة الثانية، ومدى التعرض الحالي للغة الثانية، والتقدير الذاتي لمستوى الكفاية اللغوية باللغة الثانية. انظر: ص٦٢.

(١٥) تفاصيل وافية في دراسة ريما الجرف: هل نعلم اللغة الإنجليزية للأطفال قبل سن السادسة، اللقاء السنوي الثاني عشر للجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية: الطفولة المبكرة؛ خصائصها واحتياجاتها، ٤-٦/ ١٠/ ٢٠٠٤.

(16) Key Terms in Second language Acquisition,p78 انظر:

(١٧) ثمة قسم مفصَّل لمناقشة أثر اللغة الاجنبية في اللغة الأم مدعومًا بآراء مؤيدين ومعارضين. ومن أبرز العلماء المؤيدين (كِسِكس وباب، وكَمِنْز.... وبشروط نفصلها لاحقًا.

(١٨) تفاصيل وافية في كتاب «اكتساب اللغة الثانية» لـ«سوزان غاس ولاري سلنكر»، ترجمة ماجد الحمد، ج١، ص١٠٧-١٧٢.

(١٩) وليد العناتي، اللسانيات التطبيقية وتعليم العربية لغير الناطقين بها، ص:١٠٧-١٢٢.

(20) Ulla Connor ,(1996),Contrastive Rhetoric: Cross-Cultural Aspects of Second Language Writing, Cambridge University Press.

(٢١) سوزان غاس ولاري سلنكر، مرجع سابق.

(٢٢) يؤَكِّدَ هذا الرأيَ الدراساتُ التي تضمنها هذا البحث؛ إذ انتهى كثير منها إلى أن تعرف المفردات والطلاقة القرائية لدى ثنائيي اللغة في لغتين متشابهتين رسمًا (الإنجليزية والإسبانية) أقوى وأظهر منه لدى ثنائيي اللغة بلغتين مختلفتين (الصينية والإنجليزية).

(٢٣) لعل النظر في الدراسات العربية في هذا المجال تكشف عن قصور كبير؛ فأكثر تلك الدراسات تقوم على استطلاع الرأي والاستبانات دون البحث التطبيقي الطولي، بل إن كثيرًا من المشتركين في هذه الاستطلاعات من الأمهات أو الآباء أو مدرسي اللغات، وكثير منهم ليس لديه أي خلفية علمية في حقل تعليم اللغات الأجنبية واكتساب اللغة الأم. انظر: الدراسات السابقة، وتعليقي عليها.

(24) L2 Influence on L1 in Late Bilingualism, Issues in Applied Linguistics, 11(2)/2000, P:175-205. http://escholarship.org/uc/item/7gs944m5/

(٢٥) Multicompetence والمصطلح لـ (Vivian Cooke).

(٢٦) وهو مصطلح قريب من مصطلح «اللغة البينية Interlanguage» في حقل تعلم اللغة الثانية.

(27) Ibid, 196-198.

(٢٨) ويؤيد ذلك أنها نقلت عن بعض اللسانيين وعيهم بهذا الأثر في لغتهم الأم عندما عاودوا الكتابة بها بعد زمن من الانقطاع. وأستذكر الآن موقفًا كان مثارًا للاستغراب يوم ذاك؛ فقد درَّستُ طالبة روسية في قسم اللغة العربية بجامعة البترا، وكانت الأولى في الجامعة وفاقت نظيراتها العربيات... وقد سافرت إلى روسيا بعد بضع سنوات من مكوثها في عمان، ولما عادت قالت لي: إن أمي تقول: إنك تخطئين في اللغة الروسية؛ كأنكِ ضيَّعْتِها في عمان! كان ذلك مثارًا للدهشة يومها؛ أما الآن فيبدو لي أمرًا معقولًا!!!

(٢٩) صرف كيسيكس جهده لإثبات وجهة نظره في عدد من الدراسات والبحوث، وتعدُّ هذه الدراسة إحداها:

The effect of the second language on the first language, Babilonya 2/08,www.Babilonya.ch:31-34.

ومن هذه الدراسات دراسته مع «باب»:

Foreign Language Learning Affecting Mother Tongue.

(٣٠) ينطبق هذا الأمر على كثير من برامج التعليم ثنائي اللغة؛ ففي كثير من المدارس الأردنية الخاصة تُدرَّس معظم المواد باللغة الإنجليزية إلا اللغة العربية والتربية الإسلامية والتربية الوطنية، مع وجود منهج نظير للتربية الإسلامية والتربية الوطنية باللغة الإنجليزية!

(٣١) إن حجم البحث يفرض علينا الاقتضاب وعدم عرض جميع الآراء، ولذلك مررنا على آرائه مرًّا سريعًا.

(٣٢) هذه الخلاصات العامة هي حصيلة نتائج الدراسات والأبحاث التي تضمنها البحث إضافة إلى مقالات وتقارير بحثية ومشروعات تعليمية في دول مختلفة من العالم: الولايات المتحدة، وبريطانيا، وكندا،وفرنسا، وتركيا، واليابان، وهونغ كونغ، وألمانيا، وإسبانيا، والنرويج...... إلخ. وكثير من هذه الخلاصات جاءت في ثنايا البحث.

(٣٣) سيقتصر البحث على جوانب محددة وأمثلة معدودة من وجوه التأثر؛ عَمَلًا بضوابط النشر والحيز المسموح به.

(٣٤) محيي الدين محسب، انفتاح النسق اللساني، ص:٩٣؛ بتصرف في الأمثلة.

(٣٥) نظرًا للاعتماد على العينات المكتوبة أكثر فإنه من الطبيعي أن تكون التأثيرات الصوتية قليلة؛ ولكننا نعتقد أن دراسة صوتية متكاملة ستفضي إلى تأثير في النظام المقطعي و نظام الوقف والتغنيم....إلخ.

(٣٦) تكرر هذا الخطأ في النطق والكتابة غَيْر مرة.

(٣٧) انظر تفاصيل وافية في أنواع التأثير المعجمي في بحث أنيتا بافلينكو المذكور سابقًا.

(٣٨) هذا الملمح يظهر في اللغة المنطوقة ويتوافق مع طبيعتها العفوية، أما في المكتوب فإن ثمةً وقتًا كافيًا للتفكير في كيفية التغلب على هذه المشكلة؛ بسؤال الآخرين أو البحث في المعجم الإلكتروني الشابكي...إلخ.

(39) SECOND LANGUAGE GENDER SYSTEM AFFECT FIRST LANGUAGE GENDER CLASSIFICATION, in: I. Kecskes and L. Albertazzi (eds.), Cognitive Aspects of Bilingualism, 271–299.
© 2007 Springer

(٤٠) الترجمة الحرفية تتضمن مجموعة من الأخطاء في الوقت نفسه؛ فقد تكون معجمية في انتقاء المفردات، وقد تكون نحوية وتركيبية، وقد تكون صرفية، وقد تكون تداولية عندما ينقل المتحدث الاستعمال في اللغة الأجنبية ظنًّا أن سياق الاستعمال في اللغتين واحد.

(٤١) هذا نص أنتجته طالبة جامعية (جامعة قطر) درست في مدارس ثنائية اللغة لا تولي العربية والتدريس بالعربية اهتمامًا كبيرًا.

(٤٢) هذا المثال وما يليه في هذه الفقرة من العامية الأردنية- الفلسطينية المَدَنيَّة.

المصادر والمراجع

أولا: المراجع العربية:

- جيمس طوليفسون، السياسة اللغوية... خلفياتها ومقاصدها، ترجمة محمد خطابي، مؤسسة الغنيّ، ط١، الرباط، ٢٠٠٧.
- خالد الدامغ، السن الأنسب للبدء بتدريس اللغات الأجنبية في التعليم الحكومي، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٧/ العددان ١-٢، ٢٠١١، ص: ٧٥٣-٨١١.
- ريما الجرف، هل نعلم اللغة الإنجليزية للأطفال قبل سن السادسة؟ اللقاء السنوي الثاني عشر للجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية: الطفولة المبكرة؛ خصائصها واحتياجاتها، ٤-٦/ ١٠/ ٢٠٠٤.
- سوزان غاس ولاري سلنكر،اكتساب اللغة الثانية، ترجمة ماجد الحمد، مجلس النشر العلمي، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٩.
- محيي الدين محسب، انفتاح النسق اللساني، دار فرحة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٣.
- وليد العناتي، اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، دار الجوهرة، ط١، عمان، ٢٠٠٣.
- وليد العناتي، العربية في اللسانيات التطبيقية، دار كنوز المعرفة، ط١، عمّان، ٢٠١٢.
- وليد العناتي، مجلات الأطفال وأثرها في تنمية لغة الطفل العربي، سلسلة مباحث لغوية، كتاب « لغة الطفل العربي١»، مركز الملك عبد الله ابن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ٢٠١٥.

ثانيا: المراجع الإنجليزية:

- Aneta , Pavlenko , L2 Influence on L1 in Late Bilingualism, Issues in Applied Linguistics, 11(2)/2000, P:175-205. http://escholarship.org/uc/item/7gs944m5/
- Ayşe Gürel, First language attrition of constraints on wh-scrambling: Does the second language have an effect? International Journal of Bilingualism,2015, Vol. 19(1) 75–91.

- Bill VanPatten & Alessandro G.Benati, (2010), Key Terms in Second language Acquisition,Contiuum International Publishing Group.
- Bruce Gaarder ,Teaching the Bilingual Child: Research, Development, and Policy, The Modern Language Journal, Vol. 49, No. 3 (Mar., 1965), pp. 165-175.
- Cook, Vivian, (2003) ed, Effects of the Second Language on the First Language, Cromwell Press ltd, Britain.
- ELAINE NG, Bilingualism, biliteracy and cognitive effects: A review paper,University of Sydney Papers in TESOL, 10, 93-128. ©2015 ISSN: 1834-4712 (Online)
- Eva Van Assche, Wouter Duyck, Robert J. Hartsuiker, and Kevin Diependaele, Does Bilingualism Change Native-Language Reading? Cognate Effects in a Sentence Context, aps: A Journal of the Association of Psychological Science, Volume 20—Number 8, 2009.
- Gregory W Yelland, The Meta linguistic Benefits of Limited Contact with a Second Language, Applied Psycholinguistics 14 (1993), 423-444 ,Printed in the United States of America
- Helen Reid, Language, Power and Pedagogy:Bilingual Children in the Crossfire (Jim Cummins), The CATESOL Journal 13.1 • 2001 • 201
- Jan Vanhove, The Critical Period Hypothesis in Second Language Acquisition: A Statistical Critique and a Reanalysis, PLOS ONE www.plosone.org |July 2013 | Volume 8 | Issue 7 | e69172.
- Jim Cummins, Bilingual Children's Mother Tongue: Why is it important for education?, SPROGFORUM NR. 19, 2001.
- Jim Cummins ,Teaching for Cross-Language Transfer in Dual Language Education: Possibilities and Pitfalls, TESOL Symposium on Dual Language Education: Teaching and Learning Two=

=Languages in the EFL Setting September 23, 2005. Boğaziçi University Istanbul, Turkey.

- Katherine Ruth Gordon Millett, The Cognitive Effects of Bilingualism: Does Knowing Two Languages Impact Children's Ability to Reason about Mental States?, The University OF Minnesota, April 2010.
- Kecskes, Istvan , The effect of the second language on the first language, Babilonya 2/08,www. Babilonya.ch:31-34.
- Kecskes, Istvan, & Papp.T,(2000) Foreign Language and Mother Tongue , Erlbaum.
- Mark Leikin, The effect of bilingualism on creativity: Developmental and educational perspectives, International Journal of Bilingualism17(4) 431–447© The Author(s) 2012.
- Margarita Kaushanskaya, Jeewon Yoo, Viorica Marian , The Effect of Second-Language Experience on Native-Language Processing, Vigo International Journal of Applied Linguistics, n-8/2011:55-77.
- Ojima.S, Nagai.A. Taya.F. & Otsu,V, Effects of Foreign Language-learning on the Mother Tongue, CARLS, VO4(2010), p259-264.
- Rafael Art. Javier, (2007)The Bilingual Mind Thinking, Feeling and Speaking in Two Languages, Springer Science+Business Media, LLC.
- Randa Adel Suliman Gamal, Code-Switching Patterns IN Infant BIilingualism: A Case Studyf An Egyption Arabic-English-Speaking Four-Year-Old Bilingual Child, The University OF Arizona, 2007.
- Samira Lotfy Mahmoud ,An Investigation of the Influence of Foreign Language Teaching on Mother Language Learning in 1st and in 3rd Grade Students from the Perception of Teachers in Nablus and Tulkarm Districts, M.A, An-Najah National University, 2011.

- Tracy Hirata-Edds, Influence of Second Language Cherokee Immersion on Children's Development of Past Tense in Their First Language, English, Language Learning 61:3, September 2011, pp. 700–733.
- Trevor A. Harley, (2014), The Psychology Of Language: From Data To Theory, Fourth edition , Psychology Press, New York.
Ulla Connor ,(1996),Contrastive Rhetoric: Cross-Cultural Aspects of Second Language Writing, Cambridge University Press.
- Zeliha Yazıcı, Binnur Genc¸ I lter and Philip Glover, How bilingual is bilingual? Mother-tongue proficiency and learning through a second language, International Journal of Early Years Education Vol. 18, No. 3, September 2010, 259_268.

علاقة المطالع بالمقاصد في القصيدة المادحة عند ابن زيدون

«دراسة أدبية»

د. فوزية عبد الله العقيلي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم اللغة العربية
جامعة الملك عبد العزيز

ورد البحث في ٧/ ١/ ١٤٤٠هـ وقُبل للنشر في ١٤/ ٦/ ١٤٤٠هـ

علاقة المطالع بالمقاصد في القصيدة المادحة عند ابن زيدون

«دراسة أدبية»

د. فوزية عبد الله العقيلي

الملخص:

اهتم الدارسون بالإشارة إلى علاقة المطالع بالمقاصد وأثرها في الشعر العربي منذ القدم، فقد وجد النقاد للمطالع علاقةً كبيرة بالمقاصد التي تأتي في هذا الشعر ملتحفةً بغلالة رقيقة من الغزل والخمر، والطلل والرحلة، وصور الصيد والقنص، فيلوِّح بها الشاعر ويشير إلى مقصده، وما يرمي إليه. ولم يكن هذا الابتداء ليقتصر على البيت أو البيتين، بل قد يتسع فيشمل أغلب القصيدة مما اختاره الشاعر في مقدمتها للتوطئة لغرضه، ولذا كان اختياري دراسة هذا الملمح في شعر أبي الوليد ابن زيدون (٣٩٤-٤٦٣هـ) الذي يُعَدُّ من أشهر الشعراء الذين أثروا الحياة الأدبية في أزهى عصورها في الأندلس، وكانت له مكانته السياسية والاجتماعية في بلاطات الخلفاء والملوك والأمراء، ويتقسَّم ديوانه في معظمه بين الغزل والمديح والاستعطاف، وقد كانت القصيدة المادحة عنده تبدأ -في معظمها- بتوطئةٍ للمديح، وأكثرها في النسيب، وهذه المقدمات تحمل إشاراتٍ ضمنية ترتبط بموضوع القصيدة، وغرض الشاعر من المدح، وشملت الدراسة نماذج مُختارة من شعره في المدح في مراحل مختلفة من حياته السياسية في قرطبة وإشبيلية.

الكلمات المفتاحية: علاقة- المطالع- المقاصد- القصيدة المادحة- ابن زيدون

The relationship between the openings and purposes of ibn Zaidoun's praise poem

Abstract:

Since ancient times, scholars were interested in indicating the relationship between the openings and purposes and their impact in the Arabic poetry, as the critics found that openings have much to do with purposes, which appears in this type of Arabic poetry wrapped in a thin veil of flirtation, liquor, remains, trip, hunting and chasing pictures. The poet waves these elements indicating his purpose and intention. This opening was not limited to a verse or two, rather it might widen to include most of the poem, which the poet has chosen for the opening of his/ her poem in order to provide an introduction to his/ her purposes. My choice was to study this feature in the Abu Alwaleed Ibn Zaidoun's poetry (394H - 463H), being considered as one of the most famous poets who enriched the literary life in its brighter Andalus times, when poetry had its political and social position in the royal courts of caliphs, kings and princes, with its book mostly divided into flirtation, praise and propitiation.

Ibn Zaidoun's praising poem mostly begins with praise as an opening (mostly with Naseeb), such introduction bear implied signals linked to poem's subject matter and the poetry's praise purpose. The study contained selected models of praise poetry in different stages of ibn Zaidoun's political life in Cordoba and Seville.

key words: The Relationship, the Beginnings, the Purposes, Praiseworthy Poem, Ibn Zaidoun.

المقدمة:

اهتم الدارسون بالإشارة إلى علاقة المطالع بالمقاصد وأثرها في الشعر العربي منذ القدم، فقد وجد النقاد أن لهذه المطالع علاقة كبيرة بالمقاصد التي تأتي في فواتح القصائد في الشعر ملتحفةً بغلالة رقيقة من الغزل والخمر، والطلل والرحلة، وصور الصيد والقنص، مما قد يشيربه الشاعر إلى غايته، ولذا.. كان حسنُ الابتداء أو المطلع عند العرب في الشعر، مما شُغِل بتجويده الشعراءُ، واهتمّ بفهمه النُّقاد فهو يحملُ في القصيدة الإشارةَ المُعينة على فهم مقصد الشاعر وغرضه من النص، ومن أقدمهم الجاحظ الذي يروي عن ابن المقفع قوله «وليكن في صدر كلامك دليل حاجتك»[١] وقد علَّق الجاحظ على هذا الكلام بقوله «إنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت»[٢] وفيه بيانٌ وتفسير مهمٌّ لقول المقفع السابق، في احتواء المطالع على الإشارة للغرض والمقصد، وكذلك تحدَّث أبو هلال العسكري عن جودة الابتداء بكلام يتضح فيه أكثر علاقة المطلع بالمقصد «ليس يُحمدُ من القائل أن يُعمي معرفة مغزاه على السامع لكلامه في أوّل ابتدائه، حتى ينتهي إلى آخره، بل الأحسن أن يكون في صدر كلامه دليلٌ على حاجته، ومُبيِّنٌ لمغزاه ومقصده»[٣] ومن هنا نستطيع أن نفهم سبب عناية الشعراء بالمقدّمات وتجويدها، مما قد يستغرق في الشعر معظم أبيات القصيدة، لأن من جودة المطلع أن يكون متضمناً إشارةً إلى المغزى، فناسب الشعراء في معظم قصائدهم بين المطلع والمقصد، وذلك بالتلويح في المطالع بشيءٍ من الغرض في الصور الشعرية، ولذلك يقول ابن رشيق «الشعر قفلٌ أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجوّد ابتداءه فإنه أول ما يقرع السمع وبه يُستدل على ما عنده من أول وهلة»[٤] وقوله «الشعر قفل أوله مفتاحه» له دلالته في أن «المطالع مفاتحُ

لمغاليق معاني الشعر»[٥] ولم يكن هذا الابتداء ليقتصر على البيت أو البيتين، بل قد يَّتسع فيشمل أغلب القصيدة مما اختاره الشاعر في مقدمتها للتوطئة لغرضه، وطرائق الشعراء في ذلك مختلفة، وأساليبهم متنوعة، ولذا كانت هذه الإشارات التي يضمِّنها الشاعر مطالع قصائده من شروط حسن هذا الشعر وجودته، وقد كثرت هذه الإشارات في القصيدة المادحة عند ابن زيدون، موضوع هذه الدراسة.

الدراسات السابقة:

كثر تناول قضية علاقة المطالع بالمقاصد في كثيرٍ من كتب تفسير القرآن، وفي نقد الشعر العربي، وفصَّل القدماءالكلام فيها كثيراً، ممَّن أشرنا لبعضهم في المقدمة، وكانت هذه القضية مجالاً لدراسات عديدة حديثة، ومن هذه الدراسات التي فصّلت الحديث لعلاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم:

دراسة بعنوان «علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم» دراسة بلاغية، للدكتور إبراهيم الهدهد، كلية اللغة العربية، بنين، القاهرة، ١٩٩٣م، تناول فيها علاقة المطالع بالمقاد في سورٍ كثيرة من القرآن الكريم مستعيناً بآراء المفسرين.

كما ضمّن قضية المطالع بالمقاصد كتابٌ بعنوان «التناسب في تفسير الإمام الرازي، دراسة في أسرار الاقتران» دراسة بلاغية، للدكتورة منال المسعودي، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠١٠م، وقد أفردَت فيه فصلاً بعنوان (التناسب بين الفواتيح والخواتيم) ص ٨١: ١٧٤، وقسمته إلى مباحث:

المبحث الأول: في (التناسب بين الفواتيح والمقاصد)

والمبحث الثاني: في (التناسب بين الخواتيم والمقاصد)

والمبحث الثالث: في (التناسب بين الفواتيح والخواتيم)

عرَضت فيه لأهمية هذه القضية في تفسير القرآن الكريم، وفي نقد الشعر، وكيف عني الدرس البياني بالمطالع والمقاصد، وشيوع مصطلح الفواتيح والخواتيم في الدراسات القرآنية، وفي نقد الشعر والأدب.

أمَّا الدراسات التي عنيت بقضية المطالع والمقاصد في الشعر، فمن أهمها:

- كتاب «الشعر الجاهلي: دراسة في منازع الشعراء» للدكتور محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٧م، عرض فيه بالتفصيل للمطالع والمقاصد في كثيرٍ من الشعر الجاهلي، وتحوي مقدمته ص ٥: ٢٤، بياناً لأهمية مقدمات القصائد ومنازع الشعراء فيها، ذكر فيها أن الشاعر كثيراً ما يضمِّن غرضه المقدمات و«أنَّ حديث الصاحبة والديار والرحلة والناقة، كل ذلك بمثابة المنوال الذي ينسج الشاعر عليه غرضه ببراعة ويقظة، ولطف حيلة» ص١٢،

وينقسم الكتاب إلى عدة مباحث، تناولت تحليل وإظهار أوجه البيان في قصائد متعددة لشعراء جاهليين:

المبحث الأول: (من شعر امريء القيس) ص٢٥: ٢٠٤

المبحث الثاني: (من شعر أوس) ص٢٠٧: ٢١٥.

المبحث الثالث: (من شعر زهير) ص٣١٩: ٤٢٤.

المبحث الرابع: (من شعر النابغة) ص ٤٢٧: ٤٨٦.

المبحث الرابع: (القوس والشهدة والدُّرَّة)٤١: ٦٥٠.

والمبحث الأخير تعرض فيه لوصف القوس والشهدة والدرة لدى شعراء جاهليين مختلفين وفي قصائد متعددة.

وهي دراسة مهمة في هذا الباب، لأنها فتَحت المجال أمام دراساتٍ أخرى متعلقة بموضوع المطالع والمقاصد، ومنها:

– كتاب بعنوان «علاقة المطالع بالمقاصد ومواقعها في شعر الشعراء الأربعة الكبار» للدكتورة نداء الحارثي، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠١٤م، قسّمته الباحثة إلى بابين:

الباب الأول: (علاقة المطالع بالمقاصد في التراث البلاغي والنقدي) ص ٥١: ١٥٦ وقسمته إلى فصول:

الفصل الأول: (علاقة المطالع بالمقاصد إلى نهاية القرن الخامس)

الفصل الثاني: (علاقة المطالع بالمقاصد لدى المتأخرين)

ذكرت فيهما آراء النقاد الذين نبهوا على أهمية الابتداءات في الدلالة على الغرض.

الباب الثاني: (علاقة المطالع بالمقاصد، الجانب التطبيقي) ص١٦١: ٥٠٣ وقسمته إلى فصول:

الفصل الأول: (علاقة المطالع بالمقاصد في شعر امريء القيس)

الفصل الثاني: (علاقة المطالع بالمقاصد في شعر النابغة الذبياني)

الفصل الثالث: (علاقة المطالع بالمقاصد في شعر زهير)

الفصل الرابع: (علاقة المطالع بالمقاصد في شعر الأعشى).

– ومن الدراسات المتعلقة بموضوع المطالع والمقاصد، دراسة بعنوان «المطالع والمقاصد في الشعر الجاهلي» للدكتور يوسف الدَّعدي، مكتبة وهبة، القاهرة،

٢٠١٨م، ذكر الباحث في التمهيد علاقة المطالع بالمقاصد في المدوّنة البلاغية والنقدية عند المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين، ص ١٣: ٥١.

وبيَّن في المدخل مفهوم العلاقة بين المطالع والمقاصد في النص الشعري: ص٥: ٦٢، وقسم الكتاب إلى مباحث:

المبحث الأول: (مطالع النابغة الجعدي ومقاصده).

المبحث الثاني: (مطالع أبي ذؤيب الهذلي ومقاصده).

المبحث الثالث: (مطالع الشمَّاخ ومقاصده).

المبحث الرابع: (مطالع لبيد ومقاصده).

لقد كانت هذه الدراسات الحديثة امتداداً لدراسات قديمة، أفاض فيها الباحثون الحديث عن أهمية هذا الملمح في الكتاب العزيز وفي الشعر العربي، وليس لأحدٍ أن يفصّل في المطالع والمقاصد في القصيدة إلآ عندما يُظهرلنا الشعرُ هذا الترابط بين غرض الشاعر وما ابتدأ به مما يُسمَّى تجوُّزاً مقدمة تأتي فيها مقاصد الشاعر مُتقنّعةً بصورٍ مختلفة من الغزل أو الخمر، أو الطلل والرحلة، وغيرها، وقد أفادت هذه الدراسات السابقة في الحديث عن أهمية هذا الموضوع عند الدارسين من المتقدمين، من خلال الجانب التنظيري، كما كانت هذه الدراسات بلاغية، تناولت في التطبيق الشعر الجاهلي، وهو ما اختلف به هذا البحث عن غيره من الدراسات السابقة، من حيث تناول الموضوع من الجانب التحليلي وليس التنظيري، والأدبي وليس البلاغي، وفي الشعر الأندلسي وليس الجاهلي، لأنّ الشعر العربي عندما ارتحل إلى الأندلس حدثت فيه تغييراتٍ كثيرة ممَّا يُظنُّ معها أنَّه نُسي هذا الباب الجليل الذي يعدُّ من الفطرة في البيان العربي، ومن هنا؛كان اختياري دراسة هذا الملمح في الشعر الذي يُبين به الشعراء عن مقاصدهم وغاياتهم بالإشارة والتورية والتلويح في الشعر الأندلسي.

موضوع البحث:

اهتمت هذه الدراسة بتحليل مطالع قصائد مدح كثرت فيها الإشارة إلى المقاصد، عند شاعر أندلسي كبير، وهو أبو الوليد ابن زيدون (٣٩٤-٤٦٣هـ) الذي يُعَدُّ من أشهر الشعراء الذين أثروا الحياة الأدبية في أزهى عصورها في الأندلس، وكانت له مكانته السياسية والاجتماعية في بلاطات الخلفاء والملوك والأمراء، فقد كان له دوره البارز في قيام حركة الجهاورة في قرطبة، ثم دورٌ بارزٌ في بلاط بني عبَّاد بإشبيلية، ويتقسَّم ديوانه في معظمه بين الغزل والمديح والاستعطاف، وقد كانت القصيدة المادحة عنده تبدأ في معظمها بتوطئةٍ للمديح وأكثرها في النسيب، وهذه المقدمات تحمل إشاراتٍ ضمنية ترتبط بموضوع القصيدة، وغرض الشاعر من المدح، فقد خاض ابن زيدون معترك الحياة السياسية في وزارته لأقوى ملوك الطوائف في ذلك الوقت وكثيراً ما جاءت مدائحه مشوبة بالاستعطاف وذلك في خلال سجنه أو الطموح السياسي خارج سجنه وقد كان لمقدمات المدائح عنده علاقة قوية بالمقصد، فهي ترتبط عند كثيرٍ من الشعراء بما وراء القصيد من غاياتٍ وحاجات، وهذا من جمال بيان العرب،

والدراسة أدبية تهتمُّ بتحليل القصيدة، وليست دراسة بلاغية، أو تنظيرية لموضوع علاقة المطالع بالمقاصد، فهناك دراسات اهتمت بذلك بشكل مُفَصّل،

وإنما يسعى البحث إلى فهم الإشارات والتلويحات في المقدمة وتأويلها، مما قد يتضمن غرض الشاعر ومقصده، وسيكون مناط الدراسة بإذن الله تعالى نماذج مُختارة من شعرابن زيدون في المدح في مراحل مختلفة من حياته السياسية في قرطبة وإشبيلية، وقد عرضنا لعدة قصائد للشاعر في مراحل مختلفة من حياته السياسية، عند أبي الحزم بن جهور، وابنه أبي الوليد، ثم المعتضد، ولم نستعرض

شيئاً من مدائحه في المعتمد لأنها خلت من المقدمات وكانت المطالع التي قمنا بدراستها تأتي في قصائد تمثّل أهم المراحل في حياة الشاعر السياسية.

- في بلاط أبي الحزم بن جهور:

ومن قصائد المديح، هذه القصيدة التي نظمها ابن زيدون في السجن في قرطبة، في ولاية أبي الحزم بن جهور الذي كان من وزراء الدولة العامرية، ثم استبد بحكم قرطبة بحسن تدبيره، ودهائه وحسن سياسته(٦)، وقد كان لابن زيدون دورٌ بارز كما هو معروف في انتقال السلطة لبني جهور(٧) ولذا فقد حظيَ بالوزارة في عهد أبي الحزم وعلى اختلاف الأسباب التي دعت إلى سجنه، فإن النتيجة أنه قد سُجن، ومن سجنه كتب هذه القصيدة في المديح والعتاب، امتدت إلى خمسة وسبعين بيتاً، استغرق المطلع منها اثنين وعشرين بيتاً، تقسَّم بين الغزل، وذكر الشيب قبل المشيب، والفخر بالنفس، رغم الحوادث والمصائب وشماتة الشامتين، يقول في أولها(٨):

ما جال بعدكِ لحظي في سنا القمرِ إلاَّ ذكرتُكِ ذكرَ العينِ بالأثرِ

فبدأها بكلمة (جال) المنفية، و(الجولان: التطواف، جوّل في البلاد إذا طاف، وجال: إذا ذهب وجاء، ومنه الجولانُ في الحرب، والجائل: الزائلُ عن مكانه، وانجال: تنحَّى وذهب/ اللسان) وقد جاء بهذا اللفظ الجولان، لأنه يطوّف بنظره إليه، وعليه، وهو قمرٌ بعيدٌ، لا يناله إلاّ بالتطلع إليه، ولذا.. فإنه يُذكّرهُ بوجه من يحب، لأن فيه من سنا طلعتة، إضافةً لبعده عنه، وجاء بلفظ الجولان لأن فيه معنى الزّوال، والقصيدة في معظمها تدور حول هذا المعنى، وهو تحوّل الحال بابن زيدون من الوزارة والرياسةِ إلى السجن، ومقامُ القصيدة مقامُ مديحٍ وعتابٍ، ولا يحتمل الموقف هنا أن يكون الشاعرُ فارغاً لشكوى

الحبّ وآلامه وتباريحه، وإن كان بعض النقَّاد قد جعل من كلَّ غزل ابن زيدون في ولاّدة! وقد كان لها أثرٌ كبير في غزله، ولكن هذا لا يعني أن يكون كل شعره في الغزل متوجهاً إليها، على اختلاف أحواله، ومشاغله، وطبيعة شخصيته وحياته؛ وفي رأينا أنه لا يمكن القول بذلك، وأن تصبح جميع الإشارات الغزلية حتى في مقدمات قصائد المديح في ولادة، لأن ذلك لا يتفق مع شخصية ابن زيدون الطموحة، المحبة للسلطة، والـمُغرمة أيضاً بمجالس اللهو والغناء والشراب، فقد يظل من هذا الحب الذكرى، ولكنّ طبيعة الحياة السياسية التي انغمس فيها الشاعر، لا تجعل منه رجلاً خالياً إلا من الحب ومشاعره! نعم، لقد أثَّر فيه حب ولاَّدة، وظهر ذلك في قصائده الغزلية، ولكن الأمر لم ينسحب على جميع أمور حياته المليئة بالأحداث والتقلبات «فذلك الحب إنما استثار قصائدَ معدودة، ولم يكن ابن زيدون بالذي يجعل حياته وقفاً على علاقة حبٍّ واحد»(٩) والمقام هنا مقامُ شكوى مرّةٍ عظيمة، وإذا كان قد ذكر حبًّا وشوقاً فقد يكون من قبيل تداعي الذكريات، وتوظيفٍ لصور الحب في وصفِ ما آل إليه حاله مع ابن جهور، من تغيرٍ وتقلُّب، ولذا فقد تضمَّن الغزلُ إشاراتٍ موحية قد يكون أراد بها تحول العلاقة بينه والأمير، لأن ما بينهما أصبح ذكرى، ولأن الودّ الذي حظي به قبل السجن، أصبحَ أثراً بعد عين، فلم يعد يراه، وإنما يتطلع إليه تطلعه إلى القمر، ويتذكر ما كان مما سبق، كما يُذكّره القمرُ بوجهٍ عرفه وأحبه (ذكر العين بالأثر)، ولذا فإنه بعد الجولان في ما مضى بالذكرى، يكمل الشاعر المعنى بأنه:

وما استطلتُ ذماءَ الليل من أسفٍ   إلا على ليـلةٍ سرَّت مع القِصَرِ

والذماء (بقية الروح/ اللسان)، ونحن نعلم بأن مقامه في الوزارة لأبي حزم لم يكن طويلا حتّى أُلقي به في السجن، وقد كانت الفترةُ التي قضاها في السلطة

(كليلةٍ سرَّت مع القصر)، إي أنها مرّت مسرعة، ولذا استخدم أساليب القصر في البيتين السابقين، فهو يؤكد على تغير العلاقة من الود إلى الجفاء، حتى لم يبقَ منها إلا ما يحاول أن يتذكره أو يتطلع إليه، وانها أيضاً علاقةٌ قصيرة لم ينل فيها ما أراده من الحظوة ونحن نعلم طموح ابن زيدون السياسي، ورغبته القوية في الوصول إلى أعلى المناصب ولذا؛ حصر الماضي في ذكرى وأثر، فقصر سنا القمر على الذكرى، وحصر السرور في وقت قصير، فقصره على ليلة، فهو يقرر من خلال هذا الابتداء تغير الأحوال وتبدُّلها، ثم تتداعى بعد ذلك الذكريات؛ ذكرياتُ الحظوة (الجولان في سنا القمر) وذكريات السرور (ليلة سرَّت)، وهو يفصّل ويمطل الصورة التي في البيت الثاني، فقد سرَّت الليلة على قصرها لأنه كان:

في نشوةٍ من سنات الوصل موهمةٍ ألاَّ مسافةَ بيـنَ الوهنِ والسَّحرِ

والوهن (منتصف الليل/ اللسان) فالشاعر يؤكد على قصر الزمن، لأن النشوة التي كان فيها قريباً ممن يحب، أو ما يحب (السلطة) مضت، فكأن لم تكن (لا مسافة بين الوهن والسحر) وجاء بكلمة (موهمة) والوهم (من خطرات القلب، وتوهم الشيء: تخيله وتمثله/ اللسان) وقد يكون أراد بذلك أن ما اعتقده من قربٍ لابن جهور في وزارته له لصداقته مع ابنه أمرٌ توهَّم دوامه، ثمَّ يقول بعد ذلك:

ناهيكَ من سهرٍ برْحٍ تـألَّفَهُ شوقٌ إلى ما مضى من ذلك السَّمرِ

ناهيك (يكفيك من ذلك، وحسبك من ذلك/ اللسان) فهذه الليلة القصيرة، وهي عهد الوصال، الموهمة بانعدام الوقت ما بين منتصف الليل وآخره، لما فيها من المسرة، وما فيها من السَّمر، أضناه الشوقُ لمثلها، ونحن نعلم أن الشاعر قد مضى في سجنه خمسمائة يوم، وقد أشار إلى ذلك بقوله في أخريات سجنه:

أفصبرٌ مئين خمساً من الأيا م ناهيك من عذابٍ أليم[١٠]

وهي مدةٌ طويلة، وقد تكون قصيدته (ما جال بعدك) في أوائل سجنه، ولكن أيّاً كانت المدة التي قضاها أسيراً، فإنها مدةٌ صعبةٌ على شاعرٍ من علية القومِ، ووزيرٍ كان ذا حظوةٍ وجاه، ولذا؛ فقد برّحه الشوق إلى ما انقضى من تلك الأيام، وزاد من برحه قسوة الحاضر، ومرارة السجن:

فليت ذاك السوادَ الجونَ متصلٌ لو استعارَ سوادَ القلبِ والبصرِ

فهو يتمنى أن يتصل سواد الليل مستمداً ذلك السواد من القلب والبصر، وقال ليت في تمنٍّ لما مضى من عهدٍ كان قبل أن يسجن، وتستحيل ليالي الوصال وتنقضي، وهو في هذا البيت لم يعقد المقارنة، بين السواد والصباح كما في النونية، عندما ذكر استحالة الصباح ليلاً بالفراق، والليل صباحاً بالوصال:

حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً لياليِنا

وإنما اكتفى بذكر السواد، وألحَّ في وصف سواده بأنه جون (وهو الأسود اليحمومي، من الأضداد، يدل على الأبيض والأسود/ اللسان) ولكنَّه عندما قرنه بلفظ السواد، دلَّ على إرادته هذا اللون، وقد يكون جاء بهذا اللفظ لدلالته على اللونين، فجمع فيه بين إشباع الوصف اللوني، والإشارة إلى دلالة الليل المشرقة في نفسه (البياض) لاقترانه بزمن الوصال، وقد كرر كلمة السواد، وألحَّ في سواده بأن وصفه بالجون، وذكر سواد القلب (حبَّته/ اللسان) وسواد البصر (الحدقة السوداء/ اللسان) وقد كان يمكن أن يتمنى استمرار سواد الليل، وأخذه من سواد الشعر -شعر المحبوبة- أو غير ذلك! ولكنه جاء بسواد القلب والبصر، وهو نقيض سنا القمر الذي يتطلع إليه، وقد يكون في ذلك تعريضٌ بابن حزم الذي رمى به في السجن، ولم يلتفت إلى استعطافه، ولم يستمع لشكواه، فيكون في ذلك تلميحٌ وإشارةٌ إلى أنه اسودَّ قلبُه فلم يستمع إليه، واسودَّ بصره فلم ينظر

إليه، ولذا قال بعد ذلك:

أمَّا الضَّنى فجنـــتهُ لحظةٌ عننٌ   كأنَّها والرَّدى جـاءَا على قدرِ

(الضنى: السقم والمرض، عننٌ: معترضة/ اللسان) فابن زيدون بعد أن ذكر تقضّي ليالي الوصل، وانقضاء زمن الأنس والسمر، ذكر هنا أن هذا الألم وهذه المعاناة جاءت بسبب لحظةٍ معترضةٍ، هذه اللحظة المعترضة قد تعني الإشارة إلى قرار الزَّج به في السجن الذي كان قدراً محتوماً نزل به فأرداه، فتحول الأمر به من وزيرٍ إلى سجين، وهو الزوال والتحول الذي ناسب قوله في أول القصيدة (ما جال... إلا...) حتى أصبح ما كان ذكرى، أو أثراً بعد عين، ثم يقول:

فهمتُ معنى الهوى من وحي طرفك بي   إنَّ الحِـــوارَ لمفهـومٌ من الحـــورِ

(الوحي: الإشارة والكلام الخفي، الحَور: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والحور: التحيُّر والنقصان بعد الزيادة، والحَور: أن يشتدَّ بياض العين وسواد سوادها، وتستدير حدقتها، والحِوار: المحاورة ومراجعة المنطق والكلام في المخاطبة/ اللسان) فالشاعر بعد أن ذكر تحول الحال، وجولان النظر في القمر، يتطلع هنا إلى عودة الود والهوى، وقد يكون في ذلك إشارةٌ إلى ما كان من صلته بالأمير، التي جعلته يفهم منه وإن لم يصرّح بأنه يختصه بودّه (فهمت الهوى من وحي طرفك) وهو بسبب ذلك الود يتطلع لأن يتراجع الأمير عن قرار سجنه لأن (الحوار لمفهومٌ من الحور) والحوار المراجعة؛ وقد يكون أراد بذلك الأمل في أن يتحول سخط الأمير إلى رضا، ولذا يأتي في البيت الثامن بذكر الصدر والقلائد، وفيها دلالة الأمل وتلألئه، كما تطلَّع في بداية القصيدة إلى سنا القمر:

«والصدرُ مُذ وَرَدَتْ رِفْهَاً نواحيَـهُ   تومُ القلائدِ لم تجْنَـحْ إلى صَدرِ»

(الرفه: أن ترد الإبل متى شاءت/ توم القلائد: العقود المزدوجة/ لم تجنح: لم تمل/ الصدر: الرجوع عن الماء بعد الري/ اللسان) والمعنى «لقد تعلقت هذه القلائد بصدرك الجميل فلم تشأ مبارحته لأنها لم تجد أجمل منه موضعاً، ولا أفتن موقعاً»(١١) وهو هنا يعودُ بالذكرى إلى ما مضى، وهي طريقة عند الشعراء في الإبانة عن خواطرهم وعند ابن زيدون خاصة في القفزة من الحاضر إلى الماضي والعكس، وقد بدأ تداعي الذكريات بقوله (أمَّا) المؤكدة التفصيلية (أمَّا الضنى فجنته لحْظةٌ عنن..) فذكر الصدرَ المزيَّن بالعقود التي لا تودُّ أن تتركه، لدلالته على الأمل الذي لا يبرح قلب الشاعر وصدرَه في عفو الأمير، وذكرَ الصدر لأنه ذكر قبله سواد القلب سخطه فجاء بمقابلٍ له وهو تلألأ العقود الرضا الذي يطلبه الشاعر فلا يبرح الصدرَ الأملُ فيه، و(القلائد: ما جعل في العنق، ولا يُقلّد من الخيل إلا سابق كريم، ومقلد الرجل موضع نجاد السيف، وقلده الأمر: ألزمه إياه، احتمله/ اللسان) وقد يكون اختياره لفظ القلائد، لما في معناها من الإشارة إلى ما تقلده الشاعر من أمر الوزارة، والإشارة أيضاً إلى أنه منذ تولى الوزارة لبني جهور (لم يجنح إلى صدر) أي لم يوالِ غيرهم، ولعله يرمي بذلك إلى براءته من التهمة المنسوبة إليه من التآمر على الجهوريين، وهو ما قيل إنه سبب سجنه(١٢) ولذا وجدناه يمطل الصورة:

حسنٌ أفانين لم تستوفِ أعيُنَنا   غاياتِه بأفانينٍ من النَّظرِ

فهذه الغادة المتقلدة بالقلائد، أو هذا الشاعر الذي تقلّد الوزارة، ازداد ولاءً، كما ازدادت المحبوبة حسناً بالنظر إليها، وهو ما يتلاءم مع قوله (لم يجنح إلى صدر) مما قد يُفهم منه أن في ذلك إيماءً خفيّاً لما كان عليه من ولاءٍ ووفاء، ثم يقول:

واهاً لثغركِ ثغراً بات يــكلؤُهُ غيرانُ تسري عواليه إلى الثُّغُرِ
يقظانُ لم يكتـحل غمْضَاً مراقبَةً لرابطِ الجأشِ مقدامٍ على الغِرَر

(واهاً: كلمة تعجب/ الثغر: الفم أو مقدم الأسنان، والثغر: جمع ثغر ما يلي دار الحرب وموضع المخافة من فروج البلدان/ والثُّغَر: جمع ثُغرة وهي النقرة في النحر/ يكلؤه: يحفظه ويحرسه/ العوالي: أسنة الرماح/ الغمض: النوم/ رابط الجأش: ثابتٌ عند الفزع لكفاءته وجرأته/ المقدام: الجريء/ الغِرر: الخطر/ اللسان) وهنا تأتي صورة الفتاة المحبوبة، المصونة من قبل أهلها ووليّها الغيران، وقد جرت العادة في وصف فتاة الخدر المُمنَّعة، أن يسهب الشعراء في وصف حسنها وجمالها، ولكن ابن زيدون اكتفى بذكر الثغر، وضربَ صفحاً عمَّا سواه، إلى ما كان من أمر الغيران وشجاعة المحب، ولعل ذلك لشغله كما ذكرنا بما هو فيه من أمر السجن عن وصف جمالٍ وحسن، ولذا كان توظيف صورة المحبوبة بما يتفق مع دلالاتها في غرضه ومقصده، فذكر الثغر والمعنى الظاهر فيه أنه فم المحبوبة، أو مقدم الأسنان، ولكنه قد يشير بهذا اللفظ أيضاً إلى دار الحرب أو المخافة، وهو ما يناسب معنى الشجاعة والإقدام الذي قد يدفعه إلى اقتحام الخدر رغم وجود الغيران الساهر على هذه الفتاة (لم يكتحل غمضاً) أي لم يذق النوم (يقظان) لعلمه بمدى شجاعة الشاعر وجرأته على الخطر، ألا تدلُّ صورة الغيران الذي حال بينه ومن يحب على الحسَّاد والوشاة المحيطين بابن حزم، والذين سعوا بالوشاية بينهما، مما أدى إلى سجنه!![١٣] ولذا وجدنا ابن زيدون يصف حاله، ويمطل صورة (رابط الجأش المقدام على الغرر) فيقول:

لا لهوُ أيامِه الخالي بمرتَـجعٍ ولا نعيمُ ليــاليهِ بمُنتَظَر
إذ لا التحيةُ إيمــاءٌ مخالسَةً ولا الزيارةُ إلمامٌ على الخطرِ

وهنا يعود إلى اليأس بعد الرجاء، فلا عودة لهذا الرابط الجأشِ إلى ما كان من ليالٍ مضت، ونعيمٍ انقضى، فالشاعر بعد أن كان ينعم بالقرب وفي (نشوةٍ من سنات الوصل) يصف هنا ما أجمله في البيت الأول:

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر   إلا ذكرتك ذكر العيـنِ بالأثر

فقد آلت هذه العلاقة إلى انقطاع، فلا إلمام بالزيارة، ولامخالسة في الإشارة، ولعله يُلمح بذلك إلى نجاح الوشاة والحساد في مسعاهم، وقدرتهم على النيل من الشاعر ووضعه في حيث هو، وهم الذين لم يألوا جهداً في ذلك، ولم يغتمض لهم جفن حتى أطاحوا به (يقظان لم يكتحل غمضاً مراقبة) فأصبح سجيناً لا يواصل الأميرَ إلا برسائل الاستعطاف، وقصائد الاسترحام، وهذا المعنى المبطَّن في صورة المحبوبة المحجوبة، أظهره في قوله في أبياتٍ متأخرة من القصيدة بعد أن مدح الأمير:

حُرمتُ منه وحظُّ النَّـاسِ كلُّهُمُ   لهذه العبرة الكبرى من العِبَـر
قد كنت أحسبني والنجمُ في قرنٍ   ففيمَ أصبحتُ منحطّاً إلى العفرِ

ونسبته الحرمان إلى فاعلٍ غير الأمير (حُرِمت منه) معرّضاً بالوشاة، ألمح إليه بالإشارة في المطلع قوله: (واهاً لثغرك ثغراً بات يكلؤه غيران.. لم يكتحل غمضاً مراقبة) فقد حال بينه ومن يحب أو (ابن حزم) اليقظان أو الأعداء الألداء، أو الوشاة الذين كانوا يسهرون في سبيل الإيقاع به، وكما أثنى على نفسه برباطة الجأش في مواجهتهم، في المقدمة، مدح شعره وأدبه في أواخر القصيدة، مستنكراً ما صارت إليه الحال به من جحود ونكران:

أحيـنَ رفَّ على الآفاق من أدبي   غرسٌ له من جناه يانعُ الثمر؟
وسيلةٌ سببـاً -إلاَّ تكن نسباً-   فهو الودادُ صفا من غير ما كدرِ

وبائنٍ من ثنــــاءٍ حسنُهُ مَثلٌ وشيُ المحاسن منه معلمُ الطُّرر
يستودعُ الصحفَ لا تخفى محاسنُه إلا خفاءَ نسيمِ المسكِ في الصُّررِ

وهذه من طرائق ابن زيدون في شعره، إذ لايمدح حتى يفخر، ولا يعتب حتى يسخط وهو ما يذكرنا بأسلوب المتنبي وطريقته في المدح، فهو يمدح ويرتقي بممدوحه إلى أعلى الرُّتب ثم لا يلبث أن يذكر نفسه وتفوقه، ويذكّر الممدوحَ بذلك، ولعلَّ ما دعى الشاعرين إلى ذلك، مكانتهما الأدبية، وأيضاً لدى ابن زيدون مكانته السياسية، وقد وجدناه في أواخر القصيدة يوجه الخطاب لابن حزم في لهجةٍ آمرة:

لا تلهُ عني فلم أسألك معتسِــفاً ردَّ الصِّبا بعد إيـفاءٍ على الِكبَرِ
واستوفِرِ الحظَّ من نُصحٍ وصاغيةٍ كلاهما العِلقُ لم يُوهب ولم يُعَرِ

وقوله (لا تله عني) فيه أمرٌ أكثر من أن يكون طلباً، وفي قوله (لم أسألك معتسفاً رد الصبا) تعالٍ في نبرة الخطابِ الموجهة إلى أميرٍ قضى بسجنه، وكذلك اعتدادٌ بالنفس وشعورٌ بالغضب يفوق نبرة الاستعطاف أو الرجاء الأمرُ الذي يصل للمدوح ويفهمه ولذا لم تفلح قصائده في استعطافه، كما لم تفلح رسالته الجدية في ذلك..

وهكذا.. نرى أن القصيدة مطلعها غزلٌ بامرأةٍ ممنَّعة باعدت بينهما المسافات، وحيل بينهما بسبب الغيران، فانقطع ما كان من ود، وفي هذا المطلع تقنَّعت مقاصدُ الشاعر ملمِّحاً بالإشارةِ إلى علاقته بالأمير ابن حزم الذي زجَّ به في السجن، وما كان من تحوله عن الوزارة إلى نقيض ذلك، وحرمانه بسبب ما حاكه حوله الوشاة والحساد، إلا أنه من هو في ارتفاع قدره، الأمر الذي ألمح إليه في صورة فتاة الخدر بأنه الرابط الجأش المقدام، مما يشبه ما ذكره بعد ذلك

من ارتفاع شأنه رغم الكائدين والحاسدين، فهو الصارم، وهو النجم، والشمس والقمر، وهو أيضاً الأديب الشاعر الذي يُخلص النصح والود.

– والقصيدة الثانية في مدح أبي الحزم عنونها المحقق بـ(ثناء وعتاب) يقول في أولها[١٤]:

هذا الصَّباحُ على سُراكِ رقيبا   فصلي بفرعك ليلك الغربيبـا

وفي هذه القصيدة يستغرق المطلع من الشاعر اثني عشر بيتاً في الغزل، وأربعة أبيات في وصف الشيب قبل المشيب، وهي قصيدةٌ ضمَّنها عتاباً، وهي أخت السابقة في التلميحات التي انطوى عليها المطلع، والتي تشي بمقصد الشاعر ومطلبه، ولكننا نجد الأبيات الغزلية هنا، مشرقةً بدلالات الأمل، في رضا الأمير، الذي يبدو أنه كان متغيراً عليه، فأول ابتداء الشاعر (هذا الصباح) وهو ما اختلف به عن بيت المطلع في القصيدة السابقة، مما أشار به إلى تبدل العلاقة بينهما، الأمر الذي يجعلنا نعتقد بأن هذه القصيدة سبقت (ما جال بعدك) لأننا نجد فيها إشراقة الأمل، وتوهُّجه في نفسه، وبخاصة لأنه نظمها قبل سجنه، ولكننا اعتمدنا ترتيب الديوان في إدراج الأولى قبلها– يقول:

هذا الصَّباحُ على سُراكِ رقيبا   فصلي بفرعك ليلك الغربيبـا

(السرى: السير ليلاً/ الفرع: الشعر التام/ الغربيب: الشديد السواد/ اللسان) وهذه الصورة التي يطلب فيها من المحبوبة أن تطيل الليل فيستمدّ من سواد شعرها، أخت ما ذكره في القصيدة السابقة من تمني أن يطول الليل لوصله بالمحبوبة، وأن يستمد سواده من سواد القلب والبصر، وذكرنا أن استمداده من سواد القلب والبصر في القصيدة السابقة قد يكون فيه تعريضٌ بالأمير، وإن كان في وصف ليلٍ أراد له أن يطول لأنه مع محبوبته، وشتان ما بين أن يستمد الليل

من سواد الشعر، وأن يستمد من سواد القلب والبصر، فكلا الصورتين فيهما استحباب طول الليل للنعيم بالوصال، ولكنهما تستمدان من معينين مختلفين، اختلاف اليأس والأمل، والرجاء وانقطاعه، ولذا؛ ذكر لفظ الصباح هنا، وهو ما لم يأتِ به في القصيدة السابقة، لأن في لفظ الصباح وما فيه من معاني الضياء والإنارة سيتوهج باقي المطلع الأول من الغزل، فلذا يقول:

ولديك أمثالَ النُّجومِ قلائدٌ ألفتْ سماءكِ لَبَّةً وتريبا

فذكر القلائد في هذه القصيدة، كما ذكرها في القصيدة السابقة:

والصدرُ مذ وردت رفهاً نواحيه تومُ القلائدِ لم تجنَح إلى صَدَرِ

فذكر القلائد، وأنها توم أي مزدوجة، ولكنه لم يذكر الضياء والتلؤلؤ، لأنه أراد وجود الأمل الذي لم يبرح صدره، وإن كان ضعيفاً، فلم يصرح بالإشراق والوضاءة، أما هنا؛ فقد جعل هذه القلائد نجوماً، تجول فوق صدرها جولان النجوم في السماء، وهو مايشي بتلألأً الأمل تلألأ هذه النجوم، وبُعدِه أيضاً بعدَها، ولكنه ظاهر الوضوح عظيم الإشراق، وكما فتحت دلالة الصباح إشراقة الأمل، فاستدعت القلائد (العقود) لتجعلها نجوماً، كذلك جاءت الأقراط وكأنها الجوزاء:

لينُب عن الجوزاءِ قُرطكِ كلَّما جنَحت تحثُّ جناحَها تغريبَا

(الجوزاء: نجم أو برج في السماء/ جنحت: مالت/ اللسان) ولا يكتفي بذلك بل يجعل هذه المحبوبة الثريا في العلو والبهاء، والإشراق، وهي أيضاً تشير إليه وتحييه مضيئة كالنجوم:

وإذا الوشاحُ تعرَّضت أثناؤُه طلعت ثريَّا لم تكن لتغيبا
ولطالما أبديتِ إذْ حييتنا كفَّاً هي الكفُّ الخضيبُ خضيبَا

ونكاد نرى في صورة المحبوبة هنا صورة الرجاء في قلب الشاعر برضا الأمير، وهو رجاء كبير عظيم، مشرق متوهج -وإن كان بعيداً- إلا أنه أيضاً قريب بنوره، وهي الإشارة التي جاءت في معنى التحية من المحبوبة وليست أي تحية بل من كفّ منيرة كالنجم (الكف الخضيب: نجم/ اللسان)، وهو ما اختلفت به صورة المحبوبة هنا، عنها في القصيدة السابقة، وكان اختلاف الصورتين لاختلاف المقصد ففي الأولى كان ابن زيدون في السجن فجاءت المحبوبة مشبهةً ابن جهور أو علاقته المنتهية به، والتي لم يبق منها سوى أثر، أما هنا، فلم يكن ابن زيدون مسجوناً، ولكن قد يكون الأمير متغيراً عليه بسبب ما حيك حوله من دسائس مما يظهر في أبياتٍ متأخرة من القصيدة فجاءت صورة المحبوبة في المقطع الأول من المطلع تلوح فيها صورة إشراقة الأمل في نفس الشاعر، وما تطلّع إليه من عفو الأمير، وعودة علاقته به، وهو ما نفثته تداعيات كلمة الصباح، وما فتحته في الأبيات من دلالات الإشراق والنور، إلا أن هذا النور على قربه بعيد، وهو الأمر الذي ظهر في المقطع الثاني من الغزل، وهو ما يشير إلى حالته الشعورية من الإحساس بالظلم، لما رُميَ به، ولذا يقول:

أظنينةً دعوى البراءةِ شأنها — أنتِ العدوُّ فلم دُعيتِ حبيبا
ما بالُ خدّكِ لا يزال مُضرَّجاً — بدمٍ ولحظكِ لا يزالُ مُريبا
لو شئتِ ما عذَّبتِ مهجة عاشقٍ — مستعذبٍ في حبكِ التعذيبا
ولزرته بل عدتِه إن الهوى — مرضٌ يكون له الوصال طبيبا
ما الهجرُ إلا البينُ لولا أنَّه — لم يشْحُ فاهُ بهِ الغرابُ نعيبا
ولقد قضى فيكِ التجلُّد نَحْبَهُ — فثوى وأعقب زفرةً ونحيبا
وأرى دموع العينِ ليس لفيضها — غيضٌ إذا ما القلبُ كان قليبا

وهذا التذبذب من الرجاء إلى الخيبة، ومن الأمل إلى اليأس، مما يعتور الشعراء في القصيدة الواحدة، لأن هذه الأحاسيس تتملك الشاعر مما قد يجعله يتصور رغبته في النجاة، محبوبةً وضيئة مشرقة، تشير إليه، ولكن سرعان ما تعود إليه أحاسيس الإحباط، فتصبح المحبوبة عدوةً قاسية، يرتاب في نواياها الشاعر، لا تريد له سوى العذاب، ولم تقضِ في علاقتهما إلا بالفراق والبين، حتى أصبح القلبُ قليبا، وهذا تحوُّرٌ في صورة المحبوبة، اقتضاه شعوره بالارتياب في نواياها وهي مقابلة لنوايا بن جهور، وخشيته مما قد تفعله، وهويشبه ما يخشاه من عدم عفو الأمير، ولذا يبدأ هذا المقطع بقوله (أظنينة دعوى البراءة شأنها) وقوله (ظنينة: أي متهمة/ اللسان) مناسبٌ لمعنى اتهام الشاعر بالتآمر، مما زجَّ به في السجن، وهو هنا ينادي المحبوبة بالهمزة (أظنينةً) وهو نداءٌ للقريب، وقد يكون في هذا إشارة إلى ما ألمح إليه من قرب تحقق الأمل بالعفو وذلك بالتحية من الكف المنير ولكنه أيضاً أمرٌ قد يكون بعيداً بعدَ النجوم في السماء، ولذا تراوحت في نفسه مشاعر الشك والاطمئنان، فهو يخلع على محبوبته صفات الاتهام، ويدفع عنها صفة البراءة، بل يجعلها عدواً دُعيَ حبيباً، وفي هذا ما فيه من تضارب المشاعر وتأرجحها بين اليأس والرجاء، ولذا؛ تسود مشاعر الارتياب قوله:

ما بالُ خدّكِ لا يزال مُضرَّجاً ... بدمٍ ولحظكِ لا يزالُ مُريبا

فعلى أنها تعلو خدَّها الحمرة، وهي علامة الخجل والحسن، إلا أنها حمرة مضرجة بالدم، كما تدعو نظراتها إليه إلى الريبة، الأمر الذي يُلمحُ به الشاعر إلى تحيُّره في شأن ممدوحه، ولذا يخاطبها بقوله:

لو شئتِ ما عذَّبتِ مهجة عاشقٍ ... مستعذبٍ في حبكِ التعذيبا
ولزرته بل عدتِه إن الهوى ... مرضٌ يكون له الوصال طبيبا
ما الهجرُ إلا البينُ لولا أنَّه ... لم يشْحُ فاهُ بهِ الغرابُ نعيبا

فالمحبوبة قادرةٌ على الزيارة، وقادرةٌ على أن تشفيه مما به من عذاب، وكذلك ابن جهور، قادرٌ على أن يعفو عنه، ويعيده إلى سابق عهده معه، ولكن ابن زيدون بعد هذا التأرجح والتذبذب في المشاعر، تعلو صوته نبرة اليأس، فتطغى على ما سواها:

ولقد قضى فيكِ التجلُّد نَحْبَهُ ... فثوى وأعقب زفرةً ونحيبا
وأرى دموع العينِ ليس لفيضها ... غيضٌ إذا ما القلبُ كان قليبا

(التجلد: الصبر/ نحبه: أجله/ ثوى: قُبر/ الفيض: فاضت العين سالت وكثر دمعها/ الغيض: النضوب/ القليب: البئر القديمة، وسميت قليباً لأنه قلب ترابها/ اللسان) لقد ثوى أو مات وقُبر تجلُّده وصبره، بل لقد أعقب موته نحيباً وهو البكاء الشديد، فلم تغِض دموعه، وقد ذكر القلب والقليب لدلالة ألمح بها إلى ما يعنيه لفظ القلب من (تغيُّر الشيء عن وجهه/ اللسان) وهو ما آلت إليه علاقته بابن جهور مما جعل هذه العلاقة بينهما كالقليب، أو البئر المهجورة القديمة، وهو ما يشبه ما وصفه النابغة في معرض إشارته لتغير العلاقة بينه والنعمان، بقوله عن النؤي(١٥):

إلاَّ الأواريَّ لأياً ما أبّينُها ... والنؤيُ كالحوضِ بالمظلومة الجلد
رُدَّت عليه أقاصيه ولبّدهُ ... ضربُ الوليدة بالمسحاة في الثّأدِ

فجعل الأرض مظلومة، وهو ما أشار به إلى نفسه مع النعمان، وأشار بضرب الوليدة وعنايتها بالحوض إلى ما كانت عليه هذه العلاقة من العناية والاهتمام، عناية الوليدة بهذه الأرض سابقاً، إلا أنها أصبحت أواريَّ لا يكاد يتبينها(١٦) وقد ذكر ابن زيدون هنا اليأس، وأفول الأمل الذي لاح بقوةٍ في أبيات المقدمة، فقد جعل لهذا الأفول صورة الموت (ولقد قضى فيك التجلد نحبه)

والذي يظهر، في نعيب الغراب، والزفرات والنحيب، والبكاء الذي يفيضُ غزيراً، كل ذلك لأن (القلب كان قليبا) فقد انقلب القلب وتحول، بل أصبح قليباً كالبئر القديمة، وهو ما أشار به إلى العلاقة بينه وابن جهور، ثم يقول:

ما لي وللأيامِ؟ لجَّ مع الصِّبا ... عدوانُها فكسَا العِذارَ مشيبا
محقت هلال السن قبل تمامه ... وذوى بها غصنُ الشباب قشيبا
لألمَّ بي ما لو ألمَّ بشاهقٍ ... لانهالَ جانبُهُ فصارَ كثيبا
فلئن تسُمني الحادثاتُ فقد أَرى ... للجفنِ في العضبِ الصَّقيلِ ندوبَا

(لجَّ: تمادى/ العذار: منبت اللحية/ محقت: أذهبت وأنقصت/ ألمَّ بي: نزل بي/ الكثيب: المنعقد المجتمع من الرمل/ الجفن: الغمد/ العضب: القاطع/ الصقيل: المجلوُّ/ ندوباً: آثاراً/ اللسان) وهذه الأبيات، أختٌ لقوله في القصيدة السابقة:

من يسأل الناسَ عن حالي فشاهدها ... محضُ العيان الذي يُنبي عن الخبر
لم تطوِ برد شبابي كبرةٌ وأرى ... برقَ المشيبِ اعتلى في عارض الشَّعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصِّبا كثَبٌ ... وللشبيبةِ غصنٌ غيرُ مُهتَصَرِ
ها إنَّها لوعةٌ في الصَّدرِ قادحةٌ ... نارَ الأسى ومشيبي طائرُ الشَّررِ
يا للرزايا ! لقد شافهتُ مَنْهَلَهَا ... غَمْراً فما أشربُ المكروه بالغُمَرِ
حوادثُ استعرضتني ما نذرتُ بها ... غرارةً ثمَّ نالتني على غِررِ

ويبدأها هنا باستفهامٍ أراد به التعجب من حال الأيام معه، ما لها وله؟ فقد تمادت في رميه بالمصائب حتى كسى الشيبُ عِذاره، وهو في ريعان الصِّبا، قبل أن يمضي الشباب (محقت هلال السن) وهي مصائب لو نزلت بشاهق من الجبال لحوَّلته رملاً، وهو ينعي حاله ويتحسَّر عليها كما فعل في القصيدة

السابقة، ولكنه انتفض في القصيدة السابقة بعد نبرة الحزن والخضوع، فقال مفتخراً بنفسه معرّضاً بالشامتين:

لا يُهنيءِ الشَّامتَ المرتاحَ خاطرُهُ ... أنّي مُعنًّى الأماني ضائعُ الخَطرِ
هل الرياحُ بنجمِ الأرضِ عاصفةٌ ... أم الكسوفُ لغيرِ الشمس والقمرِ
إن طال في السجن إيداعي فلاعجبٌ ... قد يودعُ الجفنَ حدُّ الصَّارمِ الذكرِ

وذكر في هذه القصيدة أنه أيضاً عضبٌ صقيل، وإن أحدثت الحادثات في نفسه ندوباً (ولئن تسمني الحادثات فقد أرى/ للجفن في العضب الصقيل ندوبا) فهو يستعطف بذكر الشيب في عمر الشباب، ولكن لا تلبث نفسه المُعتدَّةُ بذاتِها أن تأبى عليه الانكسار للحوادث والرزايا، أو لشماتة الأعداء، فيُلحق نبرة الخضوع بشعور التعالي على حالة الضعف، والتسامي فوقها، ولذا؛ فهوفي هذه القصيدة يذكر نفسه، ويُذكّرُ الممدوح بمكانته، فهو الذي لا تلينه الخطوب، وإن أحدثت به ما أحدثت، مما استغرق منه بيتاً واحداً، وهو ما اختلف به عنه في القصيدة السابقة، التي استغرق منه الفخر بنفسه في المقدمة ثلاثة أبيات، وقد يرجع ذلك إلى طول فترة سجنه التي أحدثت في نفسه سخطاً وغضباً، ولذا علت نبرة التعالي في القصيدة السابقة، أما هنا فقد فخر بنفسه فخر الواثق بأن ما هو فيه لن يطول، لأنه لم يكن في ظنه أن الوشايات التي سعى بها الحاقدون سوف تتسبب في سجنه:

كان الوشاةُ وقد بُليتُ بإفكِهم ... أسباطَ يعقوبٍ وكنتُ الذّيبا
وإذا المنى بقبولكَ الغَّضَّ الجنى ... هُزَّتْ ذوائبُهَا فلا تثريبا
أنا سيفُك الصديءُ الذي مهما تشأ ... تُعِدِ الصّقالَ إليه والتذريبا

فهو يرى أن ما اتُّهم به كان نتيجة حسدٍ وغيرة، كما كان الأمر مع يوسف وأخوته، وقوله (لا تثريبا) لاءم به في اللفظ والمعنى ملاءمةً لافتة، لأنه ذكر قصة يوسف والذئب، فاستلهم قوله عليه السلام لأخوته «قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» الآية (٩٢) وكأنه بهذا الاستلهام يوجه للمدوح طلباً بأن يفعل ما فعله يوسف مع أخوته، ولذا فهو يهزُّ مشاعر السماح في الممدوح بقوله (وإذا المنى بقبولك الغض الجنى هُزَّت) ويطلب العودة إلى ما كان من سابق مكانة عند الأمير (أنا سيفك الصديء...) مما يذكّرنا بطلبه من المحبوبة في المطلع أن لا تعذبه، وأن تزوره وتعوده (لو شئت ما عذبت مهجة عاشقٍ.../ ولزرته بل عُدته...).

وهو ما يرجعنا إلى الاختلاف بين صورتي المحبوبة في القصيدتين، ففي القصيدة السابقة، ركزت الصورة على البعد، فالمحبوبة غائبة، يذكرها ذكر العين بالأثر، ويتمنى لو استمد سواد الليل الذي ضمَّهما معاً من سواد القلب والبصر، ويذكر انقضاء ليالي اللهو في لحظةٍ خاطفة، ولكنه بعد هذا اليأس يظهر في الصورة بصيص أمل في أنه قد فهم معنى هواها من لمحة طرفها، وأنَّ حسنها لم يستوفه النظر، وهو أملٌ في الوصول إلى هذه الحبيبة الممنَّعة، التي يحول بينه وإياها غيران (لم يكتحل غمضاً) فلا سبيل إلى الزيارة أو إلى التحية، فطغت مشاعر اليأس على الأمل في القصيدة -فهو في السجن- أما هنا؛ فالمحبوبة إن كانت بعيدة، إلا أنها ليست غائبة، فهو ينظر إليها وتشرق وضاءتُها في قلبه إشراق الصباح، ولا يكتفي بذلك بل إن قلائدها النجوم، وقرطها الجوزاء، فهي الثريا، والكف الخضيب، وهي إلى ذلك تحييه على البعد، ولكنه بعد هذا الأمل يعود ليرتاب في حبها، ويرجو وصالها، ويرى أن تجلّده قد قضى، ودموع عينه لا تغيض انتظاراً ورجاءً، فطغت مشاعر الأمل على اليأس هنا -فهو لم يُسجن

بعد- وهكذا نجد أن الشاعر يُلمح من خلال صورة المحبوبة إلى علاقته بأبي الحزم بن جهور، وتذبذب مشاعره في علاقته معه، بين اليأس والرجاء.

- في بلاط أبي الوليد بن جهور:

يذكر محقق الديوان أن هذه القصيدة توحي بأن الشاعر صاغها في تهنئة أبي الوليد بن جهور بولايته الحكم، وقد عنونها بـ (آمالٌ عريضة)[١٧] وهذا العنوان يتماشى مع معاني القصيدة وصورها -التي يظهر فيها طموح ابن زيدون واضحاً- وتبلغ في الطول أربعين بيتاً، استغرقت المقدمة منها اثني عشر بيتاً وهو مطلعٌ غزلي، ينقسم في معانيه إلى ثلاثة مقاطع، يقول في أوله:

ما للمُدامِ تُديرُها عيناكِ	فيميلُ في سُكر الصِّبا عِطفاكِ
هلاّ مزجتِ لعاشقيكِ سُلافَها	ببرودِ ظلمكِ أو بعذبِ لماكِ
بل ما عليكِ وقد محضتُ لكِ الهوى	في أن أفوزَ بلحظةِ المسواكِ
ناهيكِ ظُلماً أن أضرَّ بيَ الصَّدى	برْحاً ونالَ الريَّ عودُ أراكِ

(المُدام: الخمر/ عطفاك: جانباك/ السلافة من الخمر: أخلصها وأفضلها/ البرود: العذب البارد/ الظلم: ماء الأسنان وبريقها/ اللمى: سمرة الشفة/ محضتِ: أخلصت/ الصدى: شدة العطش/ برحاً: مشقة/ اللسان) ويبدأ المطلع باستفهام تعجبي أراد به الشاعر المبالغة في وصفِ جمالِ عينين تؤثّرُ في الناظر إليهما تأثير الخمر، ولذا؛ فإن عطفا المحبوبة يهتزان نشوةً كما يهتزُّ شارب الخمر لأثرها فيه، وقوله (هلاَّ) فيه تحضيض وطلب أن تمنحه خلاصة هذه الخمر، المتمثلة في ريقها العذب البارد، وشفتيها السمراوين فقد محض لها الهوى وأخلصه، ولذلك فإن من حقه أن يفوز بما فازبه غيره -المسواك- فيقول لها ناهيك أي حسبك وكافيك، وهو يلائم في الألفاظ بين الظلُّم (ناهيك ظلماً) والظَّلم (ببرود ظلمك)

وهو برودة الأسنان، ويطابق بين الصدى والري -وهذه من خصائص شعر ابن زيدون الأسلوبية- والصورة هنا لمحبوبة جميلة، منتشية من جمال عينيها المؤثرة في غيرها، وقد اشتاق لتقبيلها، بل اشتاق لأن تعطيه سلاف ريقها أي خلاصته وأفضله، لأنه أخلص لها الودّ، وفي ذلك شَوبٌ من غرض الشاعر ومقصده، فلأمرٍ ما؛ اختار ابن زيدون أن يجعل من جمال عينيها خمراً تديره للساقين، وأن يجعل من ريقها سلافة هذه الخمر الذي حظيَ به غيره وارتوى بينما ازداد برحه وعطشه، فهو يطلب منها بل يحضُّها (هلاَّ) أن تمنحه محض ودِّها -وليس أيَّ ود- ألا يقابل هذا المعنى قوله بعد ذلك في البيت الرابع والثلاثين حين صرَّح بطلب الوزارة وهو ليس أي منصب:

قلّدنيَ الرأيَ الجميــلَ فإنه ... حسبي ليومَي زينــةٍ وعراكِ

ولذا؛ فهو يقولُ في المقطع الثاني من الغزل:

واهاً لعطفكِ!! والزمانُ كأنَّــما ... صُبِغت غضارتُهُ ببُردِ صبــاكِ
والليــلُ مهما طالَ قصَّرَ طولهُ ... هـاتي وقد غفلَ الرَّقيــبُ وهاكِ
ولطالما اعتـلَّ النسيمُ، فخلتُــه ... شكوايَ رقّت فاقتـضَت شكواكِ
إن تألفـي سِنـةَ النـؤوم خليّــةً ... فلطـالمَـا نـافـرتِ فيَّ كــراكِ
أو تحتبي بالهـجرِ في نادي القِلى ... فلكم حللتُ إلى الوصالِ حُبـاكِ

(واهاً: كلمة تلهف وتعجب وتوجعٌ/ الغضارة: الخصب والنعمة/ والبُرد: الثوب المخطط/ اللسان) في هذه الأبيات يتلهف الشاعر على ما فات من وصالٍ بينه والمحبوبة، ويتحسَّر على ليالٍ ضمَّتهما معاً، وكانا يتعاطيان فيها كؤوس الشراب، ويخبرها أنه لو هجرته الآن، فقد طالما كانت تُكابد النوم فيه شوقاً وهياماً به، وطالما دعاها إلى الوصال فلبَّت الدعوة، إذاً؛ هي ذكرى أيامٍ

مضت بينه ومن يحب، نجدُ فيها شَوباً من ذكرى العلاقة التي كانت بينه والأمير، فقد كانا صديقين أيام ولاية والده أبي الحزم، وكانا يتعاطيان الخمر والشراب، ويقضيان لياليَ في اللهو والقصف، وهو ما ذكرته المصادر عنهما مع صديقهما الثالث ابن ذكوان(١٨) أليس فيما مضى تعريضٌ بما كان بينهما من ودّ، وتذكيرٌ لأبي الوليد بذلك؟! قد يكون! فهو منذ أول القصيدة ذكر الخمر، ذكر الخمر في عيني المحبوبة، التي انتشت بها، وقد انتشى أبو الوليد ابن حزم بالملك والولاية، وابن زيدون يطلب طلباً مجلَّلاً بالغزل أن يهبه الأمير ما يطمح إليه (هلاَّ مزجتِ لعاشقيكِ سُلافها)لأنه أخلص له الودّ (وقد محضتُ لك الهوى) وقد غفل الوشاةُ، أو الرقيب (هاتي وقد غفل الرقيبُ وهاكِ)، ولذا فهو يذكّره عن طريق التلويح والإشارة بليالٍ سبقت لهما معاً، تعاطيا الكؤوس وتساقيا الراح، وكانا فيها صديقين متوالفين، وهنا يأتي المقطع الثالث:

أمَّا منى نفسي فأنتِ جميعُها	يا ليتني أصبحتُ بعضَ مناكِ
يدنو بوصلكِ حينَ شطَّ مزارهُ	وهمٌ أكادُ به أقبّلُ فاكِ
ولئن تجنّبتُ الرشادَ بغدرةٍ	لم يهوِ بي في الغيّ غيرُ هواكِ

وفي هذه الأبيات يَظهرُ الشاعرُ محبَّاً لفتاةٍ هي منى نفسِه جميعها، فليته بعض مناها، وهو لشدة تعلُّقه بها يكادُ يقبّل فاها وإن بَعدت، وقد انشغل بهواها حتى أوقعه في الغيّ، وهنا تكادُ تتَّشحُ الصورة الغزلية بغلالة المديح، ففيها شَوبٌ من قوله بعد ذلك بأبيات:

قلّدنيَ الرأيَ الجميلَ، فإنه	حسبي ليومَي زينةٍ وعراكِ
وإذا تحدَّثت الحوادثُ بالرّنا	شزراً إليَّ فقل لها: إيَّاكِ
هوَ في ضمانِ العزمِ يعبِسُ وجهُهُ	للخطب والخُلق النَّدي الضحَّاكِ
وأحمُّ داريّ تضاعَفَ عزُّهُ	لمَّا أُهينَ بمسحقٍ ومداكِ

والدَّجنُ للشمسِ المنيـرةِ حاجبٌ   والجفنُ مثوى الصَّارمِ الفتَّـاكِ

(الرَّنا: إدامةُ النظر/ شزراً: النظر بمؤخر العين وأكثر ما يكون في الغضب/ أحمّ: أسود/ داريّ: عطرٌ منسوب لدارين في البحرين/ مسحق: آلة لسحق المسك/ المداك: حجرٌ يُسحق عليه الطيب/ اللسان) فهو يخاطب الممدوح بعد أن طلب منه المنصب، أن يدفع عنه الحوادث (إذا تجهَّمت في وجهه) وأن يزجرها، ويجعله في ضمانه من الخطوب، وفي وفادة كرمه ونواله، فهو الذي ظهر طيبه ومعدنه بعد أن صقلته الحوادث وهو يشير بذلك إلى سجنه وشبّه نفسه بالمسك الذي يظهر ويفوح عطره عندما يُسحق، وبالشمس المنيرة التي قد يحجبها السحاب، وبالسيف الذي يحويه القِراب، وفي هذه الأبيات تصريحٌ بما تقنَّعت به آماله في صورة الغزل، أليس الرأي الجميل أو الوزارة التي يطلبها مقابلةً في طموح ابن زيدون لمنى النفس (أما منى نفسي فأنت جميعُها)! كما أن تشبيهه لنفسه بالمسك الذي سُحق، والشمس التي حجبتها السحب، والسيف في الجفن مما ألمح به إلى سجنه مقابلاً لقوله في الصورة الغزلية (ولئن تجنبتُ الرَّشاد بغدرةٍ)! وذكرُه قربها منه بالوهم إلى الدرجة التي يكاد يقبِّل فاها، قد تعني قرب تحقق آماله التي كانت بعيدة، والتي أدناها منه اعتلاء صديقه عرش قرطبة! ولذا فهو يخبره بأن هذه الآمال قريبة لقربك مني حتى إن كنت سُجنت (تجنبتُ الرشاد) فقد كان بسبب ودّي لك (لم يهوِ بي غيرُ هواكِ) «أنتِ التي شغلتني بك عن معالي الأمور وأوقعتني في الغيّ بعد الرشاد»(١٩) مما قد يعني به انشغاله بصداقته ومجالس الأنس واللهو معه، عن الانتباه لما يُحاك من دسائس حوله، أو التورُّط فيما لا يعود عليه بالمنفعة! أو أنه قد يعني أن ما كان بينهما من ودّ جعله يثق في نصرته له في سجنه ويستشفع به لدى والده، الأمر الذي لم يفلح في العفو عنه، يقول ابن خاقان «كان له مع أبي الوليد تآلفٌ أحرما بكعبته وطافا، وسقياه

من تصافيهما نِطافا، وكان ابن زيدون يعتدُّ ذلك حساماً مسلولاً، ويظنُّ أنه يردُّ به الخطوب ذَلولاً، إلى أن وقع له طلبٌ أصاره إلى الاعتقال، وقصره عن الوخد والإرقال، فاستشفع بأبي الوليد وتوسَّل... فما ثنى إليه عطف عنانه...»[٢٠] فهذه القصيدة فيها «فرحة الصديق بصديقه الذي سيحقق آماله»[٢١] ولذا جاءت صورة المحبوبة المنتشية بجمالها، والتي طالما نَعِم بوصلها وتعلَّقت بها آماله ومناه، ولم نجد فيها صورة الألم من الهجر، أو الشكوى من العذاب أو الغدر، بل هي محبوبة إن نعمت بالنوم فقد طالما أرَّقها ذِكرُه، وإن انصرفت عنه فقد طالما وصلها، وجاء بهذه المعاني مسبوقة بحرف الشرط (إن) أي أن جواب الشرط لا يتحقق إلا بتحقق الفعل، وقد كانت القصيدة في التهنئة، والعلاقة مع الأمير في أحسن حال، ولذا؛ لم نجد في صورة الغزل محبوبة جافية قاسية، وإنما محبوبة يخشى أن تمنع وصلها، وودَّها. وهكذا.. تتعدد صور المحبوبة، ويأتي ما ينتقيه الشاعر في وصفها أو وصف علاقته بها متلائماً -غالباً- مع ما يضمره من حاجات نفسٍ ورغباتٍ، ومطامحَ ومطالب، قد يكون التلميح بها كافياً في المطلع، وقد يحتاج الشاعر بعد ذلك إلى التصريح بهذه الحاجات، كما وجدنا في هذه القصيدة.

- وقد عيَّنه أبو الوليد على أهل الذمَّة ويبدو أن هذه الوظيفة كانت دون ما يصبو إليه ولذا كتب قصيدته الدالية (أجل إن ليلى حيثُ أحياؤها الأسدُ)[٢٢] وهي القصيدة التي نظمها مادحاً الأمير بعد أمره بكسرِ دِنان الخمر، مُعرّضاً فيها بحاجات نفسه، ويبلغ طولها واحداً وسبعين بيتاً، يتقسَّمها عدَّة مقاطع، يبدؤها الشاعر بوصف ليلى والحمى، ومنعة قومها ومعشرها، وقد استغرق هذا المقطع ستة عشر بيتاً، يقول في أولها[٢٣]:

أجل، إنَّ ليلى حيثُ أحياؤها الأسْدُ　　　مهاةٌ حمَتْها -في مراتعها- الأُسْدُ

بدأ الشاعرُ قصيدته بحرف الجواب (أجل) لخبرٍ مُقدّرٍ في الذهن، والبدء بهذا الحرف قليلٌ في الشعر ومنه ما ورد في أبياتٍ لمجنون ليلى(٢٤):

ألا هل طلوع الشمسِ يهدي تحيةً　　　إلى آل ليـلى مرَّةً أو غروبـها
أجل، وعليَّ الرجمُ إن قلتُ حبَّذا　　　غروب ثنـايا أم عمرٍ وطيبُـها

وأجل، حرفُ جوابٍ بمعنى نعم، وفيه تصديقٌ للخبر إثباتاً أو نفياً، كأن تقول: فعلتَ كذا؟ أولم تفعل كذا؟ فيكون أجل، تصديق لهذا الكلام سواءً بالنفي أو الإثبات، ويأتي كثيراً بعد الخبر، وله موقعه عند ابن زيدون في بداية القصيدة هنا، فقد بدأ بهذا الحرف الذي يحوي جواباً لكلامٍ مقدّر، وفيه إخبارٌ عن حيّ ليلى، فجاء جوابُ العارف بذلك (أجل)، وقال (أجل) دون (نعم) لأن أجل تأتي بعد الإخبارأكثر، وهو هنا لايريد أن سائلاً سأله عن موضع ليلى، وإنما أنه أخبره، فأكَّد الخبر بحرف التصديق (أجل) واختار (أجل) أيضاً لأنها تحمل معنى (حلول الدَّين ونحوه، ومدَّة الشيء، وأجِل الشيء أي: تأخَّر/ اللسان) وهو هنا منذ بداية القصيدة يشير إلى ما تأجَّل من غاياتٍ في نفسه، جاءت ليلى رمزاً لها، وقد اختار اسم ليلى دون غيره (لأنه من أسماء الخمرة، وقد سُمِّيت به المرأة/ اللسان) فناسب بذلك بين الخمر التي منعها الأمير، والمحبوبة أو الغاية التي تاقت إليها نفسه، ونحن نعلم أن ابن زيدون كان مُحبّاً للهو والشراب، ومن شعره في ذلك(٢٥):

أدِرهَـا فقـد حسُـنَ المجلـس　　　وقـد آن أن تُتـرَعَ الأكـؤسُ

وقد كانت له مجالس أنسٍ مع أبي الوليد ابن جهور أثناء ولايته للعهد(٢٦) «وما مدحُه لابن جهور لكسره دنان الخمر في قصيدته هذه إلاَّ واجباً يقتضيه منصبه الرسمي ويحتّمه المقام، ولا يُعبّر بذلك عن رأيه الخاص»(٢٧) ولذا؛ تقنَّعت

الخمر الممنوعة، كما تقنَّعت آماله باسم ليلى، وقد كان الشعراء على اختلاف الأزمنة يختارون على الأغلب من الأسماء ما يرمزون به لأحوالٍ وأهواء ومقاصد، فقد «اختار الشاعر الجاهلي من الغزل طرقاً، وسمَّى له محبوبة رمزاً لغوياً، واسماً فنياً، وعنواناً موضوعياً»(٢٨) وذكر ابن رشيق ذلك فقال «وللشعراء أسماء تخفُّ على ألسنتهم، وتحلو في أفواههم، فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً نحو ليلى وهند وسلمى»(٢٩)، وقد كان ابن زيدون صاحب طموحٍ وسياسةٍ ودهاء، دفعته هذه الصفات إلى مناصرة الجهاورة في حركتهم ضد الأمويين ذكر ابن خاقان أنه «زعيم الفئة القرطبية، ونشأة الدولة الجهورية»(٣٠) ولذا؛ يبدو أن ما أسنده له أبو الوليد بن حزم من منصب، لم يرقَ إلى ما كان يطمح إليه كما يظهر من النصوص وبخاصة هذا النص، فقد كان كما ذكر ابن بسام متهافتاً في الترقي لبعد همَّته وطموحه(٣١) وقد قرَّبه أبو الوليد لَّما ولِّيَ الأمر بعد والده و«قدَّمه في الذين اصطنعهم لدولته، وأوسع راتبه، وجلَّله كرامةً لم تقنعه»(٣٢) ويبدو أن ما كان له من أيادٍ في قيام هذه الدولة، إضافةً لصداقته مع الأمير، جعله يستنقص ما أسند إليه ويطمع بما هو أكبر منه، ولذا؛ جاء هذا المطلع مغلَّفاً بغلالة الحب، وليلى، مُبطَّناً بغايات نفسٍ عظيمة، ورغبة في الوصول إلى العزيز البعيد المنال، فبدأ بحرف الجواب (أجل) وفيه معنى التأخير والتسويف، وأكَّد ذلك بإنَّ، ثم ذكر أن ليلى تنتمي لقبيلة أسد (وهي قبيلةٌ من ربيعة/ اللسان) وهي أيضاً تشبه الظبية الغريرة، يحميها قومُها الأسود الكواسر، ولاءم في كلمة أسد بين النسب والصفة، بما أراد به وصف الشرف والعزة والمنعة، وزاد في هذا الوصف بأن ذكر أنها (يمانية) واختياره اللفظ لما يحوية إضافةً لشرف النسب، من معاني (البركة، والقوة، والقدرة، والمنزلة الحسنة/ اللسان) ويمضي ابن زيدون على عادة الشعراء في إجراء هذه القصة قصة فتاة الخدر المُمنَّعة التي يحميها الأقوامُ والمعشر فيذكر منعتَها، فهي في مكانٍ لا سبيل إلى اقتحامه، وكأنه (مارد) و(الأبلق) وهما

(حصنان في جزيرة العرب قصدتهما الزّبّاء فلم تقدر عليهما/ اللسان) وقوله (إذا نحن زرناها) فيه ما فيه من الدلالة على الشجاعة والبسالة والاقتدار، فـ(إذا) ظرفية شرطية بمعنى (حين) والمراد حين أقوم بزيارتها يتمرّد ماردٌ ويعزُّ الأبلق، أي أنني على رغم هذه العزة والمنعة أقدم على هذه المجازفة، ولكنها تمتنع عليَّ امتناع المارد والأبلق، وقدّم (نحن) لأنه موضع عنايته، فهو يتحدث عن اقتداره هو دون غيره على هذه الزيارة المخفوفة بالمخاطر، وقد كان ابن زيدون جريئاً بعيد الهمَّة، فقد وجدناه في القصيدة السابقة يصرّح بالطلب فيقول (قلدنيَ الرأيَ الجميلَ) وهو هنا أيضاً سيُدلي برغبات نفسه في أواخر القصيدة، مما قد يفسر هذا المطلع، الذي تأتي فيه (ليلى) عزيزة منيعة، ولكنَّه مع ذلك لم يخشَ الزيارة -أو الطلب- رغم عدم الظفر بالمراد، وكأن لسان حال الشعر هنا يقول كما قال امرؤ القيس مبتدع قصة فتاة الخدر في معلقته:

تجاوزت أحراساً وأهوال معشرٍ عليَّ حراصٍ لو يسرون مقتلي[٣٣]

أليست القصة هنا، تسمو فوق أن تكون اقتحاماً لخدورِ نساءٍ مُمنَّعاتٍ، إلى أن تكون اقتحاماً لغمراتِ الحياةوصعوباتها، سُموَّاً لمجدٍ عزيز! فلو كانت الصورة نقلاً لواقعٍ معيش، لمَا وردت في شعر ملكٍ كامريء القيس، يسعى لمجدٍ مؤثَّل، حريّ به أن يُلجَأَ إليه لصون الأعراض، ولذا؛ فإن الشعراء من لدن امريء القيس، وصولاً إلى الأندلس، تغنُّوا باقتدارهم، وعلوَّ همَّتهم، بالإشارةِ إلى ذلك في صورة فتاة الخدر المُمنَّعة ذات الأهوال والمعشر، ولهذا السبب قد يمطل الشعراء صورة المنعة والقوة، فابن زيدون هنا، لم يكتفِ بتشبيه امتناع الوصول إليها بامتناع حصني المارد والأبلق، بل أضاف إلى الصورة أن الرماح الخطيَّة، والخيول الجُرد (قصيرة الشعر/ اللسان) تلتفُّ حول خبائها، وأراد بذلك الفوارس الذين يعتلون هذه الخيول، والرماح التي يشرعونها في وجه من يتعرَّضُ لفتاتهم،

وذكر أنهم (لحي لقاح) أي (لا يدينون لملوك/ اللسان) و(جحا جحةٌ شيبٌ) أي (شيوخٌ سادةٌ كرماء/ اللسان) و(صُيَّابةٌ مُردُ) أي (شبابٌ خيار/ اللسان) وهم إلى ذلك؛ إما أبٌ قويُّ العزيمة (شيحان ماضي العزم) أو أخٌ شديد الغيرة (فاتكٌ جلدُ) وقد أثرى صورة الشجاعة هنا فجمع بذلك الوصف بين قوة العزم (في الأب أو الشيوخ) وسرعة الفتك والتسرع بالبطش في (الأخ أو الشباب) ولم يأتِ بذكر الزوج كما في الصورة القديمة عند امرئ القيس وقد يكون في ذلك إشارة إلى حاجاتٍ نفسٍ لم يصلها غيره، وقد وصفها بعد ذلك بأنها غريرة (وهي الشابة الحديثة السن، التي لم تجرب الأمور، ولم تعلم ما يعلم النساء من الحب/ اللسان) ولذا؛ اكتفى بذكر الأب و الأخ، وأكمل صورة المنعة والقوة بما أضفاهُ من الهيبة في وصف أهلها:

فما شيمَ –من ذي الهبَّةِ الصارم– الشَّبا ولا حُطَّ عن ذي الميعةِ السَّابحُ الجلدُ

(شام الشيء: تطلَّع إليه، ومنه شام البرق: نظر إلى السحابة أين تمطر/ هبَّ السيف: اهتز ومضى/ الصارم: القاطع/ الشَّبا: الحد/ الميعة: الجريء/ السابح: الجواد: المسرع/ اللَّبد: السرج/ اللسان) أي لم تحتج هذه القبيلة الممنَّعة إلى أن تشرع سيوفها، لأنها مرهوبة الجانب ومع ذلك فهي لم تركن إلى الدعة، فهم مستعدون متأهبون للقتال فخيولهم مُسرجة (ولا حُطَّ عن ذي الميعة السابح اللبد)، وهنا يأتي المقطع الثاني من المطلع في القصيدة:

وفي الكلَّةِ الحمراءِ وسطَ قبـــابِهِم فتاةٌ كمثل البـــدر قابَلهُ السَّعدُ
عقيـــلةُ سربٍ لا الأراكُ مرَادُهُ ولا قمنٌ منه البـــريرُ ولا الـمّردُ

وهنا يصف (ليلى) أو (عقيلة السرب) وهي كما درجت العادة في الشعر العربي في وصف النساء وبخاصة في صورة فتاة الخدر المُمنَّعة فتاةٌ مُترفة منعَّمة، هي ببنات الملوكِ أشبه، وكيف لا؟! فكلَّما علا شأن المحبوبة وقومها، وزاد ترفها وتنعُّمها وجمالها، كان في ذلك علوٌّ لشأنِ طالبها، والراغب في وصالها، فجاءت الغايةُ المأمولة الجميلة العزيزة، مقنَّعةً في صورة هذه المرأة الكريمة النفيسة المخدَّرة، التي يعني الوصول إليها وصولاً إلى غايات النفس ومبتغاها، وكلَّما سما المطلوبُ علا شأنُ الطالب، ولذا كانت هذه الفتاةُ المصونة في كلةٍ حمراء و(الكلة: الستر الرقيق الذي يُتوقَّى به من البعوض/ اللسان) وسط قبابهم، والقباب (من البناء وهي أيضاً تُقَبَّبُ فوق الهوادج، والقبة من الخيام بيتٌ صغير مستدير/ اللسان) وهي جميلةٌ تشبه البدر في الوضاءة والإشراق، عقيلة (مصونةٌ كريمةٌ مخدَّرة/ اللسان) والسرب (القطيع من بقر الوحش أو الظباء/ اللسان) لم تتخذ شجر الأراك ولا البريد ولا المرد مرَاداً (الأراك: شجرٌ تتخذ منه المساويك/ والبرير: أول ثمار الأراك/ والمرد: الناضج منه/ اللسان) والمَراد (مكان الارتياد وطلب الكلأ/ اللسان) وذكر السرب لأنه أراد تشبيهها بالظبية أو ببقر الوحش، واحترس من أن تكون ساعيةً في تحصيل معيشتها بارتياد مكان الكلأ كما تفعل الظباء، فنفى عنها ذلك، فهي فتاةٌ مصونةٌ منعَّمة مترفة، وهو في هذا القول يشبه ما ذكره النابغة الذبياني(٣٤):

ليست من السودِ أعقاباً إذا انصرفت ... ولا تبيع بجنبيَ نخلةَ البَـــرمَا

وقد نفى ابن زيدون سعيها لمعيشتها لأنها مُترَفَة، وقد كان في ذلك دون امرئ القيس في وصف غاية الترف في قوله(٣٥):

وتُضحي فتيتُ المسكِ فوق فراشِـها ... نؤومُ الضَّحى لم تنتطق عن تفضُّلِ

ولكن ابن زيدون عاد فأشبع صورة الترف، بقوله:

تهادى فيُضنيـــها الوشاحُ غريرةً   تأوهَ مهما ناسَ في جيـدِها العقدُ
إذا استُحفِظَت سرَّ الهوى جُنحَ ليلها   تناثى النومانِ: الألوَّةُ والنّـَدُّ

و(التهادي: مشيٌ فيه تمايلٌ وسكون/ الوشاح: نسيجٌ من أدمٍ محلًّى بالجواهر تشده المرأةُ بين عاتقيها وكشحها/ غريرة: شابة حديثة السن/ ناس: تحرك/ جنح ليلها: جانبه، وقيل أوله/ تناثى: نثى الحديث: أشاعه وأظهره/ النَّمومان: النمام الذي لا يحفظ الحديث، وأراد سطوع الرائحة العطرة/ الألوَّة: عودٌ يُتبخَّرُ به من خيار العود/ النَّد: من الطيب/ اللسان) فالشاعر بعد أن ذكر جمالها ووضاءتها، وإشراقها (كمثل البدر قابله السعد) عاد ليكمل الصورة بوصفه نعومتها، فهي تمشي متثاقلة، وفي هذه المشية ما فيها من الدلال والأنوثة، وهي أيضاً رقيقة ناعمة، ويبالغ في وصف هذه الرقة والنعومة فيجعلُ الوشاح يثقلُها، وتحرُّك العقد يؤلمُ بشرتها، كما أنها ذات رائحة تنمُّ عنها وتخبر عن قدومها، وما كان الإمعان في وصف الرقة والنعومة إلا ليدل الشاعرُ بالتالي على مدى ترفها، وعناية أهلها بها، وفي ذلك إعلاء في الصورة لشأنها وعلوّ قدرها، يستتبع هذا أن يكون طالبها قوياً شديد العزم، لا يستحقها غيره لعلو همته، فتأتي صورة فتاة الخدر الممنعة، ذات دلالة قوية على أن العزيز الممنَّع لا يناله إلاَّ القوي العظيم، وما صورة هذه الفتاة غالباً في الشعر إلا صورة رغبات النفس وطموحها، وما أهلها الغيارى والأهوال والمعشر، سوى مصاعب الحياة وعقباتها، التي لا بُدَّ أن تُقتحم للظفر بالمراد، وهو ما عبَّر عنه ابن زيدون في قصيدة أخرى بقوله[٣٦]:

ففتى الشهامةِ من إذا أملٌ سَــما   نفذت به شورى أو استبـــداد

وهو الأمل الذي حَدا بالشاعر دائماً لطلب أعلى المناصب، والرغبة في المكانة السياسية المرموقة التي يرى أنه أهلُها، وهنا يأتي المقطع الثالث الذي يقول فيه:

لها عِدةٌ بالوصل يوعِدُ غبَّها | مصاليتُ يُنسَى -في وعيدهم- الوعدُ
عزيزٌ عليهم أن يعودَ خيالُها | فيسعِفَ منها نائلٌ في الكرى ثمدُ
كفى لوعةً أن الوصالَ نسيئةٌ | يطيلُ عناءَ المقتَضي والهوى نقدُ

(عدةٌ: وعد/ غبّها: بعدها/ مصاليت: عازمون ماضون/ الثّمدُ: الماء القليل/ نسيئة: بيع الأجل، ضده النقد/ اللسان) تشي هذه الأبيات بأنَّ المحبوبة أيضاً راغبة، ولذا؛ فهي تعد بالوصل، ولكن من حولها من أهلها الغيارى يمنعونها ذلك، بل هم لشدَّتهم يمنعون حتى زيارة الطيف في الخيال، وقد يكون في هذه اللمحة الشعرية ما يُشير إلى أن غاياته ومطالبه، لا تصلحُ إلا له، وأنَّها تطلبه كما أنه يطلبها، لأنها لا تليق بغيره، وإن حال ما بينهما في الصورة الأهل الغيارى، الذين قد يكون أراد بهم الأميرَ القويَّ الشكيمة أو الوشاةَ الذين حاكوا المؤامرات حوله، فجاءت صورة ليلى صورةً لطموح الشاعر، وجاءت صورة الأهل الغيارى مقابلةً للأميرِ الذي منع عنه منى نفسه ومبتغاها، كما منع دنان الخمر، ولذا؛ فإن حصولَه على ما يريد ويطمح، تأجَل، وعودٌ آجلة (نسيئة)، وهو ما أشار له في البداية بكلمة (أجل) مع أنه كان مُفصحاً عن هواه أو رغباته (الهوى نقد) مما أطال عناء الشاعر المُطالب (المقتضي) فالمعاني والدلالات والإشارات تتعالق، وتأخذ بأعناق بعضها لتدلَّنا بالصورة إلى الحالة الشعورية لدى ابن زيدون وما يعتمل في نفسه من حاجات، جاءت مغلَّفة بغلالة رقيقة من الغزل لمحبوبة اسمها ليلى، ثم يقول:

ستبلغها عنَّا الشَّمالُ تحيةً | نوافحَ أنفاسِ الجنوبِ لها ردُّ
فما نُسيَ الإلف الذي كان بيننَا | لطولِ تنائينا ولا ضُيّعَ العهدُ

فإذا كانت المحبوبة أو الأماني ممنوعة محجوبة، فهذا لا يعني خفوتَ الأملِ الذي يحدو الشاعر إليها، فالنفس توّاقة إلى بلوغ المراد (التحايا/ الإلف)، لقد ضمَّن الشعراءُ أغراضهم ومقاصدهم، مقدمات قصائدهم، وكان الغزل من هذه المقدمات التي قد تتلون فيها الصورة بأحوال الشاعر النفسية، فجاءت كما في هذه القصيدة محبوبة ممنوعةً محجوبة، وقد تأتي في أخرى مانعة قاطعة... إلى ما إلى ذلك من لمحاتٍ تشي بمقاصد الشاعر «لأن هذا الذي نسميه مقدمات فيه من ذكر الغرض أكثر مما في الأبيات الأخيرة التي عقد الشاعر قصيدته عليها، وبصورةٍ أخرى أقول إن الشاعر يقول ما يريده من هجاءٍ أوغيره فيما نسميه مقدمة، ويكادُ يكون قد فرغ مما أراده عندما يصل إلى الأبيات الأخيرة المعدودة»[٣٧]، لقد صرَّح الشاعرُ في القصيدة السابقة برغبات نفسه تجاه صديقه الذي هنَّأه بتولّي الحكم، فقال: (قلّدني الرأيَ الجميلَ...) ويبدو أن الأمير لم يُقلّده ما رامت إليه نفسُه، من مناصبَ قيادية، وكان ما أسنده له دون ما يتطلع إليه الشاعر، ويطمح له، ولذا؛ جاءت صورة ليلى عزيزة مأمولة، منعها أهلُها، كما منع الأميرُ ما راحت إليه نفس الشاعر، وكما أهرق دنان الخمر وهي من محبوباته فنجده يقول في أواخر القصيدة ما عرَّض به من مكنوناته:

فديتُكَ إني قائلٌ فمُعرضٌ	بأوطارِ نفسٍ منكَ لم تقضِها بعدُ
منى كالشَّجا دون اللهاةِ تعرَّضت	فلم يكُ للمصدورِ –من نفثها– بُدُّ
أمثليَ غفلٌ خاملُ الذكرِ ضائعٌ	ضياعَ الحسامِ العضبِ أصدأهُ الغمدُ؟
أبى ذاك أن الدَّهرَ قد ذلَّ صعبُهُ	فسُنّيَ منه بالذي نشتهي العقدُ

مهّد الشاعر لطلبه بجملة (فديتك) وهي مكونة من فعل وفاعل ومفعولٍ به، وكأنه اختصر فيها علاقته بالممدوح فالفاعل والمفعول المتصلان هما الشاعر والممدوح الصديقان وقال (فديتك) بالماضي، وفيه الدعاء للمدوح، وقد يحمل

إشارةً إلى ما عرَّض له نفسه من مخاطر في سبيل قيام الدولة، فالجملة تحمل معنى الوفاء والفداء من الشاعر للمدوح، وإخلاصه له، واستحقاقه بالتالي ما يطلبه منه، ولذا؛ استأنف الكلام بعدها بقوله (إني قائلٌ فمُعرضٌ بأوطار نفسٍ منك لم تقضها بعدُ)، و(قائلٌ) و(معرضٌ) أسماء أفعال، وهي تفيد الحدوث كما تدلُّ على الفاعل أيضاً، ومجيء هذين اللفظين، بصيغة اسم الفاعل، له دلالته في أن الشاعر مستمرٌ بهذين الفعلين، القول والتعريض أو التلميح بأوطار نفسه التي لم يقضها الممدوح بعد، وقوله (لم تقضها بعدُ) يعود بنا إلى أول كلمة في المطلع الغزلي (أجل) ويعود بنا أيضاً إلى (نسيئة) و(عناء المقتضي) في قوله:

كفى لوعة أن الوصالَ نسيـئةٌ ... يطيلُ عناءَ المقتضِي، والهوى نـقدُ

كما أن قوله (الهوى نقد) يناسب ما ذكره في قوله (فديتك)، وقد كان ابن زيدون في القصيدة السابقة مصرّحاً بآمالِ نفسه واضحاً في طلبه (قلدني الرأي الجميل) أما هنا.. فقد قال إنه مُعرّض، مما يدلُّ على استبطاء الشاعر للمدوح، وإحساسة في قرارة نفسه بالألم وشعوره بالمرارة، ولذا قال:

منى كالشَّجا دون اللهاةِ تعرَّضت ... فلم يكُ للمصدورِ -من نفثها- بـُدُّ

(الشَّجا: الغصة/ اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق/ المصدور: الذي يشتكي صدره/ اللسان) فقد كانت الأمنيات في صدره كالغصَّة التي لم يعد بإمكانه أن يخفيها، فكان لا بدَّ أن يُعرّضَ بها، أو ينفثها (لم يكُ للمصدور من نفثها بدُّ) وهو النفث الذي أصدره الشاعر في صورة فتاة الخدر (الأمنيات)، التي يمنعها قومها (الأمير) من الشاعر (وقد جاء في المثل: لا بدَّ للمصدور أن ينفث، والنفث شبيهٌ بالنفخ، ويُطلقُ أيضاً على الشعر لأن الإنسان ينفثه من فيه/ اللسان) ولذا كان لا بدَّ لابن زيدون الشاعر أن ينفث، ويُضمّن غزله

مقاصده، فجاء المطلع مشُوباً بحاجات نفسه، فهو يرى أنه كالحسام العضب الذي لا يصحُّ أن يُغمَد:

أمثليَ غفلٌ خاملُ الذكرِ ضائـعٌ ضياعَ الحسامِ العضبِ أصدأهُ الغمدُ؟

وهو البيت الذي نجد ظلاله في قوله (في بيتي الحكمة) بعد المقدمة الغزلية:

لئن قيلَ في الجد النجاحُ لطالبٍ لقلَّ عنـــاءُ الجدّ ما لم يكن جّدُّ
ينـــالُ الأمـــاني بالحظيـــرة وادعٌ كما أنَّـــه يُكدي الذي شأنُه الكدُّ

(الجد: الكدح والاجتهاد/ الجَد: الحظ/ المكدي: الذي لا ينمّي ماله/ اللسان) أي أنه قد لا ينالُ الساعي حاجتَه إذا لم يصادفه الحظ، كما أن الهانيء الوادع قد يحظى بما يريد دون المجتهد، فكأنه ينعي حاله عند ممدوحه، فابن زيدون لم يكن وادعاً ولا قليل الاجتهاد، وقد ألمح إلى ذلك بقوله في المقدمة إنه كان يسعى للقاء ليلى، رغم ما صوره لنا من عتاد أهلها (إذا نحن زرناها تمرد ماردٌ) ومع ذلك لم ينل حاجته من الممدوح- كما لم يستطع في المقدمة أن يصل إلى ليلى- وقد قال من قصيدةٍ أخرى، في مدح الأمير، ما يشبه هذا المعنى(٣٨):

لم أُوتَ في الحالين من سعيي لديك ونىً بل بالجدود تطيــرُ الحالُ أو تقعُ

رغم أنه السيف القاطع:

أنا السيفُ لا ينبـــو مع الهزّ غربُهُ إذا ما نبَا السيفُ الذي تطبعُ الهندُ

وقد كان ما يريده ابن زيدون متوافقاً مع صورة ليلى والأهوال والمعشر والمنعة، لأنه يريد شرفاً وعزاً:

لعمرك مـا للمـالِ أسعى فإنّــما يرى المالَ أسنى حظّه الطَّبعُ الوغدُ

ولكن لحالٍ -إن لبستُ جمالها- كسوتُك ثوب النُّصحِ أعلامُه الحمدُ

«فالشاعر الذي يتبوَّأ منزلةً عاليةً لدى البلاط، أو ديوان الخلافة لا يقنع إلا بالجاه وعلوّ المنزلة، وهي استحقاقاتٌ غير مستحيلة، أو صعبة المنال، وبخاصة أن الشعراء الفحول يتمتعون بعلاقاتٍ قوية مع الحلفاء والسلاطين، ونتيجةً لذلك، أصبح الثراء غير منحصر في معاني المال الثلاثة؛ النقدين والأرض والسوائم، وإنما يؤدي للوصول إلى مراكز السلطة واتخاذ القرار، وهو من أهم مظاهر الغنى والجاه»[٣٩] وقد رفعه الممدوح إلى مرتبة الوزارة[٤٠] والسفارة بينه والرؤساء، فاكتسب كما أراد الجاه والرفعة[٤١].

- ولكن.. لا تلبث الدسائس والفتنُ أن تحيط بالشاعر، فقد حاول بنو ذكوان الاستيلاء على السلطة في قرطبة، وقد كان منهم أستاذ ابن زيدون أبو بكر ابن ذكوان، فلم يسلم الشاعرُ من التهمة، لسابق صداقته بهم[٤٢] فاندفع ينفي تواطأه في المؤامرة، ومن ذلك أبياتٌ جاء في أولها[٤٣]:

هل النداءُ الذي أعلنتُ مستَـمعُ أم في المئاتِ التي قدَّمتُ مُنـتَفعُ

وفيها:

قل للوزيرِ الذي تأميـلُهُ وزَري إن ضاقَ مضطَّربٌ أو هالَ مُطَّلعُ

أصخْ لهمسِ عتـابٍ تحتهُ مِقةٌ تكلّفُ النفسُ منـه فوقَ ما تسعُ

ما للمتابِ الذي أحصفتَ عقدتَهُ قد خامرِ القلبَ من تضييعه جزعُ

لي في المـوالاةِ أتبـاعٌ يسـرُّهمُ أني لهم في الذي نُجزى به تبـعُ

وفيها:

لا تستجزْ وضع قدري بعد رفعكهُ فالله لا يرفعُ القدرَ الذي تضـعُ

– وقد قال في ذلك أيضاً قصيدة طويلة، بدأها بمقدمةٌ غزلية، استغرقت اثنين وعشرين بيتاً لفتاة خدرٍ كما وجدنا في القصيدة السابقة يقول في أول المطلع(٤٤):

أما علِمتْ أنَّ الشفيعَ شبــابُ؟ فيَقصرُ عن لوم المحبّ عتـابُ
علامَ الصّبـا غضٌّ يرفُّ رواؤهُ إذا عنَّ من وصلِ الحسانِ ذهابُ؟
وفيمَ الهوى محضٌ يشفُّ صفاؤهُ إذا لم يكن منـــهنَّ عنهُ ثوابُ؟

غضٌّ: ناعم/ يرفُّ: يهتزُّ/ الرواء: المنظر الجميل/ عنَّ: عرض/ المحض: الخالص/ يشفُّ: يُظهرُ ما وراءه رقيق/ اللسان) يبدأ الشاعر القصيدة بسؤالٍ عن هذه الفتاة المخدَّرة، التي قد يكونُ بدر منه ما يكدّرُ صفو العلاقة بينهما (أما علمت أن الشفيع شباب؟) فمهما يكن ذنبه! أليس الشباب والصبا شفيعين لما يكون عليه صاحبهما من تهوُّر، وهفوات؟ والمعنى؛ أنه إذا عُرفَ ذلك منه فلا مبرر للومه وعتابه، ويُتبعُ هذا السؤال بسؤالٍ آخر، أليس الصبا الغضُّ الناعمُ الجميل الرواء أهلاً لأن يستتبعه وصل الحسان؟ كما أن الهوى المحض الصافي لا بدَّ أن يكون له ثوابٌ وجزاء؟! وهي أسئلةٌ تقريرية (أما علمت؟/ علامَ؟/ فيمَ) يطلب الشاعر من المخاطبِ الإقرار بما يسألُ عنه، فقوله (أما علمت؟) أي كيف أنها علمت، ولم يشفع ذلك لنا!؟ وقوله (علامَ الصبا غضٌّ؟) أي كيف يظل الصبا غضٌّ رغم ذهاب الوصل!؟ و(فيمَ الهوى محضٌ؟) أي لمَ يظلُّ الهوى خالصاً رغم عدم الثواب عليه!؟ وقد ذكرنا أن صور المطالع ومنها الغزل قد لا تعني ظاهر ما فيها، فقد لا يكون الغزل غزلاً أراد به الشاعر محبوبة ما، وإنّما قد يُضمّنُ الشاعرُ في هذه الصورة أغراضاً ومقاصدَ، قد تبدو فيها هذه المقاصدُ محبوبةً يظهر منها الوصل والحب، أو الجفاء والعداء، أو قد يكون ما بينهما حبٌّ جارف يعكر صفوه الأعداءُ والشامتون والوشاة وما إلى ذلك، وقد كانت صورة فتاة الخدر المُمنَّعة -غالباً- تأتي في الشعر العربي صورةً لحاجات النفس

ورغباتها، وما وصفُ منعتها، وجمالها في معظم هذا الشعر- إلاً وصفاً لآمال الشاعر وطموحاته، على اختلافٍ في الدلالات، والإشارات، والإيحاءات، بين الشعراء، أو بين القصائد المختلفة لدى الشاعر الواحد، تبعاً لمقصده وحالته الشعورية، وقد كانت صورة ليلى في النص السابق، تشي برغباتٍ كان قد أبدى الشاعرُ للأمير تعلقه بها، رغم الأهوال والحراس والمعشر، أو الأعداء والحاسدين، ولذا بدأ الشعر بوصف المنعة والقوة أولاً، أما هنا.. فيبدؤها بمقطعٍ يشي بعلاقة حبّ بين شاب وفتاة، قد عكَّر صفوَها شيءٌ ما! فاعتذر ابن زيدون عن ذلك بشبابه، وللشباب هفواته، وله أيضاً متطلباته التي لا بُدَّ أن تُقصرِ بسببها المحبوبةُ عن العتاب، فهل هذا الاعتذار اعتذارٌ عن هفوةٍ من الشاعر استحقت العتاب من الأمير!؟ قد يكون ذلك! والشعر يحتمل هذا وغيره من التفسيرات، لأنه لو كان الشعر تعبيراً عن واقع معيش، لما كانت محبوبة ابن زيدون، الوزير الأندلسي المُترَف، بدوية ممنعةً تهجرُ حماها لتلقاه، ويُبري بعيره في سبيل رؤيتها!! إنما هي صورٌ وخيالاتٌ ومعانٍ تأتي في النص كلمحاتٍ إلى حاجات نفسٍ قد تكون محبوبةً فعلية-كما قد تكون غير ذلك، ولا شكَّ أن مناسبة القصيدة، والحالة الشعورية التي دفعت المبدع إلى نظمها، إضافةً إلى الواقع السياسي، والصراعات التي كان لابن زيدون دورٌ فيها، وأيضاً ما دلَّ به الشعرُ نفسه في المقدمة وباقي القصيدة وغيرها من شعره، مما يعينُ على فهم هذه الإشارات النفسية، والتأويلات الشعرية، ومن هنا.. جاز لنا أن نقول إن المحبوبة التي تكدَّرت علاقته بها، مقابلة في الصورة للأمير الذي ارتاب في ولاء ابن زيدون، ولعلَّ هذه الصفات التي ذكرها في اعتذاره لفتاته، اعتذارٌ للأمير بشيم الوفاء والود، إضافةً لاستشفاعه بالشباب وتهوره، وهو الذي قد قال قبل ذلك معتذراً للأمير أبي الحزم والد أبي الوليد مستشفعاً بشبابه(٤٥):

ومثليَ قد تهفو به نشوةُ الصّبا   ومثلكَ من يعفو -ومالك من مثلِ-

ثم يقول:

ومسعفةٍ بالوصلِ إذ مربـع الحِمى لها -كلَّما قِطنا الجنابَ- جنـابُ
تظنُّ النَّوى تعدو الهوى عن مزارها وداعي الهوى نـحو البعيدِ مجابُ
وقلَّ لها نضوٌ برى نحضَـه السُّرى ويهـماءُ غفلُ الصحصحانِ تُجابُ
إذا ما أحبَّ الركبُ وجـهاً مضوا له فهـانَ عليهـم أن تــخبَّ رِكابُ

(قطنا الجناب: أقمنا به صيفاً/ الجناب: أرضٌ معروفة بنجد/ جِناب: أي نجتنبهم، نتنحَّى عنهم/ النوى: البعد/ تعدو: تصرف/ النضو: البعير المهزول/ نحضه: لحمه/ اليهماء: المفازة لا ماء فيها، ولا يسمع فيها أي صوت/ الصحصحان: الأرضُ الجرداء/ تُجاب: تقُطع/ اللسان) بدأ هذه الأبيات بكلمة مسعفة و(الإسعاف: قضاء الحاجة، والمساعفة: المواتاة والمساعدة، والقرب في حسن مصافاةٍ ومعاونة/ اللسان) ومسعفة اسم فاعل يدلُّ على من قام بالفعل إضافةً للتجدد والحدوث، و(إذ) دالةٌ على الزمن الماضي، والمعنى: أنها كانت تسعفُ بالوصل وقتئذٍ، في ذلك الوقت والمكان فتترك حماها وتتجنبه، وتُقبل علينا في مُصطافنا بالجناب، وقال (كلَّما) مما دلَّ به على تكرار الإسعاف منها والمواتاة، فذكر الحمى والجنابَ وهو موضعٌ بنجد، والنضو والمفازة، وذلك وغيره من أسماء الأماكن وصفاتها في الشعر -وبخاصة الأندلسي- إنما يأتي بها الشاعر كما ذكر ابن خفاجة «على أنها خيالاتٍ تُنصب، ومثالاتٍ تُضرب، تدلُّ على ما يجري مجراها، من غير أن يُصرَّحَ بذكراها، توسُّعاً في الكلام، يُكتَفى بها دلالة عليها وعبارة، ويستحسن إيماءةً إليها وإشارة»(٤٦) وقد كان لابن زيدون مع الأمير أيام تصافٍ وصحبة قضياها في لهو وشرابٍ وأنسٍ ومودة كما ذكرت المصادر(٤٧) وكان الأمير مقبلاً عليه مؤثراً إياه، وفي ذلك يقول الشاعر من قصيدته التي تبرَّأ فيها من الفتنة (ثورة بني ذكوان)(٤٨):

تقدَّمت لك نُـعمى رادَها أملي ... في جانبٍ هو للإنسانِ مُنتَجَعُ

فذكر الرودَ (وهو طلب الكلأ/ اللسان) والنُّجعة (وهي المرعى/ اللسان) في سياق بدوي، وظَّفه الشاعر في معرض وصف إنعام الأمير عليه، وهو قريب من صورة المحبوبة البدوية المسعفة بالوصل في قوله، إنها تجتنب الحمى لتزوره، فلعلَّ الشاعرُ يدلُّ بالصورة على ما كان بينهما من سابق ودّ! ثم ذكر اتصال هذا الودّ وإن حدث الفراق:

تظنُّ النَّوى تعدو الهَوى عن مزارِها ... وداعي الهوى نحو البعيدِ مُجَابُ

وهذا البيت قريب من قوله في العينية، بعد أن ذكر إنعام الأمير عليه (تقدَّمت لك نُعمَى رادها أملي):

ظنَّ العِدا -إذ أغبَّت- أنَّها انقطعت ... هيهات ليس لمدّ البحر منقطَعُ

فالنعمى وإن تأخرَّت، وأعرضَ الأمير حيناً، ستعود، فلا انقطاع للود بينهما، وهذا ما أراده في قوله هنا إن (داعي الهوى نحو البعيد مُجابُ)، فهي محبوبةٌ تستحق أن يُنضي في سبيل زيارتها راحلته -بل إن ذلك قليل- وأن يواصل السُّرى إليها، ويقطع الفيافي والصحارى الموحشة القفر في سبيلها، وهكذا.. تأخذ الرحلةُ في سبيل المحبوب دلالتها في الشعر، فجاءت صورة الراحلة التي أنهكها المسير، والفيافي الجرداء القاحلة، في سياق الشوق إلى المحبوبة، والرغبة في زيارتها، لتأجُّج الشوق، موظّفةً في الشعر ليدلَّنا بهذا المشهد المُستمد من صور الحياة العربية في مهدها الأول على رغبته القوية في وصل العلاقة بالأمير أو الممدوح ومحافظته على مكانته عنده، يدلُّ على ذلك قوله في البيت التالي:

إذا ما أحبَّ الرَّكبُ وجهاً مضوا له ... فهانَ عليــهم أن تخُبَّ رِكابُ

وهو البيت الذي يختصرُ فيه الشاعرُ دلالاتِ الرحلة، والصبابة والشوق، لتشمل ما هو أكبر من محبوبة جميلة، وقصة هوى، فيتَّسعُ المعنى، ليشمل بما ألبسه الشاعرُ من خيالٍ شعري مُحبَّب، طموحَ نفسٍ في الوصول إلى ما تسعى إليه وتحبه، فيهون في سبيل ذلك التعب والمشقة، وقد يكون ما أحبته النفسُ امرأةً جميلة، كما قد يكون -كما نرى هنا- وليَّ أمرٍ له المكانة والقوة، وما يناله من نُعمى في كنفه من وزارة! أو سفارة! وما إلى ذلك من حاجات ورغبات! ثمَّ يأتي في المقطع الذي بعده بصورة الأهوال والمعشر، والأهل الغيارى الذين يخشون على فتاتهم:

عروبٌ ألاحت من أعاريب حِلَّةٍ	تجاوبُ فيها بالصهيل عِرابُ
غيارى من الطيفِ المُعاودِ في الكرى	مُشيحونَ من رجمِ الظنونِ غِضابُ
وماذا عليها أن يُسنّيَ وصلَها	طِعانٌ فإن لم يُغنِنا فضِرابُ
ألم تدرِ أنَّا لا نَراحُ لريبةٍ	إذا لم يُلمَّع بالنَّجيعِ خِضابُ
ولا نَنشُقُ العطرَ النَّمومَ أريجُهُ	إذا لم يُشعشع بالعجاجِ مَلابُ
وكم راسل الغيرانُ يُهدي وعيدَهُ	فما راعَهُ إلاَّ الطُّروق جوابُ
ولم يُثنِنا أنَّ الربابَ عقيلةٌ	تساندَ سعدٌ دونَها وربابُ
وإن رُكِزَت حولَ الخدورِ أسنَّةٌ	وحُفَّت بقُبِّ السابحاتِ قِبابُ
ولو نذرَ الحيَّانِ غبَّ السُّرى بنا	لكرّتْ «عُظالى» أو لعاد «كُلابُ»

(ألاحت: ظهرت متلألئة لامعة/ مشيحون: متأهبون للقتال/ يُسنّي: يسهل/ لانراح: لا نرتاح/ النَّموم: أراد الطيب الساطع الرائحة/ ملاب: الطيب أو الزعفران/ الطروق: المباغت ليلاً/ العقيلة: كريمة الحي/ سعد والرباب: قبيلتان/ الأسنة: الرماح/ السابحات القب: الخيل الضامرة السريعة/ نذر الحيان: علموا بمسيرنا/ غب السرى: عقب المسير ليلاً/ كرَّت: عادت/ عظالى وكلاب: يومان

من أيام العرب في الجاهلية/ اللسان) اختار لمحبوبته من صفات النساء العروب وهي(المتحببة إلى زوجها وقيل العاشقة له/ اللسان) وناسب في اللفظ بين هذه الصفة في النساء ووصف قومها بالأعاريب أي (البدو من الأعراب/ اللسان) لأنه أراد شدَّتهم، ووصف الخيول المسرجة بالعِراب أي (المنسوبة إلى العرب/ اللسان) لما في هذه الخيول من أصالة وقوة، ثم أضاف لوصف القوة والمنعة وصف غيرتهم على حرمهم وهذا ما يعرف به الأعراب فهم غيارى حتى من الخيال الطارق، متأهبون للقتال ولو على الظن، يتوعدون من رام زيارتها (كم راسل الغيران يهدي وعيده/ ركزت حول الخدور أسنة/ حفت بقبتها الخيول الضامرة السريعة) كلُّ هذه العدة لم تمنع الشاعر من أن يروم وصلَها:

وماذا عليها أن يسني وصـلَها	طعانٌ فإن لم يغنِنَا فضِرابُ

أي «ماذا يضيرها أن يسهل الوصول إليها جهادنا لعشيرتها طعناً بالرماح، أو ضرباً بالسيوف»(٤٩).

وهو حتى مع وعيد الغيران، وتهديده للشاعر، إلا أنه مباغتٌ له بالقدوم (فما راعه إلاَّ الطروق جوابُ) لم يُثنِه عن ذلك أنها كريمة قومها، التي تحاماها قبائلهم، وأن حولها الأسنة والرماح، وأنه قد تقوم حروبٌ طاحنة بين القبائل بسببها، فهي الغاية التي يهون في سبيل الوصول إليها كلُّ صعب:

ألم تدرِ أنَّا لا نَراحُ لريبـةٍ	إذا لم يُلمَّع بالنَّـجيعِ خِضابُ
ولا نَنشُقُ العطرَ النَّمومَ أريجُـهُ	إذا لم يُشعشع بالعجاجِ مَـلابُ

فكلُّ غايةٍ عزيزة إذا كان السبيل إليها صعباً، أصبح للوصول إليها لذّة كلّذَّة استنشاق العطر النَّموم، لأنَّ صاحب الهمة العالية لا تعنيه وعورة الطريق، بقدر

ما يعنيه الوصول إلى القمة، فيهون لذلك التعبُ والمشقة:

إذا ما أحبَّ الرَّكبُ وجهاً مضوا له فهانَ عليهم أن تخُبَّ رِكابُ

ثم يقول:

وليلةَ وافتنا تهادى فنمتري: أيسمو حَبابٌ أو يسيبُ حُبابُ
يعذِّبُها عضُّ السوارِ بمعصمٍ أبانَ لها أن النَّعيم عذابُ
لأبرحتُ من شيحانَ حُطَّ لثامُه إلى خفرٍ ما حُطَّ عنه نِقابُ
ثوى منهما ثوي النِّجادِ مُشيَّعٌ نجيدٌ وميلاءُ الوشاحِ كعابُ
يُعلَّلُ من إغريضِ ثغرٍ يَعُلُّهُ غريضٌ كماءِ المزنِ وهو رُضابُ
إلى أن بدَت في دُهمةِ الأفقِ غرَّةٌ ونفَّرَ من جُنحِ الظلامِ غُرابُ

(تهادى تتمايل/ نمتري: نشك/ حباب الماء: فقاعاته/ الحُباب: الحية/ أبرحت: بالغت/ شيحان: مسرع/ مشيَّع: عجول/ نجيد: شجاع ماضٍ/ الإغريض: الطلع والبرد/ يعلل: يجني أويصدر/ يعله: يسقيه مرة بعد مرة/ الغريض: ماء المطر/ الرُّضاب: الريق/ الدُّهمة: السواد الغرة: بياضٌ في الجبهة/ جنح الظلام: طائفةٌ منه/ اللسان) وهنا؛ يصف ابن زيدون رقتها ونعومتها، فهي تتهادى في مشيتها كالماء المنساب، أو كتهادي الحية الناعمة وهو تشبيه استقاه الشاعر من حياة العرب في موطنهم القديم مناسب لذكره الحمى والبعير والصحراء والركب وهي محبوبة رقيقة يؤلمها السوار بمعصمها، كعاب، وقد ذكر لنا قبل ذلك أنَّها محبة عاشقةٌ له (عروب) ولذا فهي تخرجُ إليه (وافتنا)، إذاً.. فقد وصل الشاعر إلى محبوبته أو غايته، فخرجت إليه (وليلة وافتنا) ولا يعني ذلك أنه غير قادرٍ على مقاتلة أهلها، والوصول إليها (لأبرحتُ من شيحان) فهو (مشيَّعٌ، نجيد) ولكن

قد يعني به أنه حصل على الـمُراد دون قتال، وانقادت إليه الأماني دون حاجة منه إلى إشراع سيفه في سبيل الوصول إلى فتاته الخفرة الحييَّة، وهو لم يكتفِ بذكر أنه وصل إليها، ويتوقف بالصورة هنا، بل ذكَر أنه رشف من فيها رُضاباً عذباً صافياً كماء السحاب، وأنه فعل ذلك المرة بعد المرة (يعلل) فقد وصل إلى غايته ومراده، بل تمتَّع بها ليلته (إلى أن بدت في دهمة الأفق غرةٌ) وهذا له مغزاه في الشعر، فقد وجدنا أنه اختلفت دقائق الصورة البدوية لفتاة الخدر عنها في القصيدة السابقة (أجل إن ليلى) فليلى هناك (عقيلة سرب) امتنع الوصول إليها -كما هنا- رغم طلبه لها (إذا نحن زرناها تمرد ماردٌ وعزَّ فلم نظفر به الأبلق) ولكنها تعده وتمنيه بالوصل، وتؤجل ذلك بسبب من حولها من أهلها الغيارى، وقد ذكرنا أنه في تلك القصيدة كان مُعرّضاً بطلبه الذي تأجَّل تحققه:

فديتك إن قائـــل فمعرضٌ ... بأوطار نفسٍ منك لم تقضِها بعدُ

فناسب ذلك أنه لم يظفر بمحبوبته، بل امتنعت عليه، فلم تخرج لزيارته، كما لم يستطع الوصول إليها، وناسب ذلك -أيضاً- وصفَها بأنها (غريرة: أي لم تجرب الأمور ولم تعلم ما يعلم النساء من الحب/ اللسان) لأنه لم يكن قد ظفر بحاجته من الأمير بعد، أما هنا.. فقد نال الشاعرُ ما يطلبه من الوزارة والسفارة ولكنه يشكو شيئاً آخر، فقد أحاطت به الدسائس والمؤامرات، وكثر كيد الكائدين حوله، فناسب المقصد أن يزيد في الصورة من وصف عدَّة أهلها وعتادهم ومنعتهم ومع ذلك لم يستطيعوا منعه من الوصول إلى غايته، فقد خرجت إليه المحبوبة (وليلة وافتنا) رغم الأهل الغيارى الذين كان يعزُّ عليهم لقاءه لها ولو في الخيال، ولكنهم لم يستطيعوا منعه منها -كما لم يمنع الأمير عنه ما سأله فكان من خاصَّته -رغم كيد الحاسدين- فناسب هذا المقصد أن تكون الفتاة (عروب: أي المرأة المتحببة لزوجها، والعاشقة له/ اللسان) لأنه كان قد

ظفر بحاجته من الأمير، وواتته الأماني كما خرجت إليه فتاته العاشقة (وليلة وافتنا)، ولذا؛ ذكر في الصورة أنه نعم بمحبوبته إلى أن ظهر الصباح أي أنه وصل إلى غايته واستمتع بها، الأمر الذي أجَّج العداوة في قلوب مبغضيه، فجاءت فرصتهم في المؤامرة التي اتُّهم بتدبيرها بنو ذكوان أصدقاء الشاعر- مما أطمعهم في أن ينالوا منه، فبالغ في وصف الأهوال والمعشر والحروب التي قد تقوم بينه وإياهم بسبب من يحب أو ما يحب ولذا اشتكى في أواخر القصيدة من أعدائه فقال:

فديتُـكَ!! كم ألقى الفواقرَ من عِدًا ... قِراهم لنيـرانِ الفسادِ ثِقابُ
عفَا عنـهمُ قدري الرفيعُ فأهجروا ... وبايَنَـهم خُلقي الجميلُ فعابوا
وقد تُسمعُ الليثَ الجحاشُ نهيـقَها ... وتُعلي إلى البدرِ النُّباحَ كِلابُ
إذا راقَ حسنُ الرّوضِ أو فاح طيبُه ... فما ضرَّهُ أن طنَّ فيه ذبـابُ

فهو هنا يصرّحُ بما يلاقيه من الأعداء الذين كلما أكرمهم (القرى) أوقد ذلك نارَ فسادهم وبغيهم، لأنهم وجدوا قدره عالياً عنهم، (عفا عنهم قدري الرفيع) وكذلك خلُقه (وباينهم خلقي الجميل) فأفحشوا في المقال، وعابوا -وليس ذلك بغريب فربما نهقت الحميرُ على الأسود، ونبحت الكلاب على البدور، وطنَّ الذبابُ في الروضِ اليانع، فشبَّه نفسه بالأسد، والبدر، والروض، وشبّه أعداءه بالحمير، والكلاب، والذباب، ألا تقابل هذه الصورة المتعالية في وصف الأعداء والحاسدين المحيطين بالممدوح صورة الأهل الغياري المحيطين بالمحبوبة وتوعُّده بمجابهتم؟!:

غيارى من الطيفِ المعاود في الكرى ... مُشيحون من رجمِ الظنون غِضابُ
وماذا عليـها أن يُسنّيَ وصلَها ... طِعانٌ فإن لم يُغنِنـا فضِرابُ

ثمَّ يُعرّضُ الشاعرُ بالرحيل فيقول:

تقولون شرّق أو فغرّب صريمةً ... إلى حيث آمالُ النفوسِ نِهابُ
فأنتَ الحُسامُ العضبُ أُصديءَ متنُهُ ... وعُطّلَ منه مضربٌ وذبابُ
وما السَّيف ممَّا يُستبانُ مضاؤهُ ... إذا حاز جفنٌ حدَّهُ وقِرابُ
وإنَّ الذي أمَّلتَ كُدّرَ صفوهُ ... فأضحى الرّضى بالسخط منه يُثابُ
وقد أخلَفَت مما ظننتَ مخايلٌ ... وقد صفِرَت ممَّا رجوتَ وِطاب

(صريمة: عزيمة/ نِهاب: غنيمة/ الحسام العضب: السيف القاطع/ المتن: الصفحة/ مضرب السيف: حدُّه/ ذبابه: طرفه المدبَّب/ الجفن: غلاف السيف/ قِراب: غِمد/ يُشاب: : يمتزج/ المخايل: السحب/ وِطابُ: سِقاءُ اللبن/ اللسان) وهو هنا ينسب القول لغيره (يقولون) في معرض تبليغ الأمير بمقصده وغايته، ممَّا أشارَ به إلى حظوته ومكانته المعروفة لدى الناس، فهناك من يُزين له الهجرة عن قرطبة إلى حيث يلقى التكريم والحفاوة مما يليق به لأنه الحُسامُ الذي إذا أُدخل في غمده فلَّ حدُّه، وهو السيفُ الذي يظهرُ مضاؤه إذا سُلَّ من قِرابه، فقد تكدَّرَ صفوُ ما يؤمّل، وامتزج المقام في قرطبة بالمرارة والسخط، وتبددت في ذلك الآمال، ولذا؛ فهو هنا يُعرّض بالرحيل عن الأمير إلى مكانٍ يلقى فيه من يقدّرُ مواهبه، ويعرف قدره، مما يذكرنا بقول المتنبي ملوّحاً بالرحيل عن سيف الدولة(٥٠):

إذا تركنا ضميراً عن ميامنِنا ... ليحدثنَّ لمن ودَّعتُهم ندمُ
إذا ترحَّلت عن قومٍ وقد قدروا ... أن لا تفارقَهم فالراحلون همُ
شرُّ البلادِ مكانٌ لا صديقَ بهِ ... وشرُّ ما يكسب الإنسانُ ما يصِمُ

وقد قال ابن زيدون في المطلع:

علامَ الصّبا غضٌّ يرفُّ رواؤه إذا عنَّ من وصلِ الحِسانِ ذهابُ
وفيمَ الهوى محضٌ يشفُّ صفاؤه إذا لم يكن منهنّ عنهُ ثوابُ

فكيف يظل الود مع ذهاب الوصل؟ وكيف يبقى الهوى ما لم يكن ثواب؟ فأشار ابن زيدون في أول الشعر إلى مقصده وغايته، فألمح إلى ما يريبه من أمر ودّ ممدوحه، وتغيره عليه، ومع ذلك فإن الشاعر بعد أن عرَّضَ بالهجرة (يقولون شرق أو فغرب) عاد ليقول:

سرورُ الغنى –ما لم يكن منك– حسرةٌ وأريُ المنى –ما لم تَنَل بك– صابُ
وإن يكُ في أهلِ الزَّمانِ مُؤمَّلٌ فأنت الشَّرابُ العذبُ وهو سرابُ
أيعورُ من جار السّماكين جانبٌ ويُمعزُ في ظلّ الربيعِ جنابُ
فأين ثناءٌ يهرمُ الدَّهرُ كِبْرَةً وحليتُه في الغابرين شبابُ

(الأري: العسل/ الصَّاب: عصارة شجر مر/ يعور: يظهر فيه موضع ضعف/ السماكان: نجمان نيّران/ يمعز: يصلب ويشتد/ اللسان) وفي هذه الأبيات من العتاب والتعريض ما فيها، فكيف يعور من جار السماكين جانبٌ؟ وكيف يمعز في ظل الربيع جناب؟ وأين شعره الذي لا يهرم في مدح الأمير؟ ألا يشفع ذلك عند الممدوح!؟ ممَّا يعودُ بنا إلى قوله في المقدمة:

أما علمت أنَّ الشفيعَ شبابُ فيقصرُ عن لوم المحب عتابُ
علامَ الصّبا غضٌّ يرفُّ رواؤه إذا عنَّ من وصلِ الحِسانِ ذهابُ
وفيمَ الهوى محضٌ يشفُّ صفاؤُه إذا لم يكن منهنّ عنهُ ثوابُ

أليس الثواب في المطلع يقابل سرور الغنى، وأري المنى، والشرابُ العذب؟ كما أن شفاعة الشباب للمحبوبة في المطلع، تقابل شفاعة الشعر الذي لا يهرم في الممدوح؟ قد يكون..!

- في بلاط المعتضد بن عبَّاد:

لقد وجدنا صورة الغزل في المقدمة عند ابن زيدون قد يدل بالإشارة فيها، على الممدوح، وما يحيط بالشاعر من مؤامرات ودسائس، أو إشاراتٍ إلى علاقته به، ومدى رضاه وسخطه وما إلى ذلك. . ومن هذه المطالع الغزلية قصيدته التي صاغها في رحلته الأولى إلى إشبيلية، فقد انتقل ابن زيدون بعد فراره من سجنه في قرطبة إلى إشبيلية، وظل يحدوه الأمل بالرجوع إليها، ويرسل الوساطات في الشفاعة لدى أميرها، حتى عاد إلى قرطبة في أواخر أيام ابن حزم، ليقيم فيها مدةً من حكم ابنه أبي الوليد، إلى أن حدث ما أوجب الجفاء بينهما بسبب ثورة بني ذكوان أصدقاء الشاعر كما ذكرنا في مناسبة القصيدة السابقة، ممَّا دعا ابن زيدون إلى الهجرة مرةً أخرى إلى إشبيلية، عند مليكها المعتضد بن عباد(٥١) وتبدأ هذه القصيدة في رحلته الأولى إلى إشبيلية بمقدمة غزلية استغرقت عشرة أبيات، يقول في أولها(٥٢):

أعَرفُكِ راح في عُرفِ الرّياحِ؟	فهزَّ من الهوى عِطفَ ارتياحي
وذِكرُكِ ما تعرَّضَ أم عِدادٌ؟	غصِصْتُ إليهِ بالعذبِ القَراحِ
وهل أنا منكِ في نشواتِ شوقٍ	-هفَتْ بالعقلِ- أم نشواتِ راحِ؟

(أعرفك: العرف الريح الطيبة/ العُرف: التتابع، ومنه قوله تعالى «والمرسلات عرفا»/ العطف: الجانب/ العِداد: هياج الوجع/ الماء القراح: الصافي/ النشوات: جمع نشوة وهي السكر/ هفت بالعقل: ذهبت به/ الراح: الخمر/ اللسان) يبدأ

الشاعرُ المطلع باستفهامٍ فيه تشكيك، أوما يُسمَّى بتجاهل العارف فقد تساءل عن رائحةِ عطرها في الرياحِ المتتابعة، هل هو العطر؟ أم الذكرى أهاجت شوقه؟ أم مرضٌ عاوده فكدَّر صفو شربِ الماء العذب؟ وهل ما به نشواتُ شوقٍ أم نشواتُ سكر؟ كلُّها أسئلةٌ لا تتطلبُ جواباً، وإنما أراد بها الشاعرُ تصوير ما به من حالةٍ شعورية يتجاذبُها الهوى والشوق، ونحن نعلمُ تعلُّق الشاعرِ بقرطبة، ففيها وُلدَ، وقضى أيام صباه ولهوه، وشهدت متنزهاتُها مواضع أنسه وحبه، وقد قال عندما هرب منها، راجياً أن يعود إليها(٥٣):

فـررت فإن قالـــوا الفــرارُ إرابـةٌ   فقد فرَّ موسى حين همَّ بـهِ القِبطُ
وإنـــي لـــراجٍ أن تعودَ كبدئِـــها   ليَ الشيمةُ الزَّهراءُ والخُلقُ السبطُ

ونجده هنا يذكر- في المطلع العرف وهي الرائحة الطيبة، وتتابع الرياح التي تنقلها، وطيب ذكراها، واهتزازه لهذه الذكرى أو الرائحة، وانتشاءه بها، انتشاء السكرانِ بالخمر (أعرفك/ عرف) فجاء بكلمات تشترك في اللفظ وتختلف في المعنى وهي طريقةٌ أسلوبية تكثر في شعر ابن زيدون ليعبِّر بذلك عن حنين جارف قد يشمل كلَّ ما حنَّ إليه الشاعرُ من أهل ووطنٍ ومكانٍ وزمانٍ ومحبوبة.. وما إلى ذلك.. ثمَّ قال مُقسماً ومؤكّداً:

لعمرُ هواكِ ما وَرِيَتْ زِنــادٌ   لوصلٍ منــكِ طالَ له اقتداحي

(لعمر هواك: لحق هواك/ وري الزناد: خرجت ناره/ اللسان) فكم طال طلبُهُ لوصلها وعطفها، فشبَّه طلب الوصل بالاقتداح، والهوى بالزناد، وفيه معنى التأجيج والاشتعال، مما ناسب الهوى والشوق، وقال (اقتداحي) فجاء بزيادة في المبنى لإرادته زيادةً في المعنى، وهو شدّة طلبه للوصل، والإلحاح فيه، وقال (لعمر هواك) أي لعمر هواكِ قسمي أو يميني، فأقسم بحق هواها عليه أنَّه ما ترك محاولة

أن يفوز بهواها ووصلها، ونحن نعلم أن ابن زيدون قد عرَّض كثيراً في قصائده ورسائله لأبي الحزم ابن جهور بطلب العفو -وصرَّح أيضاً- دون طائل، مما ناسب قوله هنا مُشيراً إلى محبوبةٍ طال طلب وصالها (ما وريت زنادٌ لوصلٍ منكِ) فقد عانى كثيراً من الوشاة الذين أحاطوا بالأمير حتى سجنه(٥٤):

أئن زعمَ الواشون ما ليس مَزعماً   تُعذَّرُ في وصلي وتَعذِرُ في خذلي

يقول من قصيدته الطائية، التي وجهها لأستاذه أبي بكر مسلم بعد لجوئه لأشبيلية يستشفعه عند ابن حزم:

ومـا زالَ يُدنيـني ويُنئي قَبــولَهُ   هوى سَرَفٌ منهُ وصاغيةٌ فَرطُ(٥٥)

وفيها:

عـدا سمعُهُ عنّي وأصغى إلى عِدَا   لهم في أديمي كلّما استمكنوا عطُّ

وهو هنا في النص المُتناول يقول:

وكم أسقمتِ من قلبٍ صحيـحٍ   بسقمِ جفونكِ المرضى الصّحاحِ

(كم) يُقصَدُ بها التكثير، وهي خبرية، أي أنك أسقمتِ قلوباً كثيرةً بجمال عينيك الناعستين، وقوله (المرضى الصحاح) يعني به أنه كأنَّ بهما داءٌ وما بهما! وقد يكون فيه إشارةٌ إلى تحيُّر الشاعر في أمرِ ابن جهور في معاملته، والنظر إليه، وإشارة أيضاً إلى كثرة المريدين حوله (وكم أسقمت من قلبٍ صحيحٍ)، وتحيُّره هنا يشبه تحيُّره في قوله من قصيدة(٥٦):

إبائـي في جـواركـمُ الذليـلُ   وحدّي في جواركمُ الكليلُ
لمختلفـانِ من حـاليَّ مهـما   أجالَ الفكرَ بينهما مُجيلُ

نصيبٌ من ولايتكم كثيرٌ وحظٌّ من عنايتكُم قليلُ
أتحيا أنفسُ الآمالِ فيكم ولي أثناءَها أملٌ قتيلُ

وهكذا نجد أن الحبيبة في شعر ابن زيدون في المقدمات «حبيبةً رمزية أراد الشاعر أن يُمهّد بها للغرض الأساسي من القصيدة، وهو المديح، فأراد أن تكون لها صفاتٌ فيها من صفات الممدوح، ومنها كثرة الأحبَّاء، وللحب الحق ظواهر، ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه، وغيرته عليه، لذلك لا نظن أن المحبوبة في قصيدة ابن زيدون محبوبةً حقيقية، إنما هي محبوبةٌ رمزية استدعتها التجربة الفنية في القصيدة»(٥٧) ثم يقول الشاعر:

متى أُخفِ الغرامَ يصفهُ جسمي بألسنةِ الضَّنى الخُرسِ الفِصاحِ
فلو أنَّ الثيابَ نُزِعنَ عنّي خفيتُ خفاءَ طرفِكِ في الوِشاحِ
للُقّينَا من الواشينَ حتَّى رضينَا الرُّسلَ أنفاسَ الرياحِ

وهنا تصويرٌ لحالة شديدة من الوجد والحب، يظهر ذلك من المبالغة في وصف الذبول والنحول، الذي أخفى جسمه، خفاء الوشاح في خصرها، فكم قاسى من الوشاة حتى قنع بتحميل شوقه أنفاسَ الرياح، وكم قاسى منهم وهو في بلاط ابن الحزم، وكم راسل الوسطاء من إشبيلية مستعطفاً إياه، لقد غادر الشاعر قرطبة هارباً رغماً عنه، وتصويرُ ألم الفراق عند من أُجبرَ على الخروج من الوطن، أوجع منه عند من خرج اختياراً، ولذا؛ كانت المبالغة في وصفِ النحول والذبول، ومن هنا قد يتّسع في الشعرِ معنى الشوق إلى المحبوبة، إلى شوقٍ أكبر؛ إلى وطنٍ ومكانٍ ومكانةٍ -إضافةً للمحبوبة- وهذا ما يسمح لنا بأن نعتقد أن المحبوبة هنا، لم تكن امرأةً فحسب، بل كل ما أحبه الشاعر في وطنه، وما الشوق والحنين ووصف الذبول والنحول إلاَّ إشارة من الشاعر، لحالةٍ نفسية عاناها في

غربته، ولذا؛ فهو يذكر وطنه الذي نعمَ فيه بما يريد ومن يريد:

وربَّ ظلامِ ليــلٍ جنَّ فوقي ... فنُبتُ عن الصّباحِ إلى الصَّباحِ
فهل عدَتِ العفافَ هناكَ نفسي ... -فديتُكِ- أو جنحتُ إلى الجُناحِ
وكيــف ألجُّ لا يُثنــي عِنــاني ... رشــادُ العزمِ عـن غَيّ الجِمـاحِ

(جنَح: مال/ الجُناح: الإثم/ ألج: ألحُّ/ يثني عناني: يردني/ الغيّ: الضلال/ الجِماح: الاندفاع/ اللسان) فلو كان الشاعر قد وجد من الفراق والبعد ما وجد، فقد طالما كانت له ليالٍ قضاها فيما يحب، وقال (رب ظلام ليل) وسياق الكلام يُفهم منه التكثير، أي أنني كثيراً ما فعلتُ ذلك، وسؤاله التقريري هنا (فهل عدت العفاف هناك نفسي؟) يشيرُ به إلى ما امتاز به عن سواه، من الإخلاص والوفاء ونقاء السريرة، وهو العفافُ الذي ميَّزَ علاقته بمحبوبته، رغم الليل الطويل الذي قضاه معها حتى الصباح، فقال (وكيف ألجُّ لا يثني عناني رشاد العزم..) وهو الرشاد الذي ذكره عندما خاطب الأمير ابن جهور من سجنه بقوله(٥٨):

وإنّي لتنهاني نُــهايَ عن التي ... أشادَ بها الواشي ويعقِلُنــي عقلي

ويقول فيها:

وما كنتُ بالمُهدي إلى السُّودَدِ الخَنَا ... ولا بالمسيءِ القولَ في الحسنِ الفِعلِ

وكأن الشاعر يتوجه بالمطلع في مديح المعتضد إلى ابن جهور -وما كان عليه الشاعر من إخلاصٍ ووفاء- ويتشوَّق إلى وطنه؛ فجاءت المحبوبة بعيدة بُعد قرطبة لا تُدَركُ إلاَّ بالرائحة التي تحملها الرياحُ أو بالذكرى، عانى في سبيل الوصول إليها (ما وريت زنادٌ لوصل) وكان عليه من هواها شواهد الذبول والنحول، وكان في

لياليه معها عفيفاً لم يندفع في الغواية، كما أنه لم يتآمر ضد الأمير عندما كان في بلاطه وهي التهمة التي تسببت بسجنه وأدت بالتالي إلى لجوئه لإشبيلية، يقوّي هذا التأويل ويؤازره، قوله في القصيدة بعد أن مدح المعتضد:

ألا هل جــاءَ من فارقتُ أنّي ... بساحـاتِ الـمُنى رفلُ المِراحِ؟
وأنّي -من ظلالك- في زمـانٍ ... ندي الآصالِ رقراقِ الضَّواحي
تُحيينـي بريــحـان التَّحفّـي ... وتُصبحُـنّي معتّــَقةَ السَّمـاحِ

وقوله (ألا) التي للاستفتاح، واستفهامه بعد ذلك بـ (هل) أراد به التعريض بأبي الحزم بن جهور، وهو الذي قال له قبل ذلك ملوّحاً بالرحيل(٥٩):

يا مُرشدي جَــهلاً إلى غيرِهِ ... أغنى عن المصباحِ ضوءُ الصَّباح

وقال أيضاً في قصيدة أخرى(٦٠):

سيُعنَى بِما ضيَّـعتَ منّي حافظٌ ... ويُلفَى لمَا أرخصتَ من خطري مُغلِي

ولذا؛ وصف في هذه القصيدة كيف أصبحت حاله عند المعتضد في صورة رائعة لمكانٍ فسيحٍ واسع، يجرُّ الشاعر ذيل ثوبه فيه متبختراً، مرحاً، نشيطاً (بساحات المنى رفل المراح) في ظل ملك (ندي الآصالِ رقراق الضواحي) وأراد أنه في كنفه في في زمانٍ قشيب، تحقَّقت فيه آمالُه، ولذا قال فيه:

لقد أنفذت في الآمالِ حُـكمي ... وأجريتَ الزَّمانَ على اقــتراحي
وهل أخشى وقوعاً دون حـظّ ... إذا ما أثَّ ريشُكَ في جنــاحي
فما استسقيتُ من غيـمٍ جَهامٍ ... ولا استوريتُ من زنــدٍ شَحاحِ

(أثَّ: كثر والتفَّ/ جَهام: السحاب الذي لا ماء فيه/ استوريت: طلبت النار/ زند: العود تُقدَحُ به النار/ شحاح: بخيل/ اللسان) ألا تقابل هذه الصورة في وصف أنه حاز ما يُريد وما تطلَّعت إليه نفسه، دون طلبٍ منه، أو بالأحرى دون إلحاحٍ أو لجاجةٍ أو اقتداح (فما استسقيت/ ولا استوريت) ألا يقابل ذلك قولَه في المطلع:

لعمرُ هــواكِ مــا وريـت زنـادٌ لوصلٍ منكِ طال له اقتــداحي

فقد طالما حاول الوصول إلى رضى أبي الحزم دون جدوى، أما هنا في إشبيلية فما استسقى، ولا استورى، وقوله (شحاح) فيه تعريضٌ بأبي الحزم الذي طالما تطلع إلى عفوه دون جدوى، وطالما سأله الخلاص من السجن دون طائل، فكان في ذلك شحيحاً كالسحاب الجهام وقد قال في ذلك(٦١):

حُرِمتُ منــهُ وحظُّ النَّاس كلُّهُمُ لهذه العبرةِ الكُبــرى من العِبَرِ
قد كنتُ أحسبني والنَّجمُ في قرنٍ ففيمَ أصبحتُ مُنـحطَّاً إلى العَفَرِ

وقال له أيضاً(٦٢):

لا تلهُ عني فلم أسألكَ مُعتـسِفاً ردَّ الصِّبــا بعد إيفاءٍ على الكِبَرِ
واستوفر الحظَّ من نُصحٍ وصاغيةٍ كلاهما العلقُ لم يوُهَب ولم يُعــَرِ

أمَّا هُنا في إشبيلية فقد ثمل من العطاء، وانتشى به فلهج بالثناء والنصح:

فها أنا قد ثَمِــلتُ من الأيادي إذ اتّصل اغتباقي في اصطبــاحي
فإن أعجز فإنَّ النُّــصحَ ثقفٌ وإن أسكر فإنَّ الشُّــكرَ صاحي
لِمَا أكسبـــت قدري من سناءٍ وما لقَّيتَ سعيي من نـــجاحِ

– والقصيدة التالية نظمها ابن زيدون مادحاً المعتضد في مستهل حياته العملية في إشبيلية عندما هاجر إليها للمرة الثانية سنة ٤٤١هـ واستقرَّ بها، يقول في أولها[٦٣]:

للحُبّ في تلك القِباب مَرادُ	لو ساعفَ الكلِفَ المَشوقَ مُرادُ
ليَغُر هواكِ فقد أجدَّ حمايةً	لفتاةِ نجدٍ فتيةٌ أنجادُ
كم ذا التجلُّدُ؟ لن يساعِفك الهوى	بالوصلِ إلاَّ أن يطولَ جِلادُ

(المَراد: موضع الارتياد رادت الإبل اختلفت في المرعى/ الكلف: المحب/ مُراد: أمل وغاية/ اللسان) وفي هذا المطلع شَوبٌ من الحنين والشوق، والإحساس بالمرارةِ للفقد، قال (للحب في تلك القباب) فاستخدم اسم الإشارة للبعيد (تلك) وقدم الجار والمجرور (للحب) لأهميته عنده، لأنه موضع العناية بالقول، فالحبيب يسكن تلك القباب البعيدة، ولو كانت الآمالُ تأتي بما تشتهيه النفس، لكان له في تلك القباب (مَراد) أي لارتاد ذلك المكان الخصب بالذكريات في قلبه، لأن المَراد لا يكون إلا لطلب المرعى، ولا يكون المرعى إلا خصباً، وقال: ليَغُر هواك، (ليغر: ليخفض، لأن الغور ما انخفض من الأرض، والنجد ما ارتفع منها/ وأنجاد: جمع نجد وهو الشجاع الماضي/ اللسان) و(ليغُر) اللام لام الأمر، وفي ذلك طلبٌ من الشاعر للهوى بأن يذهب، ويتحوَّل، لأن فتاته يحميها فتيةٌ أنجاد، (كم ذا التجلَّد؟) فيه استفهامٌ للتعجب، فقد كثر تكلفه الصبر، فالهوى لن يساعفه بالوصول إلى ما أراد إلاَّ (أن يطولَ جِلاد)، ونحن نعلم أن ابن زيدون نظم هذه القصيدة بعد هجرته وخروجه الثاني من إشبيلية، وقد كان في القصيدة السابقة مؤمّلاً في الوصل أو راجياً العفو والعودة، أما هنا فإن الإشارات توحي في النص بانقطاع العلائق، وخفوت الأمل، فقد خرج الشاعر بعد ما كان من جفاء أبي الوليد بن جهور له، بسبب شكه في علاقته بثورة بني ذكوان أصدقاء

الشاعر، فخرج من وطنه ودياره، مع حبه لأهله، خروجاً لا عودة بعده، لخشيته على نفسه، ولذا؛ تطلَّع بعين الشوقِ إلى مواضع أنسه وأحبته، فجاء الاستفهام التعجبي مخاطباً الشاعرُ به نفسه (كم ذا التجلد؟) ولذا جاءت الإجابة أيضاً على التجريد (لن يساعفك الهوى) فكأنه اتخذ في أسلوب المخاطبة رفيقاً يسأله فيجيبه على عادة الشعراء الجاهليين، وهو في هذا يهيمن عليه الشعور بالوحشة فيتخذ أنيساً له يساعفه بالإجابة، ولكنها إجابةٌ صادمة (لن يُساعفك الهوى بالوصل) ثمَّ يستثني (إلاَّ أن يطول جلاد) وقد طالما طالت حروبه مع أعدائه وحساده(٦٤):

فديتك كم ألقى الفواقرَ من عِدا ... قِراهم لنيران الفسادِ ثقابُ

وهي القصيدة التي ذكر فيها الأهوال والمعشر، ولكنه في هذه القصيدة ضرب صفحاً عن ذلك، واكتفى بذكر أنها من نجد، ويحميها فتيةٌ أنجاد، وأنه لن يسعفه الهوى إلا بطول جلاد، وقد يعود ذلك إلى حالةٍ نفسية من الشعور بالانهزام أمام الظروف والأحوال، وتقلبات الحياة، ولذا؛ كان الرحيل الثاني، ثم قال:

أعقيلة السرب المُباحِ لورِدِهَا ... صفوَ الهوى إذ حُلّيءَ الوُرَّادُ
ما للمصايدِ لم تنلكِ بحيلةٍ ... إنَّ الظباء لتُدَّرى فتُصادُ

(عقيلة: كريمة الحي/ السرب: جماعة النساء أوقطيع الظباء/ حُلّيء الورادُ: مُنعوا وطردوا/ اللسان) وجه سؤاله للمحبوبة بأداة الاستفهام الهمزة الدالة على القرب، مما يشي بقربها منه عاطفياً، وإن كانت بعيدة في (تلك القباب) ولكنّه مُنعَ هواها وطُرد عنها، ولم تسعفه الحيلة في الوصول إليها، ألم يذكر تغيُّرَ الأميرِ عليه في القصيدة التي تنصَّل فيها من الفتنة وعرَّض بخروجه من قرطبة(٦٥):

وإن الذي أمَّلتَ كُدِّرَ صفوُهُ ... فأضحى الرضى بالسخطِ منه يُثابُ
وقد أخلَفت مما ظننتَ مخايلٌ ... وقد صفِرَت ممَّا رجوتَ وِطابُ

ولذا ذكر في هذه القصيدة أنه مُنع هواها، وصُدَّ عنها، فقد أخرجته كُدرةُ العيش في قرطبة ليطلب صفوه في إشبيلية، ألا يتَّسع التأويل هنا، لتصبح الحبيبة النائية، قرطبة، التي لاتزال قريبة من قلبه، ولكنه لا يستطيع العودة إليها، أو لن يكون هناك وسيلة في أن يرودها، أو يذهب إليها ويجيء؟ (المَراد: المكان الذي يُذهب فيه ويُجاء/ اللسان) والشاعر عندما يقنع بالإياب عن خوض المعارك والجِلاد، فما ذاك إلاَّ لأنه لم يستطع أن يصلها ولو بالحيلة، ولذا؛ تعجب فقال:

ما للمصايدِ لم تنلكِ بحيلةٍ　　　إنَّ الظباء لتُدَّرى فتُصادُ

أليس في ذلك إشارة إلى تغيُّر ودٍّ ليس براجٍ صفوه، وجفاءٍ طال ليله، وقد قال من قصيدة، موجهاً خطابه للأمير(٦٦):

أرى نبوةً لم أدر سرَّ اعتراضها　　　وقد كان يجلو عارضَ الهمّ أن أدري
جفاءٌ هو الليلُ ادلهمَّ ظلامُهُ　　　فلا كوكبٌ للعُذرِ في أفقهِ يسري

ثم يقول هنا:

إن يعدُ عن سَمُراتِ جِزعِك سامرٌ　　　في كلّ مُطَّلعٍ لهم أرصادُ
فبِمَا ترقرق للمتيَّمِ بينَها　　　غللٌ نفى حرَّ الغليلِ بُرادُ
أنا حين أُطرِقُ ليسَ يفتأُ طارقي　　　شوقٌ كما طرقَ السَّليمَ عِدادُ

(يعدُ: يصرف/ السمرات: شجر الطلح/ الجزع: منعطف الوادي/ السامر: المجتمعون للحديث في الليل/ أرصاد: مراقبون/ ترقرق: تلألأ ولمع/ الغلل: الماء الجاري المتخلل بين الأشجار/ الغليل: شدة العطش/ البراد: الماء البارد/ أطرق: أرخى عينيه إلى الأرض، أمال رأسه وأسكنه/ ليس يفتأ: ليس يبرح/ السليم:

اللديغ/ العِداد: اهتياج الوجع القديم ومعاودته/ اللسان) لقد اكتفى ابن زيدون هنا بأن يقول: إنه انصرف عن حيّها لوجود الأرصاد من أهلها الذين أشار إلى كثرتهم بقوله (في كلّ مُطَّلعٍ) أي (في كل موضعٍ تطلع عليه الشمس/ اللسان) وهو الذي قال في قصيدته الرائية معرضاً بخروجه، مشيراً إلى رصدِ أعدائه له(٦٧):

ففيمَ أرى ردَّ السلام إشـــارةً　　　تسوّغُ بي إزراءَ من شاءَ أن يُزري
أناسٌ همُ أخشى للذعـة مِقولي　　　إذا لم يكن ممَّا فعلتُ لهم مُضْـــرِ
فإن عاقتِ الأقدارُ فالنفسُ حرةٌ　　　وإن تكن العُتبى فأحرِ بها أحـــرِ

لقد أمعن الشاعر في هذه القصيدة في وصف الأسى الذي اجتاحه لفراق من يحب، وما يحب، فقد عجز عمَّا أراد من ابن جهور، وأعيته السبل، فحيل بينه وما يشتهي؛ الوطن والأهل والأحباب إضافةً إلى المركز والجاه والمنصب، ولذا؛ نجد في هذه الأبيات الثلاثة (إن يعدُ/ فبما ترقرق/ أناحين أطرق) نبرة الخضوع والاستسلام، والإحساس بالشوق المُمِضّ الذي يظهر في صورة المياه الجارية المتلألأة بين أشجار حيّها، ووصفها بأنها باردة، وأنها تشفي غليله، لو كان في الوصول إليها سبيل (ما للمصايد لم تنلك بحيلة؟!) ولذا؛ يرتدُّ بالصورة إلى نفسه، فيذكر أن إطراقه وسكونه وعدم رغبته في مواجهة خصومه، لا يعني نسيانه لوطنه وأهله، بل إن هذا الإطراق لشوقٍ يعوده، كما يعود اللديغَ وجعُه، وتستوقفنا صورة الإطراق والسكون، فهي إشارةٌ بأن لا رجوع، ولذا فإن شوقه (لا يفتأ) فلا يفارقه أو يتركه، ثم يقول:

ينهى جفاؤكِ عن زيارتيَ الكرى　　　كيلا يزور خيـــالُكِ المعتادُ
لا تقطعي صلة الخيالِ -تجنُّباً-　　　إذ فيه من عوزِ الوِصالِ سِدادُ
ما ضرَّ أنَّكِ بالسلام ضنينـةٌ　　　أيام طيفكِ بالعنـــاقِ جوادُ

(العوز: الحاجة/ السّداد: ما سُدَّ به، يقال: سدادٌ من عوز، وسدادٌ من عيش أي ما تُسدُّ به الحاجة/ ضنينة: بخيلة/ اللسان) لقد وجدنا اختلافاً في التناول لصورة الفتاة الـمُمَنَّعة- هنا لاختلاف المقصد، فالمحبوبة في هذا النص، هي التي تجفو الشاعر، وهي التي تقطع الصلة ولو بالسلام، ويخشى أن تضنُّ حتى بالخيال في المنام (ينهى جفاؤك/ لا تقطعي صلة الخيال/ تجنُّباً / بالسلام ضنينة) وقوله (تجنُّباً) اعتراضٌ من الشاعر له دلالته في المعنى، بأن الإعراض كان منها هي (تجنُّباً) وليس خوفاً من أهلها، ففي قصيدته التي توجه بها إلى أبي الوليد ابن جهور مهنئاً: (أجل إن ليلى حيثُ أحياؤها الأُسدُ) كانت الفتاة لا تفي بالوعد، وتمنع الوصل، ليس برغبةٍ منها، إنما لخوفٍ من أهلها المصاليت(٦٨):

لها عدةٌ بالوصلِ يوعدُ غبّـَها	مصاليتُ يُنسي في وعيدهم الوعدُ
عزيزٌ عليهم أن يعودَ خيالُـها	فيسعفَ منها نائلٌ في الكرى ثمدُ
كفى لوعةً أنَّ الوِصالَ نسيئـةٌ	يُطيلُ عناءَ المُقتَضي والهوى نقدُ

وقد كانت القصيدة في التهنئة والتعريض بطلب الوزارة -وهو في بلاط الأمير- لم يكن بينهما جفاءٌ أو قطيعة، وإنّما استبطاءٌ لما تعلَّقت به نفسه من وصولٍ لأعلى المراكز، فجاءت المحبوبة ممنوعة من الزيارة، يعزُّ على أهلها أن تصله، وجاء وعدها نسيئةً آجلاً، رغم أن هواه لها نقد، وقد ذكرنا أنه قد يعني به رغبات نفسه التي تأجَّلت، وأمَّلَ بلوغها، أمَّا هنا؛ فالمحبوبة قاطعةٌ بنفسها، جافيةٌ للشاعر، مانعةٌ للوصال، والشاعر نظم هذه القصيد في بداية عهده الثاني في إشبيلية حيث مشاعر الفراق لا تزال متأججة فوصف فيها حالةً نفسية من الشعور بالفقد لوطنه وأحبته، وأميرٍ جفاه وقلاه وتغيَّر عليه، مما اضطره لمفارقته، كما أن قوله هنا (أيام طيفك بالعناق جواد) فيه رغبة دفينة بالعودة، فجاء العوض عن الحقيقة بالخيال والطيف المعانق، ولعلَّ الأمل لم يفارق الشاعر

فجاءت الأبيات التالية محمَّلة بالاستعطاف والشكوى:

هلاَّ حمـلتِ السقمَ عن جسمٍ له ... في كلَّةٍ زُرَّت عليـــكِ فؤادُ
أو عُدتِ من سقمِ الهوى إنَّ الهوى ... ممَّا يُطيل ضنى الفتى فيُـعادُ

وقوله (هلاَّ) فيه طلبٌ وتحضيضٌ، بأن تزوره لما هو عليه من سُقمٍ بسبب الهوى، ولكن.. لا يلبث ابن زيدون أن ينفض مشاعر الخنوع والاستكانة، فقد كان من ملامح شخصيته المميزة الشعور بالعزة والإباء[٦٩] نستشف هذه الملامح من شعره ورسائلة، ومن ذلك رسالة وجهها إلى الأديب أبي بكر بن مسلم أيام فراره من السجن يقول فيها «ووجدت الحرَّ ينام على الثّكل ولا ينام على الذل...»[٧٠] فيقول هنا:

إيهاً فلولا أن أروعــكِ بالسُّرى ... لدنَــا وِسادٌ أو لطالَ سوادُ
لغشيتُ سُجفكِ في مُلاءةِ نثــرةٍ ... فُضُلٌ، سوى أن العطاف نِجادُ
لأميلُ في سُكرِ اللَّمى فيبـيتُ لي ... ممَّــا حوى ذاكَ السوارَ وِسادُ
فعِدي المُنى فوعيـدُ قومِكِ لم يكن ... ليعوقَ عن أن يُقتَضى الميـعادُ

(إيهاً: حسبك أوكُفّي/ السُّرى: السيرليلاً/ السِواد: السِرار والمناجاة/ السجف: الستر/ الملاءة الإزار/ النثرة: الدرع الواسعة/ العطاف: الرداء أو السيف/ نجاد: حمائل السيف/ اللمى: سواد الشفة/ اللسان) وهنا تأتي اللمحة القيسية في صورة اقتحام الخدر فهو الذي يستطيع الوصول إليها رغم منعة أهلها الفتية الأنجاد بل أيضاً رغم جفائها، وقطعها للوصل (تجنُّباً) وهذه اللمحة في الشعر تشي بما يخالج ابن زيدون من أملٍ في العودة وإن كان أملاً بعيداً مُعلَّقاً فقال (لولا) وهو حرف شرطٍ يدل على الامتناع، امتناع الجواب لامتناع الشرط، فامتنع اقتحامه الخدر (لغشيت سجفك) لعدم رغبته في أن يروعَها (لولا أن أروعك) وفيه اعتزازٌ

بالنفس واستعراضُ للقوة فقد «قضى حياةً كلَّها كفاح ونضالٌ في سبيل بلوغ القمة، فإذا صدمته الأحداث أو قهرته النوائب هبَّ إلى النضال ثانية، وأبى إلا أن يستردَّ مكانته، ويسترجع منزلته، وكم ناضل خصوماً ألدَّاء، وكافح منافسين أقوياء من قضاةٍ ووزراء، فلم يفلَّ عزمه يأس، ولم يثلم حده قنوط، حتى تم له الانتصار»[٧١] ولذا؛ ظلَّ الأمل يراود الشاعر طوال مدة إقامته في إشبيلية، فقد كان يحلم بفتح قرطبة التي عزَّت على ذلك خلال حكم المعتضد، ولكن الحلم تحقق في أيام المعتمد بمعونة ابن زيدون، الذي دخل قرطبة قريراً راضياً[٧٢] ألا تعني هذه الأبيات التعريض بالاستيلاء على قرطبة من قبل المعتضد الذي دانت له معظم ممالك الأندلس! وقد كان.. وعاد ابن زيدون غاشياً سجف قرطبة، بعد طول غياب، ولذا قال في القصيدة متوعداً بالعودة، رغم البعد (تلك القباب) ورغم الوعيد:

فعِديّ المُنى فوعيدُ قومِكِ لم يكن ليعوقَ عن أن يُقتَضى الميعادُ

فلن يحول بينه والوصول إلى غايته حائل، ولا بدَّ من العودة، فقد طالما صبَا إليها وانتشى برائحة عطرها:

أصبو إلى ورد الخدودِ إذا عدَت جُـرْدٌ تبلّغـني جنـاهُ وِراد
وأراحُ للعطـرِ النَّمـومِ أريـجُه إن شيبَ بالجسدِ العطيرِ جِساد

(أصبو: أميل/ عدت: جرت/ الجرد: جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر/ الجنى: الثمر الغض/ الوِراد جمع ورد وهو لون بين الحمرة والشُّقرة في الخيل/ أراح: أطرب وأنشط/ شيب: مزج/ الجساد: الزعفران ونحوه من الصبغ الأحمر والأصفر/ اللسان) والمعنى: إن الخيول الحمر الجرد تذكرني بلون الخدود، فأُنشِطُ خيلي، وأسرع بها عدواً، لأجتني من جمالها، فأرتاح لرائحة الجسد التي مُزجت

برائحة الزعفران، لم نجد في المشاهد السابقة لمطالع فتاة الخدر عند ابن زيدون مثل هذه الصورة اللونية التي ساد فيها اللون الأحمر، في الخيول الجرد، والخدود، والجساد، فلماذا ساد اللون الأحمرُ هنا؟! ولماذا ذُكِر الخيل في معرض تشبيه الخد بالورد؟!، ولماذا جاءت هذه الصورة بعد طلب الوعد، وذكر الوعيد، الذي تلا وصف قدرته على بلوغ المراد؟! ألا تدل هذه الإشارات على مقاصد الشاعر، وتطلعاته، في بلوغ ما أمَّله من العودة إلى وطنه، ولو على الخيول الجرد الحمر التي شابهت احمرار خدود صاحبته!؟ أليس في هذه الصورة المشوبة باللون الأحمر دلالة على فتح قرطبة الذي طمح إليه الشاعر مما ألمح به إلى الدماء التي قد تُسفَك في سبيل ذلك؟! قد يكون! ولعلَّ ما يؤيد هذا التأويل، قوله بعد ذلك:

عزمٌ إذا قصد الحمى لم يَثنه ... أنَّ القنا من دونِهِ أرصادُ
من كان يجهلُ ما البليدُ فإنَّهُ ... من تطَّبيه عن الحظوظِ بلادُ
وفتى الشَّهامةِ من إذا أملٌ سما ... نفذت به شورى أو استبدادُ

(القنا: الرماح/ أقصاد: متكسّر/ البليد: الغير ذكي، والبلادة ضد النفاذ والذكاء والمضاء في الأمور/ تطَّبيه: تصرفه/ فتى الشهامة: الشهم هو الذكيُّ المتوقّد والشهم الجلد النافذ في الأمر/ استبداد: استبد بالأمر انفرد به/ اللسان) فإذاً؛ لابدَّ من العزم الذي يبلغ الأمل، ولو على ظهور الجياد الجرد، ولو تكسَّرت الرماح لطول الطّعان، فهو الذي خرج من بلده لأنه كره الإقامة على الذُّل، وفضَّل الارتحال للمجد، وقد قال (فإن عاقت الأقدار فالنفس حرة)(٧٣) فهو الفتى الشَّهم المتوقد الذكاء، الجسور، الذي لا يمنعه عن بلوغ هدفه شيء، إذا أصرَّ عليه، وتطلعت إليه نفسه، وهو الطُموح الذي أهَّله لأن يصل لأعلى المناصب في كنف المعتضد، ثم ابنه المعتمد، وهو أمله الي ظلَّ يحدوه حتى دخل قرطبةَ منتصراً، ولذا؛ لم يحُل بينه وبلوغ هدفه اليأسُ والقنوط، فإن طال البعد،

فلا بُدَّ من اللقاء إذ (لن يطمئنَّ له مهاد):

من مبلغٌ عني الأحبَّـة -إذ أبتْ ذكراهُمُ أن يطمئـنَّ مهادُ-
لا يأسَ رُبَّ دنـوّ دارٍ جامعٍ للشَّمل قد أدَّى إليـه بِعادُ

وقد كان رحيله إلى إشبيلية سبباً في عودته فاتحاً لقرطبة، وكان البعد سبباً للقرب، كما كان خروجه إلى بلاط العباديين طلباً للمجد، وتحقيقاً للآمال:

إن أغتـرب فمواقع الكرم الذي في الغـرب شمـتُ بروقه أرتـادُ
أو أنـأ عن صِيدِ الملوكِ بجانبي فهـمُ العبيـدُ مليـكُهم عبَّـاد

وقد كان بنو جهور عند ابن زيدون وهم صيد الملوك، عبيداً عند بني عباد، لأنهم القوة التي لجأ إليها ليُري خصومَه وابن جهور أنَّه في كنفهم نال ما تطلَّعت إليه نفسه:

لـمَّا وردتُ بورِدِ حضرتك المنى فهِـقتْ لـديَّ جِمامَها الأعـدادُ

(فهقت: امتلأت/ الجمام: المياه الغزيرة/ اللسان) ولذا قال:

مهما امتدحتُ سواكَ قبلُ فإنَّما مدحي إلى مدحي لك استطرادُ

– والقصيدة الثالثة للشاعر في بلاط المعتضد، أنشدها ابن زيدون مهنئاً بالعيد، مُشيداً بفتك الملك بأمراء الأقاليم المجاورة له[٧٤] لقد عُرف عن المعتضد قوته وسطوته وبطشه فلم يزل «يدوّخُ الممالك، وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس، وكان قد اتَّخذ خُشُباً في ساحة قصره جلَّلها برؤوس الملوك والرؤساء، عِوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور، وكان يقول في مثل هذا البستان فليُتنزَّه»[٧٥] وكان مُهابًا من القريب والبعيد، وبخاصة بعد قتله ابنه إسماعيل الذي

كان ولياً لعهده(٧٦) كما عُرِفَ عن ابن زيدون دهاؤه إضافةً لطموحه، وقوة شخصيته، هذه المميزات أهَّلتهُ لأن يخوض غمار السياسة، ويكون له تأثيرٌ في كثير من التغييرات التي حدثت في قرطبة، ثم في إشبيلية، وقد كان يعلمُ بدهائه دهاءَ ممدوحه (المعتضد) وشدة بطشه بأعدائه وواسع حيلته، ولذا استطاع أن يصل إلى المكانة التي يرجوها في بلاطه، فقد «ألقى بيديه مقاليد ملكه وزمامه»(٧٧) بل إن ابن زيدون «صار من خواصّه وصحابته، يجالسه في خلواته»(٧٨) فتقلَّد منصب الوزارة، والسفارة بين المعتضد وملوك الطوائف، ولُقّب بذي الوزارتين، ثم جعله الملك رئيساً لوزرائه والمستشار الأول له، كما استطاع ابن زيدون بحيلته أن يضمَّ إلى مناصبه منصب الكتابة، وهو من أرقى المناصب وأخطرها في الدولة، بل كان المعتضد يتعاطى معه العقار، ويسمح له بدخول حمام قصره، ويرسل له الهدايا من الأطياب(٧٩) لقد صقلت التجربة ابن زيدون، فاستطاع الوصول إلى ما وصل إليه في بلاط المعتضد، رغم ما عُرِف من دهاء الأخير، وواسع حيلته، وبطشه، وقوته، حتى قضى في بلاطه عشرين عاماً «والعجب أنه سلم من المعتضد بن عباد، مع كونه كان مدبّر دولته، ولم يسلم له أحدٌ من أصحابه»(٨٠) ومن الطبيعي أن هذه الفترة من حياته لم تخلُ من كيد الحاسدين، إلاَّ أن دهاءه وحنكته وخبرته، أهَّلته لأن يوقع بخصومه، ولذا كان ابن زيدون يرى بلاط المعتضد جنةً حُفَّت بالمكاره(٨١):

كــأنَّهـــا لي جنَّـــةٌ   حُفَّـت بمكــروه الحســد

«ولكنَّ هذه المتاعب كلها كانت سحابات عارضة»(٨٢) وكانت أيامه في بلاط العبَّاديين في معظمها أياماً انقادت له فيها الأماني، أو لنقل كما قال ابن خاقان إنه فيها «انتكث عقد شدائده وانحل»(٨٣) فامتلأ قلبه بالرضا، ولسانه بالشكر، ومن هنا.. نجد أنه في هذا المطلع يظهر الشعور بالرضا، الذي يشوبه

شيءٌ من الحذر من الملك الطاغية أو الأعداء والحساد المحيطين به والذين لا يخلو صاحب مكانةٍ منهم.. يقول في أوله(٨٤):

أما في نسيم الريح عَرف معرّف — لنا: هل لذاتِ الوقف بالجزع موقفُ
فنقضيَ أوطار المُنى من زيارةٍ — لنا كلفٌ منها بما نتكلّفُ

(العرف: الريح الطيبة/ ذات الوقف: ذات السوار العاجي/ الجزع: منعطف الوادي/ الأوطار: الحاجات/ كلَفٌ: حبٌّ/ نتكلّف: نتجشّم ونتحمل ما لا نطيق/ اللسان) وهو هنا يتساءلُ متطلعاً إلى أن يكون النسيم رسولاً بينه ومن يحب، فتبلغه رائحتها الزكية بمكانها، ويتساءل أيضاً إذا كان بالإمكان أن تزوره المحبوبة التي كنَّى عنها بذاتِ السوار، فيظفر بحاجته، وهو الذي طالما تكبَّد المشاقَّ في سبيل الوصول إليها، وقال (لنا) ممَّا أراد به تخصيص نفسه برائحة عطرها (عرف معرفٍ لنا) وأيضاً تخصيص نفسه بالزيارة (من زيارةٍ لنا)، فلا تأتي رائحتها إلا إليه، ولا تقوم بالزيارة إلا له، ثم يقول:

ضمانٌ علينا أن تُزار ودونَها — رِقاقُ الظُّبا والسَّمهريُّ المُثقَّفُ
وقومٌ عدا يُبدون عن صفحاتهم — وأزهرُها من ظُلمة الحقدِ أكلفُ
غيارى يعدُّون الغرامَ جريرةً — بها والهوى ظلماً يَغيظُ ويؤسفُ
يودُّون لو يثني الوعيدُ زماعَنا — وهيهاتَ ريحُ الشَّوقِ من ذاك أعصفُ

(الظُّبا: جمع ظبَّة وهو حدُّ السيف/ السمهري: الرمح/ المثقَّف: المسوَّى/ صفحاتهم: وجوههم/ الأزهر: الأبيض/ الكلف: الكُدرة/ جريرة: جناية/ زماعنا: مضاءنا/ أعصف: أشد وأقوى/ اللسان) والشاعر عندما ذكر في البيتين السابقين طلبه منها السلام والزيارة، عاد هنا ليستدرك ويؤكد أنها هي من تستحق القدوم إليها، وزيارتَها، وهو كفيلٌ بذلك، قادرٌ عليه، ومتعهّدٌ به، على الرغم مما قد

يحول بينهما من العُدَّةِ والعتاد؛ من السيوف المُرهفة الحادَّة، والرماح المثقّفة، وأهلها الأعداء الألدَّاء، المجاهرون بالعداوة، والذين يسودُ الحقدُ وجوههم المسفرة، المزهرة البيضاء، وهم شديدو الغيرة، يعدون الحب ذنباً، ويعتقدون أنهم بوعيدهم يخيفونه، ويُضعفون عزمه.. لقد بدأ الصورة المُستقاة من صور الحياة العربية لفتاة الخدر بوصف الشوقِ وتمني الزيارة ثم وصَفَ الأهل الغيارى الذين أضاف إلى غيرتهم ما يجتلبُ عداوتهم من هواه بفتاتهم، وهو يذكر نفسه متغنيَّاً بالقدرة في ضمير الجمع (ضمانٌ علينا/ لو يثني الوعيد زماعَنا) وفيه دلالة التحدّي للجماعة، بأن يجعل من نفسه في الشجاعة كثرة موازية للقوم (وقومٌ عدى) وفيه مناسبةٌ أيضاً لقوله (لنا) في البيتين الأولين، بأن يكون هو المخصوص بالزيارة والنسيم، مع أنه الكفيل الضامن (ضمانٌ علينا) بأن يزورها، ويقتحم الأهوال في سبيلها، وقوله (هيهات) وهو اسم فعلٍ ماضٍ بمعنى بعُدَ، أي لن تستطيع عداوتهم، ولا غيرتهم، ولا وعيدهم، أن تثنينا عن اقتحام الهول في سبيل من نحب، ولذا قال بعد ذلك:

يسيرٌ لدى المشتاق في جانب الهوى   نَوَى غُربــةٍ أو مَجْهَلٌ مُتعَسَّفُ
هل الرَّوعُ إلاَّ غَمْرةٌ ثمَّ تنــجلي؟   أم الهَوْلُ إلاَّ غُمَّــةٌ سوف تُكشَفُ

(النوى: الوجه الذي ينويه المسافر/ المجهل: الأرض التي لا يهتدي فيها السائر/ التعسُّف: اعتسف الطريق خبط فيه على غير هداية/ الروع: الهول والفزع/ الغمرة: الشدَّة/ تنجلي: تزول/ غُمَّة: كربةٌ وضيق/ اللسان) وهذان البيتان يفسران المغزى في قصة فتاة الخدر هنا، وصورة الأهوال والمعشر، فالمشتاق أيّ مشتاق لما يهواه، لا يرى في سبيل وصوله لما يريد المعوقات والمهالك (المجهل المتعسَّف) فالصعوبات أي صعوبات يسيرةٌ وسهلة لأن الغاية جليلة، ولذا قال (هل الرَّوع...؟) وهو استفهامٌ تقريري، يقرر به الشاعر أن الروع ليس إلا غمة

وتنجلي، وهمٌ وهولٌ سيزول، لأن الغاية العظيمة تهون في سبيل الوصول إليها كل مشقة، ويسير في سبيلها كل صعب، ثم يقول:

وفي السَّيَراء الرَّقمِ وسط قِبابهم ... بعيدُ مناطِ القرطِ أحورُ أوطَفُ
تباين خَلْقاهُ، فعبلٌ منعَّمٌ ... تأوَّدَ في أعلاهُ لدنٌ مهفهفُ
فِللعانكِ المُرْتَجّ ما حازَ مئزرٌ ... ولِلغُصُنِ المهتَزّ ما ضمَّ مِطرَفُ
حبيبٌ إليهِ أن نُسرَّ بوصلِهِ ... -إذا نحنُ زرناهُ- ونَهْنَا ونُسْعَفُ

(السَّيَراء: ضربٌ من البرود أو الثياب يخالطها الحرير أو الذهب/ الرَّقم: الخزُّ الموشَّى/ مناط: النوط ما عُلِّق/ أحور: الحور شدة سواد العين في شدة بياضها/ أوطف: طويل أهداب العين/ يباين: يختلف/ عبل: ضخم/ تأوَّدَ: تمايل/ لدن: طري/ مهفهف: ضامر البطن/ العانك: الرمل المتعقد، وتُشبَّهُ به أرداف المرأة/ المئزر: الملحفة، ما يحيط بأسفل البدن من أثواب/ مِطرف: رداءٌ مربع من الخز/ اللسان) تكثر في صورة فتاة الخدر أن يكون في الشعر وصفٌ لامرأةٍ على درجةٍ عاليةٍ من الجمال والدلال، فيها من الصّفات ما يهوّن في سبيلها كل صعب، وابن زيدون هنا بعد أن ذكر الروع، والغربة، والمجهل المتعسّف الذي قد يتجشّمه، جاء بوصفٍ لما طمحت إليه نفسه، في صورة فتاة بدوية مُمَنَّعة، فهي في (وسط قبابهم) منيعة، عليها من الثياب الموشّاة المُزيَّنة ما يدلُّ على تنعُّمها، حوراء، وطفاء، كنَّى عن طول عنقها ببعد مهوى قرطها، وجسدها فيه كل ملامح الجمال الأنثوي التي جرى في الشعر العربي تداولها؛ فردفها ثقيل يشبه العانك أو الرمل المتعقد، وهو تشبيهٌ يناسب الصورة البدوية، يعلوه خصرٌ نحيف ضامر، كالغصن المهتز، ثم ختم هذا الوصف الجمالي لفتاته بأنها:

حبيبٌ إليهِ أن نُسرَّ بوصلِهِ ... -إذا نحنُ زرناهُ- ونَهْنَا ونُسْعَفُ

لم يقل حبيبٌ (إلينا) وإنما (إليه) فدلَّ بذلك على إقبالها عليه، وحبها له وقد ذكر قبل ذلك أنه تمنَّى أن تزوره هي، فدلَّ بقوله (حبيبٌ إليه) على أنها متمنيةٌ وصله وزيارته، وقوله إذا نحن زرناه اعتراضٌ بأن الزيارة لم تحدث، وإنما قد تحدث في المستقبل، فإذا ظرف للمستقبل فيه معنى الشرط، وهو ما يلائم قوله قبل ذلك (ضمانٌ علينا أن تُزار ودونها رقاق الظبا) لم يُسمّ الفاعل، فدلَّ بالبناء للمجهول على أن الرغبة في زيارتها، والظفر بها ليست مقصورةً عليه وحده، لأنها فتاةٌ مرغوبةٌ مطلوبة ذكر لنا من صفاتها ما يجعلها كذلك ولكنه وحده الضامن لذلك، الكفيل به، لقوته وشجاعته، وقال (حبيبٌ إليه) ليدلَّ على أنه على رغم كثرة الطالبين لها، الراغبين بها، فليس حبيبٌ إليها زيارة غيره، وإنما هي تتمنى أن يزورَها هو، ويهنأ أيضاً بوصلها، وهذه الإشارات تناسب ما كان يجده ابن زيدون في نفسه من استحقاق لعظائم الأمور وجدارته بها، واستعداده للنضال في سبيلها، يقول:

وكـــائن رامـــت الأيَّـــا ... مُ ترويعـــي فلـــمْ أرتَـــع
إذا صـــابتـــنيَ الجُلَّـــى ... تجلَّـــت عـــن فتـــىً أروع
علـــى مـــا فـــات لا يـــأسى ... وممَّـــا نـــابَ لا يجـــزع

ثم يقول:

وليلةَ وافتنـــا الكثيبَ لموعدٍ ... سُرى الأيـمِ لم يُعْلَم لمسراهُ مَزْحَفُ
تهادى أناةَ الخطوِ مُرتاعةَ الحَشَا ... كما رِيعَ يَعفورُ الفَلا المُتَـــشَرّفُ
فما الشَّمسُ رقَّ الغيمُ دون إياتِها ... سوى ما أرى ذاك الجبينُ المُنَصَّفُ

(وافتنا: أتتنا، والموافاة أن توافي إنساناً في الميعاد/ الكثيب: القطعة المحدودبة من الرمل/ الأيم: الحية/ مَزحف: أثر/ تهادى: تتمايل/ أناة: التؤدة وتعني التأني

والتمهل/ الحشا: الحضن/ يعفور الفلاة: ظبي الصحراء/ التشرُّف للشيء: التطلع والنظر إليه/ أياة الشمس: نورها وحسنها/ : النصيف: الخمار، والمنصَّف يعلوه الخمار/ اللسان) والشاعر بعد أن ذكر أنها تحبُّ زيارته لها، وتُسرُّ بوصله، جعلها في هذه الأبيات هي التي تخرج إليه فقال (وافتنا) أي أتت إلينا وخرجت لنا، وأقبلت تنساب في خفة انسياب الحية، دون أن تترك أثراً (لم يُعْلَم لمسراه مزحفُ) وكانت مرتاعة تتشرَّف وتنظر خشية أهلها، وشبَّهها بالظبية (يعفور الفلاة) وأجمل ما تكون الظبية حين ترتاع، وتعلو وَجهها نظراتُ الخوف، وقد أجمل هذه الصورة في قوله (ريع/ المتشرف)، وهذا له دلالته في أنها تكبَّدت الأهوال في سبيل أن تلقاه، فلم تكن فقط راغبة في زيارته، بل قامت هي بذلك، غير آبهةٍ لوعيدِ قومها، بما يعني به إقبالها عليه، وحبّها له، فخرجت هي إليه، وقد اختلفت دقائق الصورة لفتاة الخدر هنا عنها في غيرها عنده، ومن ذلك قصيدته في مدح أبي الوليد بن جهور (أجل إن ليلى حيث أحياؤها الأسدُ...) فهو في تلك الصورة كان يسعى إلى المحبوبة، وهي تعده بالوصل دون أن تسعفه به، لأنه فيها كان يطلبُ الوزارة (فديتك إني قائلٌ فمعرضٌ بأوطار نفس) أمَّا هنا في إشبيلية فقد انقادت له الأماني، ووصل إلى غاية ما يطمح إليه، إذ قال في أواخر القصيدة:

لقد جُدْتَ حتَّى ما بنفسٍ خصاصةٌ ... وأمَّنتَ حتَّى ما بقلبٍ تخوُّفُ
ولولاك لم يسهُلْ من الدَّهرِ جانبٌ ... ولا ذلَّ مُقتادٌ ولا لانَ مِعطَفُ

فناسب ذلك أن تكون المحبوبة هي التي تزوره، وتغترُّ الحيَّ، وتخرج إليه:

قعيدكِ!! أنَّى زُرتِ؟ نورُكِ واضحٌ ... وعِطرُكِ نمَّامٌ، وحليكِ مرجِفُ
هبيكِ اغتررتِ الحيَّ!! واشيكِ هاجعٌ ... وفرعُك غربيبٌ، وليلُكِ أغضَفُ

فأنَّى اعتسفتِ الهولَ؟خطوكِ مُدمَجٌ ... ورِدفُكِ رجرَاجٌ، وخصرُكِ مُخْطَفُ

(قعيدك الله: مثل حفظك الله، أي سألتُ الله حفظك/ نمَّامٌ: أي ينمُّ عليك ويخبر بمسراكِ/ هبيك: هب بمعنى ظُنَّ أو ازعم أو عُدَّ/ اغتررت: خدعت/ فرعك: شعرك الطويل/ غربيب: شديد السواد/ اعتسفت: التعسف ركوب المفازة وقطعها بلا قصد ولا هداية/ مُخطَف: ضامر/ اللسان) وهذه الأبيات الثلاثة مكررةٌ من قصيدةٍ لامية، في مدح أبي الوليد ابن جهور مع بعض التغييرات الطفيفة، أولها[٨٥]:

مَرادهم حيثُ السلاحُ خمائلُ ... وموردهم حيث الدماءُ مناهلُ

وفيها يقول:

قعيدُك أنَّى زُرتِ ضوؤُكِ ساطعٌ ... وطيبُكِ نفَّاحٌ، وحليُكِ هادِلُ
هبيكِ اغتررتِ الحيَّ: واشيكِ هاجعٌ ... وفرعُكِ غربيبٌ وليلُكِ لائِلُ
فأنَّى اعتسَفتِ الهولَ؟ خصرُكِ مُدَمَجٌ ... ورِدفُكِ رجراجٌ وعِطْفُكِ مائلُ

وقد كان في قصيدته اللامية في مدح ابن جهور راضياً غير ساخط، ولذا يقولُ له فيها:

لك الخيرُ إني قائلٌ غيرُ مُقْصِرٍ ... فمن ليَ باستيفاءِ ما أنتَ فاعلُ

وليس كما قال له في قصيدته الدالية[٨٦]:

فديتُك، إنِّي قائلٌ فمُعرّضٌ ... بأوطارِ نفسٍ منك لم تقضِهَا بعدُ

لأنَّ الممدوحَ بلَّغَهُ مُراده:

لأمَّنتني الخطبَ الذي أنا خائفٌ ... وبلَّغتني الحظَّ الذي أنا نائلُ

وهو هنا في مدح المعتضد يقول:

ولـمَّا قضينا ما عَنَــانَا قضاؤه ... وكلٌّ بما يُرضيـكَ داعٍ فمُلحِفُ
قرنَّا بحمدِ اللهِ حمدَكَ إنَّــهُ ... لأوكدُ ما يُحْظَى لديـهِ ويُزْلَفُ

فجاءت المحبوبة إليه وقد اغترَّت الحيَّ، واعتسفت الهول، متهادية، على درجةٍ عالية من الوضاءة والإشراق والجمال، متعطرةً، متزينة أي جاءته على أكمل صورة، وأجمل حال، كما انقادت الأماني إليه على ما يشتهي ويأمل، ولذا؛ فهو في سبيلها يتحمَّل غضب قومها وسخطهم، وهم أعنف ما يكونون حتَّى إذا حاولوا اللطف:

لجاجٌ تمادي الحُبّ في المعشرِ العِدى ... وأمُّ الهوى الأفقَ الذي فيه نُشْنَفُ
وأن نتلقَّى السُّخطَ -عانينَ- بالرّضى ... لغيرانَ أجفـى مـا يُرى حين يلطُـفُ

فهو وإن طابت نفسه في كنف ممدوحه، فهي لا تطيب لأعدائه وحساده، لتوجُّسه منهم، وقد نقلت لنا المصادر كثيراً من المؤمرات التي تحاك في بلاطات القصور للإيقاع بالخصوم، إلا أن هذا السخط من قِبل الأعداء، يتقبله ابن زيدون، ويرضى به، لأنها محبَّةٌ له، مُقبلةٌ عليه، عانيةٌ إليه كما كان المعتضد معه وقد وجدناه في هذا المطلع يُسهبُ في وصف جمال المحبوبة: بعيد مناط القرط/ أحور/ أوطف/ عبل/ منعم/ لدن مهفهف/ أردافها كالعانك المرتج/ خصرها كالغصن المهتز/ تشبه الظبية/ والشمس حين تنتقب/ وضيئة/ عطرها نمام/ حليها مرجف/ شعرها شديد السواد/ خطوها مدمج/ لمع أسنانها كالبرق (وإني ليستهويني البرق صبوةً إلى برق ثغر) ريقها يشبه الخمر (وما ولعي بالراح إلا توهم لظلمٍ به كالراح):

فما قبل من أهوى طوى البدرَ هودجٌ ... ولا ضمَّ ريمُ القفرِ خِدرٌ مُسجَّفُ

وكذلك يصف المعتضد، بقوله:

يتيـه بمرقـاهُ سريــرٌ ومنــبرٌ ويحمدُ مسعاهُ حسامٌ ومصحفُ

ويصفه أيضاً في أبيات أخرى من القصيدة بأنه (أغرّ أي أبيض/ أروع: يُثير الإعجاب بحسنه وشجاعته/ ممرُّ القوى: مكتمل القوى محكم التكوين)(٨٧) وهي صفات نعتتهُ بها المصادر «وكان عبَّاد قد أوتي من جمال الصورة، وتمام الخلقة، وفخامة الهيأة، وسباطة البنيان، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر، وصدق الحس، ما فاق به أيضاً على نظرائه»(٨٨) فقابلت صورة فتاة الخدر المُمنَّعة في جمالها وحسنها، ومكانتها عند أهلها، صورة الممدوح الوسيم المكتمل القوى، المنيع في قصره:

وعدنـا إلى القصر الذي هُوَ كعبةٌ يُغاديه منَّــا ناظرٌ أو مُطَوَّفُ
فـإذ نحنُ طالعنــاهُ والأفقُ لابسٌ عجاجته والأرضُ بالخيلِ ترجُفُ
رأينــاك في أعلى الـمُصلَّى كأنَّما تطلَّع من محراب داودَ يـوسُفُ

وهكذا.. نجد نفسَ ابن زيدون في القصيدة راضية بما كان له من مكانة عند المعتضد، رغم ما في البلاط من منغصات، فجاءت المقدمة حافلة بالإشارات إلى حالة الشاعر النفسية والشعورية، وغرضه ومقصده، ولذا لهج لسانه بالشكر فقال:

لك الخيرُ أنَّى لي بشكرك نهضةٌ؟ وكيف أؤدي فرضَ ما أنتَ مُسلفُ
فإن أكُ عبــداً قد تملَّكْتَ رِقَّةً فأرفعُ أحوالي وأسنَـى وأشرفُ

الخاتمة

لقد كانت المطالع التي تُقدَّم بها قصائد المدح، ومنها المطالع الغزلية كما وجدنا هنا في الشعر منفتحةً على تأويلاتٍ متعددة تشي بشيء آخر غير الغزل، شيئاً حاك في نفس الشاعر، فجمع فيه مقاصده، وألبسها ثوباً لطيفاً من الغزل، والشكوى، والعتاب، وجاءت المحبوبة فيها رمزاً لوطنٍ أو أيامٍ، أو أحوالٍ، أو ممدوح، وما إلى ذلك مما قد يصبح به هذا المطلع، جزءًا من المدح أو الاستعطاف، أو الشكوى دون أن ينفي ذلك وجود محبوبةٍ بذاتها- ولكنه قد يعني أن يتسع المعنى ليشمل محبوبة وغيرها، أو قد تكون فيه المحبوبة إشارةً لغيرها، فتأتي في هذه المقدمات أوصاف لأحوالٍ وأهواء، وأسماء نساء وديار، ممَّا يُعدُّ رموزاً لحنينٍ جارف، إلى كلّ ما يحنُّ إليه الشاعرُ أو يتطلع، إن هذه المطالع في معظمها تحوي إشاراتٍ وتلويحاتٍ ورموز، قد تعني في التجربة الشعرية قضايا خاصَّة بالشاعر أو قد تشمل ما هو أرحب من ذلك مثل القضايا المصيرية، أو الحياتية، ولذلك كان من أهم أدوات الدراسة للنصوص الشعرية أن يُنظر إلى القصيدة برؤيا شاملة تتداخل في تأويل معطياتها عناصر عدَّة، تشمل كل ما يعين على فهم النص، وقراءته، ممَّا يحيط بالشاعر، وما يتضمَّنه النص الشعري من معانٍ وأغراض وعلاقاتٍ بين أجزاء القصيدة، وما تشمله مقاطعها من إشاراتٍ وتلويحاتٍ ينادي بعضُها بعضاً، أو ينادي بعضها قصائد أخرى للشاعر، بحيث يُفسَّرُ الشعرُ بالشعر، فقد تدلُّ بعض القصائد على المعنى في قصائد أخرى، مع التسليم بأن لكل قصيدةٍ تجربتها الإنسانية والشعورية، التي تصبغها بطابعٍ ومعاناةٍ خاصة، فلا شكَّ أن لكل نص خصوصيته الفنية، لكن هذا لا يعني أن لا تدلَّ النصوصُ على بعضها، وبخاصةٍ في تلك القصائد التي تشمل مرحلةً معينة في حياة الشاعر، وهكذا.. تأتي المطالع بكل ما فيها

من صور وإشاراتٍ، دالةً إيحائياً على مقاصده، وما لديه من رؤى وأحاسيس وتطلعات، قد يُظهرها في القصيدة نفسها، كما قد لا يفعل، بل يكتفي بالإشارة إليها من خلال هذه المقدمات فلكل نصٍّ شعري مُبدَع معنى ظاهر أو أول لا يتجاوز إدراكه فهم اللغة، والوقوف عند هذا الحد، ومعنى باطن يتعدَّى الفهم فيه المعنى الظاهر إلى ما هو أعمق، وفيه تصبح المعاني الأولية ذات دلالةٍ إيحائية، تتجاوز النص في خارجة إلى رؤيته من الداخل، إلى عمق المعنى وتأويله، عبر فهم الظاهر كإشارةٍ دالة عليه.

وقد وجدنا المطالع عند ابن زيدون تشي بمقاصده، فتتحول صورة الغزل كثيراً عنده إلى وصف مشاعره تجاه ممدوحه أو من حوله، وتأتي المقدمة حافلة بالإشارات، فوجدناه وهو في السجن يشكو تغير العلاقة بينه ومن يحب، وانقطاع الود، وذكرى سرور كان قصيراً، بينما وجدناه عندما يطلب الوزارة يسعى لوصل محبوبة رائعة الجمال منيعة، وإذا تشوق وهو في إشبيلية إلى قرطبة جاءت شكوى البعد من محبوبة حالت بينهما المسافات، وهكذا.. وقد وجدنا ابن زيدون مولعاً بصورة فتاة الخدر المُمَنَّعة، وهو يستثمرها في كثيرٍ من مطالع القصائد استثماراً فنياً، يطرح في معظمه مُجمَل مغزى القصة في المقصد الذي يرمي إليه، والذي لا يقتصر على الفوز بامرأة أحبَّها الشاعر، وإنَّما يتَّسعُ فيها المعنى ليشمل أن الصعب المرغوب تهون في سبيل الوصول إليه الأهوال والشدائد إذا صادف قلباً شجاعاً، ونفساً طموحةً عظيمة، مع الاختلافات في دقائق الصورة في هذه المطالع تبعاً لاختلاف المقاصد، فعندما تكون نفسه غير راضية بما آلت إليه حاله عند ممدوحه، وأن ما وصل إليه لا يتلاءم مع طموحه، نجده هو الذي يسعى أو يرغب في الوصول إلى المحبوبة غير آبهٍ بالأهوال والمعشر، كما نجد صورة العدة والعتاد تمتدُّ في النص إذا كثر الحساد والوشاة، وسعوا في تغيير الممدوح

عليه، فتمتنع المحبوبة عن الزيارة، أو إرسال السلام، أو يمنعها أهلها منه، وعندما تكون نفسه راضية بما هو عليه من حال، نجد أن هذه الفتاة الجميلة هي التي تسعى لرؤيته وزيارته غير آبهةٍ بوعيد الأهل، وتربُّصهم.. وهكذا.. تأخذ الصور في القصيدة منحاها في المعنى الذي يقصد إليه الشاعر، ورمزيتها في الدلالة على الغرض وعلى الحالة النفسية والشعورية لمبدع النص، الأمر الذي حاولنا تلمُّس مواضعه في الشعر.

الهوامش والتعليقات:

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٧٦.
(٢) المصدر السابق، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص٤٤٢.
(٤) ابن رشيق، العمدة، ج١، ص٢١٨.
(٥) نداء الحارثي، علاقة المطالع بالمقاصد في شعر الشعراء الأربعة الكبار، ص٦.
(٦) انظر: المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٥٠. وانظر أيضاً في ترجمة أبي حزم: الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ص٦٠.
(٧) انظر: ديوان ابن زيدون ورسائله، ص٤٦.
(٨) الديوان، ص٣٣٨.
(٩) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص١٦٥.
(١٠) الديوان، ص٣٦١.
(١١) الديوان، ص ٣٣٩.
(١٢) الديوان، مقدمة المحقق، ص٥٩.
(١٣) انظر: الديوان، الصفحة نفسها.
(١٤) الديوان، ص٤٠١.
(١٥) ديوان النابغة، ص٧٦.
(١٦) انظر: نداء الحارثي، علاقة المطالع بالمقاصد، ص٢٤٨.
(١٧) الديوان، ص٤٢٠.
(١٨) انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج١، ص٦٣.
(١٩) الديوان، ص٤٢١.
(٢٠) الفتح بن خاقان، ج١، ص٢٠٩.
(٢١) شوقي ضيف، ابن زيدون، ص٤٦.
(٢٢) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٢٣) الديوان، ص٤٢٦.
(٢٤) ديوان مجنون ليلى، ص٣٥.
(٢٥) الديوان، ص٣٠٨.

(٢٦) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ج١، ص٢٠٩.
(٢٧) انظر: الديوان، مقدمة المحقق، ص٨٤.
(٢٨) محمد بدري عبد الجليل، براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور، ص٤٣.
(٢٩) ابن رشيق، العمدة، ج٢، ص١٢١.
(٣٠) ابن خاقان، القلائد، ج١، ص٢٠٩.
(٣١) ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص٣٣٩.
(٣٢) المصدر السابق، القسم نفسه، المجلد نفسه، ص٣٣٨.
(٣٣) ديوان امرؤ القيس، ص٣٦.
(٣٤) ديوان النابغة، ص٣٤.
(٣٥) ديوان امرؤ القيس، ص٤٤.
(٣٦) الديوان، ص٥٠٥.
(٣٧) محمد أبو موسى، الشعر الجاهلي- دراسة في منازع الشعراء، ص٧١.
(٣٨) الديوان، ص٣٧٩.
(٣٩) ياسر الحوراني، الشعر والتكسب، ص٧١.
(٤٠) شوقي ضيف، ابن زيدون، ص٢٠.
(٤١) ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص٣٣٧.
(٤٢) انظر: جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص ١٨٣. وانظر أيضاً: الديوان، المقدمة، ص ٦٥.
(٤٣) الديوان، ص٣٣٧.
(٤٤) الديوان، ص٤٣٧.
(٤٥) الديوان، ص٣٥١.
(٤٦) ديوان ابن خفاجة، ص٢٠٤.
(٤٧) انظر: الفتح بن خاقان، القلائد، ج١، ص٢١٠.
(٤٨) الديوان، ص ٣٧٩.
(٤٩) الديوان، ص٤٣٨.
(٥٠) ديوان المتنبي، ت: عبد الرحمن البرقوقي، ج٣، ص٨٩.
(٥١) انظر: محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب الأندلسي التطور والتجديد، ص٤٩٤.
(٥٢) الديوان، ص ٤٨٧.
(٥٣) الديوان، ص ٣٦٩.

(٥٤) الديوان، ص٣٥٠.

(٥٥) الديوان، ص٣٦٨.

(٥٦) الديوان، ص ٤٠٧.

(٥٧) فوزي خضر، عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، ص٤٣.

(٥٨) الديوان، ص٣١٥.

(٥٩) الديوان، ص٣٣٦.

(٦٠) الديوان ص ٣٥٣.

(٦١) الديوان، ص ٣٣٤.

(٦٢) انظر: الديوان، ص٣٤٢.

(٦٣) الديوان، ص٥٠٢.

(٦٤) الديوان، ص٤٤٩.

(٦٥) الديوان، ص٤٥٠.

(٦٦) الديوان، ص٣٧٤.

(٦٧) الديوان، ص٣٧٣.

(٦٨) الديوان، ص ٤٢٨.

(٦٩) الديوان، مقدمة المحقق، ص ٨٤.

(٧٠) ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص٤١٣.

(٧١) الديوان، مقدمة المحقق، ص ٨٥.

(٧٢) انظر: الديوان، مقدمة المحقق، ص٧١، ٧٧.

(٧٣) الديوان، ص٣٧٤.

(٧٤) انظر: الديوان، ص ٥٢٥.

(٧٥) المراكشي، المعجب، ص٧٤.

(٧٦) انظر: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٧٧) الفتح بن خاقان، القلائد، ج١، ص٢١٥.

(٧٨) ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص٣٣٩.

(٧٩) انظر: الديوان، مقدمة المحقق، ص٦٩، ٧١.

(٨٠) ابن سعيد، المغرب، ج١، ص٦٩.

(٨١) الديوان، مقدمة المحقق، ص ٧٤.

(٨٢) الديوان، الصفحة نفسها.

(٨٣) الفتح بن خاقان، القلائد، ج١، ص٢٣٧.

(٨٤) الديوان، ص٥٢٥.

(٨٥) الديوان، ص ٤٥٣.

(٨٦) الديوان، ص ٤٥٦.

(٨٧) الديوان، ص ٥٣١.

(٨٨) ابن الأبار، الحلة السيراء، ص٤٢.

المصادر والمراجع

- ابن الأبار، الحلة السيراء، حسين مؤنس، دار المعارف، ط١، ١٩٥٨م.
- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت.
- ابن بسام، الذخيرة، ت: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٩م.
- الجاحظ، البيان والتبيين، ت: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ١٩٦٨م.
- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.
- ديوان ابن خفاجة، ت: السيد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م.
- ديوان المتنبي، ت: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م.
- ديوان مجنون ليلى، شرح: يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٩٩م.
- ديوان امرؤ القيس، ت: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٣م.
- ديوان النابغة، ت: الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر.
- ديوان ابن زيدون ورسائله، ت: علي عبد العظيم، منشورات جائزة عبد العزيزالبابطين، ٢٠٠٤م.
- ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ت: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.
- شوقي ضيف، ابن زيدون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ١٤- الفتح بن خاقان، ت: حسين خريوش، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٩م.
- فوزي خضر، عناصر الإبداع في شعر ابن زيدون، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٤م.
- محمد أبو موسى، الشعر الجاهلي، دراسة في منازع الشعراء، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- محمد بدري عبد الجليل، براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٥م.
- المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت.
- محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب الأندلسي، التطور والتجديد، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

- نداء الحارثي، علاقة المطالع بالمقاصد في شعر الشعراء الأربعة الكبار، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠١٥م.
- أبو هلال العسكري، الصناعتين، ت: علي البجاوي، محمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦م.
- ياسر الحوراني، الشعر والتكسب، دار مجدلاوي، الأردن، ٢٠٠٤م.

التحليل النقدي للخطاب ونقاده
(روث بريز)

ترجمة: د. امحمد الملاخ

أستاذ اللسانيات - الكلية متعددة التخصصات أسفي
جامعة القاضي عياض - المغرب

ورد البحث في ٨/ ٧/ ١٤٣٩هـ وقُبل للنشر في ١٧/ ٥/ ١٤٤٠هـ

التحليل النقدي للخطاب ونقاده[١]

"روث بريز"[٢]

ترجمة: د. امحمد الملاخ

الملخص:

يمثل هذا المقال مراجعة مختصرة لصعود التحليل النقدي للخطاب، ويسعى إلى إثارة تحليلات مفصلة لمختلف الانتقادات الموجهة للتحليل النقدي للخطاب ولممارسيه على مدار العشرين سنة الأخيرة، من قبل الباحثين المشتغلين في إطار الأنموذج النقدي وغيرهم من النقاد. وسنناقش مجموعة متنوعة من الانتقادات التي استهدفت المسلمات الضمنية والمنهاجية التحليلية، ومجالات أخرى مثار نقاش من قبيل استجابة القارئ وإدماج العوامل السياقية. وسيتم، كذلك مراجعة المسائل السجالية من نمط التشديد ذي الطابع السلبي البارز في التقاليد البحثية للتحليل النقدي للخطاب، مثلما سنراجع وضعية التحليل النقدي للخطاب باعتباره « أرثودوكسية فكرية ناشئة». وستقدم الخلاصات جردا لأهم الانتقادات المنبثقة عن هذا العرض، كما ستقترح مسالك للتخفيف من حدتها.

الكلمات المفتاحية: التحليل النقدي للخطاب- المنهاجية التحليلية- لسانيات المتون- نظرية استجابة القارئ- الأنموذج النقدي- التسييق.

critical discourse analysis and its critics

"Ruth Breeze"

Abstract:

This article briefly reviews the rise of Critical Discourse Analysis and teases out a detailed analysis of the various critiques that have been levelled at CDA and its practitioners over the last twenty years, both by scholars working within the "critical" paradigm and by other critics. A range ofcriticisms are discussed which target the underlyingpremises, the analytical methodology and the disputedareas of reader response and the integration ofcontextual factors. Controversial issues such as the predominantly negative focus of much CDA scholarship, and the status of CDA as an emergent "intellectual orthodoxy", are also reviewed. The conclusions offer a summary of the principal criticisms that emerge from this overview, and suggest some ways in which these problems could beattenuated.

Keywords: Critical Discourse Analysis; Analytical methodology; Corpus linguistics; Reader response theory; Critical paradigm; Contextualisation

المقدمة:

لقد توطد التحليل النقدي للخطاب بشكل حاسم كتخصص في دوائر العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، حتى صار المختصر «ت ن خ» شائع التداول، ليعكس بذلك مقاربة في دراسة اللغة تحظى بالاعتراف بين مجموعات متباينة. وفي واقع الحال، ذهب بعض العلماء إلى حد اعتبار التحليل النقدي للخطاب أنه قد أصبح على وشك أن يصير مذهبا فكريا،(بيليغ :Billig 2002:44)، وتخصصا ممأسسا يملك أنموذجه الخاص وأصوله ومزاعمه المتفق عليها، وكذلك بنيات تدعم سلطته. منذ أن أصبح التحليل النقدي للخطاب جزءا من المشهد الثقافي صار التوجه السائد هو التسليم بوجوده وقبوله، باعتباره طريقة صالحة للتفكير والبحث، إسوة بالأنموذجات التي حصلت على قسط من التقدير الثقافي.

غير أنه ما يثير الانتباه هو أنه حتى الدارسين الذين يعتبرون أنفسهم محللين نقديين للخطاب يحسون بضرب من عدم الارتياح لوسم التحليل النقدي للخطاب بسمة الأنموذج النقدي. فالبعض يحس أن الاحترام الذي يحظى به التحليل النقدي للخطاب يُسقِط المقاولة النقدية في تناقض، وكذلك الوضعية الجديدة لإطاره، إسوة بتخصصات أخرى متعارف عليها من شأنها أن تغلق مسلك النقد الذاتي الذي يعتبر جزءا لا يتجزء من برنامجه النقدي (بيليغ Billig 2002:36). أما البعض الآخر فيشدد على عدم الاتساق والتوافق الداخلي السائد بين الباحثين المنتسبين إلى التحليل النقدي للخطاب، ليؤكد على مزيد من الحاجة إلى نقاش وحوار قبل منح خاصية مدرسة للتحليل النقدي للخطاب، أو رفض الرغبة في التوافق باعتبارها وهما:

(فيركلاف وفوداك Fairclough and wodak 1997:271، شوللياكاري وفيركلاف chouliaraki and Fairclough 1999، فان دايك Van Dijk 2003:352). ولدى البعض استياء بخصوص المنحى السلبي العام الذي يسود الأعمال المنضوية في حقل التحليل النقدي للخطاب، ولذلك يدعون الدارسين النقديين من أجل مزيد من الاهتمام بالاستعمالات الإيجابية والتغييرية للخطاب (مارتان Martin 2004:183، لوك Luke 2002: 7–106).

وفي الوقت ذاته أمطر اللسانيون وغيرهم ممن يموضعون أنفسهم خارج حدود التحليل النقدي للخطاب وابلا من الانتقادات التي لامست عددا من مظاهر عدم الاتساق داخل حقل التحليل النقدي للخطاب. سلط هؤلاء النقاد الضوء على مشاكل الإطار ذات الطابع الإبستمولوجي والنظري، وبشكل أخص المنحى الأداتي للنظرية، والفشل في تحديد هدف محدد ومضبوط للبحث، علاوة على كونهم وجهوا سهام نقدهم إلى نمط المنهاجية اللسانية التي تُطَبَّق غالبا، بالإضافة إلى نظريات اللغة والتواصل الضمنية، مبرزين مدى إخفاق باحثي التحليل النقدي للخطاب في إدماج السياق والجمهور بشكل مُرْض في إطارهم التحليلي، ليفضي تحليلهم إلى مزاعم وثوقية ساذجة بخصوص اشتغال الخطاب وإعادة الإنتاج الاجتماعي.

لهذه الأسباب، من المفيد إعداد مراجعة مختصرة لصعود التحليل النقدي للخطاب، بشكل خاص، وذلك بإلقاء نظرة على مبادئه المفتاحية، وإماطة اللثام عن خلفياته الفكرية غير المتجانسة، وذلك قبل التوجه نحو تحليل مفصل لمختلف الانتقادات الموجهة للتحليل النقدي للخطاب ولممارسيه، من داخل وخارج حدود التخصص.

نظرة موجزة حول التحليل النقدي للخطاب

١- تعريف التحليل النقدي للخطاب

في اتفاق مع كثير من البيبليوغرافيات المنجزة في الموضوع، تحيل مقدمة هذه الدراسة على التحليل النقدي للخطاب باعتباره كيانا ومقاربة معترفا بها لدراسة اللغة، أو «برنامجا» (فوداك Wodak 2011:50). ينبغي التأكيد من البداية، أنه على الرغم من كون مسألة وجود هذه المقاربة مسألة لا جدال حولها، وعلى الرغم أيضا من كون مقاربة التحليل النقدي للخطاب تحتل مجالا أكثر أو أقل تحديدا في المشهد الفكري، إلا أن كثيرا من الدارسين المشتغلين في إطار هذا الأنموذج، يستشعرون أنه ليس من الصائب الإحالة على التحليل النقدي للخطاب ككيان موحد ومتجانس. وبالرغم من أننا نعتبر «التحليل النقدي للخطاب» توجها وحركة واحدة معترفا بها من الخارج ذات سمات مشتركة ووعي ذاتي، بمعنى أن ممثلي هذا التوجه يعدون أنفسهم مشتغلين في إطار الأنموذج «النقدي» لتحليل الخطاب، وهذا التصور نتبناه لأغراض الدراسة الحالية التي نقدمها، غير أنه وجب التشديد على أن هناك مجموعة من «المدارس» القابلة للتحديد والمجموعات والأفراد الممارسين داخل التحليل النقدي للخطاب لا تنطبق عليهم بشكل متكافئ كل القضايا التي سنتناولها. ومن الضروري التمييز بين المقاربات البريطانية الأولى التي تجسدها أعمال (فيركلاف Fairclough 1985،1989) و(فاولر Fowler 1991) والأعمال اللاحقة الأكثر تطورا وانسجاما تتجسد في أعمال (شولياراكي وفيركلاف chouliaraki and Fairclough 1999) والمسمى «النموذج السوسيو معرفي» للتحليل النقدي للخطاب الذي يتزعمه فان دايك Van Dijk 1991 وجماعته، و«المدرسة التاريخية للخطاب» ورائدتها (فوداك Wodak فوداك 1990، 1996، 2007). وتميز (فوداك ٢٠١١)

بين المدرسة الفرنسية للتحليل النقدي للخطاب التي تعود إلى أعمال (بيشو Pecheux 1982) المتأثرة بباختين Bakhtin ومدرسة ديسبورغ Duisburg (جاكر Jager 1999) التي تركز اهتمامها على لغة الإعلام من منظور فوكوي، وبين المقاربة التي يدافع عنها ماس (Maas 1989) التي تفحص الكيفية التي تنطبع بها التناقضات الاجتماعية في النصوص، وكيف يتواطأ القراء في الخطابات الإيديولوجية. ولضيق المجال، سيتعذر تقديم كل مدرسة على حدة، لكن سنعرض للانتقادات الموجهة إلى مجموعات محددة من المحللين.

نستعمل مصطلح التحليل النقدي للخطاب من أجل أغراض الدراسة الحالية، بمعنى أكثر تحديدا للدلالة على إطار واسع من النظرية والبحث يقوده محللون يعتبرون أنفسهم محللين نقديين للخطاب بمعنى أو بآخر. ويُغنينا ذلك عن ضرورة اختزال حيز الإحالة بشكل مطرد على «محللين نقديين للخطاب» كثر أو «معظم الأشخاص المشتغلين ضمن أنموذج التحليل النقدي للخطاب». ومع ذلك، بما أن استعمال التحليل النقدي للخطاب كـ «مصطلح مظلة» يقتضي أن نكون حذرين من التعميم المفرط، فإننا سنحاول ما أمكن التعريف بمجموعات فرعية خاصة أو كتاب ينتسبون لتقليد التحليل النقدي للخطاب متى كان ذلك ضروريا.

باعتباره حركة واعية بذاتها، مالكة لرزنامة واضحة، يزخر التحليل النقدي للخطاب بتعريفات تحدد مزاعمه وإنجازاته. تتراوح هذه التصريحات بين التصريح الأكثر تسييسا: «لتفسير المواضعات الموجودة باعتبارها نتاجا لعلائق السلطة والصراع من أجلها» (فركلاف Fairclough 1989:2)، والتصريح الملطف الصيغة: «للإجابة عن أسئلة متعلقة بالعلاقة بين اللغة والمجتمع» (روجرز Rogers 2005: 365). وتقترن هذه المراوحة بالموقع الذي يحتله الباحث. إلا أن ثمة

إجماع على أن التحليل النقدي للخطاب يتضمن عنصرين أساسيين: اهتمام سياسي، يقل أو يكثر، باشتغال الإيديولوجيا والسلطة في المجتمع، واهتمام خاص بالكيفية التي تسهم وتدعم وتكشف من خلالها اللغة ذلك الاشتغال. هكذا تشدد أكثر التعريفات وضوحا على العلاقة بين اللغة (النص، الخطاب) والسلطة (الصراع السياسي، اللامساواة، الهيمنة).

«يهتم التحليل النقدي للخطاب بشكل خاص بالعلاقة بين اللغة والسلطة... وينصب اهتمامه على العلائق المكشوفة للصراع والنزاع» (ويس وفوداك Weiss and Wodak 2002:12).

«يقتضي التحليل النقدي للخطاب مراوحة مبدئية وشفافة إلى الخلف والأمام بين التحليل المصغر للنصوص باستعمال مختلف أدوات التحليل اللساني والسيميوطيقي والأدبي، وبين التحليل المكبر للتشكيلات الاجتماعية والمؤسسات وعلائق السلطة التي تؤشر إليها هذه النصوص وتبنيها» (لوك Luke 2002: 100).

تكشف التعريفات الأولية السالفة الذكر مجموعا واسعا من الأسئلة المتعلقة بمعنى المصطلحات المفاتيح: «السياسة» و«السلطة» و«الإيديولوجيا»، حتى لا نأتي على ذكر مصطلحات أخرى مثل: «النقدي» و«الخطاب» و«التحليل» التي سنفحصها في القسم الموالي، حيث سنعرض بشكل مختصر للتاريخ الفكري للتحليل النقدي للخطاب.

٢- مفكرون أسلاف:

لا مشاحة في أن التيار المدعو بالتحليل النقدي للخطاب قد بدأ يشهد قفزة نوعية منذ أواخر سبعينيات القرن الماضي، وذلك في عدد من المنشورات التي عملت في البداية على نقل اللسانيات الوظيفية النسقية لدى هاليداي إلى منظور اجتماعي أرحب قادر على رصد قضايا سياسية ذات ارتباط بالسلطة والتحكم. ولقد شكلت أعمال من قبيل: «اللغة والهيمنة» لدى (فاولر وهودج وكريس تريو Fowler,Hodge, Krees, Trew 1979)

و«اللغة والإيديولوجيا» لدى (هودج وكريس Hodge and Krees 1993) اللبنات المؤسسة للتحليل النقدي للخطاب وإن لم تستعمل هذا المصطلح. ولقد كان فيركلاف في مقال له نُشِر سنة ١٩٨٥(فيركلاف: ١٩٨٥: ٧٣٩) أول من استعمل مصطلح التحليل النقدي للخطاب، لكن شاع استعماله مع الكتاب ذي التأثير الواسع «اللغة والسلطة» (فيركلاف ١٩٨٥) وتوطد استعمال المصطلح من خلال نشر كتاب «التحليل النقدي للخطاب» (فيركلاف ١٩٩٥) ذي العنوان الفرعي: «الدراسة النقدية للغة». ولقد أشار أحد النقاد إلى أن استعمال أداة التعريف في العنوان الفرعي يستلزم تعدد المقاربات النقدية التي عرضها الكاتب في أعماله السابقة، والتي تم: «صهرها في وحدة يتم التعرف عليها باعتبارها الدراسة النقدية» (بيليغ ٢٠٠٢: ٣٥). وليس من قبيل المبالغة اعتبار مصطلح فيركلاف ممثلا للجذر الأصل. وهكذا، بالرغم من تزايد المنشورات في هذا المجال، يظل الكتابان اللذان نشرهما فيركلاف والمشار إليهما أعلاه يمثلان أفضل مصادر التحليل النقدي للخطاب، يُحال عليهما باستمرار في تخصصات متعددة (روجرز ٢٠٠٥: ٣٦٥، ٣٧١).

ومن وجهة نظر لسانية، يحمل التحليل النقدي للخطاب آثار ردود الفعل ضد اللسانيات البنيوية التي شهدتها الفترة بين ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. وعلى غرار اللسانيات الوظيفية النسقية والتداوليات وتحليل المحادثة والإثنوغرافيا، بلور التحليل النقدي للخطاب نظرية للغة تأخذ على محمل الجد الوظائف الاجتماعية للغة. لكن خلافا للسانيات الوظيفية النسقية يرفض التحليل النقدي للخطاب اللسانيات الوصفية والتفكير البنيوي اللذين طَبَعا كثيرا من أبحاث اللسانيات الوظيفية النسقية. ويتمثل الملمح المميز للتحليل النقدي للخطاب في اختلافه عن المقاربات الأخرى وذلك من خلال اهتمامه بالسلطة، وافتراضه المحايث أن العلاقات الاجتماعية التي تعكسها الظاهرة اللغوية تمثل جزءا من نظام شامل يتميز بعلاقات غير متكافئة للسلطة. فبدأ بالاحتكام إلى النظرية الاجتماعية والسياسية ينظر في اللغة ليس في حد ذاتها، ولكن باعتبارها دليلا على ما يعتمل في إطار أوسع.

يقر معظم مؤرخي التحليل النقدي للخطاب أن أصل الانشغال المسيَّس بالمجتمع يعود لكُتَّاب عملوا ضمن التقليد الماركسي أو الماركسي الجديد، وتحديدا مع مدرسة فرانكفورت Frankfurt من خلال روادها أدورنو Adorno وماركيز Marcuse وهوركهايمر Horkheimer. تتشكل مدرسة فرانكفورت من جماعة من المفكرين انصب اهتمامهم على الكيفية التي يمكن للنظرية الماركسية أن تسلط من خلالها الضوء على تطورات الرأسمالية في القرن العشرين. لقد أدركوا أن الحتمية الاقتصادية التي قدَّمها ماركس لم تعد صالحة للظروف الراهنة، فتركز اهتمامهم على تحولات الرأسمالية التي أفضت إلى استمرارية البنيات القمعية بوسائل إيديولوجية. من أجل فهم وجاهة هذه الخلفية، من الضروري التشديد على أن المنظرين الماركسيين يختلفون عن علماء الاجتماع الحاليين بمقتضى

توجههم المعياري، بينما معظم علماء الاجتماع يعتقدون أن دورهم ينحصر في الملاحظة والتأويل، وعلى عكس علماء الطبيعة الذين يجب أن يكتفوا بوصف وتأويل العالم الطبيعي، يعتقد علماء الاجتماع الماركسيين أن مهمتهم صياغة أحكام ووضع معايير. وهكذا فالطرح الذي يتبنوه «نقدي» لأنهم أدركوا أنه قد خُوِّل لهم تقويم ما يجري في المجتمع، ولأنهم كذلك أدركوا أنهم يحوزون معايير بموجبها ينجزون تقويماتهم. وبكلمة واحدة، يعتقد منظرو هذه المدرسة أن لهم منفذا لمعرفة ليس فقط ما هو عليه المجتمع، ولكن ما ينبغي أن يكون عليه.

بالرغم من انعدام الروابط المباشرة بين مدرسة فرانكفورت ومعظم المحللين النقديين للخطاب باستثناء واضح يرتبط بالمدرسة التاريخية للخطاب (انظر أسفله)، غير أن تقاسم جهاز اصطلاحي موحد وخلفية معرفية مرتبطة بالمقاربات الماركسية للرأسمالية المتأخرة، دفع معظم ممارسي التحليل النقدي للخطاب إلى الزعم بوجود قرابة فكرية تربطهم بمجموعة فرانكفورت (شولياراكي وفيركلاف chouliaraki and Fairclough 1999). إلا أن التيارات المنبثقة مع مدرسة فرانكفورت بعيدة كل البعد على أن تكون التيارات الفكرية الوحيدة التي مارست تأثيرا على التحليل النقدي للخطاب. لقد كان العامل الحاسم من غير شك متمثلا في المنعطف «النقدي» العام الذي طبع العلوم الاجتماعية في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. ومن الواضح أن التيار يدين بشكل خاص لكتاب محددين من قبيل كرامشي Gramsci الذي يدين له باستبصار دال مفاده أن القمع الاجتماعي يتحقق غالبا عبر هيمنة مستبطنة، لتشمل مظاهر الإرغام والإجماع (مما يستلزم استعمال اللغة)، كما اقتبسوا من بورديو Bourdieu مصطلحات من قبيل الهابيتوس Habitus والرأسمال الرمزي وأنساق المعنى، وكذلك هابرماس Habermas الذي شدَّد على الدور الحاسم للتواصل في

أنظمة المجتمع الحديث. لم يكن هؤلاء المنظرون لسانيين وإن كان لهم اهتمام باللغة، غير أن تأثيرهم في التحليل النقدي للخطاب يقترن أساسا بتأويلاتهم حول المجتمع، ونظراتهم بخصوص الآليات المتعلقة باشتغال الإيديولوجيا ودورها في خلق ودعم الأنساق الاجتماعية، ولقد تُرِك للسانيين النقديين أمر تعيين واستكشاف التمظهرات اللسانية الحالية لمثل تلك الظواهر.

وبالمناسبة، لقد أُنجزت محاولات لموضعة التحليل النقدي للخطاب ضمن تقليد لساني تليد. فهذا لوك Luke في عمله المنجز سنة ٢٠٠٢ (٢٠٠٢: ٩٧) وفي خطوة متقدمة قَدّم تصورا بخصوص أسلاف المفكرين الذين يتموضع التحليل النقدي للخطاب في سياقهم، ليموضع التيار ضمن: «تاريخ مميز وغير مكتمل لمحاولات إنجاز لسانيات سياسية معيارية»، وهي محاولات تمتد من فولوشينوف Voloshinov إلى باختين Bakhtin. ويزعم «لوك» أن هذه التيارات إن أخذت مجتمعة بمعية التحليل النقدي للخطاب فهي تشكل «تقليدا مضادا ثابتا في اللسانيات» (لوك ٢٠٠٢: ٩٧) ترفض مقاربات في العلوم الاجتماعية بشكل عام واللسانيات بشكل خاص، مؤسسة على نظريات ليبرالية جديدة للفرد والمجتمع، فوفق منظور لوك ليس التحليل النقدي للخطاب مدرسة صورية للفكر، بل جماع مواقف تدعو في مجملها إلى تحليل لدور اللغة في المجتمع ضمن منظور سياسي مكشوف، مركزة اهتمامها بشكل خاص على الكيفية التي تعزز بها الجماعات المهيمنة مصالحها بواسطة الخطاب. ضمن هذا المنظور «النقدي» أو «اللاليبرالي» يغدو من الضروري بالنسبة إلى كثير من المتخصصين في التحليل النقدي للخطاب تمييز أنشطتهم عن تلك المنجزة من طرف اللسانيين «غير النقديين» ومحللي الخطاب من خلال التشديد على أن تحليلاتهم تذهب أبعد من مجرد وصف أو تأويل لدور اللغة في المجتمع، إلى تفسير كيف ولماذا تفعل

اللغة فعلها، وما يضمره ذلك الفعل (فيركلاف ١٩٨٩). بعبارة فيركلاف: «يستلزم الفعل النقدي إبراز الروابط والأسباب الخفية» (١٩٩٢: ٩)، مما يعني فك شفرة العمليات الإيديولوجية، ما دامت الأنظمة الخطابية للإيديولوجيا تسعى إلى إخفاء صراعات السلطة التي تعتمل في العالم الاجتماعي.

إحدى التأثيرات الهامة في التحليل النقدي للخطاب، وإن لم تكن متوافقة مع ما تم ذكره أعلاه ترتبط بالفوكوية ما بعد البنيوية. لقد كان لفوكو رد فعل تجاه النظريات البنيوية حول المجتمع من قبيل الماركسية التي زعمت أن العلاقات المطردة والقابلة للملاحظة توجد بين البنيات داخل الأنساق وأن الإنسان يصل إلى معرفتها. ويكمن نقد فوكو Foucault للبنيوية في تركيزه على الطبيعة المنفلتة للبناءات الاجتماعية، والطبيعة المتحولة لعلائق السلطة والدور المركزي للخطاب في تشكيل العلاقات الاجتماعية (فوكو Foucault: 1969: 25–28). فوفق منظور فوكو يتحرك الخطاب إلى الخلف وإلى الأمام ليعكس ويبني العالم الاجتماعي لمختلف الفاعلين الذين يستعملونه أو يتموضعون بواسطته. فأنظمة الخطاب هي الممارسات الخطابية للمجتمع أو المؤسسة التي تتداخل وتتشابك، وبالنسبة إلى فوكو ليس بالإمكان بلوغ المعنى (فوكو ١٩٨١: ٥٤). وبالمقابل ركز اهتمامه على تحليل شروط وجود المعنى ومبادئ إنتاجه. لقد حرص على تجنب التأويل، رافضا أهداف الهيرمينوطيقا، ممحورا اهتمامه حول الممارسات الخطابية في عالم تصير فيه كل الخطابات نسبية وفي تحوُّل مستمر، لقد أخذ رواد التحليل النقدي للخطاب على محمل الجد مركزية اللغة عند فوكو، خاصة وأن معظم أبحاثهم تتشكل على قاعدة الظاهرة الخطابية. في إحدى تعريفات فيركلاف وفوداك (١٩٩٧: ٢٥٨)، يحظى الخطاب بأهمية لأنه يشتغل إيديولوجيا، يُشَكل ويشرط المجتمع والثقافة، يخلق ويجعل علائق السلطة دائمة. بينما يظل بشكل لافت للانتباه شفافا وغير

منظور حتى بالنسبة لمستعمليه. غير أن التوجه المؤسس على عدم استقرار ونسبية الخطاب المحايث للنظرية الفوكوية عادة ما يتجاهله ممارسو التحليل النقدي للخطاب، لصالح مقاربة أكثر استقرارا ومعيارية لتأويل الظاهرة الاجتماعية.

نقد التحليل النقدي للخطاب:

١- نقد المسلمات الضمنية:

كما مر بنا سابقا، نادرا ما كان المشتغلون بالتحليل النقدي للخطاب متباطئين في دفاعهم عن أطروحاتهم السياسية ومعتقداتهم بخصوص البحث الذي يجب بالنسبة إليهم أن يكون «نقديا» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان سبقت الإشارة إليها. ومن البدهي، كذلك، أن ما يطبع الموروث الفكري للتحليل النقدي للخطاب من عدم التجانس يجعل مهمة رصد التبرير الملائم لطرح أو تأويل محدد بالنسبة إلى الباحث مسألة عسيرة. مما دفع بعض النقاد إلى اتهام التحليل النقدي للخطاب بالاشتغال الفوضوي، وبكونه يتحرك بأهواء خاصة بدل أن يكون مبنيا على مبدأ أكاديمي مؤسس. ولقد حاول آخرون تعرية واستصراح الأساس الفلسفي والسوسيولوجي المحدد ليخلصوا إلى أن الأسس التي يقوم عليها ليست صلبة، خلافا لما يزعمه ممارسوه.

لقد وجّه (هامرسلي Hammersley 1997: 237–248) سهام نقده للمزاعم المؤسسة للتحليل النقدي للخطاب، متهما فيركلاف وآخرين بإقرارهم بالحاجة إلى مقاربة نقدية كما لو أن هذه الحاجة أمر واضح ولا غبار عليه. بداية، استدل هامرسلي على أن النظرية الماركسية الأرثودوكسية فقدت مصداقيتها، لقد تم تجاهلها من طرف الفلاسفة والمؤرخين والاقتصاديين الذين رفضوا معظم أفكار ماركس باعتبارها آلية، غير مؤسسة وغير صالحة لفهم مجتمعنا الراهن. لينتقل

بعد ذلك إلى تحليل مدرسة فرانكفورت التي كما سبق أن أشرنا إلى ذلك سابقا يتم الزعم عموما بكونها تعتبر من الأسلاف المباشرين للتحليل النقدي للخطاب، ليؤكد على أن مدرسة فرانكفورت بلا منازع تشكل أساسا صلبا للمقاولة النقدية للتحليل النقدي للخطاب، لأن التحولات التي شهدتها النظرية الماركسية مع أدورنو وهوكهايمر كانت جذرية، ذهبت أبعد من العوامل الاقتصادية لتلامس قضايا ذات ارتباط بالاستلاب والعقلانية والطبيعة الإنسانية. لقد زعموا أن الاستلاب: «نتاج تصدع العقلانية الغربية، وبشكل خاص مع السعي نحو السيطرة على الطبيعة، بما فيها الطبيعة الإنسانية» (هامرسلي ١٩٩١: ٢٤٢)، التي طرحت عددا كبيرا من القضايا غير المحسومة بخصوص الطبيعة العقلانية للبحث العلمي، غير أن نمط النقد الذي يقترحه أدورنو يبدو أنه يختزل الصورة من خلال تفضيله عامل تفسيري على آخر، مشككا في إمكانية بلوغ التحرر. لقد انصب اهتمام مدرسة فرانكفورت على تفسير التغيير الاجتماعي، مقدِّمة نقدا متطورا للماركسية الأرثوذوكسية، تبعا لهامرسلي، لكنها لم تقدم أساسا فلسفيا فعليا للبحث النقدي من النمط الذي يدعو إليه المحللون النقديون للخطاب. بالرغم من نقطة الخلاف الأساسية التي ينطلق منها هامرسلي المتمثلة في كون مسألة الأسس الفلسفية للتحليل النقدي للخطاب: «أمرا بدهيا ومسلما به، كما لو أنه لا نقاش يُطْرح بخصوصها» (١٩٩٧: ٢٤٤) تم تأكيدها في كثير من الدراسات المرتبطة بالتحليل النقدي للخطاب، مما لا يعني أن مقاربة أكثر تأسيسا يمكن استبعادها، كما لا يعني ذلك أن الصعوبة المحايثة لمقاربة مبنية على نقد عقلانية الفكر الغربي تجعل من ذلك التحليل مسألة غير ممكنة. قدّم هارمسلي في تحليلاته الأخيرة تحليلا أكثر دقة متعلقا بمزاعم ممارسي التحليل النقدي للخطاب الطموحة، بخصوص منح فهم شامل للمجتمع ككل ولكيفية اشتغاله، وهو فهم «يسمو» على أطروحات ومواقف أخرى وذلك تحديدا

لكونه يقوده روح النقد الذاتي (١٩٩٧: ٥ – ٢٤٤). بما أن الشق الأكبر من زعمه بالمشروعية ينبني على هذا التأكيد، فإن المتخصصين في التحليل النقدي للخطاب مدعوون إلى توجيه اهتمامهم إلى الدعامة الإبستمولوجية لأعمالهم ولاستلزاماتها المنهاجية.

وفيما يتعلق بهذه المسألة بالذات، من المهم أن نشير إلى أن مصطلح «نقدي» في حد ذاته يلعب دورا خاصا في تاريخ مدرسة فرانكفورت. لقد تم تبني كلمة «نقدي» عندما كان أعضاء مدرسة فرانكفورت منفيين في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كان نعت «ماركسي» غير مقبول (شولم Scholem 1982: 210). وكما سبقت الإشارة إلى ذلك يعني لفظ «نقدي» في معناه الأول القدرة على تقويم المجتمع من وجهة نظر معينة، والحالة هاته، ليست سوى الماركسية تحديدا، ولمصطلح «نقدي» تاريخ استعمال طويل يعود إلى كانط Kant الذي استعمله للدلالة على أن تحليله مؤسس على مبادئ عقلانية قبلية «بدون إيعاز من التجربة» وليس على الوثوقية غير النقدية لسابقيه (كانط ١٧٨١: ٣، بيليغ ٢٠٠٢: ٣٧). ولقد استعملت كلمة «نقدي» بعد مدرسة فرانكفورت وتبنت الكلمة مقاربات متنوعة في العلوم الاجتماعية وبشكل ملحوظ من قِبل علم النفس النقدي الذي زعم أنه ينحدر فكريا من مدرسة فرانكفورت (وإن كانت كثير من مقارباته لا تربطها صلة كبيرة بأعمال منظري مدرسة فرانكفورت)، واشتغل بمسلمة مفادها أن البحث الأكاديمي مدعو لنقد شروط الحياة الاجتماعية من أجل تحسينها (جرغن Gergen 1994: 11 – 20). وترتبط كلمة «نقدي» في حقل التربية بـ «البيداغوجيا النقدية» لدى (باولو فرير Paulo Freire) الذي أكّد على ضرورة مقاومة الهيمنة ودعم المقموعين من خلال تشجيع نمو الوعي النقدي. وهكذا استُعْمِل مصطلح «نقدي» في

تخصصات متعددة للدلالة بشكل فضفاض على «نقد الوضعية القائمة» أو «نقد المنظورات الإنسية الليبرالية»، وفي الغالب ما استعملت للدلالة على التزام بالتغيير الاجتماعي.

ومن أجل مزيد من التعقيد نضيف معنيين محتملين لكلمة «نقدي». فمن جهة، يعترف منظرو مدرسة فرانكفورت أن أعمالهم «نقدية» بمعنى آخر، كونها تقدم نقدا لما تعتبره بمثابة الوضعية السلطوية للماركسية الأرثوذوكسية (شاو Shaw: 1985: 165). وبمعنى آخر، إنهم يدركون ضرورة نقد الأفكار المسبقة، أملا في تطوير أفكار جديدة، وفهما عميقا وواسعا لتطورات الرأسمالية، فهم يذهبون أوسع مما تقدمه الماركسية. ولذلك عليهم أن يمارسوا نقدا ذاتيا، وأن يُخْضِعوا عملهم لمعايير فكرية صارمة. لا يظهر هذا الإرث «النقدي» لمدرسة فرانكفورت على نطاق واسع في معظم المقاربات المنتسبة للتحليل النقدي للخطاب، والتي لا تخضع منظورها السياسي اليساري للنقد. ويمكن أن نستثني من هذا التوجه العام المقاربة التاريخية للخطاب (فوداك ٢٠٠١، ريسغل و فوداك 2001: 32- 35، Reisigl and Wodak 2009: 86 – 89) التي تميز بين ثلاثة أبعاد للنقد: نقد نصي وتشخيص اجتماعي استشرافي/ ارتجاعي، وتدافع عن نقد ذاتي عبر أطوار متعددة خلال المسار التحليلي. وهناك استثناء آخر نعثر عليه في الطرح الذي دافع عنه (كلووي Gloy 1988) والمسمى بمدرسة أولدنبرغ Oldenburg (بريدهوفت Bredehoft 1994: 4، بلوهم Bluhm 2000: 10 – 13) التي تقر أن المحللين جزء من الخطابات التي تشكل موضوعا لأبحاثهم، وتُلِح على ضرورة كشف الدارسين لمنظوراتهم ولما يؤسسها، في أفق منح نظراتهم مصداقية على المستوى البين ذاتي.

ومن جهة أخرى يمكن أن نضيف إلى الإيحاءات المتعددة لمصطلح «نقدي» في هذا السياق معنى آخر يتمثل في أن التلاميذ في التربية الليبرالية الكلاسيكية

بمعظم المناطق الناطقة بالأنجليزية يشجعون على أن يكونوا «نقديين»، وذلك بأن يفكروا بأنفسهم بدل أن يسلموا بما يقرؤون بدون نقد، إنها مهارة فكرية لا تقتضي وجود أي انتماء إيديولوجي محدد. وذلك، بمعنى من المعاني، ما جعل مصطلح «نقدي» مصطلحا متعدد الدلالات، مما أفضى إلى التباسات مرتبطة بطبيعة دور محلل الخطاب وطبيعة الموقف السياسي الذي يجب عليه اتخاذه. يدرك كثير من الدارسين كونهم «نقديين» لأن ذلك ما شجعتهم عليه التربية التي تلقوها. وآخرون يعني «نقدي» بالنسبة إليهم نقد المجتمع من منظور ماركسي جديد، وآخرون يرون أنهم «نقديون» لأنهم يتبنون موقفا نقديا تجاه بعض الطروحات الماركسية الجديدة. وحصيلة كل ذلك خلط للمعاني ينتج عنه افتقار للوضوح وللدقة الفكرية. فبالنظر إلى مشاكل التعريف التي تمثل أساس التحليل النقدي للخطاب تبدو مقاولة التحليل النقدي للخطاب أحيانا مفتقرة إلى الاتساق.

وفي الآن نفسه، ثمة تناقض أساسي أومأنا إليه سابقا، تناقض بين الطروحات الماركسية والطروحات ما بعد البنيوية لدى الأسلاف الفكريين للتحليل النقدي للخطاب. فبينما يحتكم الماركسيون إلى نظرية معيارية للتاريخ وللمجتمع، نجد الكتاب المنتسبين لما بعد البنيوية وللتيار ما بعد الحداثي يذهبون إلى كون كل السرديات الكليانية غير صالحة ومتلاعبة إلى حد ما. غير أنه على مستوى القرارات السياسية الفردية في المشهد الفلسفي ما بعد الحداثي من الصعب تبرير تبني سرديات كبرى معينة لتأويل ظاهرة ملحوظة. فعلى سبيل المثال، رفض فوكو في إحدى المناسبات بشكل ملحوظ التورط في إصدار أحكام قيمة حول الخطابات التي يدرسها (فوكو ١٩٦٩). وبدل ذلك، اقتُرِح في إطار ما بعد الحداثة أنه على المرء أن يختار قيما محددة أو موقفا محددا في سيرورة التعريف

بالذات وجوديا. والتي تُنعت أحيانا بالنزعة القرارية. (هابرماس Habermas 1976، ماكينتير Macintyre 1981). فوفق هذا المنظور، على الرغم من محاولتنا صياغة التزاماتنا باتباعنا لإواليات «عقلانية» إلا أن التفكك الأخلاقي والفكري يحول دون إيجاد أساس صلب لسياسة عقلانية أو خطاب سياسي معقول، والأمل ضئيل لتعزيز التحرر الإنساني.

وإزاء هذه السيناريوهات المتناقضة، هاهنا يتساءل (همرسلي Hammersley) إن كان من اللائق موضعة الباحثين في التحليل النقدي للخطاب في زاوية ما بعد البنيوية باعتبارهم أشخاصا اختاروا موقفا كفعل إرادي، وليس نتاج مداولة موسعة مؤسسة على فحص المعطيات والقضايا. إذا كان الأمر كذلك، حسب استدلاله (١٩٩٧: ٢٤٢ – ٢٤٥)، فإنه لن يوجد سبب محدد بموجبه يجب على القراء أن يقبلوا الطرح السياسي للتحليل النقدي للخطاب بدل طروحات أخرى، وبالتالي يصير زعم التحليل النقدي للخطاب بتحقيقه لـ «السلطة التأويلية» و«السلطة التحررية» مجرد إثباتات يمكن للمرء أن يتبناها باختياره مشاطرة وجهات نظر روادها أو عدم مشاطرته لها.

ولما سلف نتائج بعيدة المدى على وضعية التحليل النقدي للخطاب باعتباره مقاربة. وكما أشار إلى ذلك هامرسلي، إذا تبين أن الموقف السياسي الذي بُنِي عليه التحليل النقدي للخطاب غير مؤسس، وأنه مجرد نتاج للنزعة القرارية، فإن ذلك لا ينسجم مع المزاعم القوية للتحليل النقدي للخطاب، ولا مع أنشطته. فإذا كان المبدأ المركزي للبحث النقدي يتمثل في أن البحث ينبغي أن يوجه نحو تحقيق وظائف سياسية (فضح اللامساواة والهيمنة والظلم)، وليس أن يكون مجرد إنجاز لهدف مواضعاتي للبحث (أن يكتفي بملاحظة وتأويل الظاهرة)، فيجب إذن أن يكون ثمة مسوغ قوي لذلك المبدأ. وإذا كان، في منتهى الأمر، التسويغ

مسألة اختيار فردي، فإنه ما من حافز يدعو القارئ لأخذ هذا النمط من البحث على محمل الجد.

وغالبا ما يكون الباحثون في التحليل النقدي للخطاب متيقظين لمسألة إظهار التزاماتهم السياسية قبل الشروع في تأويل وتفسير الظاهرة الاجتماعية. فمثلا، تميل فيركلاف إلى التشديد على ميولاتها اليسارية العتيدة، وإن كانت من حيث المبدأ، تستدل على أن البحث النقدي لا يحتاج أن يكون يساريا، وأن الأشكال اليمينية للتحليل النقدي للخطاب ممكن تصورها (فيركلاف ١٩٩٦: ٥٢). ولا بد هنا، من طرح نقطتين: الأولى، أنه إذا كان الأمر كذلك، فينبغي أن تكون تأويلات فيركلاف وغيرها مفتوحة للمساءلة، لأن أي تأويل يساري يجب أن يتم مواجهته بالتساوي بتأويل يميني أو بأي زاوية سياسية موجودة. وهكذا، فالمشروع العلمي للتحليل النقدي للخطاب برمته يُنظر إليه على أنه مشروط، وبقوة، بالاختيار السياسي بدل أن يكون مشروطا بالمعيار العلمي الذي يحتل دورا ثانويا. النقطة الثانية، تتمثل في أن النزوع المطرد للمنتسبين للتحليل النقدي للخطاب نحو الشفافية والمصداقية لن يعفيهم من مطلب الموضوعية في أبحاثهم، ولطالما لمَّح بورديو إلى الطابع السطحي لمثل هذا النمط من الإعلانات، وكذلك إلى الدور الذي تلعبه التعريفات الذاتية في صراعات السلطة الأكاديمية (1984 308 :b). وفي الواقع، من الشائع بالنسبة إلى الكتاب في مختلف أنماط الإطار مابعد الحداثي أن يحاولوا التحايل على المعضلات الإبستمولوجية الجدية عبر اتخاذ موقف صريح من الخارج. ويعتبر ذلك شائعا، بشكل خاص في مجالات من قبيل المقاربات ما بعد الحداثية للمسألة النسائية (هاردين Harding: 11–12)، حيث إن المسوغ المعتاد الذي يطرح يتمثل في الحاجة إلى منظور نسائي لإعادة التوازن إلى نسق محكوم بالنظام الأبوي، سواء أحُلَّت المشاكل الإبستمولوجية لما بعد البنيوية أم

لم تُحَل، فإن المناورات من هذا القبيل لا تبرئ الكاتب من مسألة إساءة تقديم المعطيات أو تأويلها وفق الكيفية التي يختارها بإيعاز من هدف سياسي محدد.

وبالنظر إلى افتقار المصادر الفكرية للتحليل النقدي للخطاب إلى التجانس، تعد ندرة النقاش داخل دوائر التحليل النقدي للخطاب بخصوص وجاهة تلك المصادر وانسجامها مبعث استغراب. وكما أشار (سليمبروك Slembrouck ٢٠٠١: ٤٠ – ٤١): «يستمر التحليل النقدي للخطاب في عدم الوضوح المتبنى بخصوص الأفضلية الممنوحة لنظرية اجتماعية معينة». ففي واقع الحال، يبدو أن التوجهات على امتداد السنوات الماضية قد وسَّعت القاعدة الفكرية التي تنطلق منها بدل تقليصها. فبينما يدعم فيركلاف (١٩٨٩) تصوره بشكل واسع بواسطة الماركسية الجديدة والمنظور الكرامشي للتحكم، الذي يعتبر أن «الحس المشترك» المطبَّع أداة ناقلة للإيديولوجيا والنص محل صراع. سيبني شولياراكي وفيركلاف (١٩٩٩) عشر سنوات بعد ذلك أجندة بحث ملتزمة بحوار مستمر بين الحداثة المتأخرة والحركة النسائية وما بعد الحداثة. هكذا يكون التحليل النقدي للخطاب قادرا على الاحتكام إلى مشهد من الأفكار حول المجتمع واسع ومتناقض، قائم على حشر مجموعة من المفكرين من ماركس مرورا بكرامشي وهوكهايمر إلى غيدنز Giddins، تنوع غزير من مقاربات اللغة والتواصل المستندة إلى باختين وفوكو وهابرماس وهاليداي، دون إدراك واع لضرورة تسويغ تلك الانتقائية أو مَنْسَقَة القاعدة الفكرية، عوض القيام بربط فضفاض للمصطلحات المنتقاة بالظواهر المقترنة بالحداثة المتأخرة، من قبيل الرأسمالية الاستهلاكية والتسويق وتحقيق وتقوية التحكم من خلال التلاعب الإيديولوجي. وفي واقع الحال، يذهب (ويس وفوداك ٢٠٠٢) خطوة إلى الأمام عبر إقرارهما بأن النظريات والبناءات المستوحاة من عدد من المفكرين الفلاسفة وعلماء

الاجتماع لا تعدو أن تكون مجرد أدوات، مثلما أن المقاربات اللسانية ينظر إليها على أنها أدوات توظف من طرف المحللين لملاءمة وضعية محددة: «للمرء أن يتحدث في هذا المقام عن توليف نظري لأدوات تصورية... والأدوات من هذا النوع هي مثلا: التشكيلات الخطابية عند فوكو، والهابيتوس عند بورديو، أو السجل والشفرة كما عرَّفها هاليداي وبرنشتاين» (٢٠٠٢: ٧). وإزاء قوة هذه التأكيدات، أشار مجموعة من النقاد إلى أن التحليل النقدي للخطاب يشتغل عادة في إطار العلاقة الوجاهية الناظمة للعلاقة بين منظومة الأفكار وعالم الخطاب، مستعملة منظومة الأفكار تلك لتفسير عالم الخطاب دون معالجة أي من هذه المصطلحات وفق شروطها الخاصة (سليمبروك ٢٠٠١). وفي واقع الحال، يفضي ذلك بنا إلى وضعية تصير بموجبها الحجج المستمدة من الفلسفة والسياسة وعلم الاجتماع غير موظفة بكيفية تجعلها تحظى برضى الخبراء في هذه التخصصات، كما أنه ليست الأسس المعتمدة في التحليل اللساني مؤسسة بشكل جيد بكيفية تجعلها تحظى باعتراف اللسانيين.

بالنظر إلى الوضعية السالفة، من الضروري العودة إلى المسألة المركزية أي ما إن كان الكم المتنوع من النظريات التي ينهل منها الباحثون في التحليل النقدي للخطاب نقطة قوة أم نقطة ضعف. بحسب بعض الكتّاب تعتبر مسألة اقتران النتائج المحصلة لدى الباحثين في التحليل النقدي للخطاب بمفاهيم سوسيولوجية وفلسفية متنوعة دليلا على صلابة الأساس الذي يرتكز عليه المجال. وسيكون مأسوف عليه، بحسب محاججتهم أن نحصر ممكنات التحليل النقدي للخطاب في إطار مدرسة تأويلية أو نظرية للغة أو للمجتمع محددة. والإحساس السائد لدى عدد من محللي الخطاب أن هذا الانفتاح دليل قوة وليس دليل ضعف. (شولياراكي وفيركلاف ١٩٩٩، ويس وفوداك ٢٠٠٢). وحتى في بدايات

التحليل النقدي للخطاب كان تأكيد (فيركلاف ١٩٨٩: ١٠) على أن المقاولة النقدية ليست: «مجرد مقاربة أخرى لدراسة اللغة (...) ولكن (...) توجه بديل لدراسة اللغة». وهكذا يعتبر التحليل النقدي للخطاب بمثابة المعبد الضخم الذي يمكن أن يأوي حشودا وافرة. غير أن هذه الوضعية لا تخلو من وجود نقادها في حظيرة التحليل النقدي للخطاب. فهذا فاولر يعلق بشكل أكثر سلبية (١٩٩٦: ٨ – ١٢) قائلا: «يبدو أن أي شيء يمكن عده تحليلا للخطاب (...) ثمة خطر المنافسة و خطر المنهاجيات غير الخاضعة للمراقبة التي يتم اجتلابها من خليط نماذج مختلفة في العلوم الاجتماعية». ونتائج الاشتغال في إطار انتقائي من هذا القبيل واضحة من بينها: الافتقار للانسجام وخلط غير تمييزي بين مفاهيم متنافرة وتطبيق غير نسقي للمناهج وهلم جرا. وهكذا، بغض النظر عن مسألة الصرامة الفكرية ثمة قضايا تستلزم حلا من قبيل التحديد الذاتي للتخصص والفهم الذاتي.

٢– وصف النص: نقد المنهجية:

سطَّر فيركلاف في كتابه: «اللغة والسلطة» (١٩٨٩) منهجية لتحليل النصوص مؤسسة على تقنيات كلاسية لتحليل الخطاب، تدين بالكثير لهاليداي واللسانيات الوظيفية النسقية. تعتبر الوجوه البارزة في نشأة وتكوُّن التحليل النقدي للخطاب من قبيل فاولر (١٩٩٦) وشوليارا كيوفيركلاف (١٩٩٩) أن إطار هاليداي يشكل الدعامة الفكرية لتحليلاتهم. تتمثل البنية العامة الموظفة في الإطار المعهود الثلاثي المستويات والذي يتحدد في كون اللغة تشتغل في المستوى الفكري (بناء وتمثيل التجربة في العالم) وفي المستوى العلاقي (قانون العلائق الاجتماعية) وفي المستوى النصي (إنتاج النصوص). تقرن اللغة المعاني بعباراتها المنطوقة والمكتوبة. وكل من المعاني والعبارات تتصل بظواهر خارج اللغة، وبشكل

أكثر تحديدا تتصل بالحياة الاجتماعية، إلى درجة أن: «ما هو اجتماعي مبني في النسيج النحوي للغة» (شولياراكي وفيركلاف ١٩٩٩:١٤٠). وبالنسبة إلى هؤلاء الكتاب يكفي أن يتفحص الباحثون بإمعان تحققات لغوية معينة (نصوص أو تفاعلات) كي يكتشفوا العلائق الاجتماعية التي تعكسها أو تصوغها أو تعيد إنتاجها، وهكذا يمكن أن يتعلموا شيئا بخصوص السياق الاجتماعي الذي تنغرس فيه تلك العلائق. وفي منظورهم يجب أن يكون تحليل من هذا النمط موضوعيا وصارما، ويمكن أن يطبق التحليل تقنيات متنوعة للبحث اللساني بدءا بالمناهج الكيفية المخصصة لتحليل الحوارات وصولا إلى المقاربات الكمية التي نعثر عليها في لسانيات المتون.

يبدو أنه لا غبار على الإطار اللساني والمنهجية التحليلية التي يزعم الباحثون في التحليل النقدي للخطاب استعمالهما. وإن كان كثير من الصخب النقدي الذي أثير حول التحليل النقدي للخطاب قد ركز على هذا الجانب تحديدا، قد يكون الإطار سليما وقد تبدو المنهجية واعدة، لكن في الممارسة يملك البحث في إطار التحليل النقدي للخطاب عيوبا منهاجية عميقة.

لا يكمن المشكل الجوهري في الافتقار إلى الوعي بالحاجة إلى الصرامة. لقد دافع (فيركلاف ١٩٩٢) في سياق مراجعته لعشرين مقالا منشورا في «الخطاب والمجتمع» على أن التحليلات المقدمة في المقالات كان بإمكانها أن تكون أكثر إقناعا، لأن اهتمامه بقي لصيقا بالخصائص النصية والتناصية. غير أن المراجعة التي قدمها ظلت مجانبة للصواب لأنه بدل شجب الافتقار إلى الصرامة اكتفى بإبراز أسفه على ضياع فرصة بلورة نتائج معينة، إلى حد أن: «التمرين برمته (...) يبدو مثل مجهود لبناء المجتمع المحلي بدل أن يكون بحثا من أجل تعزيز الفهم» (فيرشوين Verschueren 2001: 67). لقد تم رصد الافتقار

للصرامة العلمية، بشكل مماثل في عدد من المنشورات التي تزعم تطبيق التحليل النقدي للخطاب. فعلى سبيل المثال أشار (روجرز ٢٠٠٥: ٣٨٥) في معرض مراجعته لأربعين مقالا في حقل التربية منشورة إلى حدود سنة ٢٠٠٣ تستعمل التحليل النقدي للخطاب، إلى أن ربع المقالات لم تتضمن أي نقاش بخصوص النظرية اللغوية، بينما أحالت المقالات الأخرى على التحليل النقدي للخطاب واللسانيات الوظيفية النسقية ونظرية الخطاب، وفي كثير من الأحيان كان ذلك يتم بمصطلحات عامة، أما المناقشة المفصلة للدليل اللساني فلم ترد إلا لماما. ولقد أشار دارسون آخرون إلى أن المحللين النقديين للخطاب غالبا ما يؤكدون استعمالهم لمنهجية تخص إثنوغرافيا التواصل، لكنهم يفشلون في تقديم وصف للوضعيات أو الكيفيات التي يحصلون بموجبها على المعلومات وفق الصيغة المقبولة لدى الإثنوغرافيين أنفسهم (بلومارت Blommaert 2001: 14 –17).

يجري الاعتراف بهذه النقائص المنهجية، وبشكل خاص ما تعلق منها بكيفية الحصول على المعطيات وبكيفية تأويلها. سيكون تركيزي هنا على كيفية حصول الباحثين في التحليل النقدي للخطاب على معطياتهم. وفي الفقرة التي تعقب الفقرة الموالية، سأوجه اهتمامي شطر مسألة التأويل، وكذلك مسألة استجابة القارئ المتعلقة بها.

من بين أكثر نقاد التحليل النقدي للخطاب جرأة في هذا المجال هو (ويدووسون Widdowson 1998، 2005). ففي معرض مراجعته لثلاث دراسات تمثيلية منشورة في ١٩٩٠، وضع أصبعه على ما اعتبره الطبيعة اللانسقية لبعض أبحاث التحليل النقدي للخطاب. يقتبس من (فاولر ١٩٩٦: ٨) قوله: «يذهب اللسانيون النقديون بعيدا بانتقائهم لأقل عدد من المفاهيم اللسانية من قبيل التعدية والتأسيم»، ويؤول ويدووسون هذا الكلام على المنوال التالي:

«ليس التحليل تطبيقا نسقيا لنموذج نظري، إنه إجراء يفتقر إلى الصرامة، وفي واقع الحال، هو ضرب من الترقيع الموضعي يأخذ من النظرية أي مصطلح ذي فائدة في المتناول» (ويدووسون ١٩٩٨: ١٣٦). ويمضي ويدووسون في اقتباسه لفاولر، وبخاصة تأكيده على أن المقاربات التحليلية الأخرى (نظرية الخطاطة، التحليل المعرفي...) يمكن توظيفها بشكل متكافئ وجلبها إلى حظيرة النموذج «النقدي»، وأي منهج يمكن أن يقوم بهذه المهمة طالما أن النتائج المحصلة جيدة.

راجع ويدووسون تحليلات التحليل النقدي للخطاب لعدد من النصوص المفاتيح بشكل مسهب، بغية تبيين ما يعتبره افتقارا للنزاهة في تطبيق المنهج. فبتركيز تلك التحليلات على وحدات معجمية محددة أو سمات نحوية (البناء للمجهول والتأسيم) تصل إلى نتائج معينة تخص الإيديولوجيا في النص. ويتساءل: هل يعتبر ذلك مشروعا؟ بما أن السمات المنتقاة قد تم انتقاؤها، في اعتقاده، بكيفية أكثر أو أقل عشوائية، لأن الباحث يدرك حدسيا أن تلك السمات يمكن أن تزوده بنتائج ذات دلالة إيديولوجية، فبالإمكان تجاهل بقية النص التي يمكن أن تحتوي معطيات متناقضة. ولا يستبعد ويدووسون إمكانية وجود سمات نحوية معينة (مثل البناء للمجهول) ذات: «التكافئ الإيديولوجي العالي» (١٩٩٨: ١٤٨). لكن في نظره لم ينجح المحللون النقديون للخطاب في البرهنة على ذلك، بل لم ينجحوا حتى في طرح مسألة كيفية البرهنة على ذلك. فيقترح أن تكون منهجية المتون حلا للمشكل، لأن قاعدة معطياتها أكثر اتساعا ومناهجها أكثر نسقية. إن نتائج دراسات من هذا النمط ستكون بمنأى عن «العشوائية»، و ستكون أقل انفتاحا على المحاباة والتحيز الملحوظ، وذلك تبعا لويدووسون، و تبعا لدراسات أنجزها (فاولر ١٩٩٦) و(فيركلاف ١٩٩٦) و(فان ديك ١٩٩٦) لا مناص من الإشارة إلى أن ويدووسون نفسه عجز عن أن يبرز بكيفية علمية

كيف أن «العشوائية» في انتقاء المعطيات حاضرة، مما يقوض وجهة نظره إلى حد ما. غير أن جوهر الفكرة التي مفادها أن محللي الخطاب مدعوون لاستنبات معايير موضوعية وتطبيق يراعي المنهجيات العلمية (مثلا، من خلال الانخراط في استعمال قاعدة معطيات نصية واسعة وأدوات المتون) قد استلهمتها الأعمال الحديثة التي أنجزها الدارسون في مجال التحليل النقدي للخطاب (أنظر أسفله). فنقد ويدووسون أكثر وجاهة عندما يُوَجه للأعمال المبكرة للتحليل النقدي للخطاب، وتحديدا للكتاب البريطانيين من قبيل فاولر وفيركلاف.

ولقد تمت الإشارة إلى مشكل هذا النزوع التحليلي المحتمل من قبل كتاب أمثال (تولان Toolan 1997) و(ستيبس Stubbs 1997) التي تمحورت حججهما حول فكرة أن التحليل النقدي للخطاب، على الأقل في بداياته، غالبا ما كان يخفق في مقاربة النصوص بكيفية نسقية. دافع ستيبس عن مقاربة مقارنة مؤسسة على قاعدة معطيات تمثيلية واسعة. لقد تناول مسألة المنهج من خلال معالجة ما يصطلح عليه كثير من محللي الخطاب بمستوى «الوصف». ففي التعريف الكلاسي عند (فيركلاف ١٩٨٩) يعني الوصف التحقق من القيم التجريبية والعلاقية والتعبيرية التي تتحقق في الكلمات والبنيات النحوية للنص، وكذلك ما يمكن ملاحظته من بنيات نصية ومواضعات تفاعلية. هكذا يختار عدد من محللي الخطاب أثناء الممارسة التركيزَ على سمة واحدة من السمات المذكورة، من قبيل استعمال البناء للمجهول أو التأسيم (فاولر وآخرون ١٩٧٩، فاولر ١٩٩١، فيركلاف ١٩٩٢ أ، ١٩٩٢ ب). فوفق منظور ستيبس، تعتبر كل المزاعم التي يسوقها محللو الخطاب المبنية على تلك التحليلات غير مؤسسة، لأن المنهجية المتبعة غالبا ما تكون انطباعية، أو لأن قاعدة معطيات النصوص ضئيلة ويتم تحصيلها بكيفية غير نسقية.

يحيل ستيبس على دراسة (فيركلاف ١٩٩٥) يزعم فيها أن اللغة العمومية (الكتابة الأكاديمية والنقاشات السياسية) أصبحت أقل رسمية. وجوهر نقد ستيبس يكمن في فكرة أن فيركلاف لا يقدم أي دليل كمي على زعمه، وبشكل خاص، ليس ثمة دليل كمي تعاقبي يبين درجة تصاعد اللارسمية. ففي الواقع، وإن كان زعم فيركلاف يبدو معقولا للوهلة الأولى إلا أن المناهج التي يستعملها للحصول على حجته غير مُفَسَّرة. والنتائج المحصلة لم تُطْرَح بالشكل الذي يسمح لأي شخص كان أن يواجهها. وفي واقع الحال، عندما نفحص دراسات التحليل النقدي للخطاب عن كثب، يظهر أن جزءا كبيرا من الحجة مشروط بعدد قليل من الكلمات (من قبيل كلمة «المقاولة» في فيركلاف ١٩٩٥). و يذكرنا بذلك ستيبس قائلا: «نادرا ما تحدد السجلات بالسمات الفردية، بل إنها تتشكل من حزم من السمات المترابطة التي تملك نزوعا كبيرا غير خاضع للصدفة في توارداتها» (١٩٩٧: ٣).

إن كان من المستحيل أن نعمم بخصوص المناهج المستعملة في التحليل النقدي للخطاب، غير أن جوهر استدلال ستيبس يظل قائما، لأن بعض المحللين النقديين، وبشكل خاص في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، كانوا يمرون مرور الكرام على قضايا الاتساق المنهجي، وقلما يقدمون أي تسويغ لمناهجهم. وإن كانت أعمالهم تنطوي على حدوس أصيلة، إلا أنها تفتقر للصرامة المطلوبة في البحث الأكاديمي. لقد أشار ستيبس إلى أن: «النقاش يقل بخصوص مدى ملاءمة حصر التحليل في شذرات مختصرة من المعطيات وكيفية تجميع قاعدة المعطيات، وما إن كانت تمثيلية» (١٩٩٧:٧). والأدهى، ثمة خطر في تقديم تلك الشذرات على أساس أنها تمثيلية دون تفسير لكيفية تأسيس تلك التمثيلية.

ليس تيبس معاديا، بشكل ملازم، للتحليل النقدي للخطاب، لكن مدار دليله حول عدم كفاية صلابة المناهج المستعملة، بما يجعلها مسوغة للنتائج التي يزعمون تحصيلها، وما يستتبع ذلك من النظر بارتياب إلى التأويلات والتفسيرات المقدمة. لا شك في كون البيان الذي صاغه ستيبس بخصوص صيغة صلبة منهاجيا لتحليل الخطاب كان متأثرا بخلفيته المعرفية ذات الارتباط بلسانيات المتون، لكنها ليست غير ذات أهمية. يقول: «ينبغي أن تكون تحليلات النص، ببساطة، أكثر تفصيلا. يجب أن تكون التحاليل مقارِنة بمعنى إخضاع النصوص الفردية لمقارنة بعضها بالبعض الآخر وبمعطيات المتون. لا ينبغي حصر التحليلات في شذرات من المعطيات المعزولة، يجب تجميع قاعدة معطيات واسعة قبل إجراء تعميمات تخص استعمالا نمطيا للغة. وينبغي دراسة مجموع واسع من السمات اللسانية، بما أن تنويعات الاستعمال اللغوي لا تحدد بسمات فردية، ولكن بحزم من السمات المتواردة، مما يستلزم استعمال المناهج الكمية والاحتمالية لتحليل النص والمتن» (ستيبس ١٩٩٧: ١٠).

في الواقع، تزامنت كتابات ستيبس مع بداية استشعار محللي الخطاب للحاجة إلى مقاربة أكثر نسقية تطبق على قاعدة معطيات للخطاب أكثر اتساعا وتمثيلية (فوداك وآخرون ١٩٩٠، فان دايك١٩٩٣، هويي Hoey 1996: 154، فوداك ١٩٩٦). ولقد بدأ تيار في التشكل يحتكم إلى منهجية المتون لمنح إطار منهاجي أكثر صلابة للتحليل النقدي للخطاب (موتنر Mautner 2001: 122، بارتنغتون Partington 2006: 267، باكر Baker وآخرون: 2008: 277 – 283). هاهو ذا فيركلاف نفسه، الذي كان هدفا لعدد من الانتقادات المبكرة المنصبة على مناهج التحليل النقدي للخطاب، قد نشر لاحقا دراسة للغة «المستخدم الجديد» تأسست على

كميات وافرة من المعطيات التجريبية، كما استدمجت أدوات لسانيات المتون واستعملتها بغاية تحصيل صورة أكثر تمثيلية (فيركلاف: ٢٠٠٠: ١٧).

وحتى نكون منصفين لفيركلاف وللتحليل النقدي للخطاب عموما، ينبغي أن نقول إن احتكام ستيبس لمرجعية لسانيات المتون جعلته منحازا للدراسات المؤسسة على قاعدة معطيات نصية واسعة، وبشكل خاص الدراسات التقابلية التي صُمِّمت للكشف عن السمات المائزة لمختلف الأنواع والسجلات باستعمال المناهج الإحصائية لإنشاء الدلالة. غير أنه يعتبر ذلك بعيدا عن أن يكون المسلك الأوحد لدراسة معطيات اللغة. فمن الخطأ، استبعاد المقاربات الكيفية في التحليل النصي، لأنه من الواضح أنها تمنح بديلا حيا للمنهجية الكمية التي لا تعوزها العيوب بدورها وعدم الاتساقات. وبالمقابل من الخطأ تجاهل نتائج التحليل النقدي للخطاب فقط لكونها لم يتم تحصيلها بالكيفية المطلوبة. يجب أن يكون التحليل الكيفي، مثلا، لقاعدة معطيات نصية صغيرة المسلك الوحيد لتحليل أنماط معينة من الخطاب، مثل خطاب سياسي محدد أو خطاب حزب معين.

لقد تبنى (فرسشويرن Verschueren 2001: 60) زاوية نظر مختلفة قليلا، مشيرا إلى الافتقار إلى تحليل مفصل للغة والتفاعل في بعض تحليلات المحللين النقديين للخطاب (مثلا، قدّم فيرسشويرن نقدا للتحليل النصي لدى شولياراكي وفيركلاف ١٩٩٩). استقرت ملاحظة فيرسشويرن بشكل خاص على النزوع نحو ترك مظاهر مهمة من النص التي لا تتماشى مع الإطار التأويلي. هكذا دفعت مراجعة فيرسشويرن لتحققات مختلفة لذلك النزوع الانتقائي إلى أن يخلص إلى أن عددا من النتائج المزعومة: «نتاج اعتقاد بدل أن تكون نتاجا لفحص تحليلي متأن، مما يترتب على ذلك مساءلة ملاحظاتهم ونتائجهم». يقبل فرسشويرن صلاحية المقاربة التحليلية الثلاثية المراحل لدى فيركلاف (الوصف

ثم التأويل والشرح، أنظر أعلاه)، لكنه يسلط الضوء على الكيفية التي ينتقل بواسطتها المحلل من المستوى الأول (الوصف) نحو المستوى الثاني (التأويل بمعنى موضعة النص كخطاب). فمن أجل تحقيق هذا الانتقال، يحتكم فيركلاف إلى ما يصطلح عليه بـ «موارد الأعضاء»(١٩٨٩: ١٦٧): «في هذه المرحلة من الإجراء يعتبر الوعي الذاتي وحده مميزا للمُحَلِّل عن المشاركين موضوع تحليله. يفعل المحلل نظير ما يفعله المشارك المؤول، لكن خلافا للمشارك المؤوِّل،يكون المحلِّل مَعْنِيا بتفسير ما ينجزه».

يقترح فيرسشوين أنه بإدماج فيركلاف لمصطلح «موارد الأعضاء» يكون قد تخلى عن مسألة الدليل التجريبي. تتساوى صلاحية تأويل المحلل مع أي تأويل آخر (تأويل المشاركين أنفسهم أو أي مشاهد)، ما دام التأويل متجذرا في نفس النمط من المعرفة العاملة المرتبطة بكيفية استعمال اللغة وبطبيعة المجتمع. غير أن مفهوم موارد الأعضاء، وكما أشار إلى ذلك سليمبروك Slembrouck، تؤثر علائق القوى الاجتماعية فيه تصوريا وتشوهه، ولذلك ليس هناك ما يضمن أن يكون متحررا من إعادة إنتاج أو من التلاعب الإيديولوجي.

وبحسب فيركلاف، عندما يتعلق الأمر بالتأويل يمكن للمحلل أن يَعْبُر بسرعة نحو المرحلة النهائية من التفسير. لكن بما أن التأويل يحتكم إلى موارد الأعضاء، يبقى الاختلاف الوحيد بين المشارك والمحلل في مستوى التفسير، هو أن المحلل قد يحتكم إلى نظرية اجتماعية لتأويل ما لاحظه. وفي ارتباط بهذه المسألة بالذات يعتقد فيرسشوين أن مزاعم التحليل النقدي للخطاب بتحقيق استبصارات تأويلية تتهاوى. وعلى حد تعبيره: «إن المطلب الواقعي الوحيد بالنسبة إلى التفسير هو توفر نظرية اجتماعية جيدة. لا شيء يذكر بخصوص البعد التجريبي المطلوب في عملية ربط المعطيات بالنظرية» (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٩). وفي

منظور بعض النقاد (سليمبروك ٢٠٠١) يكمن جوهر القضية في أنه ليس من المشروع الاحتفاظ بالاختلاف بين الباحث والمبحوث وحصر الاختلاف بينهما في مسألة النفاذ إلى نظرية اجتماعية.

لقد قدَّم فيرسشوين تحليلا مفصلا مبينا في تقديره كيف فشل فيركلاف(١٩٨٩) في التغلب، بشكل مُرْض، على البعد التجريبي، بمعنى أنه فشل في تقديم تحليل نسقي للنص صارم ومُرْض. ومؤدى جوهر نقده أن فيركلاف يقوم بعزل نصوص فردية من أجل تحليلها دون موضعتها في السياق الاجتماعي والتناصي الذي يجب أن تُقْرَأ في سياقه. فمثلا، يتناول فيركلاف سمة لسانية معينة، ولتكن مثلا التأسيم في تقارير الأخبار، مؤولا إياها باعتبارها مستعملة لغاية التعتيم على مسائل مرتبطة بالمنفذية، من أجل تجنب إسناد المسؤولية، غير أنه، وفي سياق قصة أو وضعية معينة، ومن خلال التقرير المقدم حول موضوع محدد من خلال قضايا متنوعة لنفس الجريدة، يكون الأمر واضحا بالنسبة إلى القارئ على من تقع المسؤولية بالضبط. والمسألة الأساسية عند فيرسشوين أن فيركلاف يفشل في موضعة النص في الوضعية التواصلية، ليضعه بذلك خارج السياق، متجاهلا المظاهر النصية غير المتوافقة مع توقعاته، مما يفضي إلى نتائج مشوهة.

يحلل فيرسشوين (٢٠٠١: ٦٠ — ٧٩) ظاهرة مماثلة وردت في معرض محاولة فيركلاف تحليل التفاعل الحواري. والمثال المدروس هنا متعلق بتفاعلين حواريين يخصان مقابلة بين طبيب ومريض، أحد التفاعلين « تقليدي» والآخر «بديل». وهكذا طبق فيرسشوين التقنيات النسقية للتحليل الحواري والتأويل التداولي مبينا أن النتائج التي يخلص إليها فيركلاف غير مؤسسة (فيرسشوين ٢٠٠١: ٧٠ — ٧١). ويرى أن فيركلاف يفرض إطارا تقابليا من الخارج يفضي

إلى تشويه المعطيات وتجاهل السمات التي لا تتماشى مع الخطاطة المحددة سلفا. وعلى المستوى المنهاجي يُعين فرسشوين نقيصتين أساسيتين: النقيصة الأولى تتمثل في تجاهل المظاهر العامة للسياق (من قبيل: هل لدى المريض مشكل محدد أم لا؟ هل يعرف الطبيب والمريض بعضهما البعض؟). وتتحدد النقيصة الثانية في التعامل مع العلائق الناظمة للشكل – الوظيفة باعتبارها قارة وثابتة، ويعتبر ذلك غير مقبول في التحديدات التداولية (فمثلا، يفترض فيركلاف أن الطبيب الأول يتحكم في عملية التفاعل من خلال طرح الأسئلة، لكنه لا يطرح إمكانية أن يكون الطبيب الثاني متحكما بمهارة من خلال التقليل من استجابات المريض، أو أن يكون الطبيب الثاني غير مهتم ببساطة بالمريض أو لا يبدي التزاما أو مسؤولية تجاه المريض).

لقد دافع فيرسشوين بلباقة عن مقاربة أكثر نسقية وموضوعية وانضباطا للتحليل الكيفي للإيديولوجيا في النصوص، مبنية على مجموعة من المبادئ المحددة المتعلقة بطبيعة قاعدة المعطيات المستعملة، وبالحاجة إلى استكشاف أفقي وعمودي للنص، وبالحساسية تجاه القضايا التداولية المرتبطة بعلاقة الشكل بالوظيفة، وبالانشغال بمسألة كون المعنى يجب أن يكون منبثقا بكيفية منسجمة من المعطيات وليس مفروضا من طرف الباحث، (ينظر: فيرسشوين ٢٠١١). وفي الواقع، يكشف ماضي التحليل النقدي للخطاب أن ممارسيه منحوا امتيازا أقل للضوابط المنهاجية، ولا يعرضون دائما آليات أبحاثهم بشفافية (روجرز وآخرون ٢٠٠٥).

يكمن الفشل الأساسي للمقاربات من نمط مقاربة (فيركلاف ١٩٨٩) في كونها تمنح للباحث ولمهارته التأويلية والتفسيرية دورا محوريا، وكما بيَّن (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٠ – ٧٧) لا يقدم فيركلاف أي رصد لكيف تصير مظاهر محددة في

النص حاملة لمعنى أو لآخر، هنا تكفي أحكام الباحث. ويبقى هذا الافتراض موضع شك ومساءلة طالما أن تسويغه يتم باستعمال لمفهوم ضبابي من قبيل: «موارد الأعضاء» (فيركلاف: ١٩٨٩: ١٦٧، فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٨). وهنا أيضا، وبشكل خاص، يتم إخضاع افتراض فيركلاف للنقد، ومفاد افتراضه أن: «الوعي الذاتي وحده يميز المحلل من المشاركين موضوع تحليله»، لأن قراءات متعددة تصير ممكنة، ولأنه كذلك مسعى كل مقاربة أن تقدم شيئا أكثر صلابة، وليس مجرد انطباع ذاتي، وذلك من خلال إجراء منهجية صارمة مؤسسة نظريا. وكما أشار إلى ذلك (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٨ – ٦٩)، تعتبر مسألة المنهج والتأويل جدية لم تُحَل بشكل مُرْض في الأعمال اللاحقة لفيركلاف. فمثلا، أكّد (شولياراكي وفيركلاف ١٩٩٩: ٦٧) على أن التحليل النقدي للخطاب: «لا يدافع عن فهم محدد للنص، وإن أمكنه الدفاع عن تفسير محدد». ووفق منظور فيرسشوين، فالباحثان المذكوران بتبنيهما لهذا الكلام، يكونان قد تغاضيا عن أي زعم يخص تفضيل المحلل لفهم معين، وبالتالي تُنَحَّى جانبا الحاجة إلى الصرامة المنهاجية في مرحلة قراءة و«فهم» النص (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٩). يلتقي نقص عنايتهم بالأبعاد الإبستمولوجية والهيرمينوطيقية للتحليل النصي مع الإفراط في التأكيد على البعد النظري للتفسير. بَعد اقتباس فيرسشوين لتمييز فيركلاف (١٩٨٩: ١٦٧) بين المحلل كقارئ (متساويا مع موارد الأعضاء مثله مثل أي قارئ آخر) والمحلل كمفسر (وهنا، يعتبر المحلل أعلى مرتبة من القراء الآخرين لأنه يحتكم إلى نظرية اجتماعية)، أقول بعد اقتباسه ذلك يخلص إلى مايلي: «بعبارة أخرى، يعتبر المطلب الوحيد بالنسبة إلى التفسير هو وجود نظرية اجتماعية جيدة، ولا شيء يذكر بخصوص البعد التجريبي الذي يعتبر ضروريا لربط النظرية بالمعطيات. فبما أن النظرية مصاغة بشكل قبلي، ليس مصادفة أن النتائج المحصلة متنبأ بها، وثمة ثغرة تفصل التحليل النصي عن النتائج –حتى بالنسبة إلى

كثيرين من أمثالي مما يتقاسمون أجزاء واسعة من النظرية– عندما يتعلق الأمر بالدليل. تصير النصوص مجرد حوامل لما يفترضه المرء مسبقا. فبدل المضي من الوصف مرورا بالتفسير نحو اتخاذ موقف مع جعل التأويل في صلب كل مراحل الاستقصاء، يتم اتخاذ موقف وتهميش التأويل» (فيرسشويرن ٢٠٠١: ٦٩).

تفضي هذه المسألة إلى قضية التأويل والتي تعتبر ذات ارتباط بمسألة استجابة القارئ. تتداخل مسألة كيف يمكن ويجب أن يؤول محللو الخطاب النص بمسألة كيف يفهم القراء النص. وبالرغم من كون كل هذه القضايا غالبا ما تثار عندما يتم تأويل المعطيات اللغوية الكمية، إلا أن المشكل يصير أكثر حدة عندما يُحصر التحليل في البعد الكيفي. وسنتناول هذه القضايا مجتمعة في الفقرة الموالية.

٣– القارئ والنص: التلقي والاستجابة:

لقد كانت مقاولة التحليل النقدي للخطاب في مستوى التأويل النصي موضوعا لسيل من الانتقادات. وفي الطرف الأقصى من الصورة، اتُّهِم المحللون النقديون للخطاب بما يمكن تسميته بالحتمية اللسانية الساذجة. لفت (ويدوسون Widdowson 1998: 136) الانتباه لتفسير اقترحه (كريس Krees 1996: 25): «هذا النوع من السمات السيميوطيقية للمصادر التمثيلية تقترح وتستلزم، وأود أن أقول إنها تنتج، على المدى البعيد استعدادا خاصا ونظاما اعتياديا خاصا habitus، وبذلك تؤدي دورا في إنتاج نمط خاص من الذاتية».

يشبه ويدووسون مقاربة المحللين بـ«البراعة التأويلية التي تُقرَن عادة بالنقد الأدبي» (١٩٩٨:١٣٦). ففي منظوره سقط محللو الخطاب بدون قصد في استعادة: «التصور النقلي للمعنى، حيث تعتبر الدلالة انعكاسا للدلالة اللغوية»(١٩٩٨:١٤٢).

وتأسيسا على ما سلف، استهدفت مجموعة من الانتقادات فهم التحليل النقدي للخطاب للعلاقة بين النصوص والقراء. فبعض الكتاب تعرفوا في التحليل النقدي للخطاب على ما سمونه: «التصور الوورفي Whorfian Notion الاعتيادي للحتمية اللغوية» (ويدووسون ١٩٩٨: ١٣٩). لكن ليس في صيغته الأصلية حيث تحدد الشفرة اللغوية سيرورات التفكير الاعتيادي لمستعملي اللغة، ولكن في صيغته الموسعة حيث تنتج الخطابات وتشرط وتُقيِّد السيرورات الفكرية للمتلقي/ المستعمل. لا مشاحة بخصوص افتراض وجود علاقة دالة بين الخطاب ونظرة الجماعة للواقع. غير أنه من البدهي، في عالمنا المعولم يتعرض الناس لخطابات مختلفة ويتعلمون كيف ينتقلون بينها، متجاهلين عددا منها، يقبلون بعضها ويرفضون البعض الآخر، وبالرغم من الحقيقة الواضحة لهذا التصور، إلا أن كثيرا من أبحاث التحليل النقدي للخطاب تُبنى على أساس وجود علاقة أحادية وبسيطة بين النص وقارئه، أو بين الخطاب ومتلقيه. ولكم كان سيكون الأمر أكثر واقعية ودقة لو تَمَّ الإقرار من الخارج بوجود خطابات أكثر قوة وتأثيرا مقارنة بخطابات أخرى، ولو تم تركيز الاهتمام على تلك الخطابات ذات التأثير على الجمهور الواسع. أو لم تمت محاولة تحديد العوامل التي تجعل ذلك التأثير ممكنا.

من بين المشاكل التي تواجهها هذه المقاربة أن الاستدلال فيها دائري. فمن الممكن دعم فكرة كون استعمال اللغة يحدد معرفيتنا Cognition، لكن هذا الزعم يضعف إذا كانت الحجة الوحيدة التي بحوزتنا بخصوص المعرفية مقترنة باستعمال اللغة فقط. لن يعوزنا الصدق إن قلنا إن اللغة تمثل وتؤثر في السيرورات المعرفية، لكن يجب أن نكون حذرين عندما نحاول استخلاص نتائج تخص الفكر انطلاقا من اللغة، والعكس صحيح. فوفق منظور (ستيبس ١٩٩٧) إذا أراد الباحثون إصدار مزاعم بخصوص ما تفكر فيه الجماعة استنادا إلى ما يقرؤون

أو ما يسمعون، فيجب أن يحصلوا على حجة غير لغوية حول اعتقاداتهم، أو أن يفحصوا سلوكهم. وكما يقول (١٩٩٧:٦): «إذا كنا لا نتوفر على دليل مستقل، ونكتفي باستنتاج اعتقادات انطلاقا من استعمال اللغة، إذن فالنظرية دائرية». يقوم مقترح ستيبس على معضلات شتى، لأنه ليس من الواضح كيف يمكن للمرء أن يستخلص أفكار الجماعة ومعتقداتها بدون استعمال اللغة، كما أنه ليس مسألة ربط الخطابات بالدليل غير اللغوي من قبيل السلوك الملحوظ بالبساطة التي نخالها. غير أن نقده لا يخلو من وجاهة، لأنه ليس من المعقول أن نزعم وجود تأثير أحادي من الخطاب نحو الفكر، كما أن الأمر من الناحية المنهاجية لا يستقيم إن كنا نشتغل على المسألة كما لو كان ذلك التأثير لا يطرح مشكلا.

خصص بعض المحللين النقديين للخطاب، باتباعهم خطا مغايرا للمواجهة، حيزا مُعْتَبَرا لمناقشة الوسائل التي يعتقدون أنه بموجبها تؤثر النصوص في الناس، وذلك لتسويغ ممارساتهم التفسيرية (الهيرمينوطيقية). وهكذا طَوَّر (كريس ١٩٩٢: ٩١ - ١١٧) نظرية للتمثيل والتحويل التي اعتبرها الأداة التي بواسطتها تشتغل الخطابات من أجل تعديل وتغيير وجهات نظر الناس للواقع. تأسست نظريته في البداية على مصطلح التمثيل لدى هاليداي الذي يعني السيرورة التي يتم بموجبها تشفير الواقع فكريا. أما مصطلح التحويل فلم يتم اقتراضه من هاليداي، ويبدو أنه مرتبط تصوريا، وإن عن بعد، بمصطلح التحويل عند تشومسكي. وجوهر المسألة هو الإلحاح على الكيفية التي تتغير بموجبها التمثيلات، ومن الممكن أن يحدث ذلك نتيجة للتلاعب الإيديولوجي.

وكما أشار إلى ذلك (ويدووسون ١٩٩٨:١٣٨)، ثمة استدلال دائري في هذه المسألة كذلك، لأن التمثيلات بحكم تعريفها صيغ مشفرة للواقع، ومن

الصعب معرفة أي واحدة منها، يمكن عدها تمثيلات خالصة أو تحويلات. ويبدو أن الأمر يتعلق بنظرية للتغير اللغوي أو التغير الخطابي، غير أنه ليس واضحا تماما التأكد مما يمكن أن يكون قد تغير ومماذا. ولهذه المسألة نظيرها، بشكل مثير للاهتمام، المتمثل في مسألة تصنيف اللغة الشعرية كانحراف عن اللغة العادية، كما تمت مناقشتها في (كوزيريو Coserieu 1980: 51). فمعلوم أن الانحراف مفهوم علائقي، ثمة شيء ما ينحرف عن شيء آخر، لكن من الذي يمكن أن يقول لنا ما الذي ينحرف عن ماذا؟ وهكذا، يمكن أن يحدث «انحراف» في الثروة من طرق مختلفة. وبالموازاة، يتأسس مفهوم التحويل على انشطار ثنائي، لكن ما من سبيل لمعرفة أي جانب متحول عن الآخر، أو ما إذا كان ثمة انشطار ثنائي أصلا، أو أن الأمر فقط مسألة مجموع إمكانات مختلفة. ووفق تفسير للتحويل قَدَّمه كل من (هودج وكريس Hodge and Krees 1993) اعتبر الكاتبان أن بعض أنماط البناء النحوي محايدة و «غير محولة»، وأنها وإن كانت تمثيلية غير أنها تفتقر لأية دلالة تمثيلية، إنها تمثيلات بريئة للواقع. لكن، بالمقابل، نجد بناءات أخرى مُحَوَّلة، والجمل المحولة: «تنطوي دائما على حذف و/ أو تشويه» (هودج وكريس ١٩٩٣: ٣٥). وعلى المستوى التطبيقي، وبشكل خاص الأعمال المنجزة في تسعينيات القرن الماضي، نكون بصدد تحويلات عندما تستعمل بنيات «أقل بساطة» من الناحية النحوية لنقل المعلومة، من قبيل البناء للمجهول. لكن، تبقى مسألة ما إن كان استعمال البناء للمجهول دائما ذا حمولة إيديولوجية أو فقط «أقل بساطة» من صورة «البناء للمعلوم» مسألة عالقة لدى الباحثين.

يتناول ويدووسون مسألة مصطلح التحويل عند كريس بطرق مختلفة. ففي البداية، يذكرنا أنه في إطار النموذج التشومسكاوي كل سلاسل الكلمات مُحَوَّلة

وقابلة للتحويل، وبالتالي لا وجود لعبارات محايدة أو بريئة أو غير محولة. فهذا النموذج لا يقدم أية منهجية للفصل بين العبارات المحولة وغير المحولة. ثانيا، يربط ويدووسون تصور كريس عن الجمل المحولة باعتبارها أكثر تعقيدا بالنظرية الاشتقاقية للتعقيد، وهي نظرية كانت بارزة في ستينيات القرن الماضي تأسست على فكرة كون التعقيد البنيوي يتمظهر في التعقيد النفسي وما يترتب عنه من مشاكل في المعالجة. وهكذا فالجمل المبنية للمجهول تقتضي مجهودا أكبر لمعالجتها، لأن الجمل المبنية للمجهول أكثر تعقيدا بشكل محايث مقارنة بمقابلاتها المبنية للمعلوم. تقتضي هذه النظرية مرة أخرى أن بعض البنيات أكثر تعقيدا من أخرى، وأن ذلك التعقيد يلقي بضلاله على القارئ/ المتلقي. غير أن هذا الزعم يناقض الدليل المتوفر في مجال المعالجة اللغوية. فعندما انبرت التجارب الحالية لتحديد سرعة وسهولة معالجة مختلف البنيات اللسانية، تبين أنه من المستحيل بالنسبة إلى الذوات فصل فهمهم للغة نفسها عن العوامل السياقية. مثلا، قارن (أولسون وفيلبي Olson and Filby 1972) زمن الفهم في معالجة القضايا المبنية للمعلوم والمبنية للمجهول وتبين لهما أن الأحداث أو الأسئلة عندما كانت تُشَفَّر من زاوية المنفذ تكون معالجة الاثباتات المبنية للمعلوم سريعة، خلافا لما هو عليه الأمر عندما تشفر من زاوية متقبل العمل، يُعالج البناء للمجهول بشكل أكثر سرعة. ففي تصورهم: «لا يقتضي بالضرورة فهم الجمل المبنية للمجهول استرجاع البنية الأساس الموافقة للبناء للمجهول بإرجاعها إلى صورتها المبنية للمعلوم، أو أن البنية الأساس فا- ف –مف ليس من المفترض أن تكون أساسا (...) لمعنى الجملة» (١٩٧٢: ٣٧٩). وفي تجارب أخرى (والس وكريف Wales and Grieve 1969: 3969: 327 – 332)، تبَيَّن أن الأفراد يفهمون بيسر البنيات المعقدة في سياق محدد، بعبارة أخرى، يميلون إلى تحصيل المعاني التداولية بدل الانخراط في تحليل لساني.

لا يبرز مصطلح التحويل في أحدث المنشورات في التحليل النقدي للخطاب، لكن مفهومه يشيع استعماله (شرودر Schroder 2002، كييوونا كامورا Kuo and Nakamura 2005، ستينفال Stenvall 2007، ينظر أيضا بيليغ (Billig 2008: 35 – 46) من أجل نقاش مفصل بخصوص الكيفيات الممكنة التي بموجبها يكون البناء للمجهول والتأسيم ملغزا، بحيث يكون البناء للمجهول والتأسيم سببا لسلب المنفذية من جماعات معينة أو إخفائها، كل هذا بدون دراسة مستوفية للوظائف التداولية للبناء للمجهول في اللغة بشكل عام، أو تأثير ذلك أو عدم تأثيره في القارئ. وأخيرا، وكما أشار ويدووسون (ص ١٣٨- ١٤١)، بذكاء، يبدو أن مصطلح التمثيل ومقابله التحويل أو مصطلح اللغة البريئة ومقابلها التلاعب الإيديولوجي، يناقض إحدى ركائز التحليل النقدي للخطاب المتمثلة في فكرة أن كل ما في اللغة إيديولوجي ولا شيء فيها محايد. مما يقوض ثنائية التمثيل والتحويل ولا يترك أساسا قويا يمكن للمحلل أن يستند عليه.

كيف يمكن للمحلل إذن تأويل النصوص؟ وكيف يمكنه تثبيت الأثر الذي يتركه النص في قارئه؟ ليس المحللون النقديون للخطاب غير واعين بالمشاكل المثارة هنا، إنهم سرعان ما يؤكدون على أن المعاني الإيديولوجية لا تُقرَأ انطلاقا من السمات النصية، وينبغي التأليف بين التحليل النصي وتحليل ممارسات الإنتاج والاستهلاك (فيركلاف ١٩٩٥)، غير أنهم لا يقدمون سوى القليل من الحجج المتعلقة بهذه الممارسات، بل إنهم يستعيدون نموذجا هيرمينوطيقيا للنقل، حيث تنقل الصور اللغوية المعنى أو تبنيه.

ينطوي هذا النموذج ذاته على تناقض محايث، لأنه حتى المحللون النقديون للخطاب، غالبا، ما يقبلون أن تكون المعاني الإيديولوجية معتمة وغير شفافة، وينبغي انتزاعها بصعوبة من طرف محلل الخطاب، ويبدو أنه يتم توصيلها للقارئ

بيسر وأنها تمارس بحذق تأثيرا إيديولوجيا عليه. وهكذا، فالمعنى محتوى في النص في صورة أكثر تجذرا في العمق، وهو متراكب، ببراعة، داخل البنيات التركيبية والاختيارات المعجمية، وذلك المعنى نفسه المستعصي والمعتم على المحلل يُنقل إلى القراء ممارسا تأثيرا إيديولوجيا عليهم. وهكذا، فمسألة فهم استجابة القارئ يتم توليفها مع قضايا أخرى من قبيل النفاذ إلى السياق، والتي نوقِشت سابقا في هذا المقال، لأن إيلاء اعتبار أقل للسياق يجعل الطريقة التي يفهم بها ويؤول بواسطتها المشاركون أية وضعية يشاركون فيها مسألة معتمة وغير شفافة. وكما سبق لنا أن رأينا، يفضل الباحث موقفه لأن «موارد الأعضاء» التي بحوزته تتضمن نفاذا إلى النظرية الاجتماعية. إذن، فثمة: «خطر يترصده، يرتبط بفقدان إدراك التأويلات المنتجة والعفوية في عوالم الحياة» (سليمبروك ٢٠٠١: ٤٢)، أي ما يعتقد المشاركون في حدوثه في لحظات التواصل الحية.

لقد تناولت الدراسات الأدبية المسائل المرتبطة باستجابة القارئ والطرح التحليلي والإمكانات التأويلية باستفاضة. وعندما يتهم النقاد أمثال ويدووسون التحليل النقدي للخطاب بربطه التحليل بالتأويل، أو بالعثور داخل النص على ما حُدِّد سلفا (ويدووسون ١٩٩٨: ١٤٩)، فإنهم يحيلون على نظير هذه المسألة في النقد الأدبي، فالتحليل النقدي للخطاب هو «ضرب من الشعريات السياسية، ومرة أخرى نجد أنفسنا إزاء القضايا ذاتها المتعلقة بالمسوغ النصي للتأويل». وسيكون مفيدا القيام بفحص موجز للكيفية التي تم بموجبها رصد هذه المسألة في الدراسات الأدبية من أجل عقد مقارنات مثمرة مع التحليل النقدي للخطاب.

يعترف كل من ستوبس وويدووسون أن المسألة الهيرمينوطيقية في التحليل النقدي للخطاب تعكس بشكل آخر مشكلة النقد الأدبي واستجابة القارئ

التي كانت موضوعا لنقاشات حادة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. غير أن زعمهم بكون التماثل في المشكل مدعاة لتبني حل موحد هو زعم يجب إخضاعه للنقد. لنلخص بإيجاز، إن الحجج المطروحة في مجال الأدب بخصوص استجابة القارئ طُرِحت في إطار معارضة ضمنية لنظريات الأدب السابقة التي أعلت من شأن الكاتب أو محتوى وشكل العمل الأدبي، وشكلت معارضة صريحة للنقد الجديد والنظريات الشكلانية التي ألقت بمسألة القارئ في غياهب النسيان. وهكذا، تمحور طرح المدافعين عن مقاربات استجابة القارئ حول فكرة كون القارئ فاعلا نشيطا يكمل معنى العمل الأدبي بواسطة التأويل، ذلك المصطلح الذي استشعر بعض منتقديه أنه أفضى إلى ضرب من النسبية والفوضى. يستشهد ستوبس Stubbs بفيتش Fich (١٩٨٠: ٣٤١ – ٣٤٧)، الذي سعى إلى حل مشكل الطبيعة غير المتجانسة لاستجابات القراء من خلال الانتظام في الطرح الذي مؤداه أن النص لا يملك معنى خارج مجموع الافتراضات الثقافية المتعلقة بما يمكن أن يدل عليه وبكيف ينبغي تأويله. وهذه الافتراضات متجذرة في «الجماعة المؤولة» التي تؤسس بدورها معايير لقراءة نص معين بكيفية محددة، وتضع المعايير لما يمكن وما لا يمكن.

بالرغم من تماثل القضية المركزية المطروحة في نظرية استجابة القارئ مع مسألة التأويل المطروحة في التحليل النقدي للخطاب، إلا أنه ثمة اختلافات يجب إبرازها. أولا، تختلف الاستجابات المرتبطة بالعمل الأدبي، كما أنها أكثر تعقيدا ومتعددة المستويات مقارنة بالاستجابات تجاه النصوص اليومية ذات الطبيعة الإخبارية أو الأداتية، فبدل الاحتكام إلى نظرية استجابة القارئ التي تُطبَّق عادة على الأعمال الفنية يمكن الاحتكام إلى مقاربات استجابة الجمهور التي تشكل عماد دراسات التواصل الجماهيري حيث يمكن أن تكون الأداة الناجعة لقياس

ما يفهمه الناس انطلاقا من نص معين، أو لتحديد القراءات المنحرفة التي يتم إنتاجها في سياقات اجتماعية محددة. وثانيا، وعلى فرض أننا قبلنا زعم التحليل النقدي للخطاب بكون الأنماط الغامضة والمعاني الخفية في الخطاب تمارس تأثيرا إيديولوجيا، سيكون التصور المؤسس على فكرة أن «الجماعة المؤولة» ذات أهمية في تحديد معنى الخطاب موضعَ شك، للاعتبار التالي: يمكن أن تكون الجماعة في موقع دعم الهيمنة، أو أن توجد مجموعة من الجماعات المؤولة المالكة لتأويلات مختلفة. غير أننا عندما نتعاطى مع نمط النص الذي عادة ما يكون موضوع دراسة في التحليل النقدي للخطاب، فإن الأمر لا ينحصر في التفكير في كيفية تأويل النص وهو ما تشتغل عليه الدراسات الأدبية، وإنما التفكير في كيفية قبوله واستعماله والتصرف فيه وتغييره ومحاكاته بشكل ساخر أو تجاهله. وبهذا الخصوص تمنح المصطلحات المألوفة لدى اللسانيين التطبيقيين من قبيل «جماعة الخطاب» أو «جماعة الممارسة» أدوات ناجعة لبلوغ فهم لكيفية اشتغال الخطاب في سياقات اجتماعية محددة (كينت :Kent 1991 445 – 425، لاف Lave وفنكر Wenger 1991: 22- 23). وكما لاحظ بهاتيا (Bhatia2002: 6)، إن إنجاز أوصاف مكثفة للممارسات التواصلية كما تجري في كنف جماعة معينة: «حري أن يكشف عددا من الأسرار المرتبطة بالكيفية التي يعمل بها أعضاء مختلف الجماعات الخطابية على بلوغ أهدافهم المؤسساتية والتزاماتهم وعلى تسويغ ممارساتهم الخطابية». لقد أبرزت دراسات حديثة (سارانجي وروبرتس Sarangi and Roberts 1999، كاندلينوهايلاند Candlin and Hyland 1999، أرمينين Arminin 2005) مدى تعقيد اشتغال السلطة واللغة في سياقات أكاديمية ومهنية. وثمة مجموعة كبيرة من الأبحاث في الدراسات الإعلامية التي أظهرت أن تأثير النصوص والمواد التي تعرض في الإذاعات على الأفراد هي أحادية الاتجاه بدرجة أقل أو أكثر تعقيدا

مما يمكن تصوره (أبركرومبي Abercrombie 1996، نايتينغال Nightin-gale 1996، رييس Reese وآخرون 2003)، لأن الناس يحملون قسطا كبيرا من المعارف القبلية والتقنيات التأويلية التي تُمَكِّنهم من توليد طيف واسع من القراءات المتباينة. ينبغي الأخذ بعين الاعتبار هذا النوع من الدراسات والتوليف بينها وبين الأبحاث التحليلية للخطاب بقصد تحديد كيفية اشتغال الإعلام والمؤسسات والنصوص في سياقاتها الطبيعية.

بالرغم مما سلف ذكره، تظل مشكلة الحصول على بيانات تخص تأثيرات النصوص على القارئ أو المستمع من المشاكل التي لم تثرها أبحاث التحليل النقدي للخطاب إلا نادرا. كما أن مجموع الأبحاث في الدراسات الإعلامية أو إثنوغرافيا التواصل نادرا ما يشير إليها ممارسو التحليل النقدي للخطاب، وبشكل عام يمكن التأكيد على أن التحليل النقدي للخطاب يفتقر إلى نظرية مقنعة تخص التأثيرات على الجمهور واستجابة الجمهور التي يمكن أن تقدم سندا لتأكيداتهم عن تأثير الخطابات في الذوات البشرية.

٤- التحليل النقدي للخطاب والسياق: كثير جدا أم قليل جدا ؟

من بين الركائز الأساسية للتحليل النقدي للخطاب فكرة كون الخطاب متجذر اجتماعيا، فهو من جهة مبني اجتماعيا، ومن جهة ثانية يلعب دورا في بناء واستدامة (إعادة الإنتاج) البنيات والعلائق الاجتماعية. يعلن التحليل النقدي للخطاب عن التزامه الاجتماعي(فيركلاف وفوداك ١٩٩٧)، وله غاية معلن عنها تتمثل في تقوية وعي قرائه بكيفية إسهام اللغة في هيمنة بعض الناس على آخرين، لأن الوعي يشكل الخطوة الأولى نحو التحرر (فيركلاف ١٩٨٩: ١).

تعتبر اللغة منظورا إليها في الإطار الاجتماعي من الظواهر الأكثر تعقيدا لأنها تشكل وتتحدى العلاقات الاجتماعية في الآن نفسه، كما أن مختلف الوسائل الإعلامية اللغوية تتشابك مع بعضها ومع وسائل إعلامية غير لغوية منتجة شبكة معقدة من التناصات والتعددية الصيغية multimodality. ومن اللافت للنظر، أنه من الانتقادات الموجهة للتحليل النقدي للخطاب مسألة تجاهل المظاهر الاجتماعية للخطاب الأكثر تحديدا، وبشكل أخص السياقات الاجتماعية التي يندرج فيها الخطاب.

تشكلت الانتقادات المسائلة لمزاعم التحليل النقدي للخطاب بخصوص تقديمها لتأويل للعالم الاجتماعي في مجالات تحليل المحادثة من جهة وفي مجال إثنوغرافيا التواصل والتداوليات من جهة أخرى. تختلف هذه المقاربات بشكل جوهري عن التحليل النقدي للخطاب من جهة تشديدها على ضرورة اتباع مقاربة من الأسفل إلى الأعلى (بيس Peace 2003: 164). يستوجب كل من تحليل المحادثة والإثنوغرافيا اتباع تقنيات دقيقة لجمع المعطيات تتضمن استعمال تسجيلات صوتية ونسخ مفصل للنصوص، ويشترك كلا التخصصين في التزامهما بتصور مؤداه أن التأويلات يجب أن تكون نابعة من المعطيات. تهتم التداوليات بالوظائف التي تحققها اللغة في سياقات واقعية، مثلما تهتم بالعلائق المركبة بين الشكل والوظيفة الاجتماعية، كما تركز على الدراسة المفصلة للتحققات الخاصة لاستعمالات اللغة. على الرغم من دعوة ممارسي التحليل النقدي للخطاب إلى التثليث» بمعنى ضرورة صياغة منظورات متعددة للظاهرة موضوع الملاحظة (ريزغل وفوداك Riesigl and wodak 2001: 33 روجرز Rogers وآخرون 2005: 382، فان ديك Van Dijk 2006: 359، فوداك Wodak 2007: 2003)، أو دعوتهم، على الأقل «إلى مراوحة مستمرة بين النظرية والمعطيات» (ميير Meyer

2001:27)، غير أنه ثمة توجه ملحوظ في العمل المنجز في التحليل النقدي للخطاب للاشتغال بطريقة الانتقال من الأعلى إلى الأسفل، بمعنى افتراض نظرية محددة للعلاقات الاجتماعية، ثم النظر في المعطيات اللغوية انطلاقا من هذا المنظور، أو اقتطاع بعض مظاهر اللغة التي تتوافق مع منظور نظري معين، بدل الشروع في انغماس كلي في بحث معمق بقصد إجراء مسح للأبعاد المتعددة للنص لتحديد كيفية اشتغال اللغة في سياقات معينة.

يشترك كل من التحليل النقدي للخطاب وتحليل المحادثة في إيلائهما اهتماما للأحاديث الواردة في سياقاتها الطبيعية، سواء ما تعلق منها بالتفاعلات أو بالنصوص، كما يتفقان على أن للخطاب علاقة ثنائية الاتجاه بالسياق والبنيات الاجتماعية. غير أن تخصص تحليل المحادثة قد انبثق من خلفية فكرية مغايرة، كرد فعل على الاتجاهات السوسيولوجية الرئيسية. بالرغم من كون التعميمات قد تكون محفوفة بخطر التبسيط المفرط، إلا أنه وبشكل عام غالبا ما يجري الاتفاق على أن محللي المحادثة يركزون تحليلهم بشكل محصور على المحادثة في حد ذاتها ولا يأبهون بما حصل أو يمكن أن يحصل قبل التفاعل الحواري موضوع اهتمامهم. وهكذا شاعت تسمية هذا النوع من الدراسات بدراسة: «التفاعلات المصغرة» (روجرز ٢٠٠٥: ٣٧٨)، وبالمقابل يتوجه تركيز التحليل النقدي للخطاب على مجال أرحب بغية إدماج السياق الأكبر، أي الدور الذي يلعبه التفاعل في العلاقات الاجتماعية وبنيات السلطة المؤسساتية وهلم جرا.

وانطلاقا من مجال التداوليات، من النقاد مَنْ زعم أن التحليل النقدي للخطاب لا ينظر عن كثب دائما إلى السمات اللسانية للتفاعلات، بل ثمة نزوع تجاه القفز السريع نحو السياق الكبير، وذلك بواسطة صياغة إثباتات تخص كيفية ربط العلاقات الكبرى بالتفاعلات الصغرى (ويدووسون: ١٩٩٨).

وغالبا ما يتم التجاهل الكامل للسياق المباشر المحدد لنمط التفاعل في السياقات الاجتماعية (فيرسشوين ٢٠١١). وبعبارة (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٠)، يدل الافتقار إلى الصرامة المنهاجية، وتحديدا الكيفية التي تم بها إخراج السياق من المعادلة، على أن التحليل النقدي للخطاب،وتحديدا في بداياته الأولى، كان مسؤولا عن: «إخضاع الإعلام ومؤسسات أخرى لمحاولات بهلوانية مؤسسة على القفز والتلاعب السريع بالمعطيات موضوع الملاحظة من أجل دعم المزاعم المسبقة».

أثار الاتصال بالباحثين في التحليل النقدي للخطاب الذين كانوا يستعملون بعض تقنيات تحليل المحادثة نقاشا محتدما في أواخر التسعينيات. ومن أجل تلخيص أهم الحجج، نسوق منظور (شيكلوف Schegloff) الذي يرى أن السياق لا ينبغي أخذه بعين الاعتبار إلا إذا كان ملمحا محددا للتفاعل كمصدر اهتمام لدى المشاركين. وبما أنه بالإمكان أن تكون العوامل السياقية المؤثرة في تفاعل معين لانهائية العدد، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يصير ممكنا انتقاء عامل من العوامل باعتباره ملائما وواردا من الناحية التحليلية؟ فمثلا، خذ التفاعل بين رجل وامرأة يمكن أن يتأثر التفاعل بينهما بمسائل النوع، ولكن يمكن ألا يكون الأمر كذلك، لأنه من المعروف أن مسائل النوع غير ذات أهمية بالنسبة للمشاركين في مناسبات معينة. ففي مثل هذه الحالة، هل من المشروع بالنسبة إلى الباحث المهتم بالنوع أن يفرض إطارا تحليليا على مثل هذا الضرب من التفاعل؟

في رأي شيكلوف، يجب الدفع بتحليل المحادثة إذا كان الحافز متمثلا في فهم كيفية اشتغال التفاعلات اليومية، وكيفية عمل الناس لمجموعة من الأشياء بواسطة اللغة في أوضاع مختلفة. ولأجل هذه الغاية، فالمقاربة التحليلية المناسبة

تتمثل في اكتشاف التوجهات التي يقدمها المشاركون أنفسهم والدور الذي تلعبه في التفاعل. وعلاوة على ذلك، حتى وإن تبينت أهمية بعض مظاهر السياق، يجب أن يكون المحلل متيقضا كي يتبين ما يمكن لهذه المظاهر أن تعنيه بالضبط في وضعية معينة، بدل القفز إلى خلاصات تستعمل مصطلحات واصفة من قبيل «النوع» أو «السلطة». وبعبارة (بوتر Potter 1998: 31): «يتم التعاطي مع السياق باعتباره شيئا يُبْنى ويُتعامل معه ويُوَجَّهُ إليه بواسطة المشاركين. ولا يتم التعامل مع سمات المشاركين من قبيل أعراقهم أو سمات المحيط أو الخواص الإثنوغرافية كعوامل منفصلة». وكما أشار بوتر، يسير ذلك في منحى تذويب التمييز الكلاسي بين التحليل المصغر والتحليل المكبر، لأن الباحثين المنخرطين في هذا التقليد لا ينظرون إلى البنيات الاجتماعية باعتبارها شيئا يقع فيه التفاعل، لكن على العكس من ذلك تنظر إلى التفاعلات الاجتماعية كدليل على الكيفية التي تتشكل وتَتَكوَّن بموجبها الظاهرة الاجتماعية.

وعلى الرغم من بداهة الفكرة التي مفادها أن الباحث في العالم الحقيقي لا يمكنه مقاربة المعطيات بدون تصورات قبلية، غير أن شيكلوف لا يفتأ يوصي الدارسين بضرورة أن تكون تحليلاتهم متجذرة في التفاعل ذاته، من خلال التركيز على الأشياء المتعلقة بالمشاركين. وبتعبيره: «يعتبر هذا القيد مفيدا في التحليل، وذلك بجعل العمل منتظما في سلك الاشتغال على الانشغالات الأصلية لليومي في عالمنا، والتي يجب الإمساك بها، ومن شأن ذلك أن يشكل حاجزا أمام الهيمنة الإمبريالية المحتملة الأكاديمية والنظرية، التي تفرض اهتمامات المثقفين على العالم دون احترام لمصدرها الأصلي». بالرغم من قيمة اهتمامات شغلوف، غير أن حدود تطبيقها مجتمعة على التحليل النقدي للخطاب تبقى موضع مساءلة. فدفاع شغلوف عن مقاربة معينة، تتجسد في تحليل المحادثة والدراسات

الإثنوغرافية حيث لا يتم إقحام المقولات الخارجية في أجندة البحث، لا يعني بالضرورة عدم صلاحية المقاربات الأخرى الموظفة لمقولات خارجية مقحمة. وهكذا، يحتكم المحللون النقديون للخطاب إلى مناهج متعددة، منها ما كان ذا صلة بتحليل المحادثة، ولا يوجد أي سبب يسوغ بشكل محايث ضرورة قبولهم لسلسلة من الافتراضات أو المبادئ، وذلك بسبب استعمالهم لمظاهر من منهج معين. يحدد (فان ديك ١٩٩٩: ٤٦٠) المسألة التي تعتبر مثار خلاف في قضية «التسييق»، مدافعا عن مشروعية فحص التحليل النقدي للخطاب للنص والسياق بشكل منفصل، ثم بعد ذلك المرور نحو استكشاف كيفية تأثير سمات السياق في النص أو كيفية تأثرها به. وهكذا فضمن مهام الباحثين تحديد بأي معنى تكون مقولات خارجية معينة ذات أهمية في التفاعل، كما أنه على الباحثين في التحليل النقدي للخطاب ألا يتقيدوا بمعايير تخصصية صارمة.

ومن منظور مغاير، من الممكن نقد التحليل النقدي للخطاب بسبب فشله في أخذ السياق بعين الاعتبار، نظرا لتركيزه الدائم على متون لغوية منتزعة من سياقها، بحيث يُحَلَّل النص أو أجزاء منه دون أَبْه بإنتاجه أو توزيعه أو استهلاكه. وثمة دارسين آخرين، وبخاصة إثنوغرافيي التواصل أثاروا مسألة ضرورة تناول السياق بشكل جدي، بما أن النصوص متجذرة في السياقات الاجتماعية ولا يمكن فهمها دون تعميق النظر في شبكة العلاقات الاجتماعية التي تشكلت في كنفها. وفي مجالات من قبيل التربية، تم تجاوز هذه النقائص إلى حد ما، بما أن عددا من الدراسات الحديثة تمزج مقاربات التحليل النقدي للخطاب بأنماط من المنهجيات الإثنوغرافية للحصول على معطيات كيفية مأخوذة من مصادر متنوعة من قبيل الملاحظات الميدانية أو أشكال أخرى من الملاحظة مثل الوثائق أو الاستجوابات أو مجموعات الاهتمام (روجرز وآخرون ٢٠٠٥). غير أنه في مجال

الدراسات الإعلامية والذي يعد ذا صلة وطيدة بالتحليل النقدي للخطاب في عدد من المناحي، هناك انتباه أقل للسياق، وذلك جزئيا، لأنه يصعب تحديد ما يعنيه السياق، مثلما يصعب تعيين ورصد القراء أو المشاهدين، ويصعب كذلك الحصول على أوصاف دقيقة للكيفية التي تُنْتج بواسطتها النصوص الإعلامية، وهلم جرا. ومع ذلك، وعلى غرار الهيرمينوطيقا والتلقي، يشتغل الممارسون في التحليل النقدي للخطاب بواسطة بناءات ساذجة حول الكيفية التي تشتغل بموجبها النصوص الإعلامية مقارنة باشتغال المتخصصين في مجال الإعلام الذين تُعتبر بالنسبة إليهم مسألةُ تحليل استجابات الجمهور أو السيرورات الإنتاجية مسألةَ ضرورية لإجراء البحث.

يمكن لنا أن نخمن قائلين إن مظاهر القصور المعروضة أعلاه تعتبر نتاج المقاربة الإيديولوجية للتحليل النقدي للخطاب، المتمثلة في غلبة الاهتمام بالسلطة في المجتمع، مما يجعل دعاة التحليل النقدي للخطاب مشدودين نحو تعيين بعض المظاهر النصية التي تعكس أطروحاتهم الأساسية، ثم بعد تعيينها ينتقلون مسرعين نحو مرحل التأويل والتفسير، وذلك بدل تكريس مزيد من الوقت من أجل فحص مضن للغة نفسها أو استكشاف السياق المباشر المحيط بالنص. ففي منظور بعض الكتاب (فيرشويرن: ٢٠٠١)، يُفضي ذلك إلى استدلال دائري، وينتج خلاصات ليست سوى مجرد تأكيد لما يعتبر بديهيا. لقد سارت أبحاث التحليل النقدي للخطاب في ثمانينيات القرن الماضي نحو تأكيد الاكتشاف الذي مفاده أن وسائل التواصل الجماهيري تعيد إنتاج إيديولوجيا الوضع القائم. لكن بالنظر إلى نظرية المجتمع التي يتبناها معظم الباحثين في التحليل النقدي للخطاب ليس ذلك مدعاة للاستغراب. هكذا يدفع الاهتمام المفرط بالمقولات الإيديولوجية على حساب المتغيرات السياقية بالباحثين نحو

تجاهل ما يعتبر خاصا ومميزا في التحققات الخاصة لاستعمال اللغة، وذلك لصالح الأنماط الكبرى macro patterns التي تؤكد افتراضات الباحث الأولية. المسألة محسومة، لكن النتيجة تافهة، ففي منظور فيرشويرن:» إن تقديم الأنماط المتنبأ بها باعتبارها اكتشافات يصرف النظر عما ينبغي أن يحظى بالاهتمام أي المسائل المتعلقة بالكيفية التي تُسْهِمُ بها تلك الأنماط في إنتاج المعنى» (٢٠٠١: ٦٣)، وهكذا فمن خلال القفز عما يمكن تسميته ب»الأعراض» (السمات المعتبرة لظاهرة معينة) نحو السياق الأكبر macro context، نتعلم الشيء القليل حول كيفية تملك الناس أو مقاومتهم للخطابات المهيمنة أو حتى كيف يتم تفعيل enacted هذه الخطابات على الصعيد المصغر micro scale.

من بين السمات المائزة للاحتكام إلى البنيات الكبرى في بعض أبحاث التحليل النقدي للخطاب هو ذلك النزوع نحو التعميم وصياغة الصور النمطية. يشير (بلومارت Blommaert 2001: 15) إلى ميل المحللين النقديين للخطاب إلى الاشتغال انطلاقا من تصورات جاهزة متعلقة بالفاعلين الأساسيين في سياق معين، من بين هذه التصورات: «السياسيون مناورون، أو وسائل الإعلام آلات لإعادة إنتاج الإيديولوجيا»، وكذلك بعض البناءات السوسيو- نظرية النمطية من قبيل «العمل» و «المؤسسات» أو «الطب التقليدي». ويدافع بلومارت عن مقاربة أكثر انضباطا تأخذ بعين الاعتبار السمات السياقية التي ينبغي أن تتضمن ثلاثة مظاهر يعتقد أن التيار الرئيس للتحليل النقدي للخطاب قد تجاهلها، والمظاهر الثلاثة عنده هي: المصادر ومسارات النص والمعطيات التاريخية.

وباختصار، تعني المصادر عنده مجموع الوسائل السوسيولسانية والمهارات التواصلية التي يحتكم إليها المشاركون في وضعية معينة. ويعد ذلك حاسما، لأن: «أهمية المصادر تكمن في العلاقة العميقة بين اللغة والاقتصاد العام للرموز

والوضعية في المجتمعات» (بلومارت ٢٠٠١: ٢٣). فاللغة نفسها تفضي بنا إلى صلب البنية الاجتماعية، لأن المصادر اللسانية مربوطة بشكل محايث بتوزيع السلطة، غير أن المصادر من هذا النمط ليست منظورة للبحث في التحليل النقدي للخطاب، لأنها ليست سمات تخص نصوصا فردية، وإنما لا تُفْهَم إلا بموجب تحصيل معرفة بالبنيات الاجتماعية وبالطريقة التي تشتغل بها اللغة في المجتمع. أما تصور «مسارات النص» فيحيل على الطريقة التي يتحول بموجبها الخطاب عبر السياقات، فمثلا يصير استجواب عبارة عن «مجموعة من الملاحظات المدونة»، وبعد ذلك يصير «دراسة حالة»، ومن المحتمل أن يكون جزءا من «مقال مراجع». ومرة أخرى، ينزع كثير من دارسي التحليل النقدي للخطاب نحو تفضيل التركيز على تحققات فردية أو أجناس بدل اقتفاء آثار «التاريخ الطبيعي» للخطابات عبر مجموع الأوضاع (السياقات) وأنماط النص، مما ينتج منظورا منحرفا، أو في أحسن الأحوال صورة مبتورة غير مكتملة. وبالرغم من وجود استثناءات محترمة، بشكل خاص مع مدرسة فيينا للتحليل النقدي للخطاب، حيث تم تبني منظور واسع من أجل تغطية مجموع تمثيلي من الأنماط النصية عبر مسار زمني معتبر (ينظر على سبيل المثال: فوداك ٢٠٠١، ريزيغل ٢٠٠٧: ٣٤). إنها مقاولة في غاية التعقيد وليس كل محللي الخطاب بقادرين على الاشتغال في هذا الصعيد الطموح. وأخيرا تحيل «المعطيات التاريخية» إلى التجميع المتبع للمعطيات والتي يجب أن يتم تسجيلها بعناية في المنهجية الإثنوغرافية، أخذا بعين الاعتبار آثار الملاحظة والتحيزات المحتملة للملاحظ. ومن المنطقي بما فيه الكفاية، أن يتضمن ذلك رصدا لموقف الباحث من القضايا السياسية محل النقاش، وليس مجرد تموضع عام باعتباره منتميا «للجناح اليساري» أو «الراديكالي»، والتي تعتبر بشكل ملحوظ مقولات ضبابية ومفتوحة على تأويلات متعددة.

يَخْلُصُ بلومارت إلى ملاحظة مفادها أن عددا من المشاكل المرتبطة بالتحليل النقدي للخطاب تعزى إلى الدور المركزي الموكول إلى النص في تقليد التحليل النقدي للخطاب، فبالرغم من دعوة باحثي التحليل النقدي للخطاب إلى تأويل المجتمع عبر النص، غير أنهم غالبا ما ينتهون في نهاية المطاف إلى مجرد تأويل للنص. إذا نظرنا إلى المسألة بشكل مغاير، واعتبرنا الخطاب بمثابة ظاهرة مموضعة اجتماعيا داخل سياق يتضمن اللغة والعلاقات الاجتماعية وبنيات السلطة وهلم جرا، سيكون بالإمكان، حينئذ، الاقتراب من طموح: «تفسير المجتمع من خلال منفذ الخطاب» (٢٠٠١: ٢٨).

مهما يكن، يبدو من الصائب القول، باختصار، إن الطرح الذي يتبناه باستمرار التحليل النقدي للخطاب يعلي من شأن التأويل التفسيري بواسطة مقولات محددة بشكل قبلي تشكل مدار اهتمام الباحث. فبالنسبة إلى التحليل النقدي للخطاب ثمة ميل لاستعمال مفهوم السياق بدلالة السياق الأكبر macro context أي أنظمة السلطة التي تشتغل في المجتمع ككل، مما يعني حذف وتجاهل سمات السياق المصغر المباشر. تتباين هذه المقاربة المحفزة إيديولوجيا بشكل صارم مع المبادئ التي سطرتها بعض الحقول التحليلية ذات الصلة بدراسة اللغة.

٥- التحليل النقدي للخطاب باعتباره سلبيا:

يشدد ممارسو التحليل النقدي للخطاب بشكل متكرر على أن مقاولتهم تسعى أساسا إلى خلق عالم أفضل، محققة التغيير ومقوية المقهورين: «تعتبر غاية التحليل النقدي للخطاب سياسية بالأساس، حيث يشتغل ممارسو التحليل النقدي للخطاب على العالم من أجل تحويله، وبالتالي المساعدة على خلق

عالم يمحي فيه التمييز بين الناس على أساس الجنس واللون والعقيدة والسن والطبقة الاجتماعية» (كالداس- كولتهاردوكولتهارد Caldas- Coulthard and Coulthard 1996). غير انهم يعترفون بأن تلك الغاية نادرا ما تحققت: «لقد ظلت مشاريع النقد اللغوي منحصرة فيما يلي: نقد النصوص ونقد الممارسات الاجتماعية التي تستلزمها أو تتحقق في تلك النصوص، إضافة إلى تعرية وكشف الوضعيات غير المنصفة والمؤذية والمهينة للكرامة البشرية.... فإن كان على مشاريع النقد اللغوي أن تطور نظريات معقولة لمجالها، يجب أن تكون قادرة على التحول من القراءة النقدية، ومن التحليل، ومن النشاط التفكيكي إلى النشاط الإنتاجي...وهكذا لم يقدم النقد اللغوي أو التحليل النقدي للخطاب رصدا مثمرا لأشكال بديلة من التنظيم الاجتماعي أو الموضوعات الاجتماعية» (كريس ١٩٩٦: ١٥ – ١٦).

فبالنظر إلى الافتراضات التي يقدمها التحليل النقدي للخطاب حول طبيعة المجتمع، وبالنظر كذلك إلى الاهتمام المفرط بعرض التلاعب الإيديولوجي الذي يشكل ويمنح استمرارية للاتوازنات من خلال الخطاب، ليس من المستغرب إذن أن يجد علماء اللغة في مدرسة التحليل النقدي للخطاب مسألة التفكيك سهلة مقارنة بمسألة البناء. لقد لفت مارتان في مقال له يدعو من خلاله إلى أعمال أكثر إيجابية في تحليل الخطاب انتباها خاصا إلى الجوانب السلبية للتحليل النقدي للخطاب، واضعا التحليل النقدي للخطاب ضمن: «الاختلالات المرضية في القرن العشرين التي تشهدها الأبحاث في العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تسقط من مهامها دراسة السيرورات الاجتماعية التي تجعل العالم مكانا أفضل، وذلك لصالح نقد العمليات التي تقمع أو تجرد من السلطة» (٢٠٠٤: ١٨٦). ودعا إلى تقديم محاولة أكثر جدية من أجل إعادة تشكيل التحليل النقدي للخطاب

بمعنى أكثر إيجابية. ويعين هذا النمط من التفكيك السلبي باعتباره الجانب المهيمن للتحليل النقدي للخطاب، ويصطلح على هذا الجانب المهيمن بـ «التحليل النقدي للخطاب المحقق» الذي ينشغل على نطاق واسع بمسألة «جعل اللغة والسيميوزيس المصاحب لها في خدمة السلطة» (٢٠٠٤: ١٧٩). غير أنه أشار إلى أن للتحليل النقدي للخطاب مظهرا آخر ثانويا موجها نحو الفعل الاجتماعي البنَّاء والذي يسميه بـ «التحليل النقدي للخطاب غير المحقق»، وهذا المظهر نادرا ما تم وضعه موضع تنفيذ. ففي منظور مارتان: «نحتاج إلى تركيز تكاملي على الجماعة، مع الأخذ بعين الاعتبار كيف يجتمع الناس معا، ويجعلون لأنفسهم مكانا في العالم، وكيف يعيدون توزيع السلطة بدون صراع بالضرورة ضدها» (٢٠٠٤: ١٨٦). سيركز «التحليل الإيجابي للخطاب» على كيفية حدوث التغيير نحو الأفضل، وينظر في كيفية تغلب الشعوب الأصلية على تراثها الاستعماري، وكيفية محو التمييز الجنسي وتشييد علاقات جديدة بين الجنسين. فمن خلال دراسة مثل هذه الظواهر، يمكن أن نتعلم الشيء الكثير عن كيفية حدوث التغيير الإيجابي، وسنكون في موقع أفضل لدعم التغيير في المستقبل.

على سبيل المثال، وَثَّق مارتان البحث الذي أنجزته الحكومة الاسترالية حول إرغام تبني أطفال السكان الأصليين، الشيء الذي يعتبر بحق مبتكرا في إطار جنس التقرير البيروقراطي حيث يبرز صوت الضحايا. وبموازاة ذلك، رسم أدوار السرد والأدبيات البيوغرافية في السمو بوعي الناس بالظلم وفي تغيير رأي العامة. ويكمن استياء مارتان من وثوقيات التحليل النقدي للخطاب في تأكيده على مفترض مفاده: «أنه يمكننا الذهاب بعيدا باقتراحنا لعشر سنوات من التحليل النقدي للخطاب القائم على التفكيك كي نحصل في نهاية المطاف على بعض الممارسات التحليلية للخطاب ذات القيمة البناءة» (٢٠٠٤: ١٩٩).

وعلى المنوال ذاته، يزعم (لوك Luke 2002: 98) أنه إن أراد التحليل النقدي للخطاب أن يطور إمكاناته كاملة، فعليه أن يذهب أبعد من النقد الإيديولوجي، وأن يستكشف ما يسميه بـ «الاستعمال المنتج للسلطة»، والخطاب التحرري، بعبارة فريرن Frerean. وعلى غرار مارتان يؤكد على أنه: «إن كان التحليل النقدي للخطاب الصيغة المعيارية للعلوم الاجتماعية وللفعل السياسي، فعليه أن يكون قادرا على البرهنة على ما ينبغي أن يكون، وكذلك على ما يعتبر إشكاليا» (٢٠٠٢: ١٠٥). وإذا لم يفعل التحليل النقدي للخطاب ذلك، فإنه بحسب زعمه سيظل حبيس أنموذج حتمي سلبي، تكون بمقتضاه كل وسائل الإعلام أشكالا من التحكم الإيديولوجي المركزي، وكذلك لممارسي التحليل النقدي للخطاب الدور التنويري للمثقف الكرامشي الذي يسعى إلى توعية وتعبئة الناس لمواجهة التحكم. وبما أن هذا التمثل لا يخلو من اختزالية (وينبغي أن نضيف إلى ذلك افتراضه لمسلمات قابلة للمساءلة حول طبيعة الجمهور وآليات اشتغال وسائل الإعلام)، لذلك يقترح «لوك» ضرورة طرح تحليل نقدي جديد للخطاب ذي توجه إيجابي، مداره خطابات الأقليات وأصوات الشتات والخطابات المضادة الناشئة، وإعادة تأويل الخطابات الرئيسية من طرف جماعات مختلفة من الفاعلين واستراتيجيات المقاومة. ففي سياق العولمة، يمثل بقاء التحليل النقدي للخطاب منغلقا ومحصورا في التحليلات الجدلية للتفاوت الاقتصادي والقمع السياسي إخفاقا في ملامسة التشكلات الثقافية الجديدة والطرق الجديدة للتفاوض حول الهوية والخطابات المضادة الجديدة وأصوات المقاومة. فمن أجل إنجاز هذا التحدي، ومن منظور نظري، سيكون من الضروري التوقف عن التفكير بواسطة ثنائيات متجاوزة، ومن وجهة نظر منهاجية سيكون من الضروري البحث عن دليل وتطوير منهجيات ملائمة لاستكشاف الخطابات الجديدة والإعلام الجديد اللذين يميزان الحياة في القرن الواحد والعشرين.

٦- التحليل النقدي للخطاب باعتباره أرثودوكسية ثقافية:

بدأ التحليل النقدي للخطاب باعتباره صيغة ثورية للدراسة اللغوية. وذلك على الرغم مما سبق لنا الإشارة إليه بكون مصطلح «نقدي» متعدد الدلالة، هذا إن لم يكن مصطلحا فضفاضا، ومما لاشك فيه أن ما يوحد المستعملين لتسمية «التحليل النقدي للخطاب» في أنشطتهم هو الاعتقاد أن بإمكانهم انطلاقا من المعطيات التي بحوزتهم تطبيق تقنيات التحليل النقدي على النصوص والتفاعلات وعلى المجتمع الذي يستعملان فيه. وكما سلف الذكر، يعتبر نقدهم سياسيا في عمومه، واهتمامه منصب على قضايا السلطة واللامساواة. وفي البداية، من المؤكد أن التحليل النقدي للخطاب يبدو راديكاليا وجديدا، إنه مقاربة لدراسة اللغة تتحدى الأرتودوكسيات العتيقة باسم الالتزام الاجتماعي.

غير أنه، ومما لا مناص منه، وكما هو الشأن بالنسبة إلى أية حركة جديدة ناجحة من أي نوع في القرن العشرين حيث اكتسب التحليل النقدي للخطاب زخما من الاعتراف، فقد كان ثمة تحول تدريجي نحو أن تتعزز ركائزها وتحظى بالاحترام. ويزعم بعض الكتاب أن دارسي التحليل النقدي للخطاب منخرطون بهمة في محاولة لتشييد التحليل النقدي للخطاب باعتباره مقاربة ومدرسة قائمة الذات (فيرسشوين ٢٠٠١: ٦٧). ولقد وثَّقَ (بيليغ ٢٠٠٢) هذا التغيير ليرسم ما يمكن أن يعنيه ذلك بالنسبة إلى تخصص «ثوري» مدعو إلى مزيد من الوعي والنقد الذاتيين من ممارسيه.

لقد نبَّه (بليغ ٢٠٠٢) لاستعمال المختصر «ت ن خ» الذي حاز، بحسبه، مرتبة العلامة الأكاديمية. وفي منظوره تكمن الاستراتيجية البلاغية لدى الأكاديميين في النظر إلى مجموع إنتاجاتهم باعتبارها جزءا من مجموع مصادق عليه بضمانة

منظور نظري معين. تتحقق العلامة التجارية الكاملة لهذه النظرية غالبا بواسطة المختصرات (يستشهد بيليغ بمثال «ن هـ ج» نظرية الهوية الاجتماعية في علم الاجتماع، وبالموازاة نفكر أيضا في المختصر المستعمل في اللسانيات «ل ن و» اللسانيات النسقية الوظيفية)، فوفق منظور بيليغ، يسمح هذا النمط من الوسم للأكاديميين بتسويق أفكارهم: «كعلامات تجارية كاملة ومنتوجات ثقافية قابلة للتحديد في العالم الأكاديمي الراهن» (٢٠٠٢: ٤٢). ولقد غدت هذه الظاهرة شائعة في عالم أكاديمي تشتد فيه التنافسية ومحكوم بقواعد السوق. الآن، وقد أصبح للتحليل النقدي للخطاب موطئ قدم صلب في الجامعات له مجلاته، وله أعداد شاسعة من الأكاديميين الذين يتوافقون حول ركائزه الرئيسية، صار على بنية السلطة الأكاديمية والدارسين اختيار الانضمام إلى مراتبه من خلال القبول بمبادئه وافتراضاته المنهاجية، فاستنادا إلى مصطلحات السلطة الأكاديمية (من أجل نشر كتب أو مقالات أو إجراء تعيينات أو حصول على ترقية) يعتبر التحليل النقدي للخطاب اليوم مساويا لحقول دراسات اللغة الأخرى. لقد أصبح بالإمكان الإقرار، مستعملين مصطلحات ثقافية، أنه قد تأسس أنموذج نقدي وأرثودوكسية نقدية يمكن أن تكون بطريقتها الخاصة غير مرنة ووثوقية وإقصائية مثلها مثل وثوقيات الماضي.

علاوة على ما ذُكِر، لفت بيليغ الانتباه إلى الدور الذي يلعبه مصطلح «نقدي» في عملية الفهم الذاتي والتسويق الذاتي للتحليل النقدي للخطاب، ولقد أشار بيليغ إلى تاريخ استعمال كلمة «نقدي» من كانط مرورا ببياجي وبوبر دون أن ننسى مدرسة فرانكفورت (انظر أعلاه)، واقترح أن مكمن قوة هذا المصطلح تكمن في إلحاحه على الموضوعية والمصداقية الثقافية لمقاولة مستعمله، وفي تقويضه للمقاربات «اللانقدية» أو «غير النقدية» التي يتبناها دارسون

آخرون. وبشكل خاص، يسير التحليل النقدي للخطاب في منحى تأسيس فصل ثنائي بين توجه نقدي إيجابي ومقاربات لا- نقدية تعتبر ناقصة، وذلك من خلال إلحاحه على ضرورة توجه الأعمال الأكاديمية نحو نقد السلطة في المجتمع، بالإضافة إلى التمييز الذي تنشئه بين مقاربتها والتخصصات أو الأنموذجات التي تقصي فرضياتها النظرية والمنهاجية تحليلا سياسيا مباشرا. وهكذا لا تعتبر المقاربات اللانقدية مجرد بديل مغاير، بل لكونها لا تتبنى موقفا نقديا، فإنها بذلك تصطف إلى جانب خطابات الهيمنة، وهي مذنبة لكبحها النقد الاجتماعي اللازم، ومذنبة كذلك لتواطئها السافر، أو لتقويتها إعادة إنتاج النظام الاجتماعي غير العادل. وإن شئنا تقييم التحليل النقدي للخطاب نقديا، فعلينا أن نكون واعين بأن استعمال مصطلح «نقدي» في ذاته استعمال لا يخلو من دلالة حيث تم وَسْمُه بخاصية «بلاغة مديح الذات» (بيليغ: ٢٠٠٢: ٣٧). يمكن اعتبار هذا المظهر للتحليل النقدي للخطاب شكلا من التلاعب الإيديولوجي ووسيلة لإقصاء المنافسة (الأكاديمية). وكما أشار (بوتر ١٩٩٦) يتعامل التحليل النقدي للخطاب مع النزعة النقدية كما لو كانت مسألة ملازمة لمقاولته. وبمقتضى ذلك يكون تحليل الخطاب غير النقدي ناقصا، وإن كان هذا المقتضى لا ينتج بالضرورة عن الاختيار غير النقدي. وكما يقول (بوتر ١٩٩٦) ثمة حيز لأنماط تحليل الخطاب التي قد تفضي أو قد لا تفضي إلى نقد اجتماعي وذلك تبعا لما ينتج عن المعطيات. فليس ثمة حاجة لتحليل الخطاب أن يكون نقديا فقط من أجل أن يكون صحيحا وذا فائدة أو مثيرا للاهتمام، غير أن محللين آخرين للخطاب دافعوا بقوة عن ضرورة سن تحليل الخطاب لقواعده الخاصة كتخصص لدراسة اللغة، في ارتباط بمعايير صارمة وغير جزئية للتحليل والتأويل، وعلى أن الانشغالات الخارجية من قبيل المسائل الإيديولوجية ليست بالضرورة ذات صلة بالمقاولة (العلمية) (أنتاكي Antaki وآخرون ٢٠٠٣).

إلا أنه بالنسبة إلى المشتغلين في إطار التحليل النقدي للخطاب ليس النقد شيئا قد ينبع من تحليل النص، لأن النقد هو علة وجود التحليل بالدرجة الأولى. تبرز في إطار تقويم «بيليغ» لهذه الوضعية مجموعة من المسائل ذات الصلة بنقاشنا الحالي. بداية، هناك مسألة القانون المعتمد في النقد. وكما أسلفنا الذكر، تستوجب مسألة الأسس الفكرية للتحليل النقدي للخطاب النقاش في المجال نفسه. فانطلاقا من النقد الماركسي الجديد للمجتمع في ثمانينيات القرن الماضي، استطاع التحليل النقدي للخطاب أن يوسع آفاقه الفكرية من خلال استيعابه لصيغ متنوعة من التفكير السوسيولوجي. لكن ما يعد مميزا بخصوص هذه المسألة، إن اعتبرنا التحليل النقدي للخطاب «مدرسة» أو «مقاربة» في الدراسة اللغوية، هو تشديده على علم الاجتماع وعلى بعض الأعلام ذات التوجه «النقدي» المميز المستهدف للحداثة المتأخرة، مع مزج كل ذلك بتوظيف مفاهيم مقترنة بشكل عام بأنموذجات ما بعد الحداثة. وبغض النظر عن جدوى هذه الخلفية الانتقائية، فالنتيجة أن التحليل النقدي للخطاب يبدو أنه قد ثبَّت «قانونه النقدي المعتمد» المتشكل من: «أعمال راديكالية للتحليل الاجتماعي التي لم يُعتد بها من قِبَل اللسانيين التقليديين، وذلك بعدم جعلهم لها جزءا من اللسانيات» (بيليغ ٢٠٠٢: ٤٤)، والتي أصبحت اليوم نصوصا ثابتة للأجيال القادمة. ثمة خطر داهم، وهو أن يتم قبول هذا «القانون المعتمد» بكيفية «غير نقدية»، وهو أمر يبعث على القلق لتضمنه عدم توازن بين النظرية الاجتماعية والأعمال ذات الاهتمام باللغة والمنهجية اللسانية.

وتتمثل المسألة الثانية، ذات الصلة بالموضوع، في الافتقار إلى الحوار الداخلي والتفكير الارتجاعي والذي ينحو نحو توطيد أركان التحليل النقدي للخطاب من خارجه باعتباره أنموذجا فكريا يمتلك هرميته وأنظمة المراقبة الخاصة به،

لكن ذلك قد ينتقص من جدية مقاولته الفكرية. ويعتقد (بيليغ ٢٠٠٢) أن النقد الذاتي الذي يمارسه التحليل النقدي للخطاب ينحو نحو تجاهله للعوامل الرئيسة، وثمة قلق يساور «بيليغ» يتمثل في أن تزايد التقدير سينطوي على فقدان الإبداع الفكري. ويوصي بضرورة تراجع الباحثين الأكاديميين عن معاملة التحليل النقدي للخطاب كما لو كان منتجا ملموسا، أو علامة تجارية تُسِمُ أعمالهم كي تجد طريقها إلى النشر. ويدعو الباحثين إلى «الانفصال عن البلاغة التي أفضت إلى التحول من «المقاربات النقدية» إلى الإسم المختصر «ت ن خ» (بيليغ ٢٠٠٢: ٤٤)، كما يدعو إلى العودة إلى تحليل نقدي للخطاب (بدون تشديد الحروف الأولى) بكيفية تسمح بانبثاق مقاربات جديدة. وبتعبيره: «وقبل كل شيء، ثمة حاجة لتشجيع الباحثين الأكاديميين الشباب، وبشكل خاص من لا يملك منهم مواقع معترف بها، على نقد لغة وبلاغة الكتاب النقديين المعترف بهم، بل العمل على كشف الاهتمام الذاتي والاقتصاد السياسي لعلامة «نقدي». والحصيلة لن تكون مريحة بالنسبة إلى الخبراء النقديين، ولا ينبغي لها أن تكون كذلك إن كان يجب على فاعلية النقد الاجتماعي أن تمضي نحو المستقبل» (بيليغ ٢٠٠٢: ٤٥).

خلاصات:

يمنح التحليل النقدي للخطاب أنموذجا واعدا لتعيين وتأويل الكيفية التي تشتغل بواسطتها الإيديولوجيا داخل وعبر الخطاب. ومكمن قوته يتجلى في تجسيره المسافة بين ظاهرة اللغة الواقعية وعمل السلطة في المجتمع. وسيكون من المأسوف له أن تقوض العيوب المنهاجية والمختصرات النظرية هذه المهمة الجليلة. وتسعى الخلاصات التالية المقترحة إلى اختصار أهم الانتقادات الموجهة إلى التحليل النقدي للخطاب على مدار السنوات، وتقويم وجاهتها بالنسبة إلى

اللسانيين الذين يقرؤون أعمال ممارسي التحليل النقدي للخطاب، أو من يبتغي منهم إنجاز بحث في إطار أنموذج التحليل النقدي للخطاب.

١- يتحدد التحليل النقدي للخطاب أساسا بأهدافه السياسية. وغالبا ما يجاهر الباحثون بالتزاماتهم السياسية، على الأقل بالمعنى العام للكلمة. وينبغي استحضار هذه الالتزامات دائما عندما نؤول أعمالهم.

٢- يحتكم التحليل النقدي للخطاب إلى مجموع واسع من النظريات حول اللغة والمجتمع. لا تحظى هذه النظريات دائما بتعريف واضح، وثمة نزوع نحو الاعتماد على انتقاء مزيج من المفاهيم منتزعة من تقاليد فكرية ليست كلها متوافقة. وعلى الباحثين أن يحاولوا توضيح الخلفية النظرية لأعمالهم، وعلى القراء أن يكونوا أحرارا بتبنيهم موقفا نقديا تجاه الجهاز النظري الذي تطرحه دراسات التحليل النقدي للخطاب، بل حتى مواجهة أسسه.

٣- لقد اتُّهِم ممارسو التحليل النقدي للخطاب باستمرار باستعمالهم لمنهاجية «انطباعية» في تحليل النص، ويجب توخي الحذر عند تطبيق معايير الصرامة نفسها أثناء معالجة المعطيات اللغوية على غرار ما هو معمول به في مجالات أخرى في اللسانيات. وثمة حل ينبغي اتباعه يتمثل في تطبيق تقنيات لسانيات المتون من أجل الحصول على نظرة أكثر تمثيلية من خلال متون لغوية أكثر اتساعا. والحل الآخر يتمثل في نهج أقل انتقائية وأكثر انضباطا ونسقية في تحليل النص. وبشكل خاص عندما تُحَلَّل اللغة المنطوقة حيث يجب أن يؤخذ دائما البعد التداولي بعين الاعتبار.

٤- لطالما قيل إن المحللين النقديين للخطاب ينتقلون بسرعة من المعطيات اللغوية إلى مرحلة تأويل وتفسير المعطيات بمصطلحات النظرية الاجتماعية. إن كان الأمر كذلك، فعلى القراء أن يحرصوا على فحص تأويلات المعطيات المتوفرة

بشكل موضوعي. وعموما، يحتاج الباحثون أن يكونوا منصفين للنص في حد ذاته حتى تكون تأويلاتهم مؤسسة على دعائم قوية.

٥- يتوفر التحليل النقدي للخطاب على نظرية غير ملائمة للكيفية التي تعمل بواسطتها النصوص في السياقات الاجتماعية. يتم التسليم بسذاجة بمسألة استجابة القارئ أو تلقي الجمهور في عملية تأويل الباحث للنص. وعلى القارئ أن يقابل خلاصات من هذا النوع بالأعمال المنجزة في دراسات وسائل الإعلام التي توفر استبصارات أكثر عمقا حول العلاقة بين النصوص والذوات. فعلى الباحثين في التحليل النقدي للخطاب أن يهتموا بهذا البعد، وأن يرسموا مسالك لاستكشاف الاستجابات الواقعية.

٦- وعلى الرغم من توسيع المحللين النقديين للخطاب لحيز استبصاراتهم نحو السياق الأكبر، غير أنهم لم يعيروا اهتماما كافيا بسمات السياق المباشر، مما أسفر عن إنتاج تأويلات غير ملائمة تداوليا أو بعيدة عن انشغالات المشاركين. فالسمات المميزة للسياق المباشر يجب أن ينكب على معالجتها بشكل جاد كل من القراء والباحثين.

٧- بحث التحليل النقدي للخطاب، في العشرين سنة الماضية، بشكل أساسي الكيفية التي تشتغل بموجبها الإيديولوجيا من خلال الخطاب لدعم بنيات السلطة غير المتكافئة. وربما، كان ذلك بإيعاز من الصورة التي كونها التحليل النقدي للخطاب عن نفسه باعتباره قوة «نقدية»، ولقد كان التشديد على هذا الجانب سلبيا بشكل كبير، ويبدو أنه عمل على نشر رؤية حتمية للمجتمع. سيكون تحليل الخطاب الذي يستكشف الخطابات التحررية أو التغييرات الإيجابية في الاستعمال الاجتماعي للغة مفيدا، لأنه سيتيح معلومات حول الكيفية التي يمكن بواسطتها إحداث تحولات إيجابية.

المصطلحات الواردة في متن المقالة:

Critical discourse analysis	التحليل النقدي للخطاب
Paridigm/paradigms	الأنموذج/ الأنموذجات
Methodology	المنهاجية
Method	المنهج
Contextualisation	التسييق
Macro	مكبر
Micro	مصغر
Cognitive	معرفية
Alienation	استلاب
Manipulation	التلاعب
Valency	التكافؤ
Members resources	موارد الأعضاء
Encoded	مشفرة
Processing	معالجة
Reader response	استجابة القارئ
Patterns	أنماط

الهوامش والتعليقات:

(1) Ruth Breeze ; critical discourse analysis and its critics ; in: Pragmatics21: 4.493-525; (2011) International PragmaticsAssociation.

يعود اختياري للمقالة المنشورة بالمنبر المذكور أعلاه من أجل الترجمة لعدة مسوغات، أهمها ارتباط موضوعها بمجال حصل فيه تراكم في الإنتاج في دوائره المعرفية في السنوات السنوات الأخيرة بالعالم العربي، ويتعلق الأمر بالتحليل النقدي للخطاب، فبالرغم من كثرة الأبحاث المنشورة في المجال غير أننا نسجل ندرة الأعمال ذات الطابع النقدي التي تبين بعض الثغرات الإبستمولوجية والمنهاجية المرتبطة بممارسة التحليل النقدي للخطاب. ومن ثمة راهنية العمل الذي نقدمه بين يدي القارئ والذي تتمثل قيمته في مراجعة ونقد بعض الأسس المنهاجية والمعرفية لتخصص معرفي أضحى يحظى بتقدير الباحثين في الخطاب وقضاياه، وذلك في غياب ما تستلزمه الممارسة العلمية من نقد ذاتي مستمر ومتجدد. ولقد عملت على نقل محتويات النص المصدر دون تصرف. وكان لا بد من تبني قرارات تخص اختيارات محددة دون غيرها في عملية ترجمة المصطلح، فوقع اختيارنا على مقابلات معينة اتبعنا في اختيارها مبدأ الشيوع والتداول في أدبيات الترجمات العربية للمصطلح اللساني والنقدي. وتحاشينا نسخ المصطلح الأجنبي بحروف عربية متى كانت ترجمته متاحة من قبيل اعتماد منهاجية بدل ميتودولوجية. وذيلنا البحث بقائمة مصطلحات وردت بالمتن.

(٢) تمتهن روث بريز التدريس بجامعة نافارا بإسبانيا بعد تدريسها بكل من جامعة كامبردج والجامعة المفتوحة بإنجلترا. تشتغل على قضايا ترتبط باستعمال اللغة في المجال التربوي والإعلامي والمهني؛وذلك من أجل فهم الكيفية التي تشتغل بواسطتها اللغة في المجتمع؛ وكيفية صياغتها لتصوراتنا وفهمنا للعالم؛ ولتفاعلاتنا في السياقات الاجتماعية.

البيبليوغرافيا:

- Abercrombie, N. (1996) Television and Society. Cambridge: Polity Press.
- Antaki, C., M. Billig, D. Edwards, and J. Potter (2003) Discourse analysis means doing analysis: Acritique of six analytic shortcomings. In Discourse Analysis Online, 1, retrieved 8 September, 2011, on: http://www.staff.lboro.ac.uk/~ssca1/DAOLpaper.pdf.
- Arminen, I. (2005) Institutional Interaction: Studies of Talk at Work. Aldershot: Ashgate.
- Baker, P., C. Gabrielatos, M. Khosravinik, M. Krzyzanowski, T. McEnery, and R. Wodak (2008) Auseful methodological synergy? Combining critical discourse analysis and corpus linguistics to examinediscourses of refugees and asylum seekers in the UK press. Discourse and Society 19: 273-306.
- Bhatia, V.K. (2002) Applied genre analysis: A multi-perspective model. Ibérica 4: 3-19.
- Billig, M. (2002) Critical discourse analysis and the rhetoric of critique. In G. Weiss and R. Wodak (eds.), Critical Discourse Analysis: Theory and Interdisciplinarity. London: Palgrave Macmillan, pp. 35-46.
- Blommaert, J. (2001) Context is/as critique. Critique of Anthropology 21: 13-32.
- Bluhm, C., D. Deissler, J. Scharloth, and A. Stukenbrock (2000) Linguistische Diskursanalyse: Überblick, Probleme, Perspektiven. Sprache und Literatur in Wissenschaft und Unterricht 88: 3-19.

- Bourdieu, P. (1984a) Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste. London: Routledge.
- Bourdieu, P. (1984b) Homo Academicus. Stanford CA: Stanford University Press.
- Bredehöft, S., K. Gloy, F. Januschek, and R. Patzelt (1994) Studium der Arbeitslösigkeit. Zur diskursiven Aneignung neuer Lebenssituationen. Opladen: Westdeutscher Verlag.
- Caldas-Coulthard, C., and M. Coultard (eds.) (1996) Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis. London: Routledge.
- Candlin, C., and K. Hyland (1999) Writing: Texts, processes and practices. London: Longman.
- Chouliaraki, L., and N. Fairclough (1999) Discourse in Late Modernity. Rethinking Critical DiscourseAnalysis. Edinburgh: Edinburgh University Press.
- Coseriu, E. (1980) Textlinguistik: Eine Einführung. Tübingen: Narr.
- Fairclough, N. (1985) Critical and descriptive goals in discourse analysis. Journal of Pragmatics 9: 739-763.
- Fairclough, N. (1989) Language and Power. London: Longman.
- Fairclough, N. (1992a) Discourse and Social Change. Cambridge: Polity.
- Fairclough, N. (1992b) Discourse and text: Linguistic and inter-textual analysis within discourse analysis.
Discourse & Society 3.2: 193–217.
- Fairclough, N. (1995) Critical Discourse Analysis. London: Longman.
- Fairclough, N. (1996) A reply to Henry Widdowson's 'Discourse analysis: A critical view'. Language and Literature 5.1: 49-56.

- Fairclough, N. (2000) New Labour, new language? London: Routledge.
- Fairclough, N., and R. Wodak (1997) Critical discourse analysis. In T. van Dijk (ed.), Discourse as Social Interaction. London: Sage, pp. 258-284.
- Fish, S. (1980) Is There A Text in This Class? Cambridge MA: Harvard University Press.
- Foucault, M. (1969) The Archaeology of Knowledge. London: Routledge.
- Foucault, M. (1981) The order of discourse. In R. Young (ed.), Untying the text: A post-structural anthology. Boston: Routledge & Kegan Paul, pp. 48-78.
- Fowler, R. (1991) Language in the News. London: Routledge.
- Fowler, R. (1996) Linguistic Criticism. Oxford: Oxford University Press.
- Fowler, R., B. Hodge, G. Kress, and T. Trew (1979) Language and Control. London: Routledge and Kegan Paul.
- Gergen, K. (1994) Realities and relationships: Soundings in social construction. Cambridge MA: Harvard UniversityPress.
- Gloy, K. (1998) Ethik-Diskurse. Praktiken öffentlicher Konfliktaustragung. Skizze eines Forschungs- vorhabens. Ethik-Diskurse. Praktiken öffentlicher Konfliktaustragung. Arbeitspapier Nr. 1. Oldenburg: Universität Oldenburg.
- Gramsci, A. (1971) Selections from the Prison Notebooks. New York: International Publishers.
- Habermas,J.(1976)VerwissenschaftlichtePolitikundöffentliche-Meinung.InJ.Habermas(ed.),
Technik und Wissenschaft als 'Ideologie'. Frankfurt: Suhrkamp, pp. 120-45.

- Hammersley, M. (1997) On the foundations of critical discourse analysis. Language and Communication 17: 237-248.
- Harding, S. (2004) Introduction. In S. Harding (ed.), The feminist standpoint theory reader. London: Routledge.
- Hodge, R., and G. Kress (1993) Language as Ideology. London: Routledge.
- Hoey, M. (1996) Contrast and compatibility in the definitions of 'man' and 'woman'. In C. Caldas- Coulthard, and M. Coulthard (eds.), Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis. London: Routledge, pp. 150-163.
- Jäger, S. (1999) Kritische Diskursanalyse. Eine Einführung. Duisburg: Dissertation.
- Kant, I. (1781) [1964] Critique of Pure Reason. London: Dent.
- Kress, G., and T. van Leeuwen (1992) Structures of visual representation. Journal of Literary Semantics 21.2: 91–117.
- Kress, G. (1996) Representational resources and the production of subjectivity: Questions for thetheoretical development of critical discourse analysis in a multicultural society. In C. Caldas-Coulthardand M. Coulthard (eds.), Text and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis. London: Routledge, pp.15-31.
- Kuo, S.H., and M. Nakamura (2005) Translation or transformation? A case study of language andideology in the Taiwanese press. Discourse & Society 16: 393–418.
- Luke, A. (2002) Beyond science and ideological critique: Developments in critical discourse analysis. Annual Review of Applied Linguistics 22: 96-110.

- Maas, U. (1989) Sprachpolitik und politische Sprachwissenschaft. Frankfurt am Main: Suhrkamp.
- Macintyre, A. (1981) After Virtue. A study in moral theology. South Bend: University of Notre DamePress.
- Martin, J. (2004) Positive discourse analysis: Solidarity and change. Revista Canaria de Estudios Ingleses 49: 179-202.
- Mautner, G. (2001) Checks and balances: How corpus linguistics can contribute to CDA. In R. Wodak and M. Meyer (eds.), Methods of Critical Discourse Analysis. London: Sage, pp.122-143.
- Meyer, M. (2001) Between theory, method and politics: positioning of the approaches to CDA. In R. Wodak and M. Meyer (eds.), Methods of critical discourse analysis. London: Sage, pp. 14-31.
- Nightingale, V. (1996) Studying Audiences: The Shock of the Real. London: Routledge.
- Olson, D., and N. Filby (1972) On the comprehension of active and passive sentences. CognitivePsychology 3: 361-381.
- Partington, A. (2003) The Linguistics of Political Argumentation: The Spin-doctor and the Wolf-pack at the White House. London: Routledge.
- Partington, A. (2006) Metaphors, motifs and similes across discourse types: Corpus assisted discoursestudies (CADS) at work. In A. Stefanowitsch and S. Gries (eds.), Corpus-based Approaches to Metaphorand Metonymy. Berlin: Mouton de Gruyter, pp. 267-304.
- Peace, P. (2003) Balancing power: The discursive maintenance of gender inequality by wo/men at university. Feminism and Psychology 13.2: 159–180.

- Pêcheux, M. (1982) Language, semiotics and ideology. (2nd ed.) London: Macmillan.
- Potter, J. (1998) Cognition as context (Whose cognition?). Research on Language and Social Interaction 31.1: 29-44.
- Reese, S., O. Gandy, and A. Grant (2003) Perspectives on Media and our Understanding of the Social World. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum.
- Reisigl, M. (2007) Nationale Rhetorik in Fest- und Gedenkreden. Tübingen: Stauffenburg.
- Reisigl, M., and R. Wodak (2001) Discourse and discrimination. London: Routledge.
- Reisigl, M., and R. Wodak (2009) The discourse historical approach. In R. Wodak and M. Meyer (eds.),
Methods of critical discourse analysis. London: Sage. pp. 87-121.
- Rogers, R., E. Malancharuvil-Berkes, M. Mosley, D. Hui, and Joseph G. O'Garro (2005) Criticaldiscourse analysis in education: A review of the literature. Review of Educational Research 75.3: 365-416.
- Sarangi, S., and C. Roberts (1999) Talk, work and institutional order: Discourse in medical, institutional and management settings. Berlin: Mouton de Gruyter.
- Schegloff, E. (1997) Whose text? Whose context? Discourse and Society 8.2: 165-187.
- Scholem, G. (1982) Walter Benjamin: The story of a friendship. New York: New York Review of Books.
- Scholes, R. (1994) Textual Power. New Haven: Yale University Press.

- Shaw, B. (1985) Reason, nostalgia, and eschatology in the critical theory of Max Horkheimer. TheJournal of Politics 47.1: 160-181.
- Schroder, K. (2002) Discourses of fact. In K.B. Jensen (ed.), Handbook of Media and Communication Research. London: Routledge, pp. 98-116.
- Slembrouck, S. (2001) Explanation, interpretation and critique in the analysis of discourse. Critique ofAnthropology 21: 33-57.
- Stenvall, M. (2007) Fear of terror attack persists: Constructing fear in reports on terrorism by international news agencies. In A. Hodges and C. Nilep (eds.), Discourse, War and Terrorism. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company, pp.205-222.
- Stubbs, M. (1994) Grammar, text and ideology. Computer-assisted methods in the linguistics of representation. Applied Linguistics 15.2: 201-223.
- Stubbs, M. (1997) Whorf's children: Critical comments on critical discourse analysis. In A. Ryan, and A. Wray (eds.), Evolving models of language. Clevedon: Multilingual Matters, pp. 100-116.
- Toolan, M. (1997) What is critical discourse analysis and why are people saying such terrible things about it? Language and literature 6.2: 83-102.
- van Dijk, T. (1991) Racism and the press. London: Routledge.
- van Dijk, T. (1993) Elite discourse and racism. Newbury Park: Sage.
- van Dijk, T. (1999) Critical discourse analysis and conversation analysis. Discourse and Society 10.4: 459-460.

- van Dijk, T. (2003) Critical discourse analysis? In D. Schiffrin, D. Tannen and H. Hamilton (eds.), The hand book of discourse analysis. Oxford: Blackwell, pp. 352-371.
- Van Dijk, T. (2006) Discourse and manipulation. Discourse and Society 17.3: 359-383.
-Verschueren, J. (2001) Predicaments of criticism. Critique of Anthropology 21.1: 59-81.
- Verschueren, J. (2011) Ideology in Language Use: Pragmatic guidelines for empirical research. Cambridge: Cambridge University Press.
- Wales, R., and R. Grieve (1969) What is so difficult about negation? Attention, Perception and Psychophysics 6. 6: 327-332.
- Weiss, G., and R. Wodak (2002) Introduction: Theory, interdisciplinarity and critical discourse analysis. In G. Weiss and R. Wodak (eds.), Critical Discourse Analysis: Theory and Interdisciplinarity. London: Palgrave Macmillan, pp. 1-32.
- Widdowson, H. (1996) Reply to Fairclough. Discourse and interpretation. Conjectures and refutations. Language and Literature 5.1: 57-69.
- Widdowson, H. (1998) The theory and practice of Critical Discourse Analysis. Applied Linguistics 19.1: 136-151.
- Widdowson, H. (2005) Text, Context, Pretext: Critical Issues in Discourse Analysis. Oxford: Blackwell. Wodak, R. (1986) Language behavior in therapy groups. Los Angeles: University of California Press. Wodak, R. (1996) Disorders of discourse. London: Longman.
- Wodak, R. (2001) The discourse-historical approach. In R. Wodak and M. Meyer (eds.), Methods of critical discourse analysis. London: Sage, pp. 63-95.

- Wodak, R. (2007) Pragmatics and critical discourse analysis: A cross-disciplinary enquiry. Pragmaticsand Cognition 15.1: 203-225.
- Wodak, R. (2011) Critical linguistics and critical discourse analysis. In J. Östman, P. Ledin, and J.Verschueren (eds.), Discursive Pragmatics. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company, pp. 50-69.
- Wodak, R., J. Pelikan, P. Nowak, H. Gruber, R. de Cillia, and R. Mitten (1990) Wir sind alle unschuldige Täter!" Diskurshistorische Studien zum Nachkriegsantisemitismus. Frankfurt am Main: Suhrkamp.

The long-term effects of study-abroad experience during childhood on English proficiency

Dr. Kholoud A. Al-Thubaiti

Assistant Professor of Applied Linguistics
Department of English, Umm Al-Qura University

Received: 07-10-2018 Accepted: 16-01-2019

The long-term effects of study-abroad experience during childhood on English proficiency

Dr. Kholoud A. Al-Thubaiti

Abstract:

Although study-abroad experience has been shown to be beneficial in foreign-language learning, we still do not know whether such beneficial gains will last in the long run (Llanes & Muñoz, 2013). This study examines whether prior study-abroad experience in an English-speaking country (ESC) during childhood can show long-term linguistic advantages even after return to the home country. The study was conducted in Saudi Arabia with 48 adult Saudi Arabic EFL speakers. They were divided into two groups based on the context at first exposure: study-abroad in an ESC (*n*=26), and domestic study in Saudi Arabia (*n*=22). In addition to the context of exposure, two additional experiential factors were examined: age at first exposure (1-13 years) and years of exposure (8-36 years). The linguistic performance of the groups was compared on three tasks: (a) the Oxford Placement Test as a general proficiency measure, (b) the Vocabulary Levels Test devised by Nation (1990) as a measure of vocabulary size, and (c) the Grammaticality Judgment Test as a measure of morphosyntactic knowledge. The results showed a strong interaction effect between years of exposure and prior study-abroad experience

in predicting the level of general proficiency and vocabulary size, but not in morphosyntactic knowledge.

Keywords: study-abroad experience, instructed setting, years of exposure, age at first exposure, general proficiency, vocabulary size, morphosyntax

تأثير التعلّم في الخارج في الصغر على المدى البعيد على تنمية مهارات اللّغة الإنجليزيّة

د. خلود بنت عبدالله عايض الثبيتي

الملخص:

على الرّغم من وجود دراسات سابقة تشير إلى أنّ هناك فوائد جمّة للتعلّم في الخارج على تنمية المهارات اللّغويّة المكتسبة، فإنّ هذه الدّراسات لم تتناول قياس مدى استمراريّة مثل هذا التّأثير الإيجابيّ على المدى البعيد (يانس وميونث ٢٠١٣). فهدفت الدراسة الحالية إلى قياس تأثير التعلّم في الخارج في الصغر على المدى البعيد على مستوى المهارات اللغوية المكتسبة حتى بعد العودة إلى أرض الوطن. فتكونت عينة الدراسة من ٤٨ سعودياً بالغاً متحدثاً للّغة الإنجليزيّة كلغة أجنبيّة. وقسمت عينة الدراسة إلى مجموعتين على النحو التالي: المجموعة الأولى تعلّمت في الخارج، وكان عددهم ٢٦ متعلّمًا، بينما تعلمت المجموعة الثّانية داخل المملكة العربيّة السّعوديّة، وكان عددهم ٢٢ متعلّمًا. فضلاً عن دراسة متغيّر مكان تعلّم اللّغة الإنجليزيّة (في الخارج مقارنة بالدّاخل) فقد تمّ كذلك قياس تأثير متغيريّ العمر عند بدء تعلّم اللّغة الإنجليزيّة (١-١٣ سنة)، وسنوات التّعرّض للّغة (٨-٣٦ سنة). وقد تمّت مقارنة المهارات اللّغويّة للمجموعتين من خلال أدائهم في ثلاثة اختبارات؛ هي: اختبار أكسفورد لتحديد المستوى اللّغويّ العامّ، واختبار حصيلة المفردات اللّغويّة (نيئشن ١٩٩٠)، واختبار الحكم النّحويّ. وقد أظهرت النّتائج أنّ الأثر الإيجابيّ للتعلّم في الخارج مرتبط بسنوات التّعرّض للّغة؛ فكلّما زادت سنوات التّعرّض تعزّز الأثر الإيجابيّ على المدى البعيد. وكان هذا الأثر واضحًا في اختبار تحديد المستوى اللّغويّ العامّ، وحصيلة المفردات اللّغويّة. ولكنّه لم يظهر في اختبار الحكم النّحويّ.

الكلمات المفتاحيّة:

التعلّم في الخارج، بيئة تعليميّة، سنوات التّعرّض للّغة، العمر عند بدء تعلّم اللّغة، المهارات اللّغويّة العامّة، الحصيلة اللّغويّة من المفردات، النّحو والصّرف.

Introduction:

In age-related research, there is consensus that the context of exposure is a crucial factor to scrutinize because of the different age-related benefits documented in naturalistic and instructed settings (Muñoz, 2008). Research has shown consistently that the age factor works differently depending on the characteristics of the context of exposure, and thus the quantity and quality of second-language (L2) input. Although younger learners have been found to excel in a naturalistic setting (e.g., Johnson & Newport, 1989, 1991; Patkowski, 1980), older learners have been found to excel in a classroom setting (e.g., García-Mayo & Lecumberri, 2003; Muñoz, 2006b; Pfenninger & Singleton, 2017). Muñoz (2006a) was among the first to draw attention to the interaction between age at onset and context of exposure, and thus warned against overgeneralizing the 'younger the better' conclusion drawn from age-related studies in naturalistic settings to instructed ones. In fact, research worldwide has consistently shown no considerable linguistic advantages for early instruction in a school context; for example, Al-Thubaiti (2010, 2014) for Saudi Arabia, Larson-Hall (2008) for Japan, Muñoz (2011) for Catalonia, and Pfenninger (2014) for Switzerland. Researchers have argued that the lack of linguistic advantages in an instructed setting is potentially due to the lack of quality input and limited exposure. DeKeyser (2003) argued that child learners process language implicitly and therefore require

exposure to rich language input which would allow them to successfully acquire the grammatical rules of the foreign language. In the absence of sufficient quality input, child learners are often regarded as 'disadvantaged' and 'slow' L2 learners. On the other hand, teenage learners have been found to be more advantaged in a classroom setting because they are cognitively more mature and can learn the language explicitly. Moreover, Larson-Hall (2008) argued that only with increased exposure to L2 input can potential age effects possibly emerge in an instructed setting.

The aim of this study is to contribute to the current body of research by testing the effect of study-abroad experience as one type of classroom exposure but in a naturalistic context. The term 'study-abroad' is used to mean exposure to formal and natural input of the target L2 inside and outside the classroom. The primary goal of this study is to examine whether prior study-abroad experience in an English-speaking country (ESC) during childhood can show long-term linguistic advantages even after return to the home country. Based on the factor of context at first exposure, the study compares the English proficiency of two adult L2 groups: one group had been first exposed to English through study-abroad experience in an ESC, and the other group had been first exposed to English through a domestic L2 classroom experience in Saudi Arabia. The study-abroad group represents a population of temporary stay-abroad residents who accompanied their parents who

were pursuing their higher education abroad. It is quite interesting to test whether such a temporary stay-abroad experience would bring similar or different results from studies with immigrant populations in naturalistic settings (e.g., Johnson & Newport, 1989, 1991; Patkowski, 1980). The English proficiency of the two L2 groups was assessed by three dependent measures of linguistic knowledge: the Oxford Placement Test (OPT), the Vocabulary Levels Test (VLT), and the Grammaticality Judgment Test (GJT).

The paper is organized as follows. First, age-related studies in different contexts of exposure are reviewed. Then, the aim and the research questions of the present study are presented, followed by the methodology, and the results. Finally, the results are discussed in the light of the research questions.

Literature review:

In age-related studies, most research has been conducted with L2 learners (hereafter 'L2ers') in naturalistic and instructed contexts, with very few studies examining the effect of study-abroad experience (Llanes, 2011). The main findings on the long-term effects of starting age on L2 proficiency will be reviewed from the three contexts of exposure: naturalistic and instructed followed by the context of study-abroad.

The naturalistic context of exposure is often characterized by immersion in the target L2 community, where it is presupposed that L2ers are surrounded by ample amounts of L2 input.

The L2ers therefore have a unique opportunity for exposure to natural language spoken by native speakers. In naturalistic contexts, research has been mainly conducted with populations of immigrants and therefore has examined age on arrival as a predictor of performance (e.g. Johnson & Newport, 1989, 1991; Patkowski, 1980). Research on the ultimate attainment in L2 acquisition has shown that the younger learners outperformed the older ones in the long run. Patkowski (1980) was among the first studies which examined the long-term age effects of initial L2 exposure in a naturalistic context. He tested 67 immigrants to the US with at least five years of residence. Two native speakers were asked to rate the nativelikeness of samples of English interviews with all participants (including the US immigrants and fifteen native controls). Five-minute samples from all of the participants were randomized and transcribed to eliminate pronunciation effects on the raters' judgments. The rating scale ranged from 0 (indicating 'no ability') to 5 (indicating 'native-like performance'). The results showed those who had arrived in the US before fifteen years of age were more likely to be judged as native-like than those who had arrived after the age of fifteen. More evidence showing advantages for younger learners in a naturalistic context emerged from the influential study by Johnson and Newport (1989), who tested 46 Chinese and Korean immigrants with at least three years of residence. They were tested on twelve morphological and syntactic rules of English (such as word order, determiners, movement constraints, number

and tense markings, and pronouns). The results showed a strong relationship between age on arrival and accuracy on a grammaticality judgment task. Those who had arrived in the US before the age of seven performed in a native-like manner, whereas those who had arrived after the age of seven were non-native-like. Their study has been extensively replicated in different ways (Bialystok & Miller, 1999; Birdsong & Molis, 2001; DeKeyser, 2000; Yeni-Komshian, Flege, & Liu, 2000, among others). However, the replicated studies did not reproduce similar findings to those of the original study by Johnson and Newport (1989). DeKeyser (2000), for example, showed that up to the age on arrival of fifteen, it was possible for immigrants to achieve native-like performance. DeKeyser's (2000) findings aligned well with those of Patkowski (1980) rather than those of Johnson and Newport (1989). The offset of the critical period remains controversial because it has varied from one study to another (Muñoz & Singleton, 2011). This controversy bears on theoretical stances regarding the existence of a critical period in L2 acquisition (see for an overview DeKeyser, 2013). Nonetheless, the most influential finding of age-related research in naturalistic contexts is that the 'younger the better' for successful L2 acquisition.

Turning to the classroom context, it is often described as a context of minimal exposure in terms of the quality and quantity of L2 input that is normally received in the classroom. The target L2 is taught and spoken by non-native speakers

who are often described as having limited proficiency. Research in the classroom context has been conducted with instructed L2 learners and thus has examined age at first instruction as a predictor of performance. Most of this research tested instructed L2ers who were still studying at school (e.g., García-Mayo & Lecumberri, 2003; Muñoz, 2006b), and very few studies have tested the long-term effects of early instruction on foreign language proficiency (e.g., Al-Thubaiti, 2010, 2014; Larson-Hall, 2008; Muñoz, 2011). The findings on the long-term effects do not show linguistic advantages for early instruction in a school context. For example, in Japan, Larson-Hall (2008) conducted a study with 200 Japanese college students. They were tested on a grammaticality judgment test for morphosyntactic knowledge of English, and on a phonetic discrimination task on three sounds (ɹ/l/w) known to be problematic for Japanese L2ers of English. The results showed that linguistic advantages in favor of early instruction can be noted only after exposure to intensive amounts of input, and that it can differ according to the linguistic domain. In the phonetic discrimination task, early instruction showed benefits after a range of 1200-2200 hours of input. However, the morphosyntax required more input compared with phonetic knowledge. In the grammaticality judgment task, the benefits of early instruction did not emerge until after a range of 1600-2200 hours of input. It is crucial to note that the late starters outperformed the early starters on the grammaticality judgment task after just 800 hours of

input. Also, years of studying English, rather than starting age, was found to be a predictor of success on the grammaticality judgment task.

Al-Thubaiti (2010) carried out another empirical study to examine the potential long-term effects of early instruction on English proficiency in the context of Saudi Arabia. Al-Thubaiti tested 132 Saudi college students on two production tasks (a cloze test and gap-filling), one comprehension task, and another grammaticality judgment task. With amount of input being statistically controlled, the results revealed no significant differences in performance between the early- and middle-school starters. Al-Thubaiti argued that lack of linguistic advantages by age of L2 instruction can be related to the minimal amount of input which they have had. Unlike the Japanese students, the Saudi students had an average of 896 hours of input inside and outside the classroom, which is far less than the threshold of 1600 hours for morphosyntax found by Larson-Hall (2008).

In a follow-up study, Al-Thubaiti (2014) examined the long-term effects of the amount of L2 input with the same Saudi instructed L2ers and the same tasks. Information about the amount of L2 exposure was collected through a detailed background questionnaire. The L2 input measures included years of English study, hours of school instruction and private lessons, hours of college instruction, hours of studying outside the classroom, hours of L2 contact and use outside

the classroom, and percentage of first language (L1) use in listening and speaking, reading, and writing. These factors, alongside age of L2 instruction, were regressed in a hierarchal multiple regression model. The inter-correlations were controlled in the model. The results showed that the L2 input measures were stronger predictors of task performance than age of L2 instruction. Specifically, the results showed that recent input at college level with an average of 89.66 hours (20-162) and prior exposure at school and private lessons with an average of 722.54 hours (576-2976) were significant predictors of task performance. However, recent input at college was shown to explain more variance (10%-17%) than prior input at school and private lessons (6%-10%). Also, years of study with an average of 12.14 years (7-20) was a significant predictor but it accounted for the least amount of variance in task performance (1%-6%) compared with recent and prior input. It was also found that length of stay-abroad during summer vacations related positively to performance on the cloze test and grammaticality judgment task but not on the comprehension or production of tense marking.

Muñoz (2011) showed that the input factor is more important than age of L2 instruction. Muñoz conducted a study with 162 bilingual Spanish-Catalan college instructed L2ers of English. She analyzed the following set of L2 input measures: years of exposure, overall hours of curricular and extra-curricular instruction, recent hours of curricular instruction at college,

recent hours of curricular and extra-curricular instruction at college, current L2 contact, and hours of length of stay-abroad exposure. They were tested on three measures: a general proficiency test (the Oxford Placement Test), a lexical test, and a phonetic identification test assessing perception of categorical vowel contrast. The results showed consistently that age of L2 instruction did not relate to performance on any of the three tasks. Controlling the effect of age of L2 instruction, the results from partial correlation analyses showed that recent college instruction with an average of 784.7 hours (162-1620) had a positive relationship with general proficiency and lexical knowledge but not with phonetic knowledge. Years of exposure with an average of 13.9 years (10.6-23.4) had a positive relationship with lexical knowledge but not with general proficiency or phonetic knowledge. Also, current L2 contact related positively to global proficiency and phonetic knowledge, whereas length of stay-abroad related positively to general proficiency, lexical knowledge, and phonetic knowledge (Muñoz, 2011).

As shown from classroom research, the experience of stay-abroad emerged as a factor that positively relates to L2 proficiency. Study-abroad is another form of classroom exposure but in a naturalistic context. According to Collentine (2009, p. 218), study-abroad "takes place in countries where the L2 enjoys an important sociological and functional status, entailing a combination of planned curriculum and a host

family." This form of exposure offers several opportunities for using and practicing the target L2 with native speakers in a natural environment outside the classroom. However, the experience of study-abroad is usually limited in terms of length of stay, which is determined by the length of the study program or the purpose of the travel abroad (such as job opportunities, summer schools, scholarship programs, and exchange programs). Study-abroad is hence characterized by temporary residence in the target L2 community. L2ers are presupposed to be exposed to formal and natural L2 inside and outside the classroom. Study-abroad experience therefore stands between classroom and naturalistic exposure. Research on study-abroad has usually been conducted with classroom L2ers who spend the summer or a year abroad in order to advance their L2 proficiency. They have often been compared to their counterparts from a domestic L2 classroom at home (e.g., Llanes & Muñoz, 2009, 2013; Segalowitz & Freed, 2004). Most of the available literature examined the effect of study-abroad on oral fluency (e.g., Llanes & Muñoz, 2009; Segalowitz & Freed, 2004) and fewer studies tested its effect on vocabulary and grammar (e.g., Collentine, 2004; Llanes, 2010) and global L2 proficiency (e.g., Segalowitz *et al.*, 2004). Most of these studies compared the effect of study-abroad with domestic classroom exposure at home, and sometimes with immersion classroom types. According to Llanes (2011), the overall findings support beneficial gains from study-abroad compared with the domestic classroom context. Nonetheless,

not all aspects of L2 proficiency were examined thoroughly. So far, there is conclusive evidence for positive gains in oral fluency and increased vocabulary growth compared with grammar and morphology. For example, Howard (2006) studied the L2 acquisition of French by Irish college students and found that their morphological development of plural marking was enhanced after study-abroad experience. On the other hand, DeKeyser (1991) showed no substantial differences in grammatical performance between L2ers of Spanish with study-abroad and with domestic classroom experience.

Another crucial factor to consider in this research area is whether any beneficial gains from study-abroad experience lead to short- or long-term effects. So far, there has been limited research on this issue. In fact, Llanes and Muñoz (2013, p. 83) remarked that "additional research is needed regarding the long-term effects of the gains that emerge as a result of an SA [study-abroad] experience, because the duration of these effects is unclear". From a practical perspective, the long-term effects of study-abroad are important to assess because they will inform policy makers and parents of the actual linguistic gains from (financial and time) investment in the study-abroad programs.

To summarize, age-related research has shown that the effect of starting age on L2 proficiency in the long run varies depending on the context of exposure. While there is ample evidence that immersion in a naturalistic setting during

childhood has long-term linguistic advantages, there is little research on the long-term effects of study-abroad experience as a form of classroom exposure but in a naturalistic setting. The aim of the present study is to address the beneficial gains from study-abroad experience in terms of its long-term effects with a different type of L2 speakers, as will be explained in the following section.

The aim and research questions of the study:

This study aims at testing whether prior study-abroad experience in an English-speaking country (ESC) during childhood can show long-term linguistic advantages even after return to the home country. To address this aim, the study compares the English proficiency of adult L2 speakers who had study-abroad experience in an ESC with another group who had domestic L2 classroom instruction in Saudi Arabia. In addition to the country of first L2 exposure (ESC as opposed to Saudi Arabia), the study examines the effects of age at first L2 instruction and length of L2 exposure as interacting factors. Three dependent measures of linguistic knowledge were examined: (a) general English proficiency as measured by the Oxford Placement Test (OPT), (b) breadth of vocabulary size as measured by the Vocabulary Levels Test (VLT), and (c) morphosyntactic knowledge as measured by a Grammaticality Judgment Test (GJT).

Considering the three experiential factors (country of first exposure, years of exposure, and age at first exposure) as potential interacting predictors of L2 proficiency, the research questions of the study are formulated as follows:

1. Which of the L2ers' experiential characteristics could explain their task performance when L2 proficiency is examined by an OPT, VLT, and GJT?

2. In a GJT, which of the three experiential factors could most explain the L2ers' ability to distinguish between grammatical and ungrammatical morphosyntactic conditions?

It is crucial to note that the study-abroad group of this study differs from the type of study-abroad groups normally tested in the current literature in two respects as follows. First, the L2 speakers of the study-abroad group were not enrolled in study-abroad programs but rather in public schools in the native community; second, they had not intended to travel abroad for language purposes, but by accompanying their parents they had the opportunity to acquire English as a second language and interact with local children of their own age. They thus had exposure to the L2 at home, at school, and in the local community. Therefore, the L2 speakers of the study-abroad group bore more similarities to the immigrant populations whose children usually get immersed in the local community through the school system and everyday interaction with the community. However, they differed from immigrants'

children in that they did not have plans for permanent residence and integration in the target community, and that they came from a higher socio-economic status.

Method:

Participants:

The study sample consisted of 48 adult L2 speakers of English. They were highly educated and active bilinguals in L1 Saudi Arabic and L2 English. They were either working or studying at college level in Saudi Arabia. At the time of testing, most of them were majoring in English literature or TESOL with a few in computer science, information science, and mathematics. They represented the same socio-economic group. Their parents were highly educated and most of them spoke English in their professions. The participants were divided into two groups by the country of first exposure: (a) study-abroad in an ESC and (b) domestic study in Saudi Arabia (SA). For reasons of brevity throughout the paper, the first group will be referred to as ESC, and the second group as SA. Table 1 presents a summary of the experiential variables for the two groups.

Table 1. Summary of the experiential variables of the L2 groups (***N***=48)

Groups by country of first exposure	*n*	Age at testing	Age at first exposure	Years of exposure
		Mean (SD) *Min-Max*	*Mean (SD)* *Min-Max*	*Mean (SD)* *Min-Max*
Study-abroad in an ESC	26	26.35 (5.56) 19-37 years.	4.62 (2.61) 1-12 years.	21.73 (6.88) 8-36 years.
Domestic study in SA	22	25.23 (4.15) 20-32 years.	9.73 (3.17) 4-13 years.	15.50 (5.14) 8-26 years.

Research instruments:

Three dependent measures of linguistic knowledge were used: (a) the Oxford Placement Test as a general proficiency measure, (b) the Vocabulary Levels Test devised by Nation (1990) as a measure of vocabulary size, and (c) the Grammaticality Judgment Test as a measure of morphosyntactic knowledge. A description of each test of the three is given below.

Oxford Placement Test (OPT):

The OPT (2001) is a test of English language L2 proficiency in reading, vocabulary, and grammar. The questions were constructed in the multiple-choice format. The test had 60 questions divided in two parts: the first part comprised 40 questions and was designed to be taken by respondents with lower levels of proficiency, and the second part had 20

questions designed for higher levels of proficiency. The questions in part 2 were incrementally harder than those in part 1. Therefore, if participants scored 36 or more in part 1, it was recommended that they should complete part 2 of the test. The test came in two versions: a computer-based test and a paper-and-pen test. The test used in the current study was the paper-and-pen version, and both parts of the test were administered. The test took an average of 30 minutes to complete. The maximum score in the OPT was 60. Examples of one type of question from part 1 and another from part 2 are given in the Appendix.

Vocabulary Levels Test (VLT)[(1)]:

The VLT (Nation, 1990, 2001) is a measure of the L2ers' vocabulary size of general and academic English. The test version used consisted of five blocks, each representing one of the vocabulary levels (2000 words, 3000, 5000, 10,000, and academic level). It is assumed that each vocabulary level correlates with the ability to use English in different tasks (such as reading a newspaper column and writing an argumentative essay) (Schmitt, Schmitt, & Clapham, 2001). For example, L2ers with knowledge of the 10,000 most frequent words in English are often described as having a 'wide vocabulary' (Schmitt *et al*., 2001, p. 56) which allows them to cope with advanced uses of English. In the test, each level had six vocabulary sets, with each set consisting of six vocabulary items and three meanings

(1) I am grateful to Dr. Suhad Sonbul for providing references on the VLT and answering my questions about vocabulary testing in an effective and prompt manner.

(that is, three test items × six options = eighteen test items per level). The questions were constructed in the form-recognition format (Schmitt, 2010). The participants' task was to match each of the three meanings with their corresponding vocabulary item from the set. The vocabulary items increased in difficulty as the frequency level increased. The maximum score of the VLT was 90. The test version administered was paper-and-pen, and it took an average of 35 minutes to complete. Here is an example of one set which appeared in the instructions section:

1. business		
2. clock	____	part of a house
3. horse	____	animal with four legs
4. pencil	____	something used for writing
5. shoe		
6. wall		

Grammaticality Judgment Test (GJT):

A shortened version of the GJT designed by Al-Thubaiti (2010) was used. The purpose of using a GJT was to assess L2ers' morphosyntactic knowledge. The test consisted of 144 test items and twelve ungrammatical distracters. The overall test material was balanced in grammaticality with half grammatical and half ungrammatical. The ungrammatical items were included to examine violations of specific grammar-constraints in English. If the L2ers could distinguish between grammatical

and ungrammatical conditions, that was evidence of acquiring that specific morphosyntactic constraint (White, 2003).

The test material was administered on a computer under time pressure in aural and written format. On a paper answer sheet, the participants had to rate the test items on a five-point Likert scale ranging from (1) 'definitely impossible' to (5) 'definitely possible'. They were instructed to rate the test items based on their first impression in order to avoid metalinguistic analysis. They had eight seconds to mark their ratings on the answer sheet. Examples of the test items for grammaticality are given in the Appendix.

Background questionnaire:

A background questionnaire was designed to gather information about the L2ers' learning experience of English in terms of their age at testing, age at first exposure, country of first exposure, and years of exposure. Age at first exposure was counted from the time they reported a significant encounter with the English language (Muñoz, 2011). Years of exposure was verified by subtracting age at first exposure from age at testing (Nishikawa, 2014).

Procedure of testing and data analysis:

According to the code of ethics of data gathering, an informed consent was obtained from the participants. The testing took place individually in two sessions in a quiet office. In the first

session, the participants took the GJT because it was computerized and they filled out the background questionnaire. Before starting, the participants had instructions and practice on how to conduct the GJT. In the second session, they undertook the OPT and VLT, for which they also had instructions on how to conduct these tests.

Using the R version (R Core Team, 2018), two statistical analyses were conducted on the L2 data: multiple linear regression and mixed-effects modelling. According to Levshina (2015), multiple regression has the advantage of estimating the effect of each predictor individually while controlling for any potential confounding effects among the predictors, such as age at exposure and years of exposure. The lm () function was used to perform multiple regression, and the visreg package (Breheny & Burchett, 2017) was used to visualize the interactions in the regression model (Levshina, 2015). On the other hand, mixed-effects modelling was chosen for the many advantages it provides (Cunnings & Finlayson, 2015). The most important advantage is that mixed-effects can account for random variance due to variation across different items and participants in one analysis. Another advantage is that it allows modelling continuous and categorical predictors in one model. It can also be performed on the raw data without it being averaged, and thus is not affected by missing data points (For more information see Cunnings & Finlayson, 2015). To conduct linear mixed-effects modelling, the lmer ()

function was used from lme4 package (Bates, Mächler, Bolker, & Walker, 2015).

Results:

The effect of experiential factors on L2 task performance:

Table 2. L2ers' scores by country of first exposure on the three linguistic tasks

	ESC			SA		
	n	*Mean (SD)*	*Min-Max*	*n*	*Mean (SD)*	*Min-Max*
OPT	26	49 (8.24)	35-60	22	50.18 (3.95)	43-59
VLT	26	71.88 (16.75)	31-90	22	77.18 (9.09)	54-88
GJT	26	101.77 (18.82)	68-131	22	103 (13.64)	74-123

Note. ESC= Study-abroad in an ESC; SA= Domestic study in Saudi Arabia; OPT= Oxford Placement Test (maximum score 60); VLT= Vocabulary Levels Test (maximum score 90); GJT=Grammaticality Judgment Test (maximum score 144).

Table 2 shows the L2ers' scores by country of first exposure on the three linguistic tasks: OPT, VLT, and GJT. For each linguistic task, a multiple regression linear model with seven parameters was constructed for testing the L2ers' scores as a function of the three experiential factors: country of first exposure (CoE), age on first exposure (AoE), and years of exposure (YoE). Three two-way interactions were also constructed in the design: the first aimed at testing whether the effect of AoE varied by CoE (CoE: AoE), the second aimed at

testing whether the effect of YoE varied by CoE (CoE: YoE), and the third aimed at testing whether the effect of AoE varied by YoE (AoE: YoE). The categorical predictor of CoE was sum coded as (-.5=ESC,.5=SA) to obtain ANOVA main effects style (Cunnings & Finlayson, 2015). The continuous predictors of AoE and YoE were centered to minimize the collinearity between main effects and interactions in the model (Baayen, 2008). The models and their results are presented next in the following order: Table 3 for the OPT, Table 4 for the VLT, and Table 5 for the GJT.

Table 3. Summary of the predictors' coefficients in a multiple regression model for the OPT

	Estimate	Standard Error	Standardized Beta	*t* value	*p*
(Intercept)	49.44	1.13	0.00	43.92	<.000
s_CoE	1.42	2.09	0.11	0.68	0.501
cAoE	0.57	0.35	0.33	1.62	0.112
cYoE	0.54	0.17	0.56	3.21	0.003
s_ CoE:cAoE	-0.46	0.69	-0.10	-0.67	0.507
s_CoE:cYoE	-1.35	0.43	-0.62	-3.10	0.003
cAoE:cYoE	0.07	0.04	0.28	1.70	0.097

Note. Model: lm (formula = OPT ~ s_CoE + cAoE + cYoE + s_CoE:cAoE + s_CoE:cYoE + cAoE:cYoE, data = L2data_w). The categorical predictor s_CoE was sum coded as (-.5=ESC,.5=SA), and the continuous predictors of cAoE and cYoE were centered. Shaded rows indicate a significant predictor or interaction.

For the OPT, the model was significant, F (6, 41) = 5.854, p <0.0001. As indicated by the multiple R^2 (0.461), the model accounted for 46.1% of variance in the dataset. This value is considered high. Looking at the fixed effects individually and the interactions, Table 3 shows that not all the coefficients in the model were significant. Of the three fixed predictors, YoE stood out as the significant main predictor of the L2ers' performance in the OPT. However, the main effect of YoE was qualified by a significant interaction with CoE. This is clearly shown in Figure 1. This interaction suggested that the effect of YoE was not the same for the ESC and SA groups. Unlike the SA group, the L2ers' scores of the ESC group increased with increased YoE. It is crucial to note that the effect of AoE did not vary by CoE or by YoE (*see* Figure 1).

(A) CoE:YoE (p=0.003)

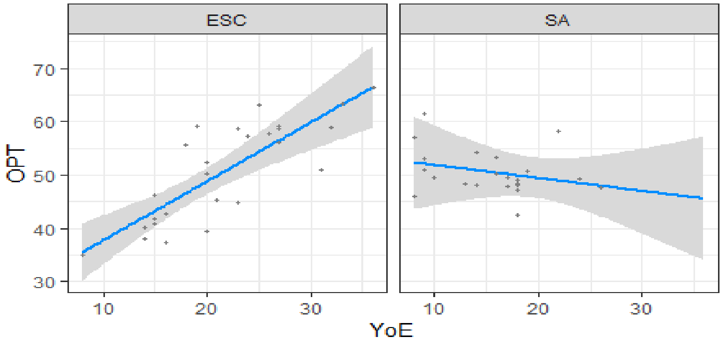

(B) CoE:AoE (p=0.507, non-sig)

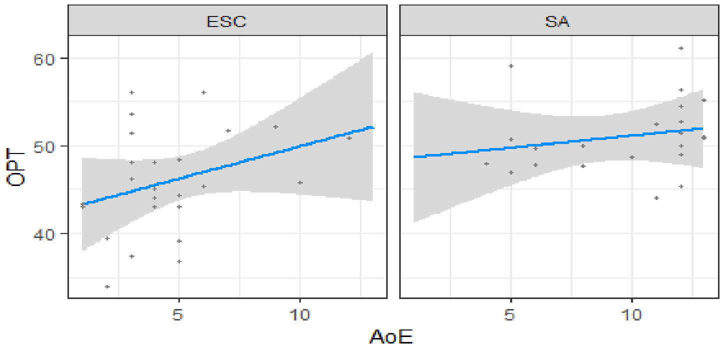

(C) AoE:YoE (p=0.097, non-sig)

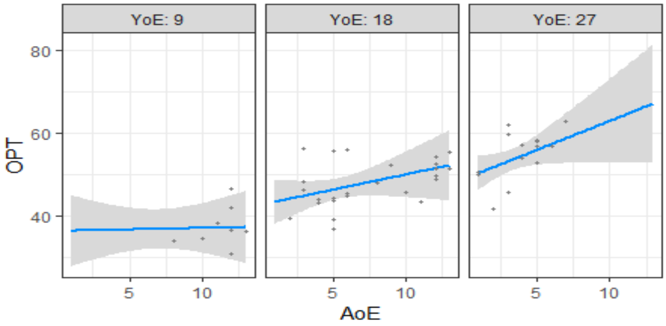

Figure 1. Interaction plots for scores on the OPT: (A) CoE:YoE, (B) CoE:AoE, and (C) AoE:YoE

Table 4. Summary of the predictors' coefficients in a multiple regression model for the VLT

	Estimate	Standard Error	Standardized Beta	*t* value	*p*
(Intercept)	76.25	2.42	0.00	31.50	<0.000
s_CoE	7.82	4.49	0.28	1.74	0.089
cAoE	0.79	0.76	0.22	1.04	0.304
cYoE	1.10	0.36	0.54	3.03	0.004
s_CoE:cAoE	-1.45	1.48	-0.15	-0.98	0.334
s_CoE:cYoE	-2.79	0.93	-0.61	-2.99	0.005
cAoE:cYoE	0.22	0.09	0.40	2.40	0.021

Note. Model: lm (formula = VLT ~ s_CoE + cAoE + cYoE + s_CoE: cAoE + s_CoE:cYoE + cAoE:cYoE, data= L2data_w). The categorical predictor s_CoE was sum coded as (-.5=ESC,.5=SA), and the continuous predictors of cAoE and cYoE were centered. Shaded rows indicate a significant predictor or interaction.

Turning to the VLT, the model was also significant, $F(6, 41) = 5.375$, $p < 0.0001$. As indicated by the multiple R^2 (0.440), the model accounted for 44.0% of variance in L2ers' performance. In terms of the effects of the predictors, Table 4 shows YoE as the only significant main predictor of the L2ers' scores on the VLT. However, this main effect was qualified by two interactions: one with CoE and the other with AoE. As shown in Figure 2, the L2ers in the ESC group, unlike the SA group, gave higher scores with increased YoE. This interaction suggested that the effect of YoE varied by CoE, and that the ESC group had an advantage over the SA group. The results

also showed that there was a significant interaction effect between YoE and AoE. As clearly seen in Figure 2, the interaction here suggested that younger L2ers with more YoE scored higher than younger ones with fewer YoE. On the other hand, AoE did not show a main effect or an interaction effect with CoE (*see* Figure 2).

(A) CoE:YoE (*p*=0.005)

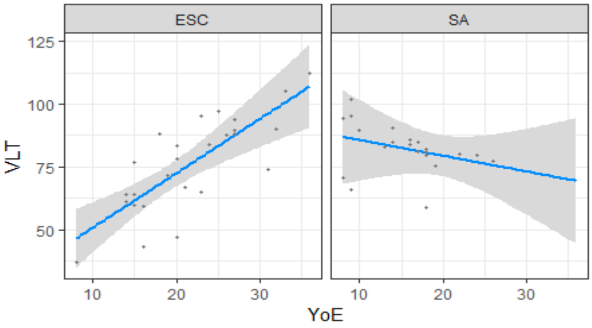

(B) CoE:AoE (*p*=0.334, non-sig)

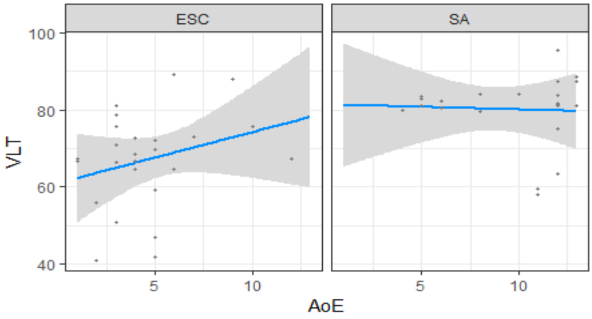

C) AoE:YoE (p=0.021, non-sig)

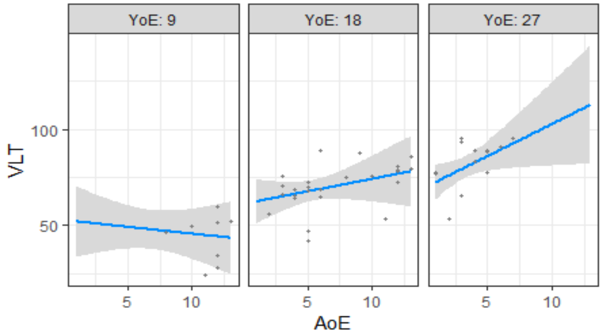

Figure 2. Interaction plots for scores on the VLT: (A) CoE:YoE, (B) CoE:AoE, and (C) AoE:YoE

Table 5. Summary of the predictors' coefficients in a multiple regression model for the GJT

	Estimate	Standard Error	Standardized Beta	t value	P
(Intercept)	102.37	3.49	0.00	29.31	<.000
s_CoE	-1.65	6.47	-0.05	-0.26	0.799
cAoE	1.76	1.09	0.41	1.61	0.116
cYoE	1.03	0.52	0.43	1.97	0.056
s_CoE:cAoE	-0.25	2.14	-0.02	-0.12	0.907
s_CoE:cYoE	-1.73	1.35	-0.32	-1.29	0.204
cAoE:cYoE	0.14	0.14	0.21	1.01	0.318

Note. Model: lm (formula = GJT ~ s_CoE + cAoE + cYoE + s_CoE: cAoE + s_CoE:cYoE +cAoE:cYoE, data = L2data_w). The categorical predictor s_CoE was sum coded as (-.5=ESC,.5=SA), and the continuous predictors of cAoE and cYoE were centered.

On the other hand, the GJT revealed different results from the OPT and VLT. The model was non-significant, $F(6, 41) = 1.415$, $p = 0.232$. As indicated by the multiple R^2 (0.172), the model managed to account for at most 17.2% of the variance in the dataset. The model therefore suggested that the three experiential factors altogether did not contribute substantially to the L2ers' performance. Table 5 shows no significant main effects of AoE or CoE, but a (marginally) non-significant main effect for YoE. There was also no significant interaction effect between the tested predictors (*see* Figure 3). Again, of all the predictors, it was YoE which showed a tendency effect but it was not significant (p=.056).

(A) CoE:YoE (p=0.204, non-sig)

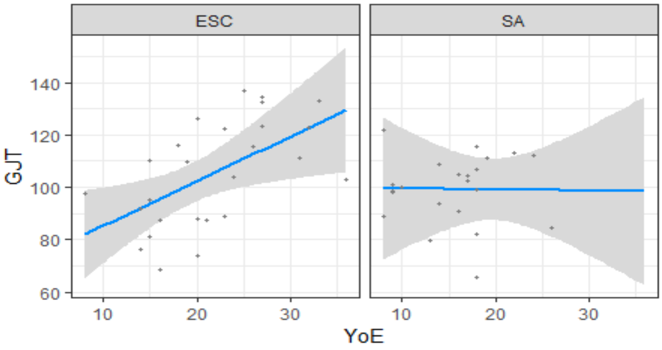

(B) CoE:AoE (p=0.907, non-sig)

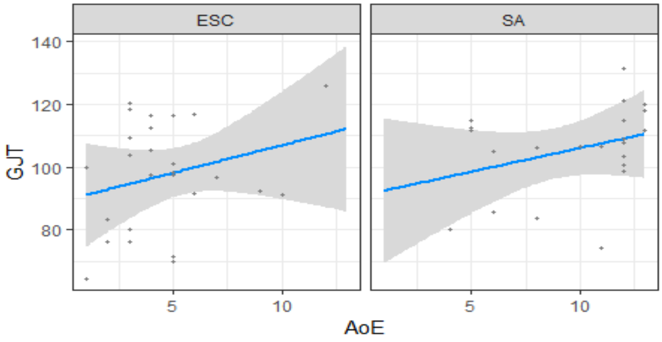

(C) AoE:YoE (p=0.318, non-sig)

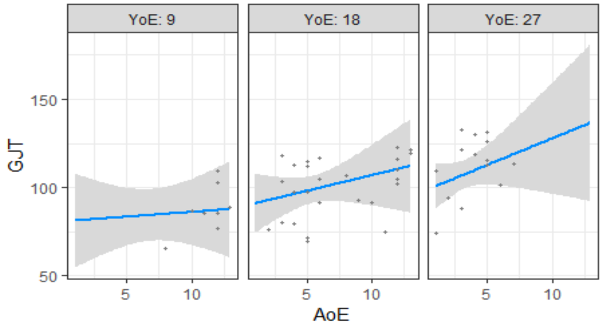

Figure 3. Interaction plots for scores on the GJT: (A) CoE:YoE, (B) CoE:AoE, and (C) AoE:YoE

To summarize, a model of multiple regression with three main predictors (CoE, AoE, and YoE) and three interactions (CoE:AoE, CoE:YoE, and AoE:YoE) can account for 46.1% of variance at most on the OPT, followed by 44.0% on the VLT, and the least of 17.2% on the GJT. Unlike the OPT and the VLT, the L2ers' scores on a morphosyntactic measure such as the GJT was minimally affected by the regressed model. Of the three experiential predictors, YoE stood out as the most predicting factor of L2ers' performance, especially among the ESC group on the OPT and the VLT. The interaction between YoE and CoE was significantly attested in the L2ers' performance on the OPT and the VLT. The predictor of AoE showed no significant effect on any of the three linguistics tasks. Unexpectedly, there was no significant interaction effect between AoE with CoE on the three measures. There was an

interaction effect between YoE and AoE on the VLT measure but not on either the OPT or the GJT.

The effect of experiential factors on the L2ers' ratings of (un)grammaticality in a GJT:

Table 6. Mean ratings (Z-ratings) on two grammaticality conditions by country of first exposure:

	ESC			SA		
	n	*Mean (SD)*	*Z-mean (SD)*	*n*	*Mean (SD)*	*Z-mean (SD)*
Grammatical	2028	4.42 (1.07)	0.5 (0.68)	1716	4.29 (1.15)	0.42 (0.73)
Ungrammatical	1716	2.86 (1.65)	-0.48 (1.04)	1452	2.65 (1.58)	-0.62 (1.00)

Note. ESC= Study-abroad in an ESC; SA= Domestic study in Saudi Arabia; *n*= observations of L2ers in long-data format

Table 6 shows that L2ers from both groups gave higher mean ratings to the grammatical sentences compared with the ungrammatical ones. So, I tested whether their ability to distinguish grammaticality depended on their characteristics in terms of CoE (ESC vs SA), AoE, or YoE. A linear mixed-effects model was fitted using the technique of restricted maximum likelihood (REML). The model was performed with 6912 observations, 144 items, and 48 participants. As recommended by Schütze and Sprouse (2013), the dependent variable of mean ratings was z-transformed for the grammatical and ungrammatical items to normalize the data ratings. Fixed effects included the effects of the 'grammaticality'

condition (g=grammatical vs ug=ungrammatical) as a within-participant factor (that is, a repeated measure), and L2ers' characteristics (AoE, CoE, and YoE) as between-participant factors. The categorical fixed predictors of 'condition' and 'CoE' were sum coded to obtain ANOVA main effects style (Cunnings & Finlayson, 2015). The CoE was sum coded as (-.5=ESC,.5=SA) and the condition was sum coded as (-.5=g,.5=ug). On the other hand, the continuous fixed predictors of AoE and YoE were centered to minimize the collinearity between main effects and interactions in the model (Baayen, 2008). Four two-way interactions were built in the model as follows: three interactions were constructed to measure how the mean ratings by condition interact with each of AoE, YoE, and CoE (s_condition:cAoE, s_condition:cYoE, and s_condition:s_CoE, respectively), and the fourth interaction aimed at testing how variation in AoE is affected by YoE (cAoE: cYoE). Random effects were fit using a 'maximal' random effects structure. This included random intercepts for L2ers and items to model how the overall z-ratings for each L2er and item varied randomly. Random slopes for the fixed repeated measures effect of 'condition' were modelled to vary by both L2ers and items. Statistical significance was assessed by calculating the *p* values from the *t* distribution using the following equation: [2 * (1-pt (abs(x), Y-Z))] (Baayen, 2008, p. 248).

Table 7. Mixed-effects model for L2ers' z-ratings on (un) grammatical conditions in the GJT

Parameters	Fixed effects				Random effects by	
					Items	L2ers
	Estimate	Standard Error	*t* value	*p*	SD	SD
Intercept	-0.06	0.06	-1.082	0.279	0.26	0.30
s_condition	-1.01	0.097	-10.329	<0.001	0.52	0.51
s_CoE	-0.20	0.12	-1.652	0.099	-	-
cAoE	0.00	0.02	-0.122	0.902	-	-
cYoE	-0.02	0.01	-1.701	0.089	-	-
cAoE: cYoE	-0.00	0.00	-0.574	0.566		
s_condition: cYoE	-0.05	0.02	-2.942	0.003	-	-
s_condition: s_CoE	-0.09	0.20	-0.451	0.652	-	-
s_condition: cAoE	-0.05	0.03	-1.431	0.152	-	-

Note. Model Formula: z-ratings ~ s_condition + s_CoE + cAoE + cYoE + cAoE:cYoE+ s_condition:cYoE + s_condition:s_CoE + s_condition:cAoE + (1 + s_condition|L2ers) + (1 + s_condition|Items). The categorical fixed factors of condition and CoE were sum coded, as follows: s_condition (-.5=g,.5=ug) and s_CoE (-.5=ESC,.5=SA). The continuous fixed factors of cAoE and cYoE were centered. Shaded rows indicate significant predictors or interactions.

The results showed that the variance of the random effects (intercepts and slopes) altogether accounted for 59.76% of the model, leaving a residual of 40.24 % as unexplained error. Specifically, the results

indicated that among the random effects, the intercepts for L2ers and items accounted for 8.04% and 5.75% respectively, whereas the variance of the L2ers' slope for condition explained 22.72% of the model, and the items' slope for condition explained 23.26% of the model.

As shown in Table 7, the model revealed a significant main effect of condition with the negative estimate confirming that the ungrammatical sentences were rated as significantly less acceptable than the grammatical sentences. The main effect of condition was qualified by a significant interaction effect with YoE. The interaction indicated that the ratings on grammaticality condition differed by YoE. The L2ers with longer periods of exposure gave lower ratings to ungrammatical conditions, but higher ratings to grammatical conditions (*see* Figure 4). Also, the model showed that ratings on grammaticality condition were not affected by an interaction with either CoE or AoE (*see* Figure 5).

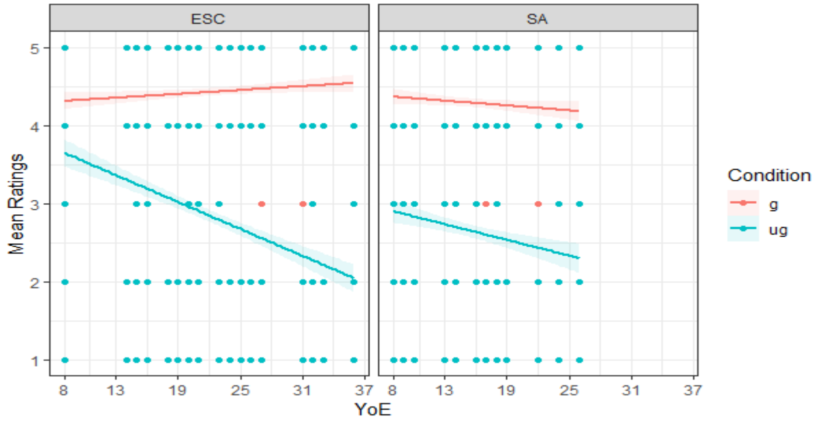

Figure 4. Interaction plots for the mean ratings on the GJT by condition (grammatical vs ungrammatical) depicting the interaction between CoE and YoE

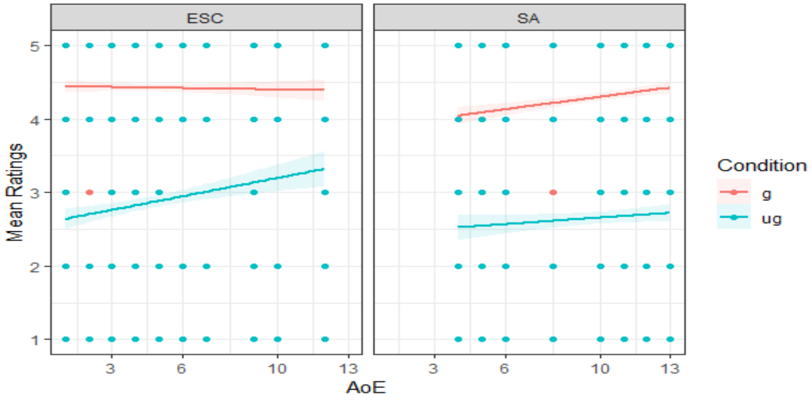

Figure 5. Interaction plots for the mean ratings on the GJT by condition (grammatical vs ungrammatical) depicting the interaction between CoE and AoE

To summarize, mixed-effects modelling with three main fixed predictors (CoE, YoE, and AoE) and four interaction effects (condition:AoE, condition:YoE, condition:CoE, and AoE:YoE) showed that the L2ers' morphosyntactic knowledge was most affected by condition (grammatical vs ungrammatical) interacting with YoE. The L2ers with increased YoE distinguished better between grammatical and ungrammatical conditions. They gave significantly higher ratings to grammatical conditions and lower ratings to ungrammatical ones. On the other hand, the results showed no significant effect for CoE or AoE either as main predictors or as interacting ones with condition.

Discussion:

The primary goal of this study was to examine whether study-abroad experience in an ESC during childhood will show long-term linguistic advantages. To accomplish this goal, two adult L2 groups were compared: those who had study-abroad experience in an ESC and those who only had domestic L2 classroom experience in Saudi Arabia. The groups were referred to as the ESC and SA groups, respectively. Their L2 linguistic knowledge was compared on three measures: (a) the Oxford Placement Test (OPT) as a general proficiency measure, (b) the Vocabulary Levels Test (VLT) as a measure of vocabulary size, and (c) the Grammaticality Judgment Test (GJT) as a measure of morphosyntactic knowledge. Their L2 performance was assessed statistically against three experiential factors, country of first exposure (ESC vs SA), age on first exposure, and years of exposure. Two research questions were formulated: the first was designed to test which of the experiential factors could best predict task performance on the three linguistic measures and the second to assess which of the experiential factors could best predict the L2ers' ability to distinguish (un)grammaticality in a morphosyntactic test.

To answer the first question, multiple regression analyses were performed. The results showed that studying abroad during childhood in an ESC did not alone grant long-term linguistic advantages on any of the three tasks (OPT, VLT, or GJT). Rather, years of exposure was a crucial interacting

factor with study-abroad in predicting general proficiency level and vocabulary size, but not morphosyntax. In the OPT and VLT measures, L2ers from the study-abroad group scored significantly higher with more years of exposure than those with fewer years of exposure. This effect did not emerge among the L2ers with domestic classroom experience in SA. It is interesting to note that the interaction between prior study-abroad and years of exposure was not attested across all three measures. These results concur with those of previous studies on the effect of (current) study-abroad experience, which showed advantages in favor of vocabulary growth (e.g., Collentine, 2004; Llanes, 2010) and general L2 proficiency (e.g., Segalowitz *et al*., 2004). Muñoz (2011) also found that length of stay-abroad benefitted general proficiency and vocabulary. The results on morphosyntax in previous studies are already mixed. The present findings concur more with those of DeKeyser (1991), who did not find substantial gains in the area of grammar.

To answer the second question relating to morphosyntax, mixed-effects modelling was performed with the fixed factors of country of first exposure, age on first exposure and years of exposure, and the random factors including items and L2ers. The results showed that studying abroad during childhood did not grant L2ers any long-term benefits with their morphosyntactic knowledge; the study-abroad and domestic study groups performed statistically the same. Rather, years of exposure

emerged as the best predictor of L2 task performance. Years of exposure interacted significantly with the L2ers' ability to distinguish grammatical and ungrammatical conditions. As years of exposure increased, L2ers managed to show a sharper distinction between grammatical and ungrammatical sentences. This result suggests that the context of first exposure does not make a difference in L2ers' morphosyntactic gain.

Turning now to discuss the contribution of age at first exposure in a study-abroad context compared with a domestic L2 classroom, and the extent to which age at first exposure could potentially predict L2 performance in the long run. From the set of experiential factors assessed in this study, age at first exposure did not show any significant effect either as a main factor or even as an interacting factor with country of first exposure (ESC vs SA). This finding is unexpected given that a large number of age-related studies have shown that age at first exposure interacts with the context of exposure. Previous studies have shown that 'the younger the better' holds good in a naturalistic setting (e.g., Johnson & Newport, 1989, 1991; Patkowski, 1980), whereas 'the older the better' has been found to be true in an instructed setting (e.g., García-Mayo & Lecumberri, 2003; Muñoz, 2006b; Pfenninger & Singleton, 2017). It was therefore concluded that age is an important factor in a naturalistic setting but not in an instructed setting. However, the current study did not manage to provide any supporting evidence for such an interaction with study-

abroad experience. One possible explanation for this is that the study-abroad group forgot English and therefore did not show any advantages compared with the domestic study group in SA. Although this is a possibility, the fact should not be overlooked that the L2ers of the study sample were active bilinguals in L1 and L2. Therefore, the possibility to have forgotten English is not very convincing. According to their performance in the OPT, their proficiency in English fell in the range of intermediate to high. Before any conclusions can be drawn, future research should compare the short-term and long-term effects of study-abroad experience. This comparison is crucial for validating whether L2ers could have forgotten English after they had returned to their home country. Another possible explanation for the lack of age effects among the study-abroad group might be related to whether the context of exposure was current or prior. Hence, any beneficial gains from prior exposure could be lost in the long run. At the time of testing, the study-abroad group were in a foreign language setting. Therefore, the most recent input which they had was not naturalistic and intense compared with what would be expected in an ESC. The distinction between current and prior exposure here echoes a similar asymmetry in the effect of recent and prior hours of exposure found in previous research. It was found that recent hours of exposure at college level had more effect than prior hours of classroom exposure (Al-Thubaiti, 2014; Muñoz, 2011). If this explanation holds true, then study-abroad during childhood does not produce

long-term effects. It could also be argued that study-abroad is possibly less effective than living in a naturalistic setting. Although study-abroad experience offers an opportunity of exposure to natural language inside and outside the classroom, it still does not offer the same level of exposure as living abroad, as in the situation of immigrants. This difference requires an investigation of the L2ers' affective factors, such as attitude and motivation. These could be potential contributing factors which the current study did not consider.

Overall, the results have shown a strong interaction effect between years of exposure and prior study-abroad experience in predicting general L2 proficiency and vocabulary size, but not morphosyntactic knowledge. On the other hand, years of exposure stood out as the most powerful predictor of the L2ers' ability to distinguish grammatical from ungrammatical conditions. With a minimum of eight years of exposure, the L2ers in this study managed to show improvements in their general L2 proficiency, vocabulary size, and ability to distinguish between grammatical and ungrammatical conditions. This length of exposure is not far from what was found in previous research. According to Muñoz's (2011) review of the literature, a minimum of ten years or even longer is required to show a positive effect in the long run. On the other hand, a length of three to five years of exposure was not shown to have a significant effect on morphosyntax (see Johnson & Newport, 1989).

Conclusion:

In conclusion, this study has shown that the length of exposure to a foreign language is far more important than when or where it has been learned and that a minimum of eight years is capable of showing improvement in the long run. However, the benefits of study-abroad should not be completely overlooked because it has been shown that it positively interacts with increased years of exposure. From a practical perspective, we have seen how this interaction is reflected positively in the higher L2 proficiency and vocabulary growth of the L2ers. Further research is needed to verify the outcome of this study especially to compare the short-term and long-terms effects of study-abroad.

References:

- Al-Thubaiti, K. A. (2010). *Age effects in a minimal input setting on the acquisition of English morpho-syntactic and semantic properties by L1 speakers of Arabic.* (Unpublished PhD dissertation), Department of Language and Linguisitics, University of Essex, UK.
- Al-Thubaiti, K. A. (2014). Age of L2 learning makes no difference in instructed settings: Input matters most. In K. M. Bailey & R. M. Damerow (eds), *Teaching and Learning English in the Arabic-Speaking World* (pp. 162-177). New York: Taylor & Francis/Routledge.
- Baayen, R. H. (2008). *Analyzing linguistics data: a practical introduction to statistics*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Bates, D., Mächler, M., Bolker, B., & Walker, S. (2015). Fitting linear mixed-effects models using lme4. *Journal of Statistical Software, 67*(1), 1-48.
- Bialystok, E., & Miller, B. (1999). The problem of age in second-language acquisition: Influences from language, structure, and task. *Bilingualism: Language and Cognition, 2*(2), 127-145.
- Birdsong, D., & Molis, M. (2001). On the evidence for maturational constraints in second-language acquisition. *Journal of Memory and Language, 44*(2), 235-249.
- Breheny, P., & Burchett, W. (2017). Visualization of regression models using visreg. *The R Journal, 9*(2), 56-71.
- Collentine, J. (2004). The effects of learning contexts on morphosyntactic and lexical development. *Studies in Second Language Acquisition, 26*(2), 227-248.

- Collentine, J. (2009). Study abroad research: Findings, implications, and future directions. In M. H. Long & C. J. Doughty (eds), *The handbook of language teaching* (pp. 218–233). Oxford: Wiley-Blackwell.
- Cunnings, I., & Finlayson, I. (2015). Mixed effects modeling and longitudinal data analysis. In L. Plonsky (ed.), *Advancing quantitative methods in second language research* (pp. 159-181). New York: Routledge.
- DeKeyser, R. M. (1991). Foreign language development during a semester abroad. In B. Freed (ed.), *Foreign language acquisition research and the classroom* (Vol. 104119). MA: D. C. Heath: Lexington.
- DeKeyser, R. M. (2000). The robustness of critical period effects in second language acquisition. *Studies in Second Language Acquisition, 22*(4), 499-533.
- DeKeyser, R. M. (2003). Implicit and explicit learning. In C. J. Doughty & M. H. Long (eds), *The handbook of second language acquisition* (pp. 313-348). Malden, Mass.: Blackwell.
- DeKeyser, R. M. (2013). Age effects in second language learning: Stepping stones toward better understanding. *Language Learning, 63*, 52-67.
- García-Mayo, M. d. P., & Lecumberri, M. L. G. a. (eds). (2003). *Age and the acquisition of English as a foreign language*. Clevedon: Multilingual Matters
- Howard, M. (2006). The expression of number and person through verb morphology in advanced French interlanguage. *IRAL–International Review of Applied Linguistics in Language Teaching, 44*(1), 1-22.

- Johnson, J. S., & Newport, E. L. (1989). Critical period effects in second language learning: the influence of maturational state on the acquisition of English as a second language. *Cognitive Psychology, 21*(1), 60-99.
- Johnson, J. S., & Newport, E. L. (1991). Critical period effects on universal properties of language: the status of subjacency in the acquisition of a second language. *Cognition, 39*(3), 215-258.
- Larson-Hall, J. (2008). Weighing the benefits of studying a foreign language at a younger starting age in a minimal input situation. *Second Language Research, 24*(1), 35-63.
- Levshina, N. (2015). *How to do linguistics with R: Data exploration and statistical analysis*. Amsterdam: John Benjamins Publishing Company.
- Llanes, À. (2010). *Children and adults learning English in a study abroad context.* (Unpublished PhD dissertation), University of Barcelona.
- Llanes, À. (2011). The many faces of study abroad: an update on the research on L2 gains emerged during a study abroad experience. *International Journal of Multilingualism, 8*(3), 189-215.
- Llanes, À., & Muñoz, C. (2009). A short stay abroad: Does it make a difference? *System, 37*(3), 353-365.
- Llanes, À., & Muñoz, C. (2013). Age effects in a study abroad context: Children and adults studying abroad and at home. *Language Learning, 63*(1), 63-90.
- Muñoz, C. (2006a). The effects of age on foreign language learning: The BAF project. In C. Muñoz (ed.), *Age and the rate of foreign language learning* (pp. 1-40). Clevedon: Multilingual Matters.

- Muñoz, C. (2008). Symmetries and asymmetries of age effects in naturalistic and instructed L2 Learning. *Applied Linguistics, 29*(4), 578-596.
- Muñoz, C. (2011). Input and long-term effects of starting age in foreign language learning. *IRAL-International Review of Applied Linguistics in Language Teaching, 49*(2), 113-133.
- Muñoz, C. (ed.) (2006b). *Age and the rate of foreign language learning*. Clevedon: Multilingual Matters.
- Muñoz, C., & Singleton, D. (2011). A critical review of age-related research on L2 ultimate attainment. *Language Teaching, 44*(01), 1-35.
- Nation, I. S. P. (1990). *Teaching and learning vocabulary*. Boston, MA: Heinle and Heinle.
- Nation, I. S. P. (2001). *Learning vocabulary in another language*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Nishikawa, T. (2014). Nonnativeness in near-native child L2 starters of Japanese: Age and the acquisition of relative clauses. *Applied Linguistics, 35*(4), 504-529.
- Oxford University Press, University of Cambridge, & Association of Language Testers in Europe. (2001). *Quick placement test: Paper and pen test*. Oxford: Oxford University Press.
- Patkowski, M. (1980). The sensitive period for the acquisition of syntax in a second language. *Language Learning, 30*(2), 449-472.
- Pfenninger, S. E. (2014). The misunderstood variable: Age effects as a function of type of instruction. *Studies in Second Language Learning and Teaching, 4*(3), 529-556.
- Pfenninger, S. E., & Singleton, D. (2017). *Beyond age effects in instructional L2 learning: Revisiting the age factor*. Bristol: Multilingual Matters.

- R Core Team. (2018). *R: A Language and Environment for Statistical Computing*. Vienna, Austria: R Foundation for Statistical Computing. Retrieved from: https://www.R-project.org/
- Schmitt, N. (2010). *Researching vocabulary: A vocabulary research manual*. UK: Palgrave Macillan.
- Schmitt, N., Schmitt, D., & Clapham, C. (2001). Developing and exploring the behaviour of two new versions of the Vocabulary Levels Test. *Language testing, 18*(1), 55-88.
- Schütze, C., & Sprouse, J. (2013). Judgment data. In R. Podesva & D. Sharma (eds), *Research methods in linguistics* (pp. 27-50). Cambridge: Cambridge University Press.
- Segalowitz, N., Freed, B., Collentine, J., Lafford, B., Lazar, N., & Díaz-Campos, M. (2004). A comparison of Spanish second language acquisition in two different learning contexts: Study abroad and the domestic classroom. *Frontiers: The interdisciplinary journal of study abroad, 10*, 1-18.
- Segalowitz, N., & Freed, B. F. (2004). Context, contact, and cognition in oral fluency acquisition: Learning Spanish in at home and study abroad contexts. *Studies in Second Language Acquisition, 26*(2), 173-199.
- White, L. (2003). *Second language acquisition and universal grammar*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Yeni-Komshian, G. H., Flege, J. E., & Liu, S. (2000). Pronunciation proficiency in the first and second languages of Korean–English bilinguals. *Bilingualism: Language and Cognition, 3*(02), 131-149.

Appendix:

Here are two examples of questions which appeared in the OPT.

Part 1: In this section you must choose the word which best fits each space in the text below. For questions **6** to **10**, mark one letter **A**, **B** or **C** on your Answer Sheet.

Scotland

Scotland is the north part of the island of Great Britain. The Atlantic Ocean is on the west and the North Sea on the east. Some people **(6)** …………… Scotland speak a different language called Gaelic. There are **(7)** ………… five million people in Scotland, and Edinburgh is **(8)** ………… most famous city.

Scotland has many mountains; the highest one is called 'Ben Nevis'. In the south of Scotland, there are a lot of sheep. A long time ago, there **(9)** …………. many forests, but now there are only a **(10)** …………….

Scotland is only a small country, but it is quite beautiful.

6	**A** on	**B** in	**C** at
7	**A** about	**B** between	**C** among
8	**A** his	**B** your	**C** its
9	**A** is	**B** were	**C** was
10	**A** few	**B** little	**C** lot

Part 2: In this section you must choose the word which best fits each space in the text below. For questions **41** to **50**, mark one letter **A**, **B**, **C** or **D** on your Answer Sheet.

The tallest buildings – SKYSCRAPERS

Nowadays, skyscrapers can be found in most major cities of the world. A building which was many **(41)**………… high was first called a skyscraper in the United States at the end of the 19th century, and New York has perhaps the **(42)**………… skyscraper of them all, the Empire State Building. The **(43)**…………….. beneath the streets of New York is rock, **(44)** …………….. enough to take the heaviest load without sinking and is therefore well-suited to bearing the **(45)**…………. of tall buildings.

41	**A** stages	**B** steps	**C** storeys	**D** levels
42	**A** first-rate	**B** top-class	**C** well-built	**D** best-known
43	**A** dirt	**B** field	**C** ground	**D** soil
44	**A** hard	**B** stiff	**C** forceful	**D** powerful
45	**A** weight	**B** height	**C** size	**D** scale

Here are examples of the grammatical and ungrammatical test items which appeared in the GJT

Grammatical

1. The women loudly shouted across the street.

2. Susan has retired from teaching, and Wendy has too.

3. The judge is not easy to persuade on such matters.

Ungrammatical

1. *The postman had delivered always the parcels.

2. *John is happy, and Mary will soon.

3. *The manager is useful to know him sometimes.

Umm Al-Qura University

Journal of Languages and Literature

Aims and Scope

The journal is a referred academic periodical, issued biannually by Umm Al-Qura University. It aims at publishing original academic research papers in the fields of languages & Literature. In addition, it accepts book reviews, funded research reports, recommendations of conferences, symposia and academic activities and dissertation abstracts. Researches in both Arabic and English from Umm Al-Qura University and elsewhere are accepted, on condition that they have not been published or being presented to be published in another publication. All researches are to be reviewed by the editors and referred by specialists in related fields.

Board of General Supervision

Prof. Abdullah bin Omar Bafail

Chancellor, Umm Al-Qura University

Dr. Thamir Hmdan Al-Harbi

Vice-Rector for Graduate Studies and Academic Research

Editor in Chief

Prof. Abdulrahman bin Hassan Al-aref

Editorial Board

Prof. Abdullah Sirhan Algarni

Prof. Dhafer Ghorman Alamri

Prof. Yaaseen M Abu-alhayjaa

Dr. Abdulmajeed Attaib Umar

Dr. Saadah Tafif Al dadi

In The Name of Allah

The Most Gracious The Most Beneficent

Publishing Rules

The works accepted for publishing in Umm Al-Qura Journal for Language Sciences and Literature are in accordance with the following specifications:

A. The author submits the scientific material on the magazine's website, and fills out the publication form.

B. The research is printed on Microsoft Word in Traditional Arabic font size 16 with two spaces, on one side of the paper. The research should be no more than 50 pages, including references, annexes, and tables.

C. Research pages are numbered sequentially, including tables, shapes, and references. Tables, images, shapes, and pictures are printed on separate pages, while specifying where they appear in the body text.

D. Two abstracts in Arabic and English, attached to all papers. Must not exceed 200 words.

E. All references, comments and margins are referred to at the end of the research. When quoting directly, the title of the book, the author's name, and the specific page are all referred to. These referrals, comments, and margins are sequentially arranged from the beginning of the research to the end, and are written in an automatic rather than manual manner.

F. The sources and references are presented at the end of the research. They must be sorted alphabetically by the full name of the author, followed by the title of the book or article, then the edition number, then the name of the publisher (if it is a book book), and the name of the magazine (if it is an article). In the case of an article, the magazine number or the year of its publishing is added, in addition to the issue number, and page numbers.

G. The researcher is provided with five copies of the issue in which his research was published.

Copyrights: The materials submitted for publishing reflect the opinions of their authors. The authors are deemed responsible for the soundness and accuracy of the information and conclusions in the research. All copyrights are reserved to the publisher (UQU). Once the the research is accepted for publishing, ownership of the publication is transferred from the author to the magazine.

Invitation to publish: The Journal welcomes all researchers in the scientific and research fields it is concerned with. It invites them to make a distinctive contribution to the production of linguistic and literary knowledge in all its forms and trends as well as develop linguistic and literary research in line with the objectives of the university and its mission and vision, and with the ambitions of the members of the supervisory board, the editorial board, and the advisory body.

Contacting the journal: All works and inquiries should be sent directly to the editor of Umm Al-Qura Journal for Language Sciences and Literature at (jll@uqu.edu.sa) Or to the management of the University's Journal at (usj@uqu.edu.sa)

Subscriptions: Coordination of subscriptions is done with the Management of Scientific Journals at the University.

ISSN: 1658 - 4694 (print)
ISSN: 1658 - 8126 (online)

Umm Al-Qura University

Journal of Languages and Literature

Volume No. 23

Rajab 1440 Ah - March 2019

جامعة أم القرى - مجلة علوم اللغات و آدابها

VISION رؤيـــة 2030
المملكة العربية السعودية
KINGDOM OF SAUDI ARABIA

UMM Al-QURA UNIVERSITY

Journal of Language Sciences and Literature

A Biannual Refereed Scientific Journal

No. (23)

Rajab 1440 H
March 2019 AD

p-ISSN: 1658- 4694
e-ISSN:1658- 8126

Umm Al- Qura University Journal of Sciences & Literature

English research

- The long-term effects of study-abroad experience during childhood on English proficiency.

D. Kholoud A. Al-Thubaiti

تصميم و إخراج
مطبعة جامعة أم القرى